جلال الدين السيوطي

وأثره

في الدراسات اللغوية

تأليف
الدكتور عبد العال سالم مكرم
أستاذ النحو العربي
بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة

جلال الدين السيوطي

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

إسهام مصر
في الحركة الفكرية والنحوية واللغوية
منذ الفتح الإسلامي إلى عصر السّيوطي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

التمهيد

إسهام مصر في الحركة الفكرية والنحوية واللغوية منذ الفتح الإسلامي إلى عصر السيوطي

(١)

لا شكّ أن الحركة اللغوية والنحويّة مرتبطة تمام الارتباط بالحركة الدينية التي نعني بها الدراسات الإسلامية المتمثّلة في العقيدة والتفسير والحديث. . . إلخ.

وقد وضع ابن خلدون الأمر في نصابه حينما تحدّث عن العلاقة الوطيدة بين هاتين الحركتين، فقال: «وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلّف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه، وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنّة. . . فلا بدّ من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أوّلاً، وهذا هو علم التفسير.

ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله سبحانه، واختلاف روايات القرّاء في قراءته، وهذا هو علم القراءات.

ثم بإسناد السنّة إلى صاحبها، والكلام في الرّواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم، وعدالتهم، ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث.

ثم لا بدّ في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجْهٍ قانوني يفيد العلم بكيفيّة هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه.

وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين، وهذا هو الفقه...».

ثم قال ابن خلدون مذيّلاً على هذه العلوم النقليّة: «ثم النظر في القرآن والحديث لا بدّ أن تتقدّمه العلوم اللّسانيّة، لأنه متوقف عليها، وهي أصناف، فمنها علم اللغة وعلم النحو»[1].

وفي إبّان الفتح الإسلامي لمصر حدثت حركة فكرية، لأن جيش عمرو بن العاص كان يضم بين رجاله مجموعة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أخذوا عنه، وجلسوا إليه، وعلى رأس هذه المجموعة: عبد الله بن عمرو. ومنزلة عبد الله بن عمرو في فقه الدعوة الإسلامية منزلة كبيرة أشار إليها كبار الصحابة والتابعين.

فمن الصحابة أبو هريرة حينما تحدّث عنه، فقال:

«ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منّي إلّا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنّه كان يكتب»[2].

ومن التابعين مجاهد حينما قال: «رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها، فقال: هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد»[3].

---

(١) المقدّمة، لابن خلدون: ٤٣٥، ٤٣٦، طبعة مصطفى محمد.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ١١٢/٤.

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ١٨٩/٧ (القسم الثاني)، ليدن.

لهذا لا نعجب إذا قلنا: إن عبد الله بن عمرو كانت له قدم راسخة في نشر الثقافة الدينيّة بمصر، وحذا حذوه بعض الفاتحين من رجالات الدعوة أو بعض الوافدين من الصحابة والتابعين.

وقد أحسّ بأثر هذه الحركة الفكرية التي انتشرت بفضل عبد الله بن عمرو ومدرسته المؤرّخ المقريزيّ، فقال:

«إن أهل الكوفة كانوا يتبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإنّ أهل المدينة كانوا يتّبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر، وإنّ أهل مصر كانوا يتّبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما»[1].

وقد اعترف بهذه الحركة الفكريّة أيضاً المؤرّخ المعاصر المرحوم الأستاذ أحمد أمين حينما ذكر في كتابه «فجر الإسلام» أنّ الكثير من أبناء مصر كانوا يجلسون في حلقة عبد الله بن عمرو، وأفادوا منه إفادة كاملة، بل كانوا، كما يقول أحمد أمين: «يكتبون عنه ما يحدّث»[2].

ولم يلبث هؤلاء المصريون الذين كانوا تلاميذ في مدرسة عبد الله بن عمرو أن أصبحوا معلّمين، يلقون العالم على تلاميذهم الذين كانوا بمثابة بُناة للحركة الفكريّة المصرية فيما بعد.

ومما يؤيّد ما نقول: «أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفُتْيا في مصر إلى ثلاثة رجال: رجلين من الموالي، ورجل من العرب، فأمّا العربيّ فجعفر بن ربيعة، وأمّا المولیان، فيزيد بن أبي حبيب، وعبد الله بن أبي جعفر.

---

(١) الخطط، للمقريزي: ٢/٣٣٢.

(٢) فجر الإسلام: ٢٣٤، الطبعة السادسة.

وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك، فقال عمر: ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون»[1].

(٢)

وكان جامع عمرو بمثابة مركز ثقافيّ للدراسات الإسلامية في هذا العهد بدأت الدراسة فيه سنة ٣٨هـ[2]، وتمثّلت هذه الدراسة بادىء الأمر في تعليم الناس العقائد، وبعض القصص الدينية والتربوية من القرآن والتاريخ.

ولقد اتّسع نطاق التعليم في هذا المسجد شيئاً فشيئاً، وظلّ يؤدّي رسالة العلم والمعرفة خلال العصور المتعاقبة حتى بلغت حلقاته بضعاً وأربعين حلقة في سنة ٧٤٩هـ[3].

ولا شكّ أنّ الدراسات الدينية كالفقه والتفسير والحديث تسير جنباً إلى جنب مع الدراسات اللغوية والنحوية في جامع عمرو، كما أشرت إلى ذلك سابقاً.

(٣)

وكان لبيئتي البصرة والكوفة في العراق أثر كبير في تطوّر الدراسات النحوية واللغويّة.

ولهذا بدأت الرحلات العلميّة تتوالى على هاتين المدينتين، وذلك في القرن الثاني الهجري، لأن العلوم النحوية واللغويّة تميّزت بالاستقلالية في هذا القرن.. أما في القرن الأول فكانت الدراسات الشرعية واللغوية والنحوية مختلطة بعضها ببعض.

---

(١) مصر في فجر الإسلام: ٣١٧، للدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف.
(٢) الخطط، للمقريزي: ٢/٢٥٤.
(٣) المرجع نفسه: ٢٥٦.

يقول الأستاذ أحمد أمين:

«إن علماء النحو كانوا علماء لغة وأدب، لأن هذه الفروع لم تنفصل وتتحدّد، ويتميّز كل عالم بعلْم منها إلاّ بعد العصر الأوّل»[1].

وأوّل رحلة علمية تتّجه إلى مدينة البصرة هي الرحلة أو البعثة الممثّلة في شخص الوليد بن محمد التميمي المصادريّ المشهور بولاّد.

ويقول المؤرخون: إنه قبل أن يذهب إلى البصرة اتّجه إلى المدينة؛ ليتلقّى عن شيوخها العلوم اللغوية، ولكن خاب أمله، لأن المدينة لم يكن بها أحد من الحذّاق بالعربيّة.

يقول محمد بن الحسين الزبيدي:

«حدّثني محمد بن يحيى النحوي، قال: بلغني أنّ ولاّداً كان يأخذ النحو عن رجل من أهل مدينة النبيّ عليه السلام، ولم يكن المدنيّ من الحُذّاق بالعربيّة، فسمع ولاّد بالخليل بن أحمد، فرحل إليه فلقيه بالبصرة، وسمع منه، ولازمه، ثم انصرف إلى مصر، وجعل طريقه على المدينة، فلقي معلّمه، فناظره، فلمّا رأى المدنيّ تدقيق ولاّد للمعاني في النحو، قال: لقد ثقبت بعدنا الخردل»[2].

«وبرجوع ولاّد إلى مصر بعد هذه الرحلة الموفّقة ظهرت أوّل مدرسة لغويّة ونحويّة مصريّة، على يده، وشاعت دراسة اللغة والنحو في مصر بفضله.

ومن الحقّ أن نقول: إن الوليد لم يكن وحده في هذا الميدان، بل كان معه معاصران قويّان، يعدّان من طبقته، وهما: أبو الحسن الأعزّ الذي أخذ

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/٢٧٧، طبعة ثانية.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي: ٢٣٣، طبعة أولى.

علمه عن مؤسس المدرسة الكوفيّة عليّ بن حمزة الكسائي، فقد رحل إليه أبو الحسن الأعزّ في الكوفة كما رحل الوليد إلى الخليل في البصرة»[1].

والمعاصر الآخر هو محمود بن حسّان الذي قال عنه ابن يونس في تاريخ مصر: «كان نحوياً مجوّداً»[2].

والذي أحبّ أن أسجّله هنا أنّ كتاب سيبويه كان المعلّم الأول لكل النُحاة بصريين أو كوفيين أو بغداديين، فجميعهم شربوا من نبعه، واستمدّوا النحو من معينه، وبفضل هؤلاء العلماء انتشرت الدراسات اللغوية والنحوية في مصر، وأقبل الطلّاب على دراسته والتعمّق فيه.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا كان الوليد أخذ عن الخليل وهو مصريّ، وأبو الحسن الأعزّ أخذ عن الكسائي وهو كوفيّ، فهل انتشر المذهبان في مصر، وتسرّبت المسائل الخلافية في النحو المصريّ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إنّ المذهب البصريّ كان له في مصر أنصار وأتباع، لأنه جُمِع في كتاب كثُر تداوله، وسهل حفظه، وهو كتاب سيبويه، على حين أنّ المذهب الكوفي لم يكن له كتاب يعتمد عليه، وإنما هي مسائل تتناقلها الشفاه، وتردّدها الألسنة، لتزيد عليها أو تنقص منها، ولا أدلّ على ذلك من أن أبا علي أحمد بن جعفر أحد النحاة المصريين الذين خلفوا ولّاداً حاول أن يؤلّف كتاباً في النحو ليحصر فيه الخلاف بين البصريين والكوفيين، ويعزو كل مسألة إلى صاحبها، وسمّي كتابه: «المهذّب»، إلّا أنه لمّا أمعن في الكتاب ترك الاختلاف، ونقل مذهب البصريين[3].

---

(١) المرجع السابق والصفحة، وانظر المدرسة النحوية في مصر والشام، للباحث.

(٢) بغية الوعاة: ٣٨٧، طبعة أولى.

(٣) طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي: ٢٣٤، طبعة أولى؛ والمدرسة النحوية في مصر والشام: ١٦.

وإذا عرفنا أن أبا عليّ هذا ختن ثعلب إمام مدرسة الكوفة، عرفنا أنه لهذه الصلة أولى الناس بالدّفاع عنه، والتعصّب لمذهبه، بيد أنّ الحق لا يعرف أقرباء وأصهاراً، فكان يقرأ على إمام مدرسة البصرة المبرّد، على حين يهمل ختنه، وكان يلقى عتاباً مرًّا من ثعلب[1].

لهذا الذي قدّمت أستطيع أن أقول: إن النحو الكوفيّ لم يجد الطريق مفتوحاً أمامه إلى مصر.

أما أبو الحسن الأعزّ الذي تحدّثت عنه سابقاً بأنه مصري وَفَد إلى الكسائي وأخذ النحو عنه، فإن الرواة لم يذكروا أنه كان متعصّباً للكوفيّين أو أن له تلاميذ وأتباعاً يتلقّون عنه النحو في مصر، اللهم إلاّ جماعة من الأندلس لقيهم، وحملوا عنه.

قال الزّبيدي في طبقاته:

«ولقيه قوم من أهل الأندلس، وحملوا عنه سنة سبع وعشرين ومائتين»[2].

وبهذه الجُمَل القصار تحدّث عنه الزّبيدي مما يدلّ على أن الرجل ليس له شأن كبير في مجال الدراسات النحوية في مصر، ويدلّ أيضاً دلالة واضحة على أن النحو البصري بسط سلطانه على النحاة المصريين، فعملوا على نشره، واجتهدوا في تعليمه وبحثوا في قضاياه، لأن المذهب البصري المتمثّل في كتاب سيبويه كتبت له الحياة، وازدهرت بسببه الدراسات النحوية واللغوية إلى يومنا هذا.

---

(١) انظر المدرسة النحوية في مصر والشام: ١٧.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ٢٣٣، طبعة أولى.

ولو ألقينا نظرة على النحاة المصريين من رجال الطبقة الثانية والثالثة لوجدنا أنّ كتاب سيبويه هو المعلم الأول لهم، شربوا من معينه، وارتووا من نبعه. . فأبو عليّ أحمد بن جعفر الدّينوريّ قرأ على أبي العباس المبرّد كتاب سيبويه:

«وكان يخرج من منزل ختنه ثعلب، فيتخطّى أصحابه، ويمضي ومعه محبرته ودفتره ليقرأ كتاب سيبويه على المبرّد»[1].

وكان ذلك في مدينة بغداد حينما التقى فيها إماما المذهبين، وكان أبو عليّ قد أخذ قبل ذلك هذا الكتاب عن المازنيّ في البصرة[2].

وأبو الحسين محمد بن الوليد بن ولّاد لم يكتفِ بما أخذ من علماء عصره كأبي عليّ أحمد بن جعفر، ومحمود بن حسّان وغيرهما، فرحل إلى أساتذة هذا الفنّ في العراق، ولقي المبرّد وثعلب، وأقام ثمانية أعوام يدرس كتاب سيبويه على المبرّد[3].

ولحرص المصريين على كتاب سيبويه أراد: «أبو الحسين محمد بن الوليد أن ينقل نسخة الكتاب من المبرّد، وكان المبرّد يضنّ بها ضنًّا شديداً فكلّم ابنه على أن يجعل له في كل كتاب منه جُعْلاً قَدْ سَمَّاه فأجابه إلى ذلك فأكمل نسخه»[4].

وحينما التقى المذهبان على يد علماء بغداد لم يكفّ علماء مصر عن الرحلة إلى بغداد والتزوّد من علمها، والأخذ عن رجالها.

---

(١) بغية الوعاة: ٢٣٦، طبعة أولى؛ وطبقات النحويين واللغويين: ٢٣٣.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

ويحقّ لنا في هذا المقام أن نشير إلى رجلين كان لهما أثر كبير في الدراسات النحويّة واللغويّة في مصر، وهما: أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الوليد، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، المعروف بالنحّاس، فقد وفد كلاهما إلى بغداد، وأخذا عن أبي إسحاق الزجّاج.

وقد كان الزجّاج يفضّل أبا العباس بن ولّاد، ويقدّمه على أبي جعفر النحّاس.

يقول السيوطي في «البغية»: «كان يثني عليه عند كل من قدم من مصر إلى بغداد، ويقول لهم: لي عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا، فيقال له: أبو جعفر النحّاس؟ فيقول: بل أبو العبّاس بن ولّاد»[1].

وقال المبرّد عن ابن ولّاد: «إنه شيخ الدّيار المصرية في العربية»[2].

والباحث لا يدري: ما الميزان الذي فضل به النحويّان الكبيران أبا العباس بن ولّاد على أبي جعفر النحّاس.

إن كان ميزان التأليف والإنتاج العلمي، والاستيعاب اللغوي والنحوي فإننا نجد أن أبا جعفر النحاس أكثر غزارة في الإنتاج والاستيعاب، فله من الكتب كتاب: «معاني القرآن»، وكتاب: «إعراب القرآن»، وكتاب: «المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين»، وكتب أخرى في ناسخ القرآن ومنسوخه، وكتاب في أخبار الشعراء.

وأمّا أبو العباس بن ولّاد فأشهر كتبه: «المقصور والممدود»، وكتاب: «الانتصار» لسيبويه.

---

(١) بغية الوعاة: ٢٣٦.

(٢) ظهر الإسلام: ١٦٩/١، طبعة ثانية.

لعلّ الميزان في هذا التفضيل ــ والله أعلم ــ هو ميزان الأخلاق وحُسْن الطباع، فابن ولّاد اشتملت نفسه على جميل الطباع، وكريم الصفات، وحسن الأخلاق. . وهي صفات جعلت ميزانه ثقيلاً عند أساتذته العراقيين، على حين يحدّثنا الرواة أن أبا جعفر النحاس: «كان لئيم النفس، شديد التقتير على نفسه، وكان ربّما وهبت له العمامة، فيقطّعها على ثلاث عمائم، على حين كان أبو العباس رجلاً كامل العلم والأدب، حسن المروءة»[1].

على أية حال كانت، إننا لا ننكر أن للرجلين قدرهما العظيم في دعم الدراسات النحوية واللغوية في مصر، فلهما: «الفضل في اطّراد الدراسات النحوية واللغوية بمصر، وتلقّى العلم عليهما كثير من المصريين، ونشطت حركة التأليف»[2].

وقد قال عنهما المرحوم أحمد أمين: «كانا بعلمهما مصدراً لحركة لغويّة ونحوية في مصر، وتعلّم عليهما كثيرون»[3].

وليست الحركة النحوية في مصر وليدة الرحلات أو البعثات إلى العراق فحسب، بل إنّ كثيراً من كبار النحويين زاروا مصر، ونشروا علمهم فيها، وأحدثوا مع علمائها نهضة نحويّة عظيمة.

زارها: إبراهيم بن عبد الله أبو إسحاق البغدادي النحوي الذي صحب

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: ٢٤٠.

(٢) مصر في عصر الإخشيديين: ٣٢٦، للدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف.

(٣) ظهر الإسلام: ١/١٧٠، طبعة ثالثة.

أبا إسحاق الزجّاج ، وأخذ عنه، ورحل عن بغداد إلى مصر في أيام كافور الإخشيدي[1].

وزارها: إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي الهاشمي الحسينيّ الشريف أبو علي النحويّ. قال ياقوت: «له معرفة حسنة بالنحو واللغة والأدب. . . سافر إلى الشام ومصر، فأقام بها مدّة، ثم رجع إلى وطنه بالكوفة إلى أن مات في شوّال سنة ٤٦٦هـ»[2].

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أنّ محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي المصريّ الملقّب بسيبويه، كان معاصراً لابن ولّاد، ولأبي جعفر، وضمّ جهوده إلى جهودهما فأثمر النحو وأنبت نباتاً حسناً[3].

* * *

مما تقدّم نستطيع أن نقول: إن النهضة النحوية واللغويّة في مصر في هذه الفترة من التاريخ لفتت إليها الأنظار، فأقبل عليها طلّاب العلم من كل فجّ عميق ليرتشفوا من مناهلها العذبة، ثم يعودوا إلى بلادهم لينشروا ما تعلّموا منذ أن دخلت الدراسات اللغوية والنحويّة في مصر.

ففي حديثي عن أبي الحسن الأعزّ عرفنا أنه لقيه جماعة من الأندلس وحملوا عنه. وقد روى السّيوطيّ أن محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالإفشين القرطبيّ، رحل إلى المشرق، ولقي بمصر أبا جعفر الدينوري، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية[4].

---

(١) معجم الأدباء: ١٩٨/١.

(٢) البغية: ١٨٨، طبعة أولى.

(٣) المرجع نفسه: ١٠٨.

(٤) المرجع نفسه: ١٠٨.

وأبو العباس بن ولّاد هو أستاذ أبي عبد الله الرياحي الأندلسيّ[1].

* * *

وبعد، فمن هذا العرض نستنتج أنّ النحو في مصر انعكاس للنحو في البصرة والكوفة وبغداد، فقد أخذ ولّاد عن الخليل، وهُو بصريّ، وأبو الحسن الأعز عن الكسائي وهو كوفيّ. ثم اتجه النحويون في مصر بعد ذلك إلى بغداد، ولمّا عادوا صنعوا صنيعها في المزج بين مذهبي البصرة والكوفة محاكين في ذلك بغداد.

وقد كان لهذه الرحلات، رحلات علماء مصر إلى العراق، ورحلات علماء العراق إلى مصر أثر كبير في إيجاد نهضة نحويّة ولغوية.

(٤)

ولمّا فتح الفاطميون مصر كان جلّ اهتمامهم موجّهاً إلى العناية بالعلم ونشر الفكر، وذلك بإنشاء المعاهد، وبناء المدارس، وإقامة المكاتب.

يقول الدكتور منصور فهمي: «ولقد نهضت في مصر لعهد الفاطمية حركة علميّة قويّة انتعشت فيها مجامع الدرس على مثال ما كان في عهد العباسيّين[2]».

وهذه النهضة التي أثمرت في ميدان العلم والمعرفة جعلت القاهرة المعزّية تنافس بغداد في هذا المجال، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن بغداد نفسها قد هجرها الكثير من العلماء.

---

(١) أدب مصر الإسلامية: ٦٩، للأستاذ محمد كامل حسين.

(٢) مجلة المجمع اللغوي، المجلد الأول: ١٧٠، من مقال: تاريخ المجامع.

وقد شملت هذه النهضة كل طبقات المجتمع حتى الخلفاء وأبناؤهم لم يكونوا في معزل عنها؛ لأنهم فتحوا قصورهم للعلماء والمؤدبين.

والدراسات اللغوية لم تكن بمنأى عن هذه النهضة، بل كانت ركناً من أركانها، يدلّ على ذلك أن عليّ بن منصور بن طالب الحلبيّ، ويعرف: بابن القارح كان يؤدّب ولدَي القائد: حسين بن جوهر في زمن الحاكم بأمر الله، وكان ابن القارح هذا شيخاً من أهل الأدب، حافظاً للغة والشعر، عالماً بالنحو[1].

وكان علي بن جعفر المعروف بابن القطاع يعلّم ولد الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وزير المستنصر، وكان إمام وقته في علم العربية[2].

وإلى جانب هذه المعاهد، ودور التعليم أنشئت خزائنُ الكتب، وفتحت أبوابها لطلّاب العلم والمعرفة، وكانت تحتوي هذه الخزائن على كثير من أمهات الكتب النحوية واللغويّة.

يحدثنا المقريزي عن هذه الخزائن فيقول: «وذكر عند العزيز بالله كتاب: «العين» بن أحمد، فأمر خُزّان دفاتره، فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب: «العين» منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، وذكر عنده كتاب: «الجمهرة» لابن دريد، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منه[3].»

ولاهتمام الفاطميين بالنحو، وحرصهم على أن تلتزم قواعده في كل ما يصدر من الدولة من كتب، وتعاليم ورسائل، عيّنوا ابن بابشاذ النحويّ في ديوان

---

(١) معجم الأدباء: ١٥/٨٣، ٨٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٢/٢٧٩.
(٣) الخطط، للمقريزي: ١/٤٠٨.

الإنشاء ليقوم: «على وظيفة المراقبة النحويّة، وذلك براتب يتناوله كل شهر من الخزانة»[1].

وابن بابشاذ النحويّ، له المصنفات المفيدة، ومن أشهر مؤلفاته النحوية: المقدمة المشهورة[2]، وشرح الجمل للزَجاجيّ، وشرح كتاب الأصول لابن السرّاج.. واشتهر ابن بابشاذ بكتاب أطلق عليه: «الشّكّة»[3]، وموضوع هذا الكتاب النحو، وقد ألّفه في حال انقطاعه عن الناس في غرفة بجامع عمرو بن العاص، ولهذا قد سمّاها النحويون الذين جاءوا بعده، ووصلت إليهم: «تعليق الغرفة»، ويقال: إنها لو بيّضت قاربت خمسة عشر مجلّداً، مما يدلّ على أنها شكة كبيرة.

وانتقلت هذه التعليقة إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات السّعدي النحوي اللغوي المتصدّر موضعه، ثم انتقلت منه إلى صاحبه أبي محمد عبد الله بن برّي النّحويّ المتصدّر في مكانه، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبو الحسين النحويّ المنبوز[4]، «بثلط الفيل» المتصدّر في موضعه.

وقيل: إن كل واحد من هؤلاء كان يهبها لتلميذه، ويعهد إليه بحفظها. ولقد اجتهد جماعة من الطَلَبة في نسخها فلم يمكّنوا من ذلك، وانتفع الناس بعلمه وتصنيفه[5].

واختتم هذا العصر الفاطميّ بإمام كبير من أئمة النحو واللغة في مصر،

---

(١) وفيات الأعيان: ١٩٩/٢، تحقيق المرحوم الشيخ محمد محي الدين.

(٢) حققها زميلنا الدكتور خالد الهلالي، طبع المطبعة العصرية بالكويت.

(٣) الشكّة: يريد بها مسوّدة، وأصل الشكة والشكيكة: السلّة التي تكون فيها الفواكه.

(٤) المنبوز = الملقّب، والثلط: رقيق سَلْحه.

(٥) وفيات الأعيان: ١٩٩/٢.

وهـو العلاّمـة: ابن بَرّي، الـذي يعتبر من النحـويين الذين عـاشوا في أواخـر العصـر الفاطمي الـذي انتهـى بقيام الـدولة الأيـوبيّة على يـد الفتى الشجـاع صلاح الدين الأيّـوبـي سنة ٥٦٧هـ وأوائـل العصر الأيّـوبـي حيث كانت وفـاته سنة[1] ٥٨٢هـ.

وابن بَرّي اتفق المؤرخون على تاريـخ ولادته في سنة ٤٩٩هـ[2].

وقد وصفه أبو المحاسن في نجومه، فقال: «كان بـارعاً في علم النحـو والعربيّة، وكان حجّة ثقة»[3].

وتحدّث عنه القـاضي الأكرم في «أخبار النحاة»، فقال عنه: «لقـد شاع ذكره واشتهر أمره، ولم يكن في الدّيار المصريّة مثله»[4].

وقد عرف ابن بري مكانة جامـع عمـرو، وقدره، وأنـه المدرسـة الأولى التي أضـاءت لمن حولهـا منذ الفتـح الإسـلاميّ، فاختـاره ليكون مقـرّ دراسته للعلوم اللغـويّـة، فكـان التـلاميـذ يُقْبِلون عليـه، «لأنــه كـان متصــدّراً بهـذا المسجد»[5].

وعرف خلفاء الدولة الفاطمية لابن بَرّي قدره العلميّ، ووزنـه الفكريّ، فاستعانوا به في ديوان الإنشاء، فكان إليه التصفّح في هذا الديوان، فلا يصدر كتـاب عن الدولـة، إلى ملك من ملوك النواحي إلاّ بعـد أن يتصفّحه ويصلـح ما فيه من خَلَلٍ خفيّ[6].

---

(١) انظر: إنباه الرواة: ٢/١١١.
(٢) حسن المحاضرة، للسيوطي: ١/٢٢٨.
(٣) النجوم الزاهرة: ٦/١٠٣.
(٤) معجم الأدباء: ١٢/٥٦.
(٥) المرجع نفسه والصفحة.
(٦) إنباه الرواة: ٢/١١٠.

ومن أشهر تلاميذ ابن بَرّي في عصر بني أيّوب الملك الكامل الذي وصل إلى درجة كبيرة في النحو واللغة مما جعل ابن بَرّي يمنحه إجازة في هذا الفنّ[1].

ويضيف صاحب النجوم إلى ذلك أنّ الملك العزيز بمصر سمع النحو من العلاّمة محمد بن برّي[2].

ولا يفوتني قبل أن أختم الحديث عن ابن بَرّي وأثره في الحركة النحوية واللغوية في مصر، أن أشير إلى أن ابن بَرّي كان من أنبغ تلاميذه وأشهرهم أبو موسى الجزولي وشهرة الجزولي في النحو كان مصدرها كتاب: «المقدّمة»، الذي سمّاه: القانون، واشتهر فيما بعد بالجزوليّة.

«وقد أتى في هذه المقدّمة بالعجائب، وهي في غاية الإيجاز مع الاشتمال على كثير من النحو، لم يسبق إلى مثلها، وقد بلغ بالنحاة الذين لم يكونوا قد أخذوها عن موقّف، يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده فيها، فإنها كلها رموز وإشارات»[3].

ويبدو لي أنّ هذه المقدّمة إجابات نحويّة لابن بَرّي عن كثير من المشكلات النحويّة التي كان التلاميذ يوجّهونها إلى أستاذهم وهو يقرأ لهم كتاب سيبويه. «وقد نتجت فوائد جمّة من هذه المناقشات والمسائل النحويّة فنقلها الجُزوليّ مفردة، فجاءت كالمقدّمة فيها كلام غامض، وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة، فنقلها الناس عنه، واستفادوها منه»[5].

---

(١) النجوم الزاهرة: ٦/٢٧ .

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) وفيات الأعيان: ٢/١٢٠، طبع بولاق.

(٥) وفيات الأعيان: ٢/١٢٠، طبع بولاق.

واشتهرت هذه المقدمة، وتسابق العلماء على شرحها، وفهْم مراميها، وحلّ غامضها، وسمّيت بالجُزُوليّة نسبة إلى الجُزُوليّ.

ومع هذه الشهرة فإن الجُزُوليّ كان متديّناً ورعاً، فكان إذا سئل عنها: هل هي من صُنْعك، ومن تأليفك؟ يقول: لا، لأنه كان يعلم أنها من «خواطر الجماعة عند البحث، ومن كلام شيخه ابن بَرّي»[1].

(٥)

بعد سقوط الدولة الفاطميّة بوفاة العاضد الفاطميّ آخر خليفة من خلفاء هذه الدولة قامت الدولة الأيوبيّة في مصر على يد الفتى الشجاع صلاح الدين الأيوبيّ سنة ٥٦٧هـ.

وعلى الرغم من الفتن الداخلية والحروب الصليبيّة اتّجه صلاح الدين إلى العناية بالحركة الفكريّة، ونشر العلوم الدينية التي قوامها النحو واللغة، نقول ذلك، لأن العالم الدينيّ لا يمكنه أن يسير شوطاً بعيداً في علمه دون أن يكون له علم كبير باللغة والنحو، «وبسبب هذا لا نكاد نقرأ ترجمة لفقيه إلّا ويُقال لنا في هذه الترجمة: إنه درس النحو على فلان من العلماء، أو كان ممن يحفظون كتاب سيبويه، أو غيره من أكابر النّحاة»[2].

ولم ينسَ صلاح الدين أنّ دولته قامت على أنقاض دولة الفاطميين، والفاطميون كان لهم دور بارع في مضمار الحضارة والعلم، والثقافة والمعرفة: «فمصر في عهدهم نشطت فيها حركة علميّة قوية، وانتعشت فيها مجامع الدرس على مثال ما كان في عهد العباسيين»[3].

---

(١) المرجع السابق والصفحة.

(٢) الحركة الفكرية في مصر: ١٧٢، طبعة أولى.

(٣) انظر: مجلة المجمع اللغوي بمصر، المجلد الأول: ١٧٠.

وكما يقول سيِّد أمير علي: «كانوا كالبطالسة الأولين يشجّعون العلم، ويكرمون العلماء، ويشيدون الكلّيات، والمكاتب العامّة، ودار الحكمة، وحملوا إليها مجموعات عظيمة من الكتب في سائر العلوم والفنون»[1].

من أجل هذا لم ينسَ صلاح الدين أن يعمل على استمرار هذه الحركة الفكريّة وتشجيعها لتتفوق على حركة الفاطميين. ومن ثمّ أكثر من فتح المدارس التي زاد الإقبال عليها، وكانت أوّل مدرسة أُنشئت في مصر هي المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ[2].

ومن الحقّ أن نذكر أنّ ملوك الدّولة الأيوبيّة ـ وإن عملوا على نشر المعرفة، وفتح المدارس ـ لم يكونوا بمعزل عن هذه الحركة، «فالملك الكامل كان شجاعاً ذكيّاً، يحبّ العلم والأماثل، ويلقي عليهم المشكلات»[3].

وقد قلت فيما سبق أنّ الملك الكامل منحه ابن بَرّي إجازة في هذا الفن[4].

ومعنى هذه الإجازة أن هذا الملك وصل إلى درجة الإفتاء في النحو والتعمّقفي مسائله، والقدرة على حلّ مشكلاته.

يقول صاحب النجوم: «وكانت عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها، فمن أجابه حظي عنده»[5].

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدّن الإسلامي: ٥١٠.
(٢) النجوم الزاهرة: ٣٨٥/٥.
(٣) النجوم الزاهرة: ٢٢٧/٦.
(٤) المرجع السابق: ٢٢٨/٦.
(٥) المرجع السابق: ٢٣٧/٦.

ولا يفوتني أن أذكر أنه في العهد الأيّوبي كان الإقليمان مصر والشام في أكثر الأحوال تحت حكم واحد، وذلك لحكم موقعهما الجغرافي الذي يحتّم هذه الحقيقة. فالذين «يتأمّلون التاريخ المصري منذ عهد الفراعنة إلى اليوم يجدون أنّ مصر تصبح دولة قويّة ما دام الشام جزءاً منها، ولكنها تصبح ولا خطر لها من القوة متى ضاع هذا القطر من يدها.

نعرف هذا في مصر من عهد رمسيس الثاني في التاريخ القديم منذ العهدين الرّوماني واليونانيّ قبل الإسلام، ثم منذ الفتح العربي الذي انتبه فيه الحكّام انتباهاً شديداً إلى هذه الحقيقة»[1].

وفي هذه الفترة من التاريخ، قبل سقوط بغداد، كان العلماء يتنقّلون بين الإقليمين كلّما عنّ لهم أن يتنقّلوا، لأنه ليس هناك حواجز تحول بينهم وبين التنقّل، ويصعب علينا أن نقول: إن هذا العالم مصري أو شاميّ، لأنه عاش في كل من الإقليمين، اللهم إلاّ إذا حدّدنا هذا الانتساب بمكان الميلاد[2].

وكان من أبرز ملوك بني أيّوب في إقليم الشام الملك المعظّم عيسى، فقد لعب دوراً كبيراً في الدراسات النحوية واللغويّة في الشام كما لعب أخوه الملك الكامل هذا الدور في مصر، بل لا أبالغ إذا قلت: إن الملك المعظّم عيسى تفوّق على أخيه في هذا المضمار، فقد كان الملك المعظّم عيسى أديباً نحوياً يحب النحو واللغة، ويقدّر أهلهما كل التقدير، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الملك المعظّم عيسى قرأ كتاب سيبويه على التّاج الكنديّ، وألمّ

---

(١) الحركة الفكرية في مصر: ٥٥.

(٢) انظر صفحة ٣١ من المدرسة النحوية في مصر والشام، للباحث.

بشرحه الكبير للسّيرافي، وكتاب سيبويه في حقيقة أمره مدرسة قائمة بذاتها، فكل من فهم هذا الكتاب، وركب هذا البحر، ووقف على أسراره، وغاص إلى دُرَره، كان حريّاً به أن يتصدّر في النحو، وأن يكون علماً من أعلامه.

ومن حسناته التي خلّدها التاريخ أنه أنشأ مدرستين للتخصّص في الدراسات النحوية واللغوية، واحدة في القدس، والأخرى بدمشق، «ومدرسة القدس تقع على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب، بناها المعظّم عيسى سنة ٦٠٤هـ، وكان يدرّس فيها الكتاب لسيبويه»[١].

ويبيّن لنا أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أحمد بدوي فضل المعظّم عيسى في استقلالية الدراسات النحويّة بإنشاء هاتين المدرستين، فيقول: «ولم تخصص مدرسة لدراسة النحو إلاّ هاتين المدرستين، وكان معنى التخصّص في هذه المدارس أنّ المادة الأساسية فيها هي التي أنشئت المدرسة من أجلها، وليس ذلك بمانع من أن تدرس إلى جانبها موادّ أخرى»[٢].

(٦)

وأوّل مملوك تولّى الحكم في مصر بعد الأيّوبيين عز الدين أيبك التركماني وبتولّيه أسدل السّتار على الدولة الأيّوبيّة، وتولّى زمام الحكم في مصر المماليك، وعصر المماليك هو العصر الذي عاش في أخرياته السّيوطي، والذي انتهى بآخر ملوك دولة المماليك، وهو السلطان الأشرف طومان باي، الذي صلبه السلطان سليم الأول أوّل السلاطين العثمانيين في مصر سنة ٩٢٣هـ[٣].

---

(١) خطط الشام: ١١٩/٦، لمحمد كرد علي.
(٢) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية: ٤١.
(٣) شذرات الذهب: ١١٥/٨.

وكـان أول مملوك تولى الحكم في مصـر بعد الأيـوبيين عز الـدين أيبك التـركمـاني، الملقَّب بالملك المعـزّ سلطان مصـــر الـذي استقـلّ بـالسلطة سنة ٦٥٢هـ[١].

وفي عهـد المماليـك سقـطت بغـداد تحت أقـدام التتـار سنـة ٦٥٦هـ، فـأخمـدوا شعلتهـا، وبـدّدوا ثقـافتهـا، ورمـوا كتبها ونفـائسهـا في نهـر دجلة لتبتلعها الأمواج.

وفي أيّام تعدّ على رؤوس الأصابـع أصبحت بغداد خـراباً بلقعـاً وقاعـاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتىً.

وقد وصف الإمام أبو الفداء مآسي التتار التي حلّت ببغداد عند سقوطها تحت أقدام التّتار وصفاً ترتاع له النفوس، وتجب من أجله الأفئدة[٢].

وفي عهـد «قطز»، أحـد حكّام الممـاليك، اتّجـه «هولاكـو» إلى مدينـة حلب بالشام بعد أن استولى على بغداد.

وفي «عين جـالوت» دارت المعـارك بين المماليـك والتّتـار: «فحمـل الملك المظفر بنفسه على طائفة من عساكره، وهو يكرّ بهم كرّة حتى نصر الله الإسلام وأعزّه، وانكسـرت التتار، وولّت الأدبـار على أقبـح وجه بعـد أن قتل معظم أفيالهم»[٣].

وكان لهذا الانتصار أثر كبيـر في شَعْبَيْ الإقليمين، حيث فرح النـاس، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

---

(١) حسن المحاضرة، للسيوطي: ٢/٣٨.
(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٣/٢٠٢، ٢٠٣.
(٣) النجوم الزاهرة: ٧/٧٩.

هلك الكفرُ في الشآم جميعاً واستجدّ الإسلام بعد دحوضِهْ
بالمليك المظفّر الملك الأر وعِ سيفِ الإسلام عند نهوضِهْ

وقال الإمام أبو شامة:

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركيّ يجود بنفسِهْ
بالشّام أهلكهم وبدّد شملهم ولكل شيء آفة من جنسِهْ[1]

وفي عهد الظاهر بيبرس كان للمماليك جولات مع التتار تارة ومع الصليبيين تارة أخرى، وكان النصر حليف الظاهر بيبرس: «ففي سنة ٦٦١هـ ــ ١٢٦٢م حاصر بيبرس مدينة: «قيسارية» واستولى عليها، وفي سنة ٦٦٥هـ ــ ١٢٦٦م حاصر «صفد» فسلّمت له بعد أن منح أهلها الأمان، وفي نفس العام استولى على: «يافا» و«أنطاكية» و«طرابلس» »[2].

ولم ينسَ السّيوطي أن يسجّل في كتابه «حسن المحاضرة» أرجوزة الأديب جمال الدين المصري، المعروف بالجزّار الشاعر المشهور، ضمّنها أمراء مصر من عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر. وقد جاء فيها:

يا سائلي عن أُمراء مصرِ منذ حباها عمرٌ لعمرو
خذ من جوابي ما يزيل اللبسا واحفظه حفظ ذاكر لا يَنْسى

إلى أن يختمها بقوله:

ثم حواها الملك المظفّرُ وحظّه من نصره موفّرُ
ثم حوى الأمر المليك الظاهرُ لا زال للأعداء وهو قاهِرُ[1]

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/٣٩.
(٢) مصر في العصور الوسطى: ٣٢٠، ٣٢٢، طبعة خامسة.
(١) انظر: حسن المحاضرة: ٢/٤٠ ــ ٤٤.

وكان الظاهر بيبرس رجلًا ذا أُفق واسع، ونظر بعيد، فقد رأى أنّ كرسيّ الخلافة إذا انتقل إلى القاهرة يضفي على الخلافة قدسيّة دينيّة تضمن لها الاستقرار والاستمرار.

ولمّا علم أنّ أحد أبناء الخلفاء العبّاسيين قد وصل إلى دمشق أمر بسرعة قدومه إلى القاهرة. وفي القاهرة بويع هذا الإمام بالخلافة، ومن ولده: «كان جميع خلفاء مصر العباسيين إلى سنة ١٥١٧م حتى تخلّى الخليفة الأخير منهم عن الخلافة إلى السلطان سليم الأول العثماني، فكان عدد الخلفاء العباسيين في مصر خمس عشرة خليفة»[١].

ومع أنّ خلفاء القاهرة كانوا مجرّدين من كل سلطة، فقد كان لهم أثر لا ينكر، فبوجودهم فيها كثرت شعائر الإسلام، وعلت منارات السنّة، وأقبل العلماء والأدباء من أقطار العالم الإسلامي إلى القاهرة.

وقد كان لهم أيضاً شيء من النفوذ الديني، فحينما عاد التتار بقيادة «غازان» لمهاجمة مصر والشام كان الخليفة يقف بجوار السلطان ويقول: «يا مجاهدون قاتلوا عن حريمكم، وعن دين نبيّكم محمد ﷺ، والناس في بكاء شديد»[٢].

(٧)

ومن الناحية الفكرية، فقد ورث المماليك دولة بني أيوب، فلم يرضوا لأنفسهم، أن يكونوا أقلّ منهم شأناً في نشر الحركة العلمية والدراسات الإسلامية في عصرهم، فالمدارس التي ورثوها من بني أيوب عملوا على

---

(١) حضارة العرب في الجاهلية والإسلام، لأديب لحود: ١٨٦.

(٢) السلوك: ٩٣٢، ٩٣٧.

ازدهارها ، كما أنهم أنشأوا مدارس متعددة في كل أنحاء مصر والشام من أجل العلم والثقافة . . هذا، ولم يكن المماليك بعيدين عن التأثر بإشعاعات هذه الحركة، «فقد كان الظاهر يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً شديداً، وكان يقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب»[1].

وكان الخليل بن قلاوون مثقفاً ثقافة أدبية عربيّة ممتازة، حتى إنه كان خبيراً بالأساليب العربية، ملمّاً بالقواعد النحوية واللغوية، فقد رووا: «أنه كان ينقد ما يعرض عليه من المراسيم، ويصلحها، ولا يعلّم على مكتوب حتى يقرأه كله، ولا بدّ أن يستدرك على الكُتّاب ما يبيّن لهم فيه الصواب، وكان يطارح الأدباء بذهن رائق، وذكاء مفرط»[2].

(٨)

ومن ألمع النحويين الذين عاصروا دولة المماليك: الإمام ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ [3]؛ وأبو حيّان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ[4]؛ وابن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١هـ[4].

ولا أستطيع أن أتحدّث عن الحركة النحوية واللغوية التي أحدثها هؤلاء النحويّون، لأنني سجّلت هذه الحركة في كتابي : «المدرسة النحوية

---

(١) النجوم الزاهرة: ١٨٢/٧ .

(٢) السلوك: ٧٩١/١.

(٣) انظر الدراسة المفصّلة عن ابن مالك حياة وتأليفاً ورأياً ومذهباً في كتاب «المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة»، من صفحة ١٤٦ إلى صفحة ٢٧٤ . وقد طبعته دار الشروق ببيروت والقاهرة.

(٤) وانظر الكتاب السابق: ٢٧٥ ــ ٣٥١.

(٥) انظر الكتاب السابق: ٣٥٢ ــ ٤٣٩ .

في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، وهو ميسّر لمن يريد استيعاب الحركة اللغوية والنحوية في مصر.

(٩)

ومراكز الحركة الفكرية واللغوية والنحوية في مصر في عصر المماليك تعدّدت وكثرت كثرة هائلة، وهي موزّعة بين المساجد، والمدارس، والخوانق، والربط.

(أ) ومن أشهر هذه المساجد التي قامت بدور كبير في الحركة العلميّة في مصر:

١ ـ مسجد عمرو بن العاص:

لم تنقطع الدراسة عن هذا المسجد منذ أن بني سنة ٢١هـ، فقد «كان هذا المسجد مركزاً لصلاة الجماعة، وللخطب السياسية، والمجالس الرسميّة، كما كان مركزاً للقضاء الأعلى، ثم غدا بعد ذلك مركزاً ممتازاً للعلم والتعليم»[١].

وفي عصر المماليك احتفظ بما كان له من نشاط سابق في الميدان العلميّ يدلّ على ذلك ما ذكره المقريزي في «الخطط»، قال: «أخبرني المقرىء الأديب المؤرّخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي، رحمه الله، قال: أخبرني المؤرّخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، قال: أخبرني العلاّمة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفي: أنه أدرك بجامع

---

(١) التعليم في مصر من العصر الفاطمي الأول، لخطّاب عطيّة: ٤٥.

عمرو بن العاص قبل الوباء الكائن في سنة ٧٤٩هـ بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه»[١].

٢ ـ الجامع الأزهر:

أنشأه جوهر الصقلي، وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ، ولمّا استبدّ صلاح الدين الأيّوبي بالسلطة، عطّل الأزهر من إقامة الجمعة فيه، فلم يزل الأزهر معطّلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام إلى أن أُعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس[٢].

وفي سنة ٧٦١هـ استأذن الأميرُ الطواش سعد الدين بشير الجامدار الناصريّ: السلطان الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون في عمارة الجامع فأذّن له، وتتبّع جدرانه وسقوفه بالإصلاح حتى كأنها جديدة ورتّب فيه مصحفاً، وجعل له قارئاً، ورتّب للفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كل يوم، وأنزل إليه قدوراً من نحاس، جعلها فيه، ورتب فيه درساً للفقهاء من الحنفية، ووقف على ذلك أوقافاً جليلة.

وكان هذا الجامع يفتح أبوبه لكل الوافدين له، سواء كانوا من ريف مصر أم من البلاد الأخرى كالمغاربة، والعجم، والزيالعة، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته، وتلقينه، والاشتغال بأنواع العلوم بالفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ، وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح، وترويح النفس ما لا يجده في غيره[٣].

---

(١) الخطط: ٢/٢٥٦.

(٢) المصدر السابق: ٢٧٦.

(٣) الخطط، للمقريزي: ٢/٢٧٦، بتصرف.

٣ ـ جوامع الصعيد:

وكان لجوامع الصعيد في هذه الفترة نصيب كبير من هذه الحركة الفكرية احتضنتها مساجده، فجوامع: إسنا وأسيوط، وأسوان، وإدفْو وقوص. . لمعت في هذه الفترة من الزمان، ودوّى صوتها في كل مكان، وأشرقت فيها نهضة علميّة جعلت علماء الصعيد منار علم ومعرفة، وموئل فكر وثقافة[١].

(ب) المـــدارس:

أول مدرسة أُنشئت بالدّيار المصريّة هي المدرسة التي بناها صلاح الدين والمسمّاة بالمدرسة الناصريّة.

ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدّين في بناء المدارس بمصر ومدنها أولادُه وأمراؤه، ثم حذا حذوهم مَنْ مَلَك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم[٢].

هذا، وأشهر المدارس في مصر هي: الناصرية ـ القمحيّة ـ منازل العزّ ـ الصالحيّة ـ الظاهرية ـ المنصورية[٣].

وقد سجّل «ابن دقماق» نشاط المماليك في إنشاء المدارس المختلفة في الأقاليم المتعددة فضلاً عن القاهرة والإسكندرية، فيقول ما ملخصه: «كان

---

(١) انظر: المدرسة النحوية في مصر والشام: ١٠٢.

(٢) الخطط: ٣٦٢/٢، بتصرّف.

(٣) أهم المراجع التي تحدثت عن هذه المدارس بالتفصيل: الخطط، للمقريزي، الجزء الثاني؛ وحسن المحاضرة، للسيوطي، الجزء الثاني؛ وعصر سلاطين المماليك، لمحمود رزق سليم؛ والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، للدكتور أحمد أحمد بدوي.

في منية بني خصيب مدارس للشافعية والمالكية، وفي قوص مدرستان، وفي منفلوط عدة مدارس، وفي قوص ستة عشر مكاناً للتدريس، وفي إسنا مدرستان، وفي الأقصر مدرستان، وفي أسوان ثلاث مدارس، وفي دمنهور عدّة مدارس، وفي رشيد كتّاب للأيتام»[1].

(ج) الخوانق:

والخوانق: جمع خانقاه، وهي كلمة فارسية معناها: بيت.

والخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وجُعلت لتخلّي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى[2].

وقد تطوّرت هذه الخوانق في عصر الأيوبيين والمماليك، فلم تكن خاصة بالتصوّف والعبادة، بل كانت تقوم إلى جانب المدارس لتؤدي نصيبها من العلم والمعرفة، وتحمل جزءاً من الحركة الفكرية في هذه الفترة من التاريخ.

وأشهر الخوانق هي: خانقاه شيخو[3] ـ خانقاه سعيد السّعداء[4] ـ خانقاه البيبرسيّة[5].

(د) الرّبط:

الرُّبُط: جمع رباط. والرباط: دار يسكنها أهل طريق الله.

---

(١) عصر سلاطين المماليك: ٣٢/٣، لمحمود رزق سليم.
(٢) الخطط، للمقريزي: ٤١٤/٢.
(٣) المصدر نفسه: ٤٢١/٢.
(٤) المصدر نفسه: ٤١٥/٢.
(٥) المصدر نفسه: ٤١٦/٢.

وأشهر هذه الرّبط التي تحوّلت إلى دور علم، ومصدر ثقافة: رباط البغدادية[1] ــ رباط الآثار[2].

(١٠)

وإلى جانب هذه المراكز الثقافية التي تعدّدت، وتوزّعت بين المساجد، والمدارس والرُّبُط والخوانق، كانت هناك خزائن الكتب تعمل جنباً إلى جنب مع هذه المراكز، والسبب المباشر في إنشاء هذه الخزائن هو سقوط بغداد تحت أقدام التّتار، فقد رمى التتار في نهر دجلة كل الكتب والمؤلفات التي زخرت بها بغداد، فكانت مصيبة العالم الإسلامي في ثقافته أكثر من مصيبته في هذا الغزو العسكري الذي قضى على كل شيء.

وقد ذكر جرجي زيدان أن الكتب في هذه الفترة قلّت لذهاب أكثرها حَرْقاً وغرقاً أثناء الفتن، أما التّتار فقد بالغوا في الإحراق، فأحرق «جنكيزخان» من المكاتب في بخارى، ونيسابور وغيرهما من مدائن العلم في فارس ما لا يُدرك إحصاؤه.

وأمّا «هولاكو»، فقد ذكر التاريخ إتلافه كتب العلم في بغداد، وكذلك في الأندلس، فإن الأسبانيين كانوا كلّما فتحوا بلداً أخرجوا العرب منه، وأحرقوا كتبهم[3].

ومعنى هذا أن الحركة الفكرية التي كانت تضمها هذه الكتب قد خمدت شعلتها في هذه الأقطار، وأن العلماء بحثوا عن الكتب التي يزاولون

---

(١) المصدر نفسه: ٤٢٨/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢٩/٢؛ وحسن المحاضرة: ١٤٧/٢.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية: ١١٣/٣ـ طبع دار الهلال، سنة ١٩٣١م.

فيها نشاطهم العلميّ، فلم يجدوا إلاّ القليل الذي لا يسدّ حاجة النفس أو العقل أو القلب.

لهذا لم يكن ثمّة بدٌّ من الحصول على ما بقي من الكتب بأيّ طريق، وبأيّ ثمن، وتبارى سلاطين المماليك، والأمراء، والكتّاب، والأعيان، في جمع هذه الكتب، ووضعها في خزائن خاصة تُلحق بالمدارس أو تنشأ في القصور لتكون ذخيرة للعلماء،ومستقراً للباحثين.

ولا ننكر أنّ للفاطميين يداً كبيرة على الثقافة الإسلامية، لأنهم كانوا حريصين كل الحرص على جمع الكتب الثمينة أكثر ممن جاء بعدهم سواء كانوا من الأيوبيين أو من المماليك، وهذا ليس بغريب، لأنهم عرب، يعرفون للثقافة العربيّة قدرها عن إيمان واعتقاد، لا عن متابعة وتقليد.

يذكر لنا المقريزي أن أعظم خزائنهم هي خزانة القصر الفاطميّ، وقد تفرعت إلى أربعين خزانة، ومن جملتها خزانة واحدة كان فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، ولكثرة الكتب في خزائن هذا القصر، اختلف المؤرخون في عددها. . فمن قائل: «إنها كانت تزيد على مائتي ألف مجلّد، وآخر يدّعي أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة كتاب، وبعضهم يرفع محتوياتها إلى ألفي كتاب، وقد ذكر ابن واصل أنها كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلّد»[١].

وفي عهد الأيوبيين تبدّدت هذه الثروة الضخمة من الكتب التي تعدّدت في خزائن القصر، وفي دار الحكمة، وغيرها من المساجد والمدارس،

---

(١) الخطط، للمقريزي: ٢/٤٠٨، ٤٠٩، بتصرّف.

بدّدوها، لأنها كانت تحمل طابع المذهب الشيعي، وليس هذا فحسب، بل لأنها كانت ملكاً للفاطميين، بغضّ النظر عن موضوعاتها وموادّها.

يدلّ على ذلك حديث العماد الخاص ببيع الكتب في يومين من كل أسبوعين بالقصر[1]، ولكن مع هذا، فإن هذه الكتب لم تَضِع كما ضاعت كتب بغداد، لأنها وجدت مَن يقدّرها، ويعرف قيمتها من العلماء والأدباء، فنقلوها إلى قصورهم وإلى مدارسهم كما فعل القاضي الفاضل الذي أنشأ مدرسته، وجعل فيها من الكتب التي كانت في القصر مائة ألف مجلّد[2].

وليس معنى هذا أنّ الأيوبيين قصّروا في هذا المضمار، فقد ذكر لنا المؤرخون أنّ الملك الكامل حينما أنشأ في مدرسته داراً للكتب عيّن لها أميناً يشرف عليها[3].

وفي دولة المماليك تبارى السلاطين والأمراء كما قلت، في إنشاء المكتبات العامة والخاصة، فعن كل مدرسة تقريباً من المدارس التي ورثوها من الأيوبيين أُنشئت مكتبة.. فالملك «الظاهر بيبرس» أنشأ في المدرسة الظاهرية خزانة كتب تشتمل على أمّهات الكتب في سائر العلوم. وكذلك فعل «الناصر قلاوون»، فقد ألحق بالقبة مكتبة ضخمة فيها عدّة أحمال من الكتب في سائر العلوم، ورتّب لها أميناً ومساعدين[4].

ويبدو أنّ نظام الاستعارة كان معمولاً به في هذه المكتبات والخزائن،

---

(١) انظر الروضتين: ١/٢٦٨.
(٢) الخطط، للمقريزي: ٢/٢٥٥.
(٣) ذيل الروضتين: ٦٥، ١٦٣، لشهاب الدين المقدسي، طبعة أولى.
(٤) السلوك: ١/١٠٠١؛ الخطط، للمقريزي: ٢/٣٧٩؛ وحسن المحاضرة: ٢/١٤٣.

فقد وجدت في ترجمة ابن حيّان الأندلسي أنه كان يعيب على مشتري الكتب ويقول له: «الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجد ذلك»[1].

وظلّت هذه المكتبات تؤدي رسالتها وتقوم بدورها حتى حدث الغلاء المشؤوم في مصر سنة ٦٩٤هـ: «فصاروا يبيعون كل مجلّد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان في الخزائن من الكتب، ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية فتفرّقت»[2].

وهكذا ضاع التراث الذي تعب في جمعه محبّو العلم بعد أن كان قبساً يضيء لمن حوله، ونوراً يبدّد الجهل من الرؤوس، وينشر الثقافة في النفوس.

وبعد، فهذه صورة صادقة للحركة العلمية في مصر في عصر المماليك، وقد رأينا من خلال هذه الحركة العلميّة أنها كانت متدفّقة قويّة، بسبب تآزر السلاطين والعلماء في دفع عجلتها إلى الأمام قدماً لتعوّض ما خسره العالم الإسلامي بسبب سقوط بغداد، كعبة العلم، وقبلة العلماء.

لهذا كان ابن خلدون على حق كبير حينما وضع النقاط على الحروف في نهضة مصر العلمية في عهد المماليك، قال: «ونحن لهذا العهد نرى أنّ العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفنّنت، ومن جملتها تعليم العلم، وأكّد ذلك وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك منذ أيام صلاح الدين الأيّوبي، وهلمّ جرّا.

---

(١) نفح الطيب: ٢/٢٩٧.

(٢) الخطط، للمقريزي: ٢/٣٦٦.

وذلك أنّ أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلّفونه من ذريّتهم لما له عليهم من الرقّ أو الولاء، ولما يخشى من معاطب المُلْك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزّوايا، والرُّبُط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة، يجعلون فيها شركاً لولدهم، يُنظِّر عليها، أو يصيب منها مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلّات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم، وزخرت بحارها، والله يخلق ما يشاء»[1].

(١١)

ولم تكن الحركة اللغوية والنحوية بمعزل عن الحركة الفكرية التي بلغت أوجها في عهد المماليك، بل لا أبالغ إذا قلت: إن العلوم اللغوية والنحوية كانت الأساس الأول لهذه الحركة الفكرية في المراكز الثقافية.

حقاً: إن التخصص الدقيق في هذه الفترة من التاريخ لم يكن سائداً في النظم التعليمية، لأن الدراسات في هذا العهد كانت مختلطة بعضها ببعض، ولا يعتبر العالِم عالماً إلّا إذا كان ملمّاً بثقافة عصره.

ولا أدلّ على ذلك من أن علماء النحو كانوا يقومون بتدريس الفقه والتفسير والقراءات مع أنّ شهرتهم العلمية في مجال الدراسات النحوية واللغويّة.

فابن عقيل مثلاً كان يقوم بتدريس الفقه في المدرسة الخرّوبية، التي

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٣٣٤، ٣٣٥، مطبعة مصطفى محمد، بالقاهرة.

أنشأها كبير الخرابيّة بدر الدين محمد بن علي الخروبي سنة ٧٥٠هـ[١].

والسمين المشهور: شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي نزيل القاهرة كان يتولى تدريس القراءات بجامع ابن طولون، وله من الكتب النحوية: الإعراب، وشرح التسهيل، وتوفي سنة ٧٥٦هـ[٢].

وحتى فن التاريخ نجد من نبغائه من نبغ في النحو، فأبو شامة المقدسيّ مؤرّخ من مؤرخي هذا العصر، وله كتابا: الروضتين، والذيل على الروضتين، كان له في النحو إسهام كبير، فله مقدمة في النحو، وصنّف نظم المفصل للزمخشري، وقد توفي أبو شامة في رمضان سنة ٦٦٥هـ[٤].

وابن واصل محمد بن سالم نصر الدين سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ كان بارعاً في النحو، وقد أخذ عنه أبو حيان، وقال: «هذا من بقايا من رأيناه من أهل العلم الذي ختمت به المائة السابعة»[٤].

ولكن مع هذا كله، فقد كانت هناك مدارس مستقلة، ومساجد معينة لتدريس العلوم اللغوية والنحوية مستقلة عن غيرها من العلوم.

فالمدرسة المنصورية ظفرت بمحب الدين محمد بن يوسف... الحلبي الملقّب بناظر الجيش، قدِمَ القاهرة، ولزم أبا حيان، ومَهَرَ في العربية، وله شرح التسهيل، ودرس بالمنصورية، وتوفي في ذي الحجة سنة ٧٧٨هـ[٥].

---

(١) الخطط، للمقريزي: ٢/٢٦٩.

(٢) حسن المحاضرة: ١/٢٣١.

(٣) البغية: ٢٩٧، طبعة أولى.

(٤) المصدر نفسه: ٤٤.

(٥) حسن المحاضرة: ١/٢٣١.

والأزهر ظفر بابن الدماميني بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر الإسكندراني، تصدّر بالجامع الأزهر لإقراء النحو، وصنّف حاشية على مغني اللبيب، وشَرْح التسهيل، ومات بالهند في شعبان سنة ٨٢٧هـ[١].

والجامع الأفخر الذي بناه الخليفة الفاطمي ظفر بالنحويّ أحمد بن عثمان السنجاري. قال الصفدي: «ولد سنة ٦٢٥هـ، وكان إمام الجامع الأزهر متصدّراً في النحو بجامع الأقمر»[٢].

والمدرسة الفائزية بأسيوط ظفرت بالعالم النّحويّ الفتح بن موسى بن حمّاد الذي قَدِم من المغرب بعد أن درس المقدّمة الجزولية في النحو على مؤلّفها، ثم طوّف في البلاد.

ولمّا وصل إلى مصر درّس بالفائزية حتى مات سنة ٦٦٣هـ، وله نظم المفصّل للزمخشري[٣].

أمّا قوص فقد ظفرت بالعالم النحويّ محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر السّبتي أبي الطيّب نزيل قوص، قرأ النحو «بسبتة» على الأستاذ عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الربيع، قرأ عليه شرح الإيضاح وغيره، وكتاب سيبويه. قال الإدفويّ في كتابه «الطالع السعيد»: «رأيت بخط شيخه على كتاب سيبويه: قرأ على الفقيه النحويّ أبو الطيّب محمد بن إبراهيم أكثر هذا الجزء بلفظه، وسمع سائره بقراءة غيره في دول شتّى، وأوقات مختلفة قراء تفهّم لمعانيه، وتيقّظ لألفاظه، ووقوف على اعتراضاته، مؤرخّة بذي الحجة سنة ٦٥٥هـ»[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) البغية: ١٤٥، طبعة أولى.

(٣) السّلوك: ١/٥٤٢؛ والبغية: ٣٧٢.

(٤) الطالع السعيد: ٢٦٢، ٢٦٣، مطبعة الجمالية بمصر.

(١٢)

وقبل أن نختم هذا التمهيد الذي لخّصته من كتابي: «المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة»، والذي نشرته دار الشروق ببيروت والقاهرة، والذي ألقى الضوء على الحركة الفكرية واللغوية في مصر منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن من الهجري بالتفاصيل الدقيقة والتفريعات العديدة، والدراسات المتنوّعة، أقول قبل أن نختم هذا التمهيد أحبّ أن نلقي نظرة عابرة على الحياة الاجتماعية لطبقات الشعب في هذه الفترة من التاريخ في إيجاز شديد لتكمل صورة عصر المماليك من كل جوانبها، وفي ضوئها تتبيّن لنا الروافد التي أمدّت السّيوطي صاحب الترجمة بهذه المعارف الغزيرة، والعلوم الوفيرة والثقافة المتدفّقة.

وطبقات الشعب في عهد المماليك كانت مزيجاً من عدّة عناصر مختلفة الأجناس والعقائد والعادات والأخلاق، ويمكن تقسيم هذه العناصر إلى ثلاث طوائف: المماليك ــ الوافدية ــ العلماء ــ عامّة الشعب.

أما المماليك فهم الذين تتكوّن منهم الطبقة الحاكمة، وإليهم مصائر الأمور في جليل الأعمال وحقيرها، ومعظم الجيش يتكون منهم، وتسند إليهم أكبر مناصب الدولة.

وأما الوافدية فهم الطوائف المغولية التي جاءت لمصر مأسورة بعد موقعة: «عين جالوت»، وكثر الوافدون منهم إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس، وسمّوا بالوافدية «وكان نظام توزيع الأراضي في مصر يقصد به إرضاء هذه الطبقة وتوابعها من الأحبّاء والأتباع ممّا أدّى إلى الاضطراب في كثير من الأوقات»[1].

---

(١) انظر: ابن تيميّة، للمرحوم الأستاذ عبد العزيز المراغي.

وأمّا طبقة العلماء، فقد ساعد على تكوينها المدارس الكثيرة التي أنشأها الأيوبيون، ومن بعدهم المماليك.

والعلماء في عصر المماليك طبقات أيضاً، وقد بيّنها الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه: «الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيّوبي والمملوكيّ»، فقال:

(أ) طبقة لها الصدارة، وهي الطبقة التي يشغل فيها الأستاذ وظيفة الصَّدْرلإقراء مذهب من مذاهب الفقه.

(ب) طبقة المدرّسين الذين يتخرّجون على يد الصَّدْر.

(جـ) طبقة المعيدين، وعددهم في المدرسة أكثر من غيرهم في الغالب[٢].

والعلماء في عصر المماليك على اختلاف طبقاتهم كانوا يأخذون مرتّبات من دولة المماليك، ولم يكونوا كأسلافهم من العلماء الذين يعيشون من كسب أيديهم عن طريق السعي إلى الرزق إلى جانب السّعي إلى العلم، لم نجد من علماء هذا العصر من كان يحمل لقب: البزّاز، أو الزجّاج، والصبّاغ، والفرّاء، والإسكافي، وهي ألقاب تبيّن أنواع الحِرَف التي كان يزاولها هؤلاء العلماء.

والذي يدلّ على أنّ هؤلاء العلماء كانوا يتقاضون أجوراً على نشاطهم العلميّ والفكريّ، ما ذكَره السّيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» عند الحديث عن المدرسة الصالحية، قال: «بناها السلطان صلاح الدين بن أيوب

---

(١) انظر: الحركة الفكرية: ١٧٠.

رحمه الله تعالى سنة ٥٧٢هـ، وجعل التدريس فيها، والنظر بها للشيخ نجم الدين الخَبُوشانيّ، وشرط له من المعلوم في كل شهر أربعين ديناراً معاملة.. وجعل له عن معلوم النظر في أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتّب له من الخبز في كل يوم ستين رطلاً بالمصري، وراويتين من ماء النيل»[1].

وقد ظلّت هذه المدرسة يرتادها العلماء للتدريس، وأخذ الرّواتب في عصر المماليك أسوة بالتقليد الذي وضعه ملوك بني أيّوب.

«واستمرّ عطاؤها العلمي إلى أواخر العصر المملوكي، فقد ولّيها نور الدين علي بن عمر التّلوانيّ، فأقام بها مدّة طويلة إلى أن مات في ذي القعدة سنة ٨٤٤هـ، وتتالى العلماء على ولاية هذه المدرسة بعد ذلك، وكان آخر من ولّيها المناويّ، ثم ولده زين العابدين، ثم ابنه، ثم إمام الكاملية، ثم الحمصيّ، ثم الشيخ زكريا»[2].

لهذا، فإن العلماء في هذا العصر كثر بينهم التنافس للتّقرّب إلى الملوك والسلاطين وطلب ما يحتاجون إليه من المال حتى لا يعوقهم طلب الرزق عن الاشتغال بالعلم، والنبوغ في ميدانه.

وخير مثال نقدّمه في ذلك الكتاب الذي أرسله ابن مالك النحويّ المشهور إلى الظاهر بيبرس، يبيّن فيه حاله، ويشكو له ما ناله من شظف العيش وهمّ العيال.

وهذا الكتاب رواه لنا السيوطيّ في «حسن المحاضرة»، قال: «الفقير إلى رحمة ربّه محمد بن مالك، يقبّل الأرض، وينهي إلى السّلطان ـــ أيّد الله

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٢٥٨.

جنوده، وأبّد سعوده ــ أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة، وفنون الأدب، وأمله أن يعينه نفوذ من سيّد السلاطين، ومبيد الشياطين ــ خلّد الله مُلْكه، وجعل المشارق والمغارب مِلْكه ــ على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين، وإفادة المرشدين ــ بصدقة تكفيه همّ عياله، وتغنيه عن التسبب في إصلاح حاله»[1]. . . إلخ.

ولا شكّ أنّ هذا التنافس بين العلماء على التقرّب من ساحة السلاطين والحكّام يتيح الفرصة لأن تلعب الأحقاد والدسائس دورها بين العلماء من أجل وظيفة تُعطى، أو منصب يُمنح، أو هديّة تُؤخذ.

ومالي أذهب بعيداً والدليل واضح، فهذا هو ابن الورديّ يذمّ العلماء الذين لم يحرّكوا ساكناً حينما اعتقلت السلطة شيخ العلماء ابن تيميّة، يقول:

ألم يكُ فيكُمُ رجل رشيد	يرى سِجن الإمام فيستشاطُ
إمام لا ولاية كان يرجو	ولا وقف عليه ولا رباطُ
ففيم سجنتموه وغظتموه	أما لجزا أذيّته اشتراطُ[2]

ومن الحقّ أن نقول: إن هناك طبقة من العلماء، تعالوا على هذه الصغائر، وكبرت نفوسهم، وسَمَتْ أرواحهم فلم يمدّوا يداً لسلطان، ولم يطلبوا شيئاً من مملوك، وعاشوا في شرف المهنة أطهاراً أبراراً.

ومن هؤلاء العلماء: الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي نصحه أحد العلماء أن ينكسر للسلطان، ويقبّل يده، فيقول الشيخ له: «يا مسكين،

---

(١) حسن المحاضرة: ٦٧/٢.

(١) ابن تيميّة، للمرحوم عبد العزيز المراغي: ١٩، ٢٠.

ما أرضاه يقبّل يدي فضلاً عن أن أقبّل يده! يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا ممّا ابتلاكم»[1].

والشيخ عز الدين بن عبد السلام قصّته في بيع السلاطين المماليك مشهورة ساقها السّيوطي في «حسن المحاضرة» في قصة رائعة[2].

وأما طبقة الشعب، فهي الطبقة التي تتألّف من الزرّاع والصنّاع والتجّار، وهذه الطبقة انصرفت إلى أعمالها، ولكنهم مع ذلك كانوا يشتركون في بعض الأمور العامة، فحينما قرأ خطباء المنابر عهد البيعة للسلطان بيبرس صاحوا قائلين: لا نريده وقامت في القاهرة الاضطرابات التي تعبّر عن رأي العامّة[3].

* * *

في ظلال هذه الأحداث السياسية والاجتماعية عاشت الحركة الفكرية في دولة المماليك، ثابتة الخطى، عزيزة الجانب، قوية السلطان، أينعت أوراقها، وأزهرت ثمارها، وذلك ناشىء عن تشجيع السلاطين للعلم والعلماء.

إنهم وإن كانوا في فوضى سياسية، إلاّ أنهم لم يسمحوا لها أن تتدخل في البناء الفكري للأمة، فأعطوا العلماءَ حقّهم، وفتحوا المدارس لأبناء الشعب، ورتّبوا لهم الأجور والمرتبات، والهدايا والمِنَح، وعقدوا في قصورهم حلقات العلم، وأسهموا في الحوار البنّاء بينهم وبين العلماء.

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/١٦٢.
(٢) المصدر نفسه: ٢/١٦٢، ١٦٣.
(٣) دولة بني قلاوون، للدكتور محمد جمال الدين سرور: ٧٩، بتصرّف.

إنَّ المماليك رأوا أنهم مسؤولون أمام الله والتاريخ عن حياة هذا التراث الضائع بعد سقوط بغداد، وآلوا على أنفسهم أن يعيدوا بناءه من جديد.

وقد وضع النقاط على الحروف محمد كرد علي في كتابه «الإسلام والحضارة العربية» في ازدهار الحياة الفكرية في عهد المماليك؛ فقال: «ودولة المماليك البرجيّة والبحرية كالدولة الفاطميّة قبلها، كان في ملوكها الصالح والطالح، وربما كان الصالح فيها أكثر من أمثالهم في دولة العبيديين الفاطميّة.

وقد عمرت البلاد في أيامهم عمراناً يستغرب تحقيق مثله على خَلَلٍ بيّن، يطرأ عليها في الفترات، بتبدّل الولاة، ونشوب الفتن الأهلية من أجل المُلْك، لكن نوابغ من ملوكهم كانوا يتولون الأمر أحياناً فيسدّون كل خلل، ويأخذون بأيدي أهل البلاد إلى الترقّي»[1].

□ □ □

(١) الإسلام والحضارة العربية: ٢/ ٤٦٧.

الباب الأول

السّيوطي: في ظلال النشأة والحياة والدراسة والتأليف

الفصل الأول:

الحياة السياسيّة والعلمية في عصر السيوطي.

الفصل الثاني:

حياة السّيوطي.

الفصل الثالث:

مؤلّفات السّيوطي.

الفصل الأول
الحياة السياسيّة والعلميّة في عصر السّيوطي

أوّلاً :
الحيـــاة السيـــاسيّة

عاش السيوطي في عصر السلاطين أو المماليك الجراكسة، ذلـك العصر الذي بدأ بالسلطان سيف الدين أبـي سعيد برقوق، وقد لُقِّبَ بـالملك الظاهر. ويـذكر السيّـوطي خبر تـولّيه السلطة بقـوله: «وأقيم في السلطنـة سيف الـدين أبـو سعيد بـرقـوق بن أنَص، ولُقِّبَ الملك الـظاهـر، وهـو أول السـلاطين من الجراكسة، وليس فيهم من تسلطن وأبوه مسلم غيره، فإن أباه قَدِمَ إلى الديّـار المَصرية فأسلم، ومات قبل سلطنة ولده بشهر، وكان الذي أشار بتلقيب برقـوق بالظاهـر شيـخ الإسلام سـراج الدين البُلْقيني، فـإن ولايته كـانت وقت الظهـر وخـطب الخليفة قبـل أن يفوّض إليـهِ خطبـة بليغة، ثم قلّده بحضـرة البُلْقيني واستمر في السّلطة إلى ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين»[1].

واستمرّ السّلطان برقوق في الحكم إلى أن مات في شـوّال سنة إحـدى وثمانمائة، وجاء من بعده ولده زين الدين أبو السعادات (فرج)، ولُقِّبَ بـالملك الناصر، وقال بعض الشعراء في ولايته:

---

(١) أي سنة ٧٩١هـ؛ وانظر: حسن المحاضرة ٢/ ١٢٠.

مضى الظاهر السلطان أكرم ملك إلى ربّه يرقى إلى الخُلد في الدّرَجْ
وقالوا ستأتي شدّة بعد موته فأكذّبهم ربّي وما جاء سوى فَرَجْ[1]

واستمر الحكم في دولة الجراكسة يتولاّه سلطان، ويخلفه سلطان بالقتل مرة وبالخلع مرة أخرى، وبالاعتقال والنفي مرّات ومرّات إلى أن وصل الحكم إلى «جقمق» الذي لقّب بالظاهر، واستمرّ في حكمه إلى أن مات سنة ٨٥٧هـ.

وهذا السلطان ولد في عهده الجلال السيّوطي سنة ٨٤٩هـ.

وقد عاصر السيّوطي من السّلاطين الملك منصور، والملك الأشرف، والملك المؤيد، والملك الظاهر، وقايتباي العلائي، والملك الأشرف، قايتباي المحموديّ، وأقام إلى أن مات ليلة الإثنين ثاني عشر ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة، وقانصوه الغوريّ الذي خُلع أول ذي الحجة سنة ٩٠٥هـ، وولى بعده خاله جان بلاط، ولُقّبَ بالأشرف، وكان آخر سلاطين هذه الدولة طومان باي الداوادار ابن أخت الغوريّ، ولُقّبَ الأشرف، واستمرّ في الحكم إلى أن قتله الخليفة العثماني سليم الأول في يوم الإثنين ١١ من ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ وبقتله انتهت دولة المماليك في مصر، وبدأ عصر جديد، وهو عصر العثمانيين. ومن العجيب أن الشعراء شاركوا في هذه الأحداث بتسجيلها شعراً ليسهل على الناس حفظها، ومن هذا الشعر أرجوزة حمزة بن علي الحسنيّ الذي ذيّل بها أرجوزة الجزّار عَقِب ذكر الملك الظاهر، وقد بدأها بقوله:

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

ثم تـولّى الـملك الـسّعـيـدُ ... وكـل يـوم فـي ذراه عـيـدُ

ثـم أخـوه الـعـادل اسـتـقـلا ... بـالـمـلك أيـامـاً بـهـا وولّـى

إلى أن ختمها بقوله:

ثم تـولّى الـنـاصـر بن الـنـاصـر ... وبعـده الصـالـح ذو الـمـمـاكـر

أعـني أبـا الـفـداء إسـمـاعـيـلا ... طـائـرهُ أضْـحَـى بــه جـمـيـلا

وسجّل السيّوطي بعده السّلاطين الذين جاءوا من بعده نظماً، فقال:

وبـعـده شيبـان وهـو الكـامـلُ ... وبـعـده المُـظَفَّـر المُـمـاجِـلُ

وبعـده الـنـاصـرُ واسـمـه حَسَنْ ... وبعده الصَالـحُ في البـرج سجنْ

إلى أن قال:

وبـعـده الـظاهـر وهـو جَـقْـمَـقُ ... ثـم ابنه الـمـنـصـور ثـم أطـلقُـوا

وبـعـده أيـنـال وهـو الأشـرف ... ثـم ابـن الـمـؤيـد الـمـنـصـرف

وبـعـده خَشَـقْـدمٌ ليث الـوغـى ... وبـعـده يـلـبـاي أتَى تمـربـغـا

والكـل بـالـظاهـر رسمـاً يـوصفُ ... وبعـدهم جاء المليـك الأشـرفُ

أقـام في الـمـلك ثـلاثـين سـوى ... سبع شهـور وحـوى مـا قـد حـوى

وسـلطنـوا ولـده مـحـمـدًا ... ولقب الـنـاصـر رغمـاً لـلعِـدا[1]

السلطة الدينية في عصر المماليك:

لم تكن السلطة السياسية وحدها هي التي تدير دَفّة البلاد بل كان إلى جانبها السلطة الدينية المتمثلة في الخلفاء العبّاسيين.

---

(١) انظر: حسن المحاضرة: ٢/١٢١ ـ ١٢٤.

وينقل السيّوطي نصاً عن ابن فضل الله في «المسالك» فيقول: «واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عَظُم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنّة، وعفت منها البدعة، وصارت محلّ سكن العلماء، ومحط رجال الفضلاء، وهذا سرٌّ من أسرار الله أودعه في الخلافة النبويّة حيث كانت يكون معها الإيمان والكتاب»[1].

وفي عهد المماليك استبدّ السلاطين بالأمر، وأصحيت وظيفة الخليفة مجرّد شعار، لا يحتوي معناه الحقيقيّ لأن الأمر كان بيد السلاطين بل يحدّثنا التاريخ أن الملك الظاهر بيبرس لم يرض أن يلقب نفسه كما كان يلقّب حكام مصر في عهد الأيوبيّين يلقّبون أنفسهم بموالي أمير المؤمنين، خُدّام أمير المؤمنين، بل اتخذ لنفسه لقباً وهو: «قسيم أمير المؤمنين».

ومع جبروت الملك الظاهر، وتلقيب نفسه بقسيم أمير المؤمنين، فإنه كان يخشى سطوة العلماء ورجال الدين في مصر، فقد كان كما يقول السيّوطيّ: «متقمصاً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لمّا مات الشيخ: ما استقرّ ملكي إلاّ الآن»[2].

وظل خلفاء بني العبّاس في مراكزهم الدينية إلى جانب السلاطين المماليك وليس لهم من قوة النفوذ ما يجعلهم يعيدون الحقّ إلى نصابه بل كل عملهم اقتصر على عقد البيعة للسلاطين، ومباركة السلطة الجديدة، وفي كتاب السيّوطي «حسن المحاضرة» فصّل كامل عن الخلافة العبّاسية في مصر في

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/٩٤.

(٢) حسن المحاضرة: ٢/٩٥.

عهد المماليك عنوانه: «ذكر سلاطين مصر الذين فوّض إليهم خلفاء العباسيون فاستبدوا بالأمر دونهم»[1].

ويبدو أن سلاطين المماليك مع الرغم من اضطراب السياسة، واهتزاز الحكم، وكثرة الخلع والقتل، وحبك المؤمرات، وتعدّد الدسائس فإنهم كانوا يولون الشعب اهتماماً كبيراً في ردّ المظالم، وتثبيت الحقوق، والقضاء على المستبدّين، ولا أدلَّ على ذلك من هذه الأخبار التي ساقها ابن فضل الله في كتابه «المسالك»، والذي نقل عنه السيّوطي كثيراً في كتابه «حسن المحاضرة»، قال: «إذا جلس السلطان للمظالم جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر في الحِسْبة ويجلس عن يساره كاتب السرّ، وقدّامه ناظر الجيش، وجماعة الموقّعين تكملة حلقة دائرة. . .

إلى أن يقول: «ويقف من وراء السلطان صفّان عن يمينه ويساره».

ثم يقول: »ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادرية[2]، لإحضار قصص الناس، وإحضار المساكين، وتقرأ عليه، فما أحتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلّقاً بالعسكر تحدّث مع الخاصّ، وكاتب السّرّ فيه»[3].

ألا تدل هذه الأخبار على تحرّي العدالة من أجل إحقاق الحق الذي يحشد له السلطان كل أجهزة الدولة ليرتدع الظالم، ويطمئن المظلوم؟.

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/٩٥ ــ ١٢٦.

(٢) وظيفة تشبه الآن وظيفة السكريتارية الخاصة، وانظر حسن المحاضرة في معناها: ١٣١/٢.

(٣) حسن المحاضرة: ١٢٧/٢، بتصرّف.

ثانياً:

الحـــياة العلمـــيّة

وكانت الحياة العلميـة في عصر السيّـوطيّ امتداداً للحيـاة العلمية قبله، فالمدارس التي أشرنا إليها سابقاً جُدِّدَتْ عمارتها، والمساجد جُدِّدَ بناؤها، وعـادت الحياة العلميـة أيام المـمـاليك أقـوى مما كـانت عليـه أيـام الأيـوبيين والفاطميين. وفي عصـر السيّـوطي بـالـذات انتشـرت المــدارس، وازدهـرت المؤلفـات، ولا ننسى أن نذكـر أن سـلاطين هـذه الـدولـة في أيـام السيّـوطي لم يكونوا بمعزل عن رحاب العلم، فـالملك المؤيد أحمـد بن إينال العــلائي تـولّى السلطة سنـة ٨٦٥هـ فلمّـا خلع من السلطة، ونُقـل إلى الإسكنــدريـة، اشتغـل بالعلم مدة إقامته بها، وقد توفي ٨٩٣هـ[1] والملك العـزيز يـوسف بن برسباي الدقماقي، ولـد سنة سبـع وثمـانمائـة، وولّى السلطة ٨٤١هـ ثم خُلع في ٨٤٢هـ وسجن بالإسكندرية ونظر في فنون العلم والأدب، مات في محـرّم ٨٦٨هـ[2].

* * *

---

(١) نظم العقيان: ٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٩.

المؤلفات العلميّة:

وفي هذا العصر ازدهر التأليف، وكثرت المصنّفات، وقد قدمت هذه المؤلفات أو المصنّفات يداً عظيمةً للتراث الإسلامي والعربي فقد ضاعت كتب، وفُقدت مصنّفات، وبادت ذخائر من العلم بفنونه المختلفة في لهيب هذه الأحداث الطاغية التي عمّت العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه.

ومن أهم المؤلفات اللغوية التي جمعت كثيراً من التراث المفقود «معجم لسان العرب» لابن منظور الإفريقي، نزيل مصر، ويعرف بابن مكرّم ولد في المحرّم سنة ٦٩٠هـ وتوفي سنة ٧٧٠م، وقد جاء في مقدمة مؤلفه ما نصّه: «فجاء هذا الكتاب بحمد الله واضح المناهج، سهل السلوك، آمناً بمنّة الله من أن يُصبح مثل غيره، وهو مطروح متروك، عظم نفعه بما اشتمل من العلوم عليه، وغني بما فيه عن غيره، وافتقر غيره إليه وجمع من اللغات والشواهد والأدلّة ما لم يجمع مثلُه، لأن كل واحد من هؤلاء العلماء انفرد برواية رواها، وبكلمة سمعها من العرب شفاهاً، ولم يأت في كتابه بكل ما في كتاب أخيه ولا أقول: تعاظم عن نقل ما نقله، بل أقول: استغنى بما فيه، فصارت الفوائد من كتبهم مفرّقة، وصارت أنجم الفضائل في أفلاكها هذه مغرّبة، وهذه مشرّقة، فجمعت منها ما في هذا الكتاب ما تفرّق، وقرنت بين ما غرّب منها وبين ما شرّق، فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل، وأولئك بمنزلة الفروع»[1].

هذا، وقد جمع ابن منظور في لسان العرب قدراً كبيراً من النصوص اللغوية التي ضمّها كتاب «الصحاح» للجوهري، وحاشيته لابن برّى،

---

(١) مقدمة اللسان: ٢.

«والتهـذيب» للأزهـري، «والمحكم»، لابن سيـدة، «والجمهرة»، لابن دريـد، «والنهـايـة»، لابن الأثير، وغيـر ذلـك فهـو يغني عن سـائـر كتب اللغـة إذ هي بجملتها لم تبلغ منها ما بلغـه[1].

ويحمد أحمد فارس صاحب الجوائب الله على أن وفق صاحب اللسان لهذا العمل العظيم، حيثُ يقول: «ولولا أن الله تعالى أودع فيه سرّاً مخصوصاً لما بقيَ إلى الآن، بل كـان لحق بنظرائـه من الأمّهات المـطوّلة التي اغتـالتها طوارق الحدثان. . . فالحمد لله مولى النعم، ومؤتي الهمم على أن حَفِـظَه لنا مصوناً من تعاقب الأحوال، وتناوب الأحوال»[2].

وفي عصر المماليك أيضاً ظفرت المكتبة العـربية بكتـاب «القامـوس»، للفيـروزابادي الـذي ولد سنـة ٧٢٩، وكانت وفـاته بعـد وفاة صـاحب «لسـان العرب» بثمان عشرة سنة، دخل القاهـرة، وأخذ عن علمـائها، فمن أخـذ عنه الصـلاح الصفدي، وابن عقيـل، والكمال الإسنـوي، وابن هشام، هـذا وقـد توفي الفيروزابـادي في ليلة الثلاثـاء بزبيـد باليمن في عشـرين من شوال سنـة ٨١٧هـ أو ٨١٦هـ[3].

وإذا نـظرنـا إلى الكتب المؤلفـة في مجـال النحـو في هـذه الفتـرة من التاريخ نجد أنها كثرت وتعدّدت، وأثمرت ثماراً طيّبة.

فمن الكتب التي اشتهرت في هذه الفترة كتب أبن مالك، وأهمها:

---

(١) انظر: تقديم أحمد فارس للسان العرب: ٢.

(٢) من تقديم أحمد فارس للسان: ٢، بتصرّف.

(٣) مقدمة القاموس المحيط: ٤.

(أ) الكافية الشافيـة:

وهي أرجوزة طويلة في القواعد النحوية والصرفية.

وقد نصّ ابن مالك في نهاية هذه الأرجوزة على عدد أبياتها فقال:

أبيـاتـه ألفـان مـع سبعمـائـة وزيـد خمسـون ونـيف أكـمله

وقـد شرح ابن مـالك أرجـوزتـه في كتـاب سمّـاه: «الـوافيـة»، وعلّق عليه نكتاً[1].

ومن النحـويين الذين شرحوا الشـافية الكـافية ولـده بدر الـدين، وذيـل أبـو الثناء محمـود الكافيـة بأكثـر من مائـة بيت سمّاهـا: «وسيلة الإصابـة» ثم شرحها[2].

(ب) الخلاصة أو الألفية:

وقد اشتهرت أَلِفِيَة ابن مالك في الأصقاع العـربية، جمـع فيها مقـاصد العربية، وسمّاها الخلاصة[3]

وقد شرح ابن مالك أَلْفيَّته ليبين المراد منهـا في ضوء الشـرح والتحليل وينكر السيّوطي في بغيـة الوعـاة هذا الخبـر بقولـه: «ومن أغرب مـا رأيته في شرح الشواهد للعيني، قال في شواهد المبتدأ:

ولولا بنوها حولها لخطبتها. . .

كـذا وقع في كتـاب ابن الناظم، وكـذا في شرح الكـافيـة والخـلاصـة

---

(1) هامش نفح الطيب: ٢٦٧/٧، مطبوعات دار المأمون.

(2) المصدرات من والصفحة.

(3) كشف الظنون: ١٥١/١.

لأبيه ابن مالك. قال السّيوطي: «وهو تصحيف، وما ذكره من أن والده شرح الخلاصة ليس بمعروف، والظاهر أنه سهو».

ثم رجع السّيوطيّ إلى نفسه، فقال: «ثم رأيت في تاريخ الإسلام للذّهبي أيضاً في ترجمته [أي ترجمة ابن مالك]: وله الخلاصة، وشرحها والله أعلم»(١).

ومن النحويين المصريين والشاميين الذين شرحوا الألِفية في عصر المماليك:

*بدر الدين بن المصنف المتوفى ٦٨٦، قال الصفدي: «لم تشرح الخلاصة بأحسن ولَا أسدّ، ولا أجزل منه على كثرة شروحها»(٢).

* أثير الدين أبو حيّان المتوفى ٧٤٥هـ، وسمّى شرحه بنهج السالك في الكلام إلى ألفية بن مالك ولم يكمله(٣).

* الشيخ شمس الدين حسن بن القاسم المعروف بابن أم قاسم، المتوفى سنة ٧٤٩هـ، وشرحه من الشروح المشهورة(٤).

* أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الشهير بابن عقيل النحوي

---

(١) انظر: بغية الوعاة: ٥٥.
(٢) كشف الظنون: ١٥١/١ وما بعده.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

المتـوفى سنة ٧٦٩[١]، ومـا زال شرحـه على الألفيـة يـدرس في الجـامعـات حتى الآن.

* ومن الـذين أعربـوا الألِفية الشيـخ شهـاب الـدين أحمـد بن الحسن الرملي الشافعي المتوفى سنة ٨٤٤هـ[٢].

* ومن أشهـر النحـويين الـذين أسهمـوا في شـرح الألِفيـة في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجـري الشيخ خالـد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥هـ، فقـد شرح كتـاب التوضيـح الـذي وضّح فيـه ابن هشام ما بناه ابن مالك فيها من القواعد والأحكام، ولكن هـذا التوضيـح يحتـاج إلى توضيـح أكثر يسفر عما غمض من هذا الكتاب، فقـام بهذا العمـل ليسهم في تذليل ما صعب على الطلّاب فهمـه، وعزّ على العقول إدراكه. يقـول: «يقول العبـد الفقير إلى مـولاه الغني خالـد بن عبد الله الأزهـريّ ــ عامله الله بلطفه الخفيّ، وأجراه على عوائد برّه الحفيّ: إن الشـرح المشهور بـالتوضيـح على أَلِفيـة ابن مالـك في علم النحو للشيـخ الإمـام العلّامـة الرّبّـاني جمال الـدين أبـي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ ــ تغمّده الله بالرحمة والـرّضوان ــ في غـاية حسن المـوقع عنـد جميـع الإخـوان، لم يـأت أحـد بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله، ولم يوضـع في ترتيب الأقسام مثله، ولم يبرز للوجود في هذا النحو شكله غير أنّه يحتاج إلى شرح يسفر عن وجوه مخدّراته النقّاب، ويبرز من خفيّ مكنوناته من وراء الحجاب وقـد ذكرت ذلـك لمصنّفه في المنـام، فاعتـرف بهذا الكـلام، ووعد بـأنه سيكتب عليـه ما يبيّن مـراده،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ويظهر مفاده، فقصصت هذه الرؤيا على بعض الإخوان، فقال: هـذا إذن لك يـا فلان، فـإن إسنـاد الشيـخ الكتـابـة إلى نفسـه مجـاز كقـولهم: بني الأميـر المجاز[1]، وليس هو الباني بنفسه، وإنما يأمـر العملة من أبناء جنسـه، وكنت أنت المشار إليه، لما تمثلت بين يديه، وخاطبك بهذا الخطاب فانهض وبـادر للأجر والثواب، فاستخرت رب العباد، وشمّرت ساعد الاجتهاد وشرحته شـرحاً كشف خفاياه وأبرز أسراره وخباياه، وباح بسرّه المكتوم، وجمع شمله بأصله المنظوم، وسميّته «التصريـح بمضمون التوضيـح»[2].

* ومن أهم شـروح الألِفية التي ظهـرت في النصف الثـاني من القـرن التاسع أي في عصر السيّوطي شـرح الأشموني نـور الدين علي بن محمـد بن عيسى المتوفى سنة ٩٢٩هـ، وهـو الشرح الـذي لم تستطع القـرون التي خَلَت منذ تأليفه أن تحوّل بينه وبين الحياة، فقد عاش هـذا الشرح في عقـول دارسي اللغة والنحو منذ عصر الأشموني إلى الآن.

يقول الأشموني في مقدمة شرحه لألفية ابن مالك ما نصّه: «فهذا شـرح لطيف بديـع على أَلِفية ابن مالـك، مهذّبَ المقـاصد واضـح المسالك، يمتزج بـهـا امتزاج الروح بالجسد، ويحلّ منها محلّ الشجاعـة من الأسد. تجـد نشر التحقيق من أدراج عباراتـه يعبق، وبدر التـوفيق من أبراج إشـاراته يشرق، خلا من الإفراط المملّ، وعلا عن التفريط المخلّ، وكـان بين ذلك قـواماً، وقـد لقبته بمنهج السـالك إلى ألِفيـة ابن مالـك، ولم آل جهداً من تنقيحـه وتهذيبـه وتوضيحه وتقريبه»[3].

---

(١) الطريق المؤدي إلى الدار.

(٢) انظر: مقدمة التصريـح.

(٣) مقدمة شرح الأشموني.

(ج) تسهيل الفوائد:

ذكر ابن مالك في مقدمته: «هذا كتاب في النحو جعلته بعون الله مستوفياً لأصوله، مستولياً على أبوابه وفصوله، فسمّيته كذلك: «تسهيل الفوائد، وتكميل المقاصد»[1].

ولمّا كان كتاب التسهيل موجزاً، يحتاج إلى تحرير العبارة، وبيان المصطلح وفهم المقصود، شرحه ابن مالك شرحاً يزيل غموضه، ويسهل عبارته.

وذكر الصلاح الصَّفدي: «أنه كمّله، وكان كاملاً عند شهاب الدين أبي بكر بن يعقوب الشافعيّ تلميذه، فلما مات المصنّف ظن أنهم يجلسون مكانه، فلمّا خرجت عنه الوظيفة تألّم لذلك، وتوجّه لليمن غضباً على أهل دمشق، وبقي الشرح معه مخروماً بين أظهر الناس في هذه البلاد»[2].

وأشهر شراح التسهيل في الإقليمين:

١ ــ العلاّمة أبو حيان الأندلسي في كتاب سمّاه: «التنخيل الملخص من شرح التسهيل» وله شرح آخر سماه: «التذييل والتكميل» أورد فيه اعتراضات على المصنّف ثم جرّد أحكام هذا الشرح في ارتشاف الضرب وتوفي أبو حيّان سنة ٧٤٥هـ.

٢ ــ شهاب الدين أحمد بن يوسف الشهير بالسمين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٦هـ.

---

(١) انظر: مقدمة التسهيل بتحقيق زميلنا الدكتور كامل بركات.

(٢) البغية: ٥٥ وقد حقق الجزء الأول منه زميلنا الدكتور عبد الرحمن السيّد.

(٣) حقق الجزء الأول منه زميلنا الدكتور كامل بركات.

٣ ـ الشيخ عبد الرحمن بن عقيل المصري النحوي المتوفى سنة ٧٦٩هـ وسمَّى شرحه: «المساعد»، وهو شرح ممزوج.

٤ ـ محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد المعروف بناظر الجيش الحلبي المتوفى سنة ٧٧٨هـ، واعتنى بالأجوبة الجيِّدة من اعتراضات أبي حيان.

٥ ـ بدر الدين محمد بن محمد الدماميني وهو شرح ممزوج متداول، ذكر فيه أنه لما قدم إلى «كنيابة» من أواخر شعبان سنة ٨٢٠هـ وجد فيها هذا الكتاب مجهولاً لا يعرف، واتفق أن استصحبه معه، فرآه بعض الطلبة، والتمس منه شرحه فشرحه وسمّاه: «تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد».

وله شرحان آخران أحدهما يسمى «شرح المصرية» ألّفه بمصر وهو بقّال، وثانيهما «شرح ممزوج»، وصل إلى حرف الفاء[2].

(د) عمدة الحافظ وعدّة اللافظ:

وهو مقدّمة في النحو، ثم صنّف إكمالاً عليه، ثم شرحه[3].

ومن العلماء الذين أَسْهَموا في شَرحِه:

أبو أمامة بن النقاش محمد بن علي المصري المتوفى سنة ٧٦٣هـ.

* وأبو ياسر محمد بن عمّار المالكي النحوي المتوفى سنة ٨٤٤هـ

* * *

---

(١) حاضرة من حواضر الهند.

(٢) انظر شروح التسهيل في كشف الظنون: ١/٤٠٦.

(٣) حققه الأستاذ عدنان عبد الرحمن الدّوري.

ومن أشهر الكتب النحوية لأبي حيّان الأندلسي التي أسهمت في الحركة العلمية التي سادت عصر المماليك ما يأتي:

(أ) التنخيل الملخّص من شرح التسهيل:

لخّص أبو حيّان في هذا الكتاب شرح المصنّف، وتكملة ولده.

(ب) إرتشاف الضَّرَب من لسان العرب:

ذكر أبو حيّان في هذا الكتاب أن المتقدمين ربّما أهملوا كثيراً من الأبواب وأغفلوا ما فيه الصّواب.

(ج) التذكرة في العربية:

قال السيوطي: وقفت عليها وانتقيت منها كثيراً[1].

هذا وقد توفي أبو حيّان في يوم السبت بعد العصر في الثامن والعشرين من صفر سنة ٧٤٥هـ[2].

* * *

ومن أشهر الكتب النحوية لابن هشام التي أسهمت في الحركة النحوية:

(أ) كتاب: «الإعراب في قواعد الإعراب»:

وهو رسالة صغيرة طُبعت بالقسطنطينية عام ١٢٩٨هـ، ونشرها مع ترجمة فرنسية (ده ساسي) عام ١٩١٩م[3].

---

(١) انظر: كشف الظنون: ٦١/١.

(٢) نفح الطيب: ٢٩٢/٣ تحقيق محمد محيي الدين.

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٢٩٦/١.

(ب) الألغـــاز:

وهو كتاب في مسائل نحويّة، صنّفه لخزانتـه السلطان الملك الكامـل، وطبـع في مصر.

(ج) أوضح المسالك إلى ألِفية ابن مالك:

ويعرف هذا المصنّف خطأً باسم: «التوضيـح» طبـع مراراً بالقاهرة.

(د) شرح شذور الذهب:

طبـع مراراً.

(هـ) شرح قطر الندا، وبلّ الصّدى.

(ز) شرح اللمحة البدريّة في علم اللغة العربيّة[1].

(ح) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب:

طبـع مراراً[2].

* * *

هـذه هي أشهر كتب ابن هشـام النحويّـة كما سجلتهـا دائـرة المعـارف الإسـلاميـة[3] ولــه عـدة كتب أخـرى في اللغـة، وفي النحــو اكتفيت منهـا بما ذكرت لأنها الكتب السائدة في عصرنا هذا، وتؤدي رسالة النحو فيه، كمـا أدّته في عصر المماليك وفي حياة السيوطيّ.

* * *

---

(١) حقق الدكتور هادي نهر.

(٢) حققه الدكتور مازن المبارك، نشر دار الفكر بيروت وحققه أيضاً المرحوم الأستـاذ محمد محي الدين، طبـع القاهرة.

(٣) ١/٢٩٦.

المدارس في عصر السيوطيّ:

في حياة السيوطي وفي العصر الذي عاش فيه أي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، وأوائل القرن العاشر الهجري حيث توفي السيوطيّ ٩١١هـ ـ كثرت المدارس وتعدّدت، وزادت وانتشرت في كل أقاليم الديّار المصرية مما جعل السيوطي في «حسن المحاضرة» وهو المستوعب لدقائق الأشياء، المستقرىء لأحداث عصره في ميدان العلم والفكر لم يستطع أن يحصر هذه المدارس، واقتصر في كتابه على ذكر الأمهات فقط حيث عنون للحديث عنها بقوله: «ذكر أمّهات المدارس، والخانقاه العظيمة بالديّار المصرية».

وقد تحدّثت فيما سبق عن أشهر المدارس التي أنشئت في مصر قبل القرن التاسع الهجري بما فيه الكفاية، ونودّ الآن أن نتحدّث عن أشهر المدارس التي أُنشئت في القرن التاسع الهجري أو أُنشئت قبل ذلك، وظلت تؤدي رسالتها في حياة السيّوطي.

أمّا المدارس التي أنشئت قبل القرن التاسع الهجري، واستمرّت في أداء رسالتها في القرن التاسع الهجري إلى حياة السيوطيّ أو عصره فأشهرها:

(أ) المدرسة الخشّابيّة:

وردت كلمة: «الخشابية» في «الذيل على رفع الإصر»[1] للسخاويّ، مبيناً أنها بلدة بالمنوفية من أقاليم مصر.

فالمدرسة الخشّابية ـ فيما يبدو ـ منسوبة إلى هذه البلدة.

---

(١) الذيل على رفع الإصر: ١٠٢.

وعاود السخاويّ ذكر «الخشابية» في كتابه الشهير: «الذيل على رفع الإصر»[١] عند ترجمته: لـ «البليقيني» فبعد أن ذكر أنه ولّى القضاء، وعزل عنه مرات متعدّدة حاول البلقيني أن يسعى إلى استقراره في مدرسة الخشّابية عِوضاً عن القضاء، وقد تمّ له ما أراد بعد أن ساعده أخصّاء السلطان وجلساؤه وأعلموه كما يقول السخاويّ: «أنها أجلّ وظائف الشافعيّة ولأجل ذلك كانت مع ابن عقيل لتقدّمه في الفقه والعلوم على القاضي: عز الدين بن جماعة، وانتقلت [أي هذه المدرسة] إلى البلقيني الكبير لكونه قد صاهر «ابن عقيل»[٢] على ابنته، فأولدها كلاًّ من ولديه: «البدر والجلال» فباشرها البلقيني [أي المدرسة] نحو أربعين سنة ولم يبيّنوا أنها لم تنتقل له إلّا بعد ولد ابن عقيل، إما لكونه غير موافق لهم في غرضهم، أو ماعلموه كما هو الظاهر.

ثم انتقلت من بعد البلقيني لولده القاضي جلال الدين، فباشرها بضع عشرة سنة، ثم انتقلت من بعده لأخيه هذا، فباشرها بضعاً وعشرين سنة، فلها بأيديهم نحو مائة سنة منذ استقل بها ابن عقيل[٣]!!

هذا، ومن أشهر العلماء الذين تولوا مشيخة هذه المدرسة أو درسوا فيها غير ابن عقيل: الحافظ ابن جماعة قاضي القضاة، قال السيوطيّ: «ولى القضاء بالديار المصرية وتدريس الخشّابية»[٤].

* وصدر الدين محمد وهو ابن ابن المرحّل المعروف زين الدين

---

(١) الذيل على رفع الإصر: ١٦٢.
(٢) صاحب شرح الألفية المشهور.
(٣) الذيل على رفع الإصر: ١٦٢.
(٤) حسن المحاضرة: ١/٣٥٩.

أبو حفص عمر بن مكي بن عبد الصمد، ولد بدمياط سنة ٦٦٥هـ، وتفقه بأبيه ودرس بالخشّابية[١].

* الشهاب بن الأنصاريّ أبو العبّاس: أحمد بن محمد بن قيس، ويعرف بابن الظهير شيخ الشافعية بالديار المصرية، والمتوفى بالطاعون سنة ٧٤٩هـ قال السيوطيّ عنه: درّس بالخشّابية [٢].

* ومن الذين تولّوا مشيخة الخشّابية في حياة السيوطيّ وعصره شيخ السيوطيّ قاضي القضاة علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدين، حامل لواء المذهب الشافعي في عصره، ولد سنة ٧٩١هـ، وتولّى مشيخة الخشابية[٣].

(ب) المدرسة الصلاحية:

تنسب هذه المدرسة إلى مؤسسها الأول وهو السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٧٢هـ.

ويقول السيوطيّ عن هذه المدرسة ما نصّه: «ينبغي أن يقال لها: تاج المدارس، وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعيّ، ولأن بانيها أعظم الملوك، ليس في ملوك الإسلام مثله، لا قبله ولا بعده».

ويذكر السيوطيّ أن أول من جعل له التدريس والنظر بها هو الشيخ نجم الدين الخبوشاني، وشرط له صلاح الدين من المعلوم في كل شهر أربعين ديناراً، وجعل له عن معلوم النظر في أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز في كل يوم ستين رطلاً بالمصري وراويتين من ماء النيل.

---

(١) المصدر نفسه: ٤١٩/١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢٧/١.

(٣) المصدر نفسه: ٤٤٤/١.

ثم قال السيوطي: فلما كان سنة ثمان وسبعين وستمائة ولى تدريسها تقي الدين بن رزين وقرر له نصف المعلوم، فلما مات وليها الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم، فلما ولّي الصاحب برهان الدين الخضر السنجاري التدريس، قرّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف».

ويمضي السيوطيّ متحدثاً عن مشايخ هذه المدرسة ومدرّسيها إلى أن يقول: «ثم وليها في سنة ٧١١هـ ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن منصور النشائي، ومات سنة ٧١٠هـ، ثم وليها مجد الدين حرمي بن قاسم بن يوسف الفاقوسيّ إلى أن مات سنة ٧٣٤، ثم وليها شمس الدين بن القمّاح، ثم ضياء الدين محمد بن إبراهيم المناوي، ثم شمس الدين بن اللبّان، ثم بهاء الدين بن الشيخ تقي الدين السبكي».

وفي النصف الثاني من القرن التاسع أو قبله بست سنوات تقريباً وليها العلاء القلقشندي بعد نور الدين علي بن عمر التّلوانيّ الذي أقام بهذه المدرسة مدة طويلة إلى أن مات في ذي القعدة سنة ٨٤٤هـ.

وبعد العلاء القلقشندي تولّاها القاياتي، ثم الشّنطي ثم الشرف المناويّ، ثم ولده زين العابدين، ثم ابنه، ثم إمام الكاملية(١). ومعظم هؤلاء الشيوخ الذين تولوا هذه المدرسة في النصف الثاني من القرن التاسع شيوخ أو معاصرون للسيوطيّ.

(ج) المدرسة الشيخونية:

أنشأ هذه المدرسة الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ٧٥٧هـ وهي المعروفة الآن بجامع شيخون بحي القلعة(٢).

---

(١) انظر حسن المحاضرة: ٢/٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) انظر: فهرس الذيل على رفع الإصر: ٤٩٢.

وقد تتلمذ السيوطيّ في هذه المدرسة على الشمس محمد بن موسى الحنفيّ إمام الشيخونية[1].

وقد تصدّر السيوطي في هذه المدرسة لتدريس الفقه مكان أبيه[2] وهذه المدرسة على الرغم من قِدمها بقيت مستمرة في العطاء حتى عصر السيوطيّ.

(د) المدرسة المحموديّة:

أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الإستادار سنة ٧٩٧هـ بقصبة رضوان، وبأول شارع الخيمية ما بين عطفة زقاق المسك وجامع، ويعرف هذا الجامع الآن بجامع محمود الكردي[3].

وعلى الرغم من أن السيوطي لم تنص كتب التاريخ على أنه تتلمذ في هذه المدرسة أو تصدّر بها، أو علّم فيها فإن علاقة السيوطيّ بها نابعة من علاقته بمكتبتها، فقد نصّ السخاويّ على أنه: «أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها، فَغَيَّرَ فيها يسيراً، وقدّم وأخّر ونسبها لنفسه[4]».

* * *

المدارس التي أُنشئت في القرن التاسع:

المدارس التي أُنشئت في القرن التاسع الهجري في القرن الذي ولد السيوطيّ في أواخر منتصفه الأول كثيرة العدد، منوّعة الاتجاه، ولا أستطيع أن الِمّ بها في هذا البحث الضيّق ونكتفي فقط بأشهرها:

---

(١) الضوء اللامع: ٣/٦٥.
(٢) المصدر نفسه: ٣/٦٦.
(٣) انظر: فهرس الذيل على رفع الإصر: ٤٩٤.
(٤) الضوء اللامع: ٣/٦٦.

من هذه المدارس:

(أ) المدرسة المؤيدية:

انتهت عمارة هذه المدرسة في سنة ٨١٩هـ، وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار، واتفق بعد ذلك بسنة ميل المئذنة التي بُنيت لها على البرج الشمالي بباب زويلة.

وقد أثار هذا الميل تقيّ الدين بن حجة، فقال في ذلك أبياتاً:

على البرج من بابي زويلة أنشئت ... منارةُ بيت الله للعمل المنجي
فأخْذَبَها البرجُ اللعين أمالها ... ألا صرِّحوا يا قومُ باللّعْن للبُرْج

وقال فيها أيضاً الحافظ ابن حجر:

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزَّيْنِ
نقول وقد مالت عن القصد أمهلوا ... فليس على جسمي أضرّ من العين

ومن العلماء الذين قاموا بتدريس التفسير فيها محمود بن محمد الأقصرائي المتوفى ٨٢٦هـ[٢].

ومن الذين درسوا فيها الفقيه صاحب السيوطيّ المشهور شريكه في تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي، المتوفى سنة ٨٦٤هـ، وأشهر مؤلفاته المطبوعة: «تفسير الجلالين»، الذي قال عنه السيوطيّ: «وأجلّ كتبه التي لم تكمل تفسير القرآن، كتب منه من أول الكهف إلى آخر القرآن في أربعة

---

(١) انظر حسن المحاضرة: ٢/٢٧٢.

(٢) انظر بغية الوعاة: ٢/٢٨٢.

عشرة كراساً، وهو ممزوج محرّر في غاية الحسن، ثم قال السيوطيّ: وقد أكملته بتكملة على نمطه من أول البقرة إلى آخر الإسراء»[1].

* ومن العلماء الذين تولوا مشيخة هذه المدرسة الدّيريّ قاضي القضاة شمس الدين محمد بن عبد الله المقدسي مات في ذي الحجة سنة ٨٢٧هـ[2].

* ووليها أيضاً ابنْ قاضي القضاة سعد الدين مسعد بن قاضي القضاة شمس الدين الديريّ، فقد نص السيوطيّ على أنه ولّى مشيخة المؤيديّة[3].

(ب) المدرسة الجمالية:

وهي المدرسة التي أنشأها الوزير مغلطاي الجمّالي سنة ٨٣٠هـ، تعرف الآن بزاوية الجمالي بين: «حارة الفراخة بقصر الشوق» بالجمالية[4].

ومن المشايخ المرموقين الذين تولوا أمر هذه المدرسة، وأقاموا فيها الشمني[5]. شيخ السّيوطيّ الذي سنفرد له ترجمة فيما بعد ــ إن شاء الله.

* * *

ونكتفي بهذا القدر اليسير من عرض أهم المدارس التي أنشئت قبل عصر السّيوطي وظلت تؤدي رسالتها إلى عصره حيث تصدر شيوخه ومعاصروه في هذه المدارس لتتحول إلى منارات علمية من عصر رماه الجاهلون بعصر التأخر والانحطاط، مع أنه أزهى عصور العربية على الإطلاق.

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٢٤٤.
(٢) حسن المحاضرة: ١/٤٧٤.
(٣) حسن المحاضرة: ١/٤٧٤.
(٤) انظر: فهرس الذيل على رفع الإصر: ٤٩١.
(٥) انظر: بغية الوعاة: ١/٣٧٧.

كما تحدّثنا عن أهم المدارس التي أنشئت في عهده، وفي عصره وهي سيل لا ينقطع يجري في أنحاء البلاد، ينبت النبات، ويخرج الثمرات لتؤتى أكلها بإذن ربها.

* * *

أشهر العلماء في عصر السيوطي:

العلماء الذين ظهروا في حياة السيوطي كثيرون، تنوعت تخصصاتهم، وتعدّدت معارفهم، وازدهرت علومهم.

وهؤلاء العلماء كانوا امتداداً للعلماء السابقين في عصر المماليك، حملوا الراية من بعدهم، وسلكوا دربهم، وبرعوا في مختلف العلوم والفنون في الفقه وفي اللغة، وفي النحو، وفي الحديث، وفي التاريخ، وفي الطب والحساب.

وقد أفاض السيوطيّ في كتابه: «نظم العقيان في أعيان الأعيان» في ذكر هؤلاء العلماء مسجلاً لهم حياتهم، مسطراً على صفحات كتابه معارفهم، ذاكراً لهم ما طرُف من حوادثهم، وما عظُم من مآثرهم وما راق من أشعارهم.

والذي يهمّنا من هذه التراجم المتعددة تراجم العلماء المعاصرين الذين ظهروا في حياة السيوطيّ سواء سمع منهم، أو لقيهم أو حاورهم أو ناقشهم.

وإلى جانب ذلك نُحب أن نسطّر في هذا الفصل أيضاً الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، وأفاد منهم، وأخذ عنهم.

وسنتناول في هذا المقام العلماء المعاصرين أولاً، ثم العلماء الذين حاورهم وناقشهم ثانياً ثم العلماء الشيوخ الذين أخذ عنهم وتتلمذ عليهم ثالثاً.

□ □ □

أولاً :
أشهر العلماء المعاصرين للسّيوطيّ

(أ) الشهاب المنصوريّ، الهائم أحمد بن محمّد:

وهو أحمد بن محمد بن علي بن محمد . . . شهاب الدين المنصوريّ الشافعيّ ثم الحنبليّ المعروف بالهائم.

ولد سنة ثمان أو تسع وتسعين وسبعمائة بالمنصورة، ورحل إلى القاهرة سنة خمس وعشرين وثمانمائة، فبحث «التنبيه» على القاضي شرف الدين عيسى، والألِفيّة على الشيخ شمس الدين الجنديّ، وبحث عليه كتابه في النّحو «الزبدة والقطرة»، وقال يمدحه لمّا فرغ من القراءة:

ثناؤك شمسَ الدّين قد فاح نشرُه لأنك لم تبرح فتىً طيّب الأصلِ
أفاض علينا بحر علمك قطرةً بها زال عن ألبابنا ظمأ الجَهْلِ

وأخذ النحو أيضاً عن الشيخ شمس الدين القرشيّ شيخ الشيخونية ثم تحوّل حنبلياً لأجل وظيفته بالشيخونيّة، وسمع على الزركشيّ وغيره وجمع ديوان في مجلّد ضخم،مات في سنة سبع وثمانين وثمانمائة.

وقد أفرد له السّيوطيّ في كتابه: «نظم العقيان» ترجمة طويلة ذاكراً فيها كثيراً من أشعاره التي مدح فيها النبي عليه السلام، والتي عبّر بها عن ما لقيه من أهل عصره من الأذى والضرر.

ومن أبياته في مدح النبي عليه السلام:

أذكت بروق الحمى في مهجتي لهباً	فأنشأتْ مقلتي من جفنها سُحُبا
يا نازلين بقلبي طاب منزلكم	ويا عريب الحمى حُيِّيتُم عَرَبا
جزتم على البان فاهتزت معاطفه	وأَرْخَت الدَّوحُ من أغصانها عذبا
عجبت كيف سكنتم من محبّكُمُ	قلباً خفوقاً من الأشواق مضطرباً

إلى أن يقول:

من أطلع الله من لألاء غرته	بدراً، وأنزل في أوصافه كتبا
وأقبلت نحوه الأشجار طائعةً	فكان أحسن طرفيه الذي ذهبا
به هدى الله أقواماً أعزّبهم	ديناً أذلّ به الأوثان وانقلبا

ومن أشعاره التي عبّر بها عمّا لقيه من الناس قوله:

إذا سبّ عرضي ناقص العقل جاهل	فليس له إلّا السكوت جوابُ
ألم ترَ أن الليث ليس يضيره	إذا نَبَحَتْ يوماً عليه كلابُ

وقال مستعملاً مصطلحات النحاة:

قلت لنحوي يقول اصرفوا	عنا جموعاً وهو يعنينا
إلى متى بالصرف تهدي إلى	قلوبنا كسراً وتنوينا

وقال واعظاً:

إني امرؤ جارٍ على عادة	مألوفة طبعي بها قانعُ
إن يمنع الله تعالى فلا	معطٍ، وإن يعطِ فلا مانعُ[1].

---

(١) نظم العقيان: ٧٧ ـ ٨٢.

(ب) كمال الدين محمد بن محمد بن إمام الكامليّةُ:

ولد في شوال سنة ٨٠٨هـ، وسمع الحديث عن الشيخ وليّ الدين العراقي والواسطيّ، وابن الجزريّ.

وأخذ الفقه عن الشمس البرماوي، والشرف السبكي، والأصول العربية على البساطي والقاياتي والونائي وغيرهم.

وبرع في الفنون، وألّف كتباً منها: «مختصر تفسير البيضاوي»، «مختصر شرح البخاري»، للبرهان الحلبي، وله شرحان على منهاج البيضاوي، «وشرح مختصر ابن الحاجب»، «ونُكَت على منهاج النووي».

وولّي تدريس الحديث بالكامليّة، ومشيخة الصالحية بجوار الإمام الشافعي مات في شوال سنة ٨٧٤هـ(١).

(ج) البلقيني بدر الدين محمد بن محمد:

ولد سنة ٨٢١هـ. وتفقّه وأخذ عن الأشياخ، وبرع وعبّر. وولّي قضاء القضاة بالديار المصرية نحو أربعة أشهر، ثم عُزِلَ إلى أن مات في سنة تسعين وثمانمائة(٢).

(د) الأقصرائي:

أمين الدين يحيى بن محمد بن إبراهيم بن أحمد شيخ الإسلام أمين الدين بن الشيخ شمس الدين الأقصرائي الحنفيّ.

---

(١) نظم العِقْيان: ١٦٣.

(٢) نظم العِقْيان: ١٦٤.

ولد سنة ٧٩٥. وأجازت له عائشة بنت عبد الهادي وجماعة، وأخذ الفقه والأصول عن أخيه بدر الدين الأقصرائي، والسرّاج قارىء «الهداية». ولازم العزّ بن جماعة.

ووليَ مشيخة الأشرفيّة والصرغتمشية، وتدريس التفسير والطحاوي بالمؤيدية وغير ذلك.

وانتهت إليه رياسة الحنفية في عصره مع الدِّين المتين، والصلاح المفرط ومساعدة الفقراء، وطلبة العلم، وإبطال المظالم، ومراجعة الملوك في ذلك، وهم يعظّمونه، ويقبلون قوله.

مات في أواخر المحرّم سنة ٨٨٠هـ[١].

(هـ) الباعوني:

هو يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرح الباعوني القدسيّ الشافعيّ، جمال الدين العالِم الأديب البارع.

ولد في جمادى الآخرة سنة ٨٠٥، وسمع على عائشة بنت عبد الهادي وأخذ العلم عن البرهان بن خطيب والشمس البرماويّ.

وولي قضاء صفد، وكتابة السرّ بها. وله النظم الحسن، نظم منهاج النوويّ، أثنى عليه البقاعي في معجمه.

مات سنة ٨٨٠هـ[٢].

---

(١) نظم العقيان: ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٧٨، ١٧٩.

(و) الشيخ خالد الأزهري:

هو خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن أحمد الجرجي الأزهريّ الشافعيّ النحويّ، ويعرف بالوقّاد.

ولد بجرجا ٨٣٨ تقريباً من الصعيد.

وتحوّل وهو طفل مع أبويه إلى القاهرة، فقرأ القرآن، و«العمدة»، و«مختصر أبي شجاع».

ثم دخل الأزهر فقرأ فيه: «المنهاج».

وشيوخه الذين أخذ عنهم ذكرهم السخاوي في «ضوئه»، فقال: وقرأ في العربيّة على يعيش المغربي، وداود المالكي والسهنوري ثم لازم الأمين الأقصرائي في: «العضد» وحاشيته، والتقيّ الحصني في المعاني والبيان، و«المنطق والأصول»، و«الصرف والعربيّة»، وكذا أخذ قليلاً عن الشمني[1].

وقرأ على الجوجري، وإبراهيم العجلونيّ، والزين الأبناسيّ.

وأخذ الفرائض والحساب عن السيّد علي تلميذ ابن الجديّ.

وذكر السخاويّ: أنه سمع منه يسيراً.

وبرع في العربيّة، وأقرأ الطلبة، ولازم تغري بردي القادري فقرّره في المسجد الذي بناه الدوادار بخان الخليلي، وتنزّل في «سعيد السعداء» وغيرها.

ومن مؤلفاته: أنه شرح الأجروميّة وغيرها، وكتب على التوضيح

---

(١) الشمني: هو شيخ السّيوطيّ كما سيأتي، إن شاء الله.

لابن هشام[1] ويزيد الشيخ نجم الدين العـزّي في كتابه «الكواكب السائرة» أنـه: صنف شرحـاً على «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشـام» وهو المشهور «بالتوضيـح». وشرحاً على قـواعد الإعـراب لابن هشام، وآخـر على الجزرية في التجويد، وآخر على البردة والمقدمة الأزهرية.

وذكر الغزّي وفاته وبيـن أنهـا كانت في رابع عشر المحرّم ٩٠٥هـ بعـد أن حجّ ووصل إلى بركة الحاج خارج القاهرة.. وحصل له مِحْنة من العرب، رحمه الله[2].

(ز) الأشمـوني:

هو علي بن محمد بن عيسى بن يوسف بن محمد النور، أبو الحسن بن الشمس بن الشـرف الأشمـوني الأصـل، ثـم القـاهـريّ الشـافعـيّ، ويعرف بالأشمونيّ.

ولد في شعبان سنة ٨٣٨ أي قبل ميلاد السيوطي بست سنوات، بنواحي قناطر السّباع.

حفظ القرآن، والمنهاج، وجمـع الجوامـع، وألِفيّة النحـو لابن مالـك، وأخذ الفقه عن المحلّى، والعلم البلقيني والمناويّ.

وأخذ في الأصلين والعربية والفرائض وغيرها عن جماعة.

ومن شيوخه في هذه العلوم الكافيجي، وسيف الدين، والتقي الحصني والشارمساحيّ.

---

(١) انظر: ترجمته في الضوء اللامع الجزء الثالث: ١٧١، ترجمة رقم (٦٦١).

(٢) الكواكب السائرة: ١/١٨٨.

وتميّز وبرع في الفضائل، وتصدّى في تلك النواحي للإقراء من سنة ٨٦٤ فانتفع به الطلبة، وحضر بعض خُتُومه العبّادي، والفخر المقسيّ ومؤلفاته كما ذكرها السخاويّ هي:

* شرح ألفيّة ابن مالك [وهو الشرح الذي ما زال حتى هذه اللحظة يُدرّس في الجامعات العربيّة والإسلامية].

* شرح قطعة من التّسهيل.

* ونظم جمع الجوامع، ومجموع الكلائي، وإيساغوجيّ في المنطق، وعمل حاشية على الأنوار للأردبيليّ وغيرها.

وردّ على البقاعيّ انتقاده قول الغزاليّ: «ليس في الإمكان أبدع مما كان». ويفضل السّخاويّ الأشموني على السّيوطيّ، فيقول: «ورجّح على الجلال الأسيوطيّ مع اشتراكهما في الحمق[1].

وينصّ ابن العماد الحنبلي على أن الأشموني توفي سنة ٩٢٩، فيقول: «وفيها تقريباً نور الدين أبو الحسن علي الأشموني الشافعيّ ويزيد ابن العماد على السّخاويّ أنه أخذ القراءات عن ابن الجزري ومع أن السّخاويّ يصفه بالحمق يصفه ابن العماد بالزهد، فيقول: «وكان متقشفاً في مأكله وملبسه وفرشه»[2].

---

(١) الضوء اللامع: ٥/٦.

(٢) انظر شذرات الذهب: ١٦٥/٨.

أشهر النساء العالمات المعاصرات للسّيوطيّ

وقد أسهمت المرأة المسلمة في الميدان العلمي في عصر المماليك، وبخاصة في عصر السّيوطيّ، ناقشت الرّجال في الرواية والحديث، فكان منهن الشيخات والمحدّثات.

ومن أشهر المعاصرات للسّيوطيّ:

(ح) زينب بنت العراقي:

وهي ابنة شيخ الإسلام حافظ العصر زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي.

ولدت في ذي الحجة سنة ٧٩٢هـ، وسمعت على أبيها والهيثمي وحدّثت، ماتت في سنة ٨٦٥هـ[١].

(ط) زينب بنت السّبكي:

وهي ابنة قاضي القضاة أبي الحسن عليّ بن العلاّمة قاضي القضاة: بهاء الدين أبي البقاء محمد بن عبد البرّ السبكي.

سمعت الصحيح على عائشة بنت عبد الهادي، وحدّثت، ماتت سنة[٢].

(ي) عائشة الباعونيّة:

عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الدين الشيخة الأديبة العالمة الفاضلةأم عبد الوهّاب الصوفية الدمشقيّة بنت الباعوني، أحد أفراد الدهر،

---

(١) نظم العقيان: ١١٤.

(٢) علّق المحقّق في هامش نظم العقيان: ١١٤، بقوله: بياض في الأصل وفي: «ليدن».

ونـوادر الزمـان فضلاً وعلمـاً، وأدباً وشعـراً، وديـانـةً وصيانـةً، هكـذا وصفهـا نجم الـدين الغزّي في كتـابه «الكـواكب السائـرة». وتحدّث عن رحلتهـا إلى القاهرة، فقال: «ثم حملت إلى القاهرة ونالت من العلوم حظاً وافراً، وأجيزت بالإفتاء والتدريس».

ومن مؤلفاتها:

* «الفتح الحنفي» يشتمل على كلمات لدنية، ومعانٍ سَنِيَّة.

* وكتاب «الملامح الشريفة، والآثار المنيفة» يشتمل إنشادات صوفية، ومعارف ذوقية.

* وكتـاب: «در الغـائص في بحـر الـمعـجـزات والخـصـائص» وهو قصيدة رائية.

* وكتـاب: «الإشارات الخفيّـة في المنـازل العَليّـة»، وهي أرجـوزة اختصرت فيها منازل السائـرين للهروي، وأرجـوزة أخرى لخصّت فيهـا القول البديـع في الصلاة على الحبيب الشفيـع للسّخاوي. هذا وقد أورد لنا الغـزّي قطعة من منثورها، وبعض قصائد من شعرها فمن منثورهـا، قولها:

وكان مما أنعم الله تعـالى به عليّ أنني بحمـده لم أزل أتقلّب في أطوار الإيجـاد، في رفاهيـة لطائف البـرّ الجـواد، إلى أن خـرجت إلى هـذا العـالم المشحون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته، وبـدائع آيـاته، المشـوب موارده بالأقذار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممـرّ لا بقاء لهـا إلى دار القرار فـربّاني اللطف الـربّاني في مشهـد النّعمة والسلامة، وغذّاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقـامة، في بلوغ درجـة

التمييز، وأهَّلني الحق لقراءة كتابه العزيز، ومنّ عليَّ بحفظه على التمام ولي من العمر ثمانية أعوام، ثم لم أزل في كنف ملاحظات اللّطيف حتى بلغت درجة التكليف».

ومن شعرها:

أن شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العبّاسيّ القاهريّ كتب إليها ملغزاً.

قل لمن بالقريض بزّ الفحولا ... فانثنى عن قصورهم مستطبلاً
وأرانا عرائس الشغر تجلى ... بمعان أضحى علاها جليلا
رانيات من زاهيات المعاني ... في مسروط تجر فيها الذيولا
مسفرات عن حُسن معنى بديع ... من سناه تبغي البدور أفولا

فأجابته بقولها:

يا حسيباً قد حاز مجداً أثيلا ... وفخاراً بالمصطفى لن يحولا
وإماماً فيما حوى لا يجارى ... في علوم حوت له التفضيلا
جئتنا بالعجاب نظماً تحلّى ... من لآلى البديع عقداً جميلا

هذا، وقد نصّ الغزّي أنها دخلت حلب ٩٢٢هـ والسلطان الغوريّ، بها لمصلحة لها كانت عنده، فاجتمع بها من وراء حجاب البدر السيوفيّ، وتلميذه الشمس السفيري وغيرهما ثم عادت إلى دمشق، وتوفّيت بها من السنّة المذكورة ـ رحمها الله تعالى ـ[1].

* * *

(١) الكواكب السائرة: ٢٨٧/١ ـ ٢٩٢.

ثـــانيــاً:

علماء معاصرون جرت بينه وبينهم مناقشات

من هؤلاء المعاصرين الذين حدث بينهم وبينه ألوان من الجدل ، وأنماط من الحوار، وأنواع من التساؤلات والإجابات:

(أ) الشيـخ برهان الدين بن عليّ بن محمد:

برهان الدين، قاضي مكة.

ولد في جمادى الآخرة سنة ٨٢٥هـ، وأخذ العلم عن عمّه القاضي أبـي السعادات وغيره.

وصـاحب التـرجمـة هـذا كمـا يقـول السّيـوطي لازم والـده السّيــوطي بمكة والقاهرة.

ومن شيوخه الحافظ بن حجر، والكمـال بن الهمّام، الشُّمُنِّي والمنّـاوي والكـافيجي، وبـرع ومَهَـرَ في الفنـون، وولّي قضـاء مكـة المشـرفـة نحــو ثلاثين سنة، وانتهت إليه رياسة الحجاز على الإطلاق كما يقول السّيوطي.

مـــات في ليلة الجمعـة ســادس ذي القعـدة سنـــة ٨٩١هـ. ويتحـدّث السّيوطي عن قصة وقعت معـه جعلت السّيوطي ينفـر منه بعض النفـور، وكان السّيوطيّ يتوقع منه غير ذلك. وسبب النفور منه أنّ صاحب التـرجمة لم يعطِ

الوفاء حقّه، وظنّ السيوطيّ لمّـا ذهب إلى مكة، ولقيـه هناك أن ينـزله منـزلته التي يستحقّهاكرجل علم، وطالب معرفة، ويبدو أن الشيخ عامله كمـا يعامـل المصريين الذين يفـدون إلى مكة، ويتقـرّبون إليـه متملّقين بسبب مالـه الذي يغـدقه على الوافدين عليه، ولكن نفس السّيوطي لم تسترح لهـذه المعـاملة، فالسّيوطي في نظر نفسه فوق المال، وفوق التملّق، فلم يرض لنفسه أن يكون واحداً من هؤلاء الذين يعيشون في كنفه.

وحدّثت جفوة بينهمـا، وحدث جـدال علميّ بينه وبين هـذا الشيـخ في مسألة علميةٍ، كان السّيوطي على حقٍّ فيها ولمّـا رجع إلى مصـر أصلح بينهما أهل الخير فعاد الصفاء وكتب السيوطيّ رسالـة دبّجها بقلمـه البليـغ ألوانـاً من العتاب وأصنافـاً من الأدب الرقيق تـدل على أنه صاحب قلم معبّر، وبيان رائع على الرغم من أنه لتواضعه وصفاء نفسه كان ينكر أن يكـون من أهل التـرسّل البلغاء، لأنه جعل الإنشاء والتّرسل في تـرجمته لنفسـه آخر المعـارف التي ألمّ بها ـ كما سنبين فيمـا بعد عنـد تعرّضنـا للعلوم التي نبـغ فيها، والتي جـانبـه فيها النبوغ، وبهذه الرسالة عاد الصفاء، واتصل حبل الودّ والإخاء.

وحتى نتيح للقارىء المتعة الفكريـة والأدبيّة نتـرك السّيوطي يحـدثنا عن قصّته مع صاحب الترجمة بأسلوبه وبقلمه.

قال السّيوطي ما نصّه: «ولمّا جاورت مكة المشرّفة اتفقت لي معه قضية أوجبت بعض النفور لمّا كنت أرى أنه لا يصدر منـه ذلك، لأنـه نشوّ والـدي، وغرس نعمته، وتربية بيته، لأنه كـان في أول أمره فقيـراً مملقاً خـاملاً، فكـان والـدي هو الـذي يؤويه، ويقـوم بمئونتـه، ويعلّمه العلم، ويعـرّف به الأكـابـر ويسعى له بالمرتبات، فلمـا صار إلى مـا صار إليـه، ورحت إلى هناك رامَ أن

أكون في كنفه وتحت لوائه، كما كان هو عند والدي وكما يكون أهل مصر عنده، رغبة في ماله، وأنا لست هناك، إنما أراه واحداً من جماعة أبي كان يحملني وأنا صغير على كتفه، فلم يبلغ مني ما رامه، فكان لا يزال يعتبني على ذلك، ويرسل إليَّ من يعتبني فلا أزداد إلاّ شهامة.

ثم إني حضرت عنده ختم البخاريّ، فأخذ يتكلّم في فضل التواضع وذمّ المتكبرين خصوصاً في الحرَم، ففطنت أنه يعرّض بي، فالتفتّ إليه، وأوردت عليه عدّة أسئلة في الحديث الذي كان يتكلّم فيه، فأجاب عنها بما لا يُرْضي، فبحثت معه إلى أن انقطع، واعترف بالاستفادة منّي، ونقلت له نقلاً عن: «الارتشاف»، فأنكر، ثم أرسل أحضره من البيت، فوجد النقل فيه كما ذكرت، فخضع، وصار في نفسه ما فيها.

ثم مشت الأعداء، واشتد الشقاق، بحيث خرجت من مكة، ولم أودّعه.

ثم قدم القاهرة بعد سنين، فسألني بعض الأمراء أنه يجمع بيني وبينه للصلح فما أجبت.

ثم بعد سنين أخرى أرسل إليه الشيخ عبد القادر بن شعبان الفرضيّ ـ وهو رفيقه في القراءة على والدي ـ كتاباً يسأله فيه أنه يجيء إليَّ ويُقرأني السّلام، ويطلب له مني عِدّة كتب ليستنسخها له، فجاءني وذكر لي ذلك فأجبته إلى ما سئل، وأعطيته الكتب التي سألها، وهي: «الإتقان» و«الأشباه والنظائر» وتكملة «تفسير الجلالين»، و«شرح أَلِفيّة الحديث» و«شرح أَلِفيّة ابن مالك»، والجزء الأول من: «الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور». ثم كتبت له كتاباً بالصفاء، وهذه صورته:

* كتاب الصفاء:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

كُلّ نهرٍ فيه ماءٌ قد جرى   فإليه الماءُ يوماً سيعودُ

يُبدي محبّة كانت في نهر العروق جارية، ومودّة كانت في الآباء ثابتة، وإن كان عطّلها بعض الكدر فهي الآن في الأبناء واهية، على أنه والله شهيدٌ ـ ليس كل ما نقل إلى المسامع الكريمة من تلك الأكدار بصحيح ـ وإن كان بعضه قد وقع فقد اسْتُدْرِكَ بالمَحْو، ولم يقف عليه أعجم ولا فصيح.

ومن نقل ما نقل إنما اعتمد على التّوهّم، وقصد بذلك أغراضاً أدناها التّوسّم، ولست كواحد من هؤلاء، فإن الواحد منهم عَبْد بطنه، إن أعطى مدح وأثنى، وإن مُنِع ذمّ وهجا: وأما أنا فإني أصحب الإنسان على الحالين حقّ الصحبة، وأحفظ له في حضوره وغيبته رفيع الرّتبة، لكن مع حفظ الأدب، والوقوف عند الحقّ المحصّن الخالص من شبه الرّيب.

وقد كان لكم في قلبي من قبل أن أحجّ الحجة الأولى، وقبل أن أراكم من المحبّة ما لا يقدّر قدرها، ولا يستطاع حصرها. وكنت أضمر للمخدوم في قلبي أن أكون له من الناصرين، وعلى أعدائه من الثائرين.

فلمّا حصل الاجتماع بالمخدوم رأيته يراني بغير العين التي أراه ويسوقني مساق الطغام الجفاة، وربّما قدّم عليّ من ليس كشكلي، ولست ممن يرضى بالذّل، ولا يرضى بذلك من كان مثلي:

ولا ألين لغير الحق أسأله   حتى يلين لضرْس الماضغ الحجرُ

فهناك حصل ما حصل، وفرح به العدوّ، وافترى فيما نقل.

وعلى كل تقدير، فقد زال الجفا، وحصل الصّفا، ومحى ما كتب كما أشرتم في سنة ثلاث وسبعين، وبدّل بغاية الإحسان. وكتبت لَهم التراجم الفائقة في أعيان العصر، فإنكم للأعيان أعيان، مع أن الأصول، بحمد الله تعالى لم تزل محفوظة، والأحساب بعين التنظيم والتبجيل ملحوظة.

وما زلت أعرف لكم حقكم، ومقامكم بذلك حقيق، فمتى يسمح الزمان برئيس يكون له في الرياسة أصل عريق، ويتمسّك من العلم بحبل وثيق. أنتم بحمد الله في رؤساء عصركم كالشامة لما اجتمع لكم من الصفات العليّة، فحسيب، ورئيس، وعالم وعلّامة»[1].

وهذه الرسالة تعتبر نصّاً أدبياً رائعاً يدل على مقدرة السّيوطي البيانية، وأن قلمه ليس مقصوراً على النقل، وسرد الأخبار بل له قدرة على التعبير عمّا في النفس، يغوص في أعماقها ويحرج منها الدر الثمين، من لفظ رائع، ومعنىً بارع.

(ب) النـاجـيّ:

وهو برهان الدين إبراهيم بن محمد المعروف بالناجي، لكونه تمذهب شافعياً بعد أن كان حنبلياً.

ولد سنة ٨١٠هـ. وأخذ الفن عن الحافظ بن ناصر الدين وغيره، وله تصانيف حديثيّة مع الدّين والخير.

وقد حدثت مناقشة دقيقة بين السّيوطي وصاحب الترجمة كشف السّيوطي فيها وجه الحق مما يدل على استيعاب كامل للحديث الشريف ورجاله، واستقراء دقيق لأسماء الروّاة بحيث لا يختلط عليه حرف معجم مع

---

(١) انظر هذه الرسالة في ترجمة ابن ظهيره برهان للدين قاضي مكة في نظم العقيان في أعيان الأعيان: ١٧ ــ ٢٣.

حرف غير معجم، ونترك السّيوطي يحدّثنا بأسلوبه عن هذا الحوار البنّاء بينه وبين صاحب الترجمة، قال السيوطي: «كتب إليَّ بعض أصحابي من دمشق مطالعة يذكر فيها، أن النّاجي اعترض عليَّ في شيئين:

أحدهما: إفتائي أن والديّ رسول الله ﷺ في الجنة، وتصنيفي من ذلك الكتاب الذي ألّفته سنة سبع وثمانين، وسمّيته: «التعظيم والمنّة في أن والديّ المصطفى في الجنة»، وقال: إن الحديث الوارد في إحيائهما ذكره ابن الجوزيّ في «الموضوعات»، قال كاتب المطالعة: وجدت التصنيف المذكور، وذهبت إليه، لننظر جوابه فيه، فلقيت بعض طلبته في الطريق فذكرت له ما أنا قاصد إليه، فقال لي: دعني أنا أكلّمه، فإن عنده حدّة، قال: فذهبت معه إليه، فقال: اعترضتم على فلان بكذا وكذا، فقال: نعم، فقال: إن شيخكم الحافظ بن ناصر الدين قد ذهب إلى مثل ذلك، ومشى على أن الحديث غير موضوع وإنّما هو ضعيف فقط، وذكر له الأبيات الثلاثة التي ذكرها ابن ناصر الدين في كتابه المسمّى: «مَوْرِد الصّادي في مولد الهادي»، قال كاتب المطالعة: فسلّم حينئذٍ. لمّا سمع كلام شيخه.

والثاني: أنه رأى في ألفيتي التي في الحديث:

محمّد بن أتش الصنعاني ... بالتاء والشين بلا تواني

فقال: هذه رواية ضعيفة في بعض نسخ البخاريّ، والصحيح أنه محمد بن أنس بالنون والسين.

قال كاتب المطالعة: فقلت لذلك الطالب: الحقّ ما ذكره فلان، ـ يريدني ـ قال: وقد ذكر ذلك ابن الجوزيّ في «التنقيح».

ثم قال: أنا ذاهب إليه، وأذكر له ذلك، فذهبت معه، فقال له: يا سيدي، اعترضتم على فلان بكذا وكذا، قال: نعم، قال: فإن ابن

الجوزيّ قد ذكر هذا بعينه في: «التنقيح» وأراه له، فقال الناجي: ينبغي أن نصلح نسختنا من البخاري»، انتهى.

وعلّق السّيوطي على هذا الحوار بقوله:

قلت: وهذا منه دليل على عدم حفظه وتحقيقه، فإن محمد بن أنس الذي في البخاريّ الصحيح فيه أنّه بالنّون والسّين كما ذكر أولاً في اعتراضه، وليس هو الصنعاني الذي ذكرته في الألِفيّة، بل هو رجل آخر غيره.

ولو تأمّل نفس الألِفيّة عرف ذلك منها، فإني ذكرْت فيها ما يتعلّق بصحيح البخاري وحده، وما يتعلق بغيره، فإذا لم يهتدِ لذلك، فكان يهتدي إليه في قولي: «الصنعانيّ»، فإن محمد بن أتش الصنعاني لا رواية له في البخاريّ، وهو بالتاء والشين بإجماع أهل الحديث، لا خلاف بينهم في ذلك، ولهذا أشرت إلى عدم الخلاف بقولي: «بلا تواني».

وأمّا الذي في البخاريّ فهو محمد بن أنس الكوفي، وفيه الخلاف، فبعضهم قال: هو بالتاء والشين كالصنعاني، والجمهور قالوا: هو بالنون والسين.. وهو الصحيح.

وقد بيّن ذلك حافظ العصر أبو الفضل بن حجر في كتابه: «المشتبه» وفي مقدّمة شرح البخاريّ. انتهى.

مات الناجي في رمضان سنة تسعمائة[1].

(ج) السّخاويّ:

ترجم لنفسه السّخاويّ في كتابه: «الضوء اللامع»، وهي ترجمة طويلة استوعبت ٢٨ صفحة من كتابه، ولا نستطيع أن نعرض هذه الترجمة بأكملها

---

(١) انظر نظم العقبان: ٢٧ ــ ٢٨.

لأن هذا فوق جهد البحث ولكن نكتفي منها بأهم ما جاء فيها:

* نَسَبَـه:

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمـد بن أبـي بكر بن عثمـان بن محمد الملقّب:شمس الدين السّخاويّ وهو قـاهري الأصل، شافعي المذهب.

* ولادتـه:

ولـد في ربيـع الأول ٨٣١هـ بحارة بهـاء الدين، عِلْـو الـدّرب المجـاور لمدرسة شيـخ الإسلام البلقيني محلّ أبيه وجده. ثم تحوّل منه حين دخل في الرابعة مع أبويه بملْك اشتراه أبوه مجاور لسكن شيخه ابن حجر.

* سيرته العلمية:

أدخله أبوه المكتب بالقـرب من الميدان عنـد المؤدب الشـرف عيسى، ثم نقله لـزوج أختـه الفقيـه الصـالـح البـدر حسين بن أحمـد الأزهـري فقـرأ عنده القرآن.

ومن الكتب التي حفـظهـا في دراستــه: كتـاب «التنبيــه» و«المنهـاج» و«ألفية ابن مالك». وكلما انتهى حفظه لكتاب عرضه على شيوخ عصره.

ومن شيوخه في العربيّة: البرهان بن خضـر أحد أصحـاب عمّه ووالـده فقد أملى عليه عدّة كراريس من مقدمة في العربيّة مفيدة وقرأ عليه غالب شرح الألِفيّة لابن عقيل، وسمـع الكثير من تـوضيحها لابن هشـام وغيره، ومن كتب الفنّ وغيره.

ومن شيوخه في النحـو أيضاً: الشهـاب أبو العبّـاس الحنّاوي الـذي قرأ السّخاويّ عليه مقدمته المسمّاة بالدرّة المضـيّة، وكتب له بخطه إكراماً لجدّه، وتدرّب بها في الإعراب.

وأخذ العربيّة أيضاً عن الشهاب الأبدي المغربي، والجمال بن هشام الحنبلي حفيد سيبويه وقته الشهير.

وأخذ الكثير من الفقه عن العَلَم صالح البلقيني، ومن جملة ذلك «المنهاج» وبعض التدريب لوالده، والتكملة التي له.

وأخذ طرفاً من الفرائض والحساب والميقات، وغيرهما على الشهاب ابن المحبري.

وقرأ الأصول على الكمال بن إمام الكاملية، قرأ عليه غالب شرحه الكبير على البيضاوي.

وحضر كثيراً من دروس التقى الشمني في الأصلين والمعاني والبيان والتفسير.

وفي العربية والصرف والمنطق أخذ أيضاً عن العزّ عبد السلام البغدادي وسمع مع والده الكثير من الحديث على شيخه إمام الأئمة الشهاب بن حجر، ويُسجّل السّخاويّ عدداً كثيراً من مشايخه في كتابه إلى أن يقول: «حتى بلغت عدة من أخذ عنه بمصر والقاهرة وضواحيها كإنبابة والجيزة، وعلو الأهرام، والجامع العمريّ، وسرياقوس والخانقاه، وبلبيس، وسفط الحنّاء، ومنية الرديني وغيرها زيادة على أربعمائة نفس».

والسّخاويّ جاور في مكة سنتين سنة ٩٠٦، ٩٠٧، وأقام في المدينة ثلاثة أشهر.

ولما عاد إلى القاهرة من المجاورة ترك الناس، وامتنع عن الإملاء لمزاحمة من لا يحسن فيها. كما ترك الإفتاء مع الإلحاح عليه فيه حين تزاحم الصغار على ذلك، واستوى الماء والخشبة.

ولم ينس السّخاويّ أن يبيّن لنا مصنفاته، لأنه كما يقول: «شرع في التصنيف والتخريج قبل الخمسين، وقد استوعبت مؤلفاته صفحات كثيرة من كتابه: «الضوء اللامع» ثم سرد مدح شيوخ عصره له، ومن هؤلاء الشرف المنّاوي إذ كتب عنه: «ولمّا أشرف عِلْم الحديث على الاندراس من التدريس حتى لم يبق منه إلاّ الأثر والانفصال من التأليف حتى لم يبق منه إلاّ الخبر انتدب لذلك الأخ في الله تعالى الإمام العالِم العلاّمة والحافظ الناسك، الألمعي الفهامة، الحجّة في السنة على أهل زمانه، والمشمّر في ذلك عن ساعد الاجتهاد في سرّه وإعلانه، فجدّ بجد في حفظ السنّة حتى هجر الوسن، وهاجر بعزم فيها حتى طلّق الوطن.

واشترك الشعراء أيضاً في تمجيد السّخاويّ في علم الحديث، ومن هؤلاء الجديدي الذي يقول:

وافي جوابك فاستنار ظلام ... وغدت بدور الأفق وهي تمام
يا كاتباً كبت العدى لمّا كبت ... من خلفه في شوطها الأقلام
صلي وراءك في الحديث جماعةً ... ممّن يعانيه وأنت إمام

ومن المدارس التي ظفرت بالسّخاويّ في تدريس الحديث الشريف «دار الحديث الكاملية» التي استقرّ فيها عقب موت الكمال. والسّخاويّ يختم حديثه عن نفسه بأن السلطان الظاهر نفسه طلبه في مرض موته، فقرأ عنده «الشفاء» بحضرته.

وقد كان السّخاويّ عفيف النفس غير مقبل على الدنيا بدليل أن الأتابك عرض عليه شفاها قضاء مصر، فاعتذر له، فسأله في تعيين من يرضاه فقال له: لا أنسب من السّيوطيّ قاضيك إلى غير هذا ممّا يرجو به الخير، مع أنه ما له من الجهات لا يسمن، ولا يغني من جوع، ولله درّ القائل:

تقـدمتني أنـاس كـان شـوطهم | وراء خـطوى لـو أمشي على مَهَـل
هـذا جـزاء امـرىء أقـرانـه درجـوا | من قبله، فتمنـى فسحـة الأجـل
فـإن عـلاني مَنْ دوني فـلا عجب | لي أسوة بانحطاط الشمس عن زُحل
فـاصبر لهـا غيـر محتـال ولا ضجـر | في حادث الدهر ما يغني عن الحيل
أعـدى عـدوّك مـن وثـقـت بـه | فعاشر الناس، واصحبهم على دَخل
فـإنمـا رجـل الـدنيـا وواحـدهـا | من لا يُعوّل في الدنيـا على رجل[١]

* * *

هذا هو السّخاويّ في نظر نفسه، ولكنه في نـظر السّيوطيّ يختلف كـل الاختلاف، فقد جرّد السّيوطيّ قلمه لنقد هـذا الرجـل بحيث لم يترك لـه شيئاً يتقنه، فهو من وجهة نظره حـاطب ليل اللّهم إلاّ في علم الحـديث الذي نصّ السّيـوطي في ترجمتـه على أنه حبّب إليـه الحديث، فـلازم مجالسـه، وسمع الكثير جدّاً على المسندين بمصر والشام.

قال السّيوطيّ: «وخرّج لنفسه ولغيره مع كثرة لحنـه، وعُريه من كل علم بحيث إنه لا يحسن غير الفن الحـديثيّ شيئاً أصيـلاً، ثم أكبّ على التاريـخ، فأفنى فيه عمره، وأغرق فيـه عمله، وسلق فيه أعـراض الناس ومـلأهبمساوىء الخلق، وكل ما رموا به، إن صدقاً، وإن كذّبا.

وزعم أنه في ذلك قام بواجب وهو الجرح والتعديل، وهذا جهل مبين، بل قام بمحرّم كبير، وباء بوزر كثير كما أشرت إليه في مقدّمة كتابـي.

وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بـه، أو يعتمد على مـا في تاريخـه من

---

(١) انظر: الضوء اللامع: ٣/٨ ـ ٣٢.

الإزراء بالناس خصوصاً العلماء، ولا يلتفت إليه» ثم قال السّيوطيّ: مات ٩٠٢هـ[1] أي قبل وفاة السّيوطيّ بتسع سنوات.

هذا، وما أشار إليه السّيوطيّ في مقدمة هذا الكتاب، هو قوله: «هـذا، وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب عمياء، خابط خبط عشواء، ينسب إلى من تقدّم أخبار من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبّر، وإن ردّ عليه وهمه لا يتأثر، وإن ذكر لجهله لا يتذكر، لا يفرّق بين صحابيّ وتابعيّ وحنفيّ ومالكيّ وشافعيّ وحنبليّ، ولا بين خليفة وأمير، وسلطان ووزير، ولا يعرف من سيرة نبيّه ﷺ أكثر من نبي مرسل فكيف له بمعرفة أصحابه والصدّر الأول الذين بذكرهم ترتاح النفوس ويذهب البؤوس»[2].

في ضوء هذه النصوص النقدية التي وجهها السّيوطيّ للسّخاويّ نعجب أشدّ العجب، هل المنافسة تؤدي إلى هذه الحدّة؟

لقد كان السّيوطيّ في هذه الترجمة منفعلاً، ترك لقلمه أن يصول ويجول في عرض معاصره.

والباحث لا يستطيع أن يقبل هذه الشتائم، لأنها ليست خالصة من الأهواء، ودخائل النفوس.

ولم يبين لنا السيوطي في ترجمته للسخاوي واقعة علمية واحدة انحرف فيها السخاوي عن جادة الحق في مؤلف ألّفه، أو في مصنّف أعدّه، أو في بحث قدّمه.

ويكفي السّخاوي فخراً أنه ترك كتاباً ضخماً في تراجم الرجال وما زال ضوءاً لامعاً في عصرنا هذا، وسيظل كذلك فيما بعده من العصور إنه:

---

(١) انظر: نظم العقبان: ١٥٢، وما بعدها.

(٢) مقدمة نظم العقبان: ٤.

«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وألف بجانبه كتاب: «الذيل على رفع الإصر». [1].

ويبدو أن السّيوطيّ بتجريحه لمعاصره كان يردّ على ما وجهه إليه السّخاوي من نقدٍ مرّ، حيث اتهمه بأنه يسطو على مؤلفات غيره ثم ينسبها إلى نفسه.

والقارىء لترجمة السّيوطي في «الضوء اللامع» يرى أن السّخاويّ جرّده من كل فضيلة، ورماه بكل نقيصه، اتهمه بالحمق تارةً وبالجنون تارةً أخرى.

وبالجملة فإن ترجمة السّيوطيّ في الضوء الامع محشوّة بكل الرذائل مملوءة بالاتهامات العلمية لوصفه بالسطو، والنقل من غير عزو والخيانة العلمية في ادعاء ما يسرقه من غيره، وينسبه لنفسه وهذه قضية تحتاج إلى دراسة منصفة، وبحث عادل في ميزان الحق بين الرجلين، واكتفى بهذا القدر في ترجمة السّخاويّ مؤجلاً الحديث عن هذه الاتهامات النقدية للسّيوطيّ عند تعَرضي لبحث: اتهامات السّخاويّ للسّيوطيّ عند ترجمتي للسّيوطيّ.

(د) ابن الكركيّ:

هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل البرهان، أبو الوفاء وأبو الفضل ابن الزين ابن المجد الكركي الأصل، القاهري المولد والدار، الحنفيّ، ويعرف بابن الكركيّ.

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي طبع مرتين، ونشرته دار مكتبة الحياة ببيروت طبعة ثانية و«الذيل على رفع الإصر» حقّقه الأستاذان د. / جودة هلال، والأستاذ محمد محمود صبح، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة.

ولد سنة ٨٣٥هـ.

نشأ فحفظ القرآن، وأرْبَعي النَـووي، والشاطبيّة، ومختصر القدوريّ، وألِفيّة ابن مالك، وغيرها.

أساتـذتـه:

سمع صحيح مسلم أو أكثره على الزّين الزركشيّ.

وتلا القرآن على الشمس بن الحمصاني.

وأخذ الميقات عن البدر القميري.

والفقه والعربية عن الشمس إمام الشيخونية.

وحضر دروس الكمال بن الهمام، ولازم التقي الشّمُنّي وأخذ عنه التفسير، وعلوم الحديث، والفقه والأصلين والعربيّة والمعاني والبيان والمنطق وغيرها بقراءته، وقراءة غيره تحقيقاً ودراية.

ومن المدارس التي وليها ودرّس فيها: المحموديّة، والأبوبكرية، والإينالية.

وابن الكركي يعرف للسّخاويّ قيمته وقدره، فقد ذكر السّخاويّ عنه أنه «قال للملك: لا أعلم الآن من الإجماع عليه في علم كالسّخاويّ».

ويشيد السّخاويّ بابن الكركي فيقول: «قد درّس وصنّف، وأفتى وحدّث، وروى ونظم، ونشر ونقّب وتعقّب وخطب، ووعظ، وقطع ووصل، وقدّم وأخّر.

ومن تصانيفه في الفقه: فتاوى مبوّبة في مجلّدين.

وحاشية على: «توضيح ابن هشام».

ولمكانته لمّا مات الأقصرائي، استقرّ عوضه في مشيخة الأشرفية برسباي.

هذا وقد حدثت أمور لابن الكركي في آخر حياته، فعُزل من مناصبه وساءت أحواله[1].

هذا ويذكر الغزّي أن وفاته يوم الثلاثاء [٥ من شعبان ٩٢٢] حيث غرق تجاه منزله من بركة الفيل[2].

وابن الكركي هذا كان بينه وبين السّيوطيّ خصومات علميّة، وكان من حزب السّخاويّ في نقد السّيوطي بلسان جارح، وقلم فاضح، ومن المعايب التي وجهها ابن الكركي إلى السّيوطيّ أنه نشأ فقيراً وعاش فقيراً[3].

وفي نظري أن هذا مدح للسّيوطيّ، فعلماء عصره كان معظمهم يعيشون في رخاء ورفاهية لتقرّبهم إلى السلطان، أما السّيوطيّ، فكما سنبيّن بعد ذلك عند الحديث عن صفاته، فقد كان عفيفاً لا يطرق باباً، ولا يمشي إلى سلطان.

على أن ابن الكركي ذاته كان في بدء حياته مغنيّاً في الزّفة، ويعمل الموالد والأختام عند القرافة، وخالط الحكّام، ومشى في ركابهم[4].

وقد سلقه السّيوطيّ بقلمه الذي يقطر سمّاً في مقامة سمّاها: «الدوران الفلكي على ابن الكركي»، قال في مطلعها:

«تسلّط علينا رجل خمساً وعشرين سنة، لا تأخذه في التّلسُّن عليّ غفلة

---

(١) انظر: الضوء اللامع: ١/ ٥٩ ــ ٦٤.

(٢) الكواكب السائرة: ١/١١٢.

(٣) انظر: مقدمة تدريب الراوي، للأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف: ١٩.

(٤) المرجع نفسه والصفحة.

ولا سنة، رجل نشأ بيننا نعرفه، ولم ينزل إلينا من السماء، فلا ندري كيف نصفه!

تعلم في صباه صنعة الأنغام، فصار له فيها باع، وعمل بها في الهناء والمديح، وقراءة الختوم والأرباع، ثم دارت به الدوائر، وخدم الأمراء والأكابر، فما ذكر حاله الأوّل، ولا جنح إلى التواضع، بل شمخ بأنفه والراس وشمر مناخره على الناس، ومال على الكبير والصغير وداس، كأنه ما نشأ بين الأصحاب، ولا مشى بأقدامه في الرحاب، وإنما دلي إليهم بحبل من السحاب».

ثم قال ساخراً مستهزئاً: «ليت شعري ما أنت في الوجود حتى تتعالى على كل موجود؟. هل نزلت بك الملائكة حافِّين، ومن حولك خاشعين، أم نادى منادٍ من السماء: إنا اصطفينا هذا الرجل على الناس، فيكونوا له خاضعين؟ أم جعل لك جناح منظوم باللؤلؤ والمرجان؟ أو نزل لك سجلّ مرقوم: أنّا حكّمناك في رقاب الإنس والجان؟ أم أُبِيحَ لك من السماء مقعدا؟ أم اتخذت جبل الزمرّد مسندا؟ أم خضت البحر بأقدامك؟ أم تناولت الشمس والقمر بسبّابتك وإبهامك».

وختمها بقوله: «إلى من يعلم حقائق الأمر جملة وتفصيلا، ونعتمد عليه في الحكم بيننا وبينك، وكفى بالله وكيلا، ونرجو منه فرجاً قريباً، وأجراً جميلا، «سنّة الله في الذين خلوا من قبل»[1]، «ولن تجد لسنّة الله تبديلًا»[2] وقد كنت هجرت هذا الرجل منذ سبع سنين لا أخاطبه، وإذا ركبت وإياه في السفينة أجانبه، وقد هجرته الآن هجراً على هجر، فهو مهجور هجرين، وأنا على ذلك إن شاء الله مأجور أجرين»[3].

(١) الأحزاب: ٣٨. (٢) الفتح: ٢٣.

(٣) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٣٠، ٣٣١.

(هـ) القسطـــلاّني:

هـو أحمد بن محمـد بن أبـي بكر بن عبـد الملك بن الـزين أحمـد بن الجمال بن التاج على القسطلاني.

ولـــد في ٢٢ من ذي القعـدة سنــة٨٥١هـ بمصـر، ونشـأ بهـا، فحفظ القرآن، والشاطبيّة، ونصف الطيبة الجذرية، والوردية في النحو.

أخذ القراءات عن الشمس بن الحمصاني إمام جامع ابن طولون.

وأخذ الفقه عن الفخر المقسي.

وأخذ النحو عن العجلوني، قرأ عليه شـرح شذور الذهب لمؤلفه، وقـرأ في مكة على زينب ابنـة الشوبكي السنن لابن ماجة وغيرها.

* مصنّفـــاته:

العقـود السنيّة في شـرح المقدمـة الجزريـة في القـراءات، شـرح على الشاطبية، وعلى «الطيبة» كتب مزجاً.

و «مشارق الأنوار المضيّة في مدح خير البرية» وهو شرح للبردة[1] وينصّ الغزّي زيـادة على مـا سبق أنّه ألّف شـرحه مـع البخاري قبـل أن يؤلف شيخ الإسلام القاضي زكريا شرحه عليه.

وكـان يقـول للشيـخ عبـد الـوهـاب الشعـراني: أحضـر عنـد شيـخ الإســلام شرحي، فمهما وجدته خالفني فيه فاكتبه لي في ورقة، فكان يكتب له أوراقاً، ويجهّزها إليه، وتارة يـرسل الشيـخ عبـده، فيأخـذها، وقال له مرة لا تغفـل عن كتابة ما يخالفني فيه الشيخ، فإنه لا يُحرِّرُ الكتاب إلاّ الطلبة، ولا طلبة لي.

---

(١) الضوء اللامع: ١٠١/٢ ــ ١٠٤.

هذا، وقد توفي القسطلاني ليلة الجمعة ٨ من محرم سنة ٩٢٣هـ، وصلّي عليه بالأزهر عقب صلاة الجمعة، ودفن بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني من مدرسته بقرب جامع الأزهر[١].

ومن المنافسات العلمية التي وقعت بين السّيوطي والقسطلاني ما ذكره ابن العماد في «شذرات الذهب» حيث قال ما نصّه: «يحكى أن الحافظ السّيوطيّ كان يغضّ منه، ويأخذ من كتبه، ويستمدّ منها، ولا ينسب النقل إليها، وأنه ادّعى عليه بذلك بين يدي شيخ الإسلام زكريا فألزمه ببيان مدَّعاه، فعدّد مواضع، قال: إنه نقل فيها عن (البيهقي)، وقال: إن للبيهقي عدّة مؤلّفات، فليَذْكُرْ لنا: ذَكَرَه في أي مؤلفاته، لنعلم أنه نقل عن (البيهقي)، ولكنه رأى في مؤلّفاتي ذلك النقل عن (البيهقي) فنقله برّمته، وكان الواجب عليه أن يقول: نقل السّيوطيّ عن البيهقي.

وحكى الشيخ جار الله بن فهد أن الشيخ ـ رحمه الله ـ قصد إزالة ما في خاطر الجلال السّيوطيّ، فمشى من القاهرة إلى الرّوضة، إلى باب السّيوطيّ، ودقّ الباب، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا القسطلاني جئت إليك حافياً، مكشوف الرأس، ليطيب خاطرك، فقال له: قد طاب خاطري عليك، ولم يفتح له الباب ولم يقابله»[٢].

وقبل أن نختتم الحديث عن القسطلاني أحبّ أن أشير إلى أن القسطلاني طبعت بعض كتبه، وتداولها الناس في عصرنا الحاضر، ومنها:

١ ـ المواهب اللدنية في المنح المحمّدية، طبع في القاهرة ١٢٨١هـ.

---

(١) الكواكب السائرة: ١/٢٦، ١٢٧.

(٢) شذرات الذهب: ٨/١٢١، ١٢٢، ١٢٣.

٢ ـ المقدّمة في الحديث مع شرح نيل الأماني لعبد القاهر الأبياري، طبع في القاهرة بدون تاريخ.

٣ ـ مولد النبي، اختصره محمد نووي الجاوي، وسمّاه: «الإبريز الداني، في مولد سيدنا محمد العدناني، وطبع المختصر في القاهرة ١٢٩٩هـ.

٤ ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات: حققها الأستاذان: الشيخ عامر السيّد عثمان، والدكتور عبد الصبور شاهين، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٢هـ[1].

□ □ □

---

(١) انظر مقدمة المحقّقين في ترجمة القسطلاني وهي ترجمة وافية، وقد سجّلت مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمفقودة مع الإشارة إلى أماكن المخطوطات والأرقام التي تحملها.

ثـالثـاً:

شيـوخ السّيـوطيّ

للسّيـوطي شيـوخ كثيـرون سجل الكثيـر منهم في كتـابـه: «حسن المحاضرة» حينما ترجم لنفسه ترجمة ذاتية:

والد السيوطي:

وأول شيخ صنعه على عينه، وتربى في كنفه، وجلس في حجره، وسمع منه بأذنه، وخاطبه بلسانه، ورأى منزلته في العلم بعينه هو والده: السّيوطيّ كمال الدين أبو بكر الذي وصفه بقوله: «والدي الإمام العلّامة ذو الفنون»[1].

ومن العجب أن السّيوطيّ الدقيق المستوعب الذي لم يفته في التراجم التي ذكرها يوم الميلاد أو ليلته اسماً وتاريخاً، شهراً وسنةً في كثير مما ترجم، صعب عليه أن يعرف ميلاد أبيه، فقال عنه في ترجمته: «ولد في أول القرن تقريباً»[2]، أي القرن التاسع الهجريّ.

وتحدّث السّيوطي عن العلوم التي درسها والده على مشايخ عصره وبرع فيها، فقال: «أقبل على العوم بأنواعها، فأخذ عن مشايخ عصره،

---

(١) انظر نظم العقيان: ٩٥.

(٢) المصدر نفسه.

وبرع في الفقه والأصلين، والنحو، والصرف، والمعاني والبيان، والفرائض، والحساب بأنواعه، والمنطق والوثائق، وكانت له اليد الطولى في الإنشاء مطنباً وموجزاً».

ثم تحدّث عن المشايخ الذين انتفعوا بعلم أبيه، فقال: «وانتفع به جماعة من الأعيان، منهم العلّامة: ابن مصيفح، وقاضي القضاة: برهان الدين بن ظهيرة، وقاضي القضاة: نور الدين بن أبي اليمن، والعلّامة فخر الدين القيسيّ، وقاضي القضاة: محيي الدين بن تقيّ الدّين، وشيخ المالكية النور السنهوريّ[1] في آخرين».

أما مؤلفاته ونتاجه العلمي فإنه يدلّ على أن والده أسهم بجانب علماء عصره في ازدهار الحركة الفكرية، والنشاط العلميّ.

فمن مؤلفاته: «حاشية على شرح الألفيّة»، لابن المصنّف و«حاشية على أدب القضاة»، للغزيّ، و«رسالة في إعراب قول المنهاج»: و«ما ضبّب بذهب أو فضّة ضبّة» وحاشية على العضد وكتابٌ في الوثائق، وكتاب في التصريف، وأجوبة اعتراضات ابن المقري على الحاوي الصغير».

ويبدو أن والد السيوطيّ كان ورعاً لا تبهره وظائف الدنيا ولا تسيطر على نفسه وجاهة الحكم، أو بريق السلطان، ولا أدلّ على ذلك من قول السّيوطيّ في أبيه: «وعرض عليه قضاء مكّة فأبى»[2].

ويبدو أيضاً أن والد السّيوطيّ كان رحيم القلب، طيب النفس يحسن إلى الفقراء، ويرحم الضعفاء، ولا أدلّ على ذلك من حديث السّيوطيّ نفسه حيثما ترجم لبرهان الدين قاضي مكة الذي مرّت ترجمته سابقاً حينما ذكر أنّ

---

(١) نسبة إلى سنهور، بلدتان بمصر، إحداهما بالبحيرة، والأخرى بالغربيّة، وأمّا التي بالصعيد فبالشين المعجّمة. (القاموس).

(٢) انظر: هذه النصوص في نظم العقيان: ٩٥ .

والده هو الذي قام برعايته وتربيته، وذكر المآثر التي قدمها والده لشخصه، فقال: «كان في أوّل أمره فقيراً مملقاً خاملاً، فكان والدي هو الذي يؤويه ويقوم بمئونته ويعلّمه العلم، ويعرّف به الأكابر، ويسعى له بالمرتبات»[1].

هذا، وقد مات والد السّيوطيّ ليلة الاثنين خامس صفر سنة ٨٥٥هـ أي بعد ولادة السّيوطيّ بست سنوات ورثاه الشيخ شهاب الدين المنصوري بقصيدة، منها قوله:

مات الكمال فقالوا ... ولّى الحجا والجلالُ
فللعيون بكاء ... وللدموع انهمالُ
وفي فؤادي حزن ... ولوعة لا تزالُ
لله علم وحلم ... وارته تلك الرمالُ
علومه راسخات ... تزول منها الجبالُ
فلا تزال عليه ... تهمى السحاب الثقالُ[2]

(ب) الشارِمساحيّ:

هو الإمام شهاب الدين أحمد بن عليّ بن أبي بكر الشارِمساحيّ الشافعيّ.

قال عنه السّيوطيّ: كان إماماً في الفرائض والحساب، يُسَلِّم إليه الأشياخ فيهما المقاليد.

وقد أجاز له من العلماء ابن الملقّن، والتقيّ بن حاتم، والقماري وحضر دروس الشيخ سراج الدين البُلْقيني.

(١) انظر: نظم العقيان: ٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ٩٥، ٩٦، بتصرّف.

وذكر السّيوطيّ أنه أدركه في آخر عمره، وقرأ عليه الفرائض.

ومن إنتاجه العلميّ: «شرح على مجموع الكلائي».

وشيخ السّيوطيّ هذا انقطع في آخر عمره نحو عشر سنين لا يستطيع الحركة، وكان يذكر أنه بلغ من السنين مائة ونيفاً وعشرين سنة.

وكان للسّخاويّ موقف من هذا الشيخ فقد نسبه إلى الذهول فقد «نادى عليه مرّة في بعض المجالس الحافلة، فقال: إن هذا الشارِمساحيّ رجل ذاهل».

قال السّيوطيّ: «وليس لي في ذلك كلام لا بنفي ولا إثبات فإني لم أدرك مولده بعمره».

والحقيقة أن السّيوطيّ بهذا القول أنصف نفسه، فلم يكن مندفعاً في إطلاق الأحكام، ورمي الناس بالتهم من غير رويّة وأناة، وتعقّل وتدبّر، ولذلك وجّه سيف نقده لمعاصره السّخاويّ في هذا القول قائلاً: «وهذه المناداة التي صدرت من السّخاويّ في حقه لا فائدة لها في الدين، فإن إجازاته مضبوطة، وشيوخه الذين أجازوه أدركهم بلا نزاع، بل أدركهم من لا يصل السبعين من العمر، والإجازة العامة لا يعمل بها اليوم».

فهذه الكلمة التي نادى بها السّخاويّ الرجل في مجلس حافل مناداة جوفاء لا تدل على شيء، بل لا تفيد الدين والعلم، لأنها مجرّدة من معناها.

أما الذي أفادته هذه المناداة على حد تعبير السّيوطيّ هو: «أنها بلغت الرجل وهو شيخ كبير صالح فانكسر خاطره، وربّما دعا عليه.

وفي الحديث: «ما أكرم شابٌ شيخاً إلاّ قيّض الله له عند سنّه من يكرمه».

وهكذا يدافع السّيوطيّ عن شيوخه، وهو دفاع يدل على وفاء نادر، وطبع أصيل، وخلق كريم.

هذا وقد مات الشارِمساحيّ في رجب سنة ٨٦٥هـ[١].

(ج) البُلقيني:

هو علم الدين صالح بن عمر بن رسلان الكناني البُلْقيني. وقد ضبطها السيّوطي في «لب الألباب» بالضم وسكون اللام وكسر القاف ونون، وذكر أنها قرية من مصر قرب المحلّة[٢].

هذا، ولم يطل السّيوطيّ في كتابه «نظم العقيان» في ترجمة البلقيني وكل ما ذكره عنه أنه سرد نسبه، ووصفه بأنه إمام الفقهاء في عصره، وحامل لواء المذهب الشافعي في عراقه، وحجازه ومصره[٣] على أن السّيوطيّ في «حسن المحاضرة» يوضح لنا أنه أجيز بتدريس العربيّة في مستهلّ سنة ست وستّين، وقد ألّف في هذه السنة شرح الاستعاذة والبسملة.

قال السّيوطيّ: «وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، فكتب عليه تقريظاً، ولازمته في الفقه إلى أن مات: وبعد موته لازم السّيوطيّ ولده، فقرأ عليه من أوّل «التدريب» لوالده البلقيني إلى الوكالة.

ثم قال: وسمعت عليه من أوّل: «الحاوي الصغير» إلى العِدَدَ[٤] ومن أوّل «المنهاج» إلى الزكاة، ومن أوّل «التنبيه» إلى قريب من باب: «الزكاة»،

---

(١) انظر. نظم العقيان: ٤٣، ٤٤؛ وحسن المحاضرة: ١/٣٣٦.

(٢) انظر: لب الألباب: ٣٣.

(٣) نظم العقيان: ١١٩.

(٤) جمع عدّة، وهي عِدّة المرأة.

وقطعة من «الروضة» من باب: «القضاء»، وقطعة من تكملة: «شرح المنهاج»، للزركشيّ، ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها، ثم قال السّيوطيّ: «وأجازني بالتدريس والإفتاء[1].

وحضر تصديري، ومات يوم الأربعاء خامس رجب سنة ٨٦٨هـ هذا ولم ينس السّيوطيّ أن يبيّن لنا أن شيخه البلقيني ولد سنة ٧٩١هـ وأنه حامل لواء المذهب الشافعيّ في عصره، وأنه متمكن من العلوم الإسلامية في عهده، فقد أخذ الفقه عن والده وأخيه، والنحو عن الشُّطَنوفيّ والأصول عن العزّ بن جماعة. . . وحضر عند الحافظ ابن حجر العراقيّ في الإملاء.

وفي مجال التدريس والتعليم، فقد تنقّل أستاذاً في المدارس المتعدّدة فتولّى مشيخة الخشابيّة، وتولّى دراسة التفسير بالبرقوقيّة، ودرس الحديث بمدرسة قايتباي . .

وتلاميذه متعدّدون فقد أخذ عنه الجم الغفير، وألْحَقَ الأصاغر بالأكابر، والأحفاد بالأجداد[2].

(د) شرف الدين المناوي:

ذكر السّيوطيّ أنه لمّا توفيّ البلقيني سنة ثمان وسبعين لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناويّ[3].

---

(١) حسن المحاضرة: ٣٣٧/١، وانظر: ٤٤٥/١، وهناك اختلاف في تاريخ الوفاة في هذين الموضعين، ففي صفحة ٣٣٧ ذكر أنه توفيَ سنة ٨٧٨، وفي صفحة ٤٤٥، ذكر أنه توفي سنة ٨٦٨هـ.

(٢) حسن المحاضرة: ٢٤٤/٢، ٢٤٥.

(٣) حسن المحاضرة: ٣٣٧/١.

والمناويّ هو قاضي القضاة يحيى بن محمد بن محمد، شيخ الإسلام ولد سنة ٧٩٨هـ، ولازم الشيخ وليّ الدّين العراقي، وتخرج به في الفقه والأصول، وسمع الحديث عليه.

وتصدّى للإقراء، والإفتاء، وتخرّج به الأعيان، وتولّى تدريس الفقه الشافعيّ، وقضاء الديار المصرية.

وله تصانيف منها: «شرح مختصر المزني»، وتوفي ليلة الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وهو أخر علماء الشافعية ومحقّقهم.

والسيوطي يعرف لشيوخه قدرهم وحقّهم، فقد رثاه بعد وفاته بالأبيات التالية:

قلت لمّا مات شيخ الـ ... ـعصر حقّاً باتفاقِ
حين صار الأمر ما بـ ... ـيْن جَهولٍ وفُسَّاقِ
أيها الدنيا لك الويْـ ... ـلُ إلى يوم التّلاقِ (١)

هذا وعندما ترجم السّيوطيّ لنفسه في «حسن المحاضرة» نصّ على أنه لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي بعد وفاة أستاذه البلقيني.

أما العلوم التي تلقاها عن شيخه المناوي فقد ذكرها السّيوطيّ، فقال: «قرأت عليه قطعة من «المنهاج» وسمعته عليه في التقسيم إلاّ مجالس فاتتني، وسمعت دروساً من شرح البهجة ومن حاشيته عليها ومن تفسير البيضاوي» (٢).

---

(١) حسن المحاضرة: ٤٤٥/١.
(٢) حسن المحاضرة: ٣٣٧/١.

(هـ) الشّمنيّ:

هو أحمد بن محمد بن حسن بن عليّ بن يحيى بن محمّد بن خلف الله.

أشاد به السّيوطيّ في «البغية» بقوله: «شيخنا الإمام تقيّ الدّين أبو العبّاس بن العلاّمة: كمال الدّين بن العلاّمة أبي عبد الله الشُّمُنّي ــ بضم المعجمة والميم وتشديد النون ــ هو: المالكي والده، وجدّه الفقيه المفسّر، المحدّث الأصوليّ المتكلّم النحويّ البيانيّ المحقّق، إمام النحاة في زمانه، وشيخ العلماء في أوانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحار فهومه الظمآن والصّادي».

ويبدو أن السّيوطيّ كان مولعاً بشيخه، معجباً بعلمه، مقدّراً لفضله، مكرّماً لنبوغه، فبعد هذه المقدّمة التي مدح فيها أستاذه وأغرقه في المدح، ووصف فيها علمه وأسرف في الوصف أخذ يعدّد بعد ذلك ما برع فيه من المعارف، وما نبغ في حقله من العلوم المختلفة.

فقال:

«أما التفسير فهو بحره المحيط، وكشّاف دقائقه بلفظه الوجيز الفائق على الوسيط والبسيط.

وأما الحديث فالرحلة من الرواية والدارية إليه، والمعوّل في حلّ كل مشكلاته، وفتح مُقفلاته عليه.

وأما الفقه فلو رآه النُّعمان[1] لأنعم به عيناً، أو رام أحد مناظرته لأنشد:

---

(١) يقصد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان.

* وألفَى قولها كذِباً ومَيْنا *[1]

وأمّا الكلام[2]، فلو رآه الأشعري لقرّبه وقرّبه، وعلم أنه نصير الدين ببراهينه وحججه المهذّبة المرتّبة.

وأمّا الأصول فالبرهان لا يقوم عنده بحجّة، وصاحب المنهاج[3] لا يهتدي بعده إلى محجّة.

وأمّا النحو فلو أدركه الخليل لاتخذه خليلاً، أو يونس لأنس بدرسه، وشفى منه غليلاً.

وأمّا المعاني فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبّاح، وماذا يفعل المفتاح مع من ألقت إليه المقاليد أبطال الكفاح، إلى غير ذلك من علوم معدودة، وفضائل مأثورة مشهورة».

وكما عبّر السيوطي عن شعوره نحو أستاذه نثراً عبّر عنه شعراً، فقال:

هو البحر لا بل دون ما علمِه البحرُ ... هو البدر، لا بل دون طلعته البدرُ

هو النجم لا بل دونه النجم رتبةً ... هو الدرّ لا بل دون منطقه الدُّرّ

هو العالم المشهور في العصر والّذي ... به بين أرباب النهي افتخر العصر

هو الكامل الأوصاف في العلم والتّقى ... فطاب به في كل ما قطر الذِّكْرُ

محاسنه جلّت عن الحصر وازدهى ... بأوصافه نظمُ القصائدِ والنّثرُ

---

(١) صدره:

* وقدّمت الأديم لراهشيه *

وهو لعدي بن زيد ديوانه: ١٨٣. من شواهد الهمع والدرر رقم (١٥٨٨).

(٢) يقصد علم التوحيد المسمى علم الكلام.

(٣) منهاج الوصول في علم الأصول، للبيضاوي.

وبعد أن أفاض السّيوطيّ في ذكر محاسنه في مجال الشعر كما أفاض قبل ذلك في مجال النثر أخذ يعطي القارىء فكرة واضحة عن ميلاده ووفاته، وحياته وشيوخه، ومن أجاز له، والمدارس التي اشتغل بها مدرساً، ومؤلفاته ومصنّفاته، فقال: «ولد بالإسكندرية في رمضان سنة ٨٨١هـ. وقدم القاهرة مع والده، وكان من علماء المالكية... وأخذ النحو عن الشمسيّ الشطنوفيّ، ولازم القاضي شمس الدين البساطيّ، وانتفع به في الأصلين والمعاني والبيان.

وأخذ عنه الشيخ يحيى السّيراميّ، وبه تفقّه.

وأخذ الحديث عن الشيخ وليّ الدين العراقيّ.

وبرع في الفنون.

واعتنى به والده في صغره، فأسمعه الكثير على التّقيّ الزبيريّ والجمال الحنبليّ، والصدر الأبشيطيّ، والشيخ وليّ الدين وغيرهم. وأجاز له السّراج البلقيني، والزّين العراقيّ، والجمال بن ظهيرة والكمال الدّميري والمحلّاوي، والجوهريّ، والمراغيّ وغيرهم».

ولا ينسى السّيوطيّ على الرغم ممّا بينه وبين السّخاويّ كما قدمنا أن يبيّن أن السّخاويّ خرّج له أحاديث حدّث بها كما خرج السّيوطيّ نفسه لأستاذه أحاديث حدّث بها، قال السيوطيّ:

وخرّج له صاحبنا الشيخ شمس الدين السّخاويّ مشيخة حدّث بها وبغيرها، وخرجتُ له جزءاً فيه الحديث المسلسل بالنّجاة وحدّث به».

وكما أخذ الشمني من علماء عصره قدّم ما أخذ لتلاميذه لتستمر المسيرة العلمية في طريقها في ميدان الأخذ والعطاء. قال السّيوطيّ:

«وهو إمام علاّمة مفقّه، منقطع القرين، سريع الإدراك أقرأ التفسير والحديث، والفقه والعربية، والمعاني والبيان، وغيرها، وانتفع به الجمّ الغفير، وتزاحموا عليه، وافتخروا بالأخذ عنه مع الخير والعفّة، والتواضع والشهامة، وحسن الشكل والأبهة. أقام بالجمّالية مدة ثم وليَ المشيخة والخطابة بتربة قايتباي الجركسيّ بقرب الجبل، ومشيخة مدرسة اللآلآ.

وطلب لقضاء الحنفية بالقاهرة سنة ثمان وستين فامتنع».

* مصنّفاته:

ذكر السّيوطيّ مصنّفاته، فقال: «صنّف شرح المغني» لابن هشام[1]، وحاشيته على الشفاء، وشرح مختصر «الوقاية» في الفقه، وشرح نظم النخبة في الحديث لوالده».

ولعل شرح المغني الذي صنّفه، وأشار إليه السّيوطيّ هو كتاب «المنصف على المغني» وقد جاء في مقدمته: «وبعد، فقد نظرت عند إقرائي لمغني اللبيب عن كتب الأعاريب ما كتبه عليه الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفيّ، وسمّاه بـ «تنزيه السّلف عن تمويه الخلف» وذلك إلى أثناء الباء الموحدة، والتعليق الذي كتبه عليه الشيخ بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني بالدّيار المصريّة، والشرح الذي أظهره بعد ذلك بالبلاد الهندية، وسمّاه: بـ «تحفة الغريب» فإذا هي مملوءة باعتراضات يتّجه جوابها، ومشحونة بإشكالات لم يغلق والحمد لله بابها إلى أن يقول: فسألني بعض الأصحاب أن أقيد ذلك بكتاب، وأن أضمّ إليه شرح الشواهد والأبيات، وشرح ما لم يشرح بعد من المشكلات، فأجبت مطلوبه، وحققت مرغوبه،

---

(١) في حوزتي نسخة مخطوطة من هذا الشرح أرجو الله أن يوفقني لتحقيقها إن شاء الله.

سالكاً سبيل الإنصاف، حائداً عن طريق التعصّب والإجحاف، وسمّيته بالمنصف من الكلام على مغني ابن هشام، وأسأل الله العصمة مما يعاب، والهداية إلى طريق الصواب»[1].

* العلوم التي درسها السّيوطيّ على أستاذه:

قال السّيوطيّ: «سمعت عليه قطعة كبيرة من «المطول» للشيخ سعد الدين ومن التوضيح لابن هشام قراءة تحقيق: وسمعت وقرأت عليه في الحديث عدّة أجزاء.

وحضر عليه في الأولى ولدي: ضياء الدين محمد أشياء ذكرتها في معجمي، وكتب لي تقريظاً على شرح الألفيّة، وجمع الجوامع تأليفي».

والسّيوطيّ، بعد أن كشف لنا شخصية أستاذه في مجال العلم والتعلّم، مدحه بقصيدة عددها عشرون بيتاً في كتابه «بغية الوعاة» يذكر فيها أمجاده، ويسجل مفاخرة، ويشيد بالعلوم التي برع فيها، والفنون التي نبغ في مجالها، نذكر منها على سبيل المثال الأبيات الآتية:

لذ بمن كان للفضائل أهلاً … من قديم ومنذ قد كان طفلا
وبمن حاز سؤدُداً وارتفاعاً … ومكاناً على الشّمال وأعلى
عالم العصر مَن عَلا في حديث … وزكا في القديم فرعاً وأصلا

إلى أن يقول:

جمع الله فيك كل جميل … وبك الله ضمّ للعلم شملا

(١) انظر: الصفحة الأولى من المخطوطة.

ثم يختم السّيوطيّ حديثه عن شيخه قائلاً: ولم يزل الشيخ ـ أطال الله عمره ـ يودّني ويحبّني، ويعظمني، ويثني عليَّ كثيراً».

ولما توفي الشيخ ليلة الأحد سابع عشر من ذي الحجة سنة ٨٧٢هـ رثاه السّيوطيّ بقصيدة قال عنها: «وهي من غرر القصائد التي لا نظير لها» وقد بلغت هذه القصيدة كما سجّلها السّيوطيّ في «البغية» خمسين بيتاً، بدأها بقوله:

رزء عظيم به تستنزل العبر ... وحادثٌ جلَّ فيه الخطْب والغِيرُ

ما فقْدشيخ شيوخ المسلمين سوى انـ ... ـهِدام ركن عظيم ليس ينعمر

إلى أن يختمها بقوله:

إذا نجوم الهدى والرشد قد أفلت ... ضل الورى فلهم من غيهمْ سكرُ

هم الأُلى تشرق الدنيا ببهجتها ... لا شمسها وأبو إسحاق والقمرُ

وإن تكن أعين الإسلام ذاهبةً ... تَترى فعمّا قليل يذهب الأثرُ

ولا يفوتنا أن نذكر أن السّيوطيّ في حسن المحاضرة ٣٣٧/١ ذكر أنه لزم الشيخ تقيّ الدّين أربع سنوات، وأنه شهد له غير مرّة بالتقدّم في العلوم بلسانه وبنانه، وكتب له تقريظاً على شرح ألفيّة ابن مالك وعلى جمع جوامع في العربيّة.

غير أن حسن المحاضرة في هذا الموضع يذكر أن «تقي الدين» هذا هو «تقي الدين الشبلي الحنفي» مما يوهم أنه غير تقيّ الدين الشمني، ولعلّ

---

(١) انظر: ترجمة الشمسني في بقية الوعاة من صفحة ٣٧٥ ـ ٣٨١، الجزء الأول بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم.

هـذا نشأ من تحـريـف: «الشـمـني» إلى «الشلبـي» أقـول ذلـك لأني لـم أجـد للسّيـوطيّ شيخـاً يسمّى «تقي الـدين الشلبـي» بهـذه التسميـة في المصـادر والمراجع التي وقعت في يدي.

(و) الكـافيجيّ:

هو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي البرعميّ.

قـال عنـه السّيـوطيّ في «البغيـة»: شيخنـا العـلاّمـة أستـاذ الأستـاذين محي الـدين أبو عبـد الله الكافيجي الحنفيّ، ولـد سنة ٧٨٨هـ واشتغـل بالعلم أول ما بلغ وبين أن شيوخه الذين أخذ عنهم هم: الشمس الفنريّ، والبرهان حيدرة والشيـخ واجد، وابن فرشتة، وحافظ الدين الزازيّ.

وذكـر السّيوطيّ أنـه دخل القـاهرة أيـام الأشـرف: «بـرسباي» فـظهـرت فضائله ووصف السيوطيّ الذين أخذوا عنه بقوله: وأخذ عنه الفضلاء والأعيان وسجّل العلوم التي نبـغ فيها، ولـم يصل إليه أحـد في مجالهـا، فقال: وكـان الشيـخ إمـاماً كبيـراً من المعقولات كلهـا: الكـلام، وأصـول اللغـة، والنحـو والتصريـف والإعراب، والمعاني والبيان، والجدل والمنطق والفلسفـة، والهيئة بحيث لا يشق غباره في شيء من هذه العلوم.

وعرض السّيوطيّ إنتاجه العلميّ، فقال: وأمّا تصانيفه في العلوم العقلية فـلا تحصى، بحيث إني سألتـه أن يسمي لي جميعهـا لأكتبهـا في تـرجمتـه، فـقـال: لا أقـدر على ذلـك، قـال: ولـي مؤلـفـات كثيـرة أنـسيـتـهـا فلا أعرف أسماءها.

قال السيوطي: وأكثر تآليف الشيـح مختصـرات، وأجلّها وأنفعهـا على الإطلاق «شرح قواعد الإعراب» و«شرح كلمتي الشهادة» وله مختصر في علوم

الحديث، ومختصر في علوم التفسير يسمّى: «التيسير»، قدره ثلاثة كراريس[1]، وكان يقول: إنه ابتدع هذا العلم ولم يسبق إليه، وذلك لأن الشيخ لم يقف على «البرهان» للزركشي[2]، ولا على «مواقع العلوم» للجلال البلقيني.

ثم قال السّيوطيّ: لزمته أربع عشرة سنة، فما جئته من مرّة إلّا وسمعت منه التحقيقات والعجائب ما لم أسمعه قبل ذلك، قال لي يوماً: أعرب: «زيد قائم»، فقلت: قد صرنا في مقام الصغار، ونُسْأل عن هذا؟ فقال: في «زيد قائم» مائة وثلاثة عشر بحثاً، فقلت: لا أقوم من هذا المجلس حتى استفيدها، فأخرج لي تذكرته، فكتبتها منها، ولا ينس السيوطيّ أن يبيّن العلاقة الحميمة بينه وبين أستاذه فقال: وما كنت أعدّ الشيخ إلّا والداً، بعد والدي، لكثرة ما له عليَّ من الشفقة والإفادة، وكان يذكر أن بينه وبين والدي صداقة تامّة وإن والدي كان منصفاً له بخلاف أكثر أهل مصر.

ويصف السّيوطيّ في «حسن المحاضرة» بأنه أستاذ الوجود أخذ عنه الفنون من التفسير، والأصول، والعربيّة والمعاني وغير ذلك، وكتب له إجازة عظيمة.

هذا، وتوفي الشيخ بمرض الإسهال ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى سنة ٨٧٩هـ.

وقد رثاه الشهاب المنصوريّ بقصيدة نختار منها الأبيات التالية:

بكت على الشيخ محي الدين كافيَجي ... عيوننا بدموع من دم المهجِ
فكم نفى بسماع من مكارمه ... فقراً وقوّم بالإعطاء منعَوجِ

---

(١) مفردها: كرّاس.

(٢) حقّقه المرحوم الأستاذ محمد أبو الفضل في أربعة أجزاء، طبع عيسى الحلبي بمصر.

فلو رأيت الفتاوي وهي باكية ... رأيتها من نجيع الدمع في لججِ
قد طالما كان يقرينا ويقرئنا ... في حالتيه بوجه منه مبتهجِ
سقياً له وكساه الله نور سناً ... من سندس بيد الغفران مُنْتَسِجِ[1]

* * *

هؤلاء أشهر المشايخ الذين أسهموا في تكوين الشخصية العلمية لعالم النصف الثاني من القرن التاسع الهجريّ ومما لاشك فيه أن للسّيوطي أساتذة كثيرين غير هؤلاء، ولكننا اقتصرنا فقط على هؤلاء الأساتذه أو المشايخ الذين حرص السّيوطيّ على ذكرهم في «بغيته» وفي «حسن محاضرته»، ولا أدلّ على ذلك من قوله: «وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير، أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه، وعدتهم نحو مائة وخمسين، ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهمّ، وهو قراءة الدرّاية»[2].

□ □ □

---

(١) انظر: البغية: ١/١١٧، ١١٨، ١١٩، تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل؛ وحسن المحاضرة: ١/٣٣٨.
(٢) حسن المحاضرة: ١/٣٣٩.

الفصل الثاني

حيـاة السيوطي

أوّلاً :

نَسَبَـــه

السّيوطيّ رجل مؤرخٌ له باع طـويل في مختلف الـدراسات الإسـلامية، رجل لمع في سماء عصره، وسطع نجمه في حياته، وأحسّ بتميّزه على أقرانه ورجل شأنه هكذا لا بدّ أن يدخـل التاريـخ من أوسـع أبوابـه، ولهذا لم يتـرك للمؤرخين من بعـده أن يقعوا في حيـرة من أمـره حينمـا يتـرجمـون شخصيتـه ويسجلون آثاره، وقد يقعون في لَبْس غير متعمّـد، أو خطأ غير مقصود، فتولّى بنفسه ترجمة شخصيته ترجمةً ذاتيةً، ومن أدرى بالإنسان من نفسه؟

ولـم يحسّ السّيوطيّ بحرج خلقي حينمـا كتب ترجمتـه بيده، لأنـه ليس فريداً في هذا الباب، وليس وحيداً في هذا الميدان، وبيّن السّيوطيّ أن علماء قبله، لهم مكـانتهم في العلم، ومنـزلتهم في الفكـر، وقـدرهم في الخُلق، وشهرتهم في الزهد والورع ترجموا لذواتهم، وكتبوا عن أنفسهم، ومن ثمّ فإنه ليس من الغرابة أن يترجم السّيوطيّ لذاته أسوة بمن سبقه من العلماء.

قال السّيوطيّ: «وإنما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمحدّثين قبلي فقلّ أن ألف أحد منهم تاريخاً إلّا وذكر ترجمته فيه. وممّن وقـع له ذلـك الإمام عبد الغفار الفارسيّ في تاريـخ «نيسابور»، وياقوت الحموي في «معجم

الأدباء»، ولسان الدين بن الخطيب في «تاريخ غرناطة» والحافظ تقيّ الدين الفارسيّ في «تاريخ مكة»، والحافظ أبو الفضل بن حجر في «قضاة مصر» وأبو شامة في «الروضتين»، وهو أروعهم وأزهدهم»[1].

وبعد هذا التمهيد نترك للسيوطيّ أن يحدّثنا عن نَسبه فماذا يقول؟

قال: «ترجمة مؤلف هذا الكتاب: عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي».

وبعد سلسلة هذا النسب حدّثنا السّيوطيّ عن أجداده مبيّناً وظائفهم ومراكزهم في الدولة، ومكانتهم في المجتمع، فقال: «أمّا جدي الأعلى همّام الدين فكان من أهل الحقيقة، ومن مشايخ الطرق... ومن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرّياسة؛ منهم من وَليَ الحُكم ببلده، ومنهم من ولي الحسبة بها، ومنهم من كان تاجراً في صحبة الأمير شيخون، وبنى مدرسة بأسيوط، ووقف عليها أوقافاً، ومنهم من كان متموّلاً، ولا أعرف منهم من خدم العلم حقّ الخدمة إلّا والدي».

والسّيوطيّ يزيل الغموض عن النسبة التي تنتمي إليها عائلته، وهي عائلة الخضيري، فيقول: «وأمّا نسبتنا بالخضيري، فلا أعلم ما تكون إليه هذه النسبة إلّا الخضيريّة محلّة ببغداد.

وقد حدّثني من أثق به أنّه سمع والدي ـ رحمه الله تعالى ـ يذكر أن جدّه الأعلى كان أعجمياً، أو من الشرق، فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة».

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٣٥، ٣٣٦.

وينهي السيوطي الحديث عن نسبه، وعن نسبة عائلته إلى الخضيريّة بتحديد ميلاده، فيقول: «وكان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهلّ رجب سنة ٨٤٩هـ»[1].

وأمّا بالنسبة إلى السيوطي فلم ينس أن يبيّن لنا الأوجه اللغوية في هذه النسبة، فيقول في كتابه «لب الألباب»: «الأُسيوطيّ بضمّ أوله والتحتيّة، وسكون السين نسبة إلى أسيوط، ويقال: سيوط: بلد بصعيد مصر.

قلت فيها خمسة أوجه: ضم الهمزة وكسرها، وإسقاطها وتثليث السين المهملة[2].

* * *

والسّيوطيّ لم يتحدّث عن أمه ونسبها عندما تحدّث عن أبيه ونسبه ولكن الذي تحدّث عن ذلك هو السّخاويّ وابن الكرخي، ففي ترجمة السّيوطيّ في «الضوء اللامع» للسخاويّ، يقول: «وأمه أمة تركيّة»[3]، ويبدو أن النصّ على ذلك يراد به الانتقاص من قدر السّيوطيّ، وأنه ابن جارية، ولكن السّيوطيّ يسارع في الردّ على ذلك بتأليف كتاب سمّاه: «النجوم الدّراريّ في أبناء السراريّ»[4]، وفي مقامته: «طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة» هاجم ابن الكركي الذي عابه بأن أمه غير عربيّة، بقوله: «وقولك: إن والدتي أجدادها من الفرس لأنها جركسية تنقص بذلك وتذمّ، جوابه أنّ النسب إلى الآباء لا إلى أجداد الأم، وقد نصّت العلماء أن أغلب نجباء الأمة وكبرائها أولاد سراري، وألّفتُ في ذلك كتاباً سمّيته: «النجوم الدراري»...»[5].

---

(١) انظر: هذه النصوص في حسن المحاضرة: ١/٣٣٦ وما بعدها.

(٢) لب الألباب: ١٥.

(٣) الضوء اللامع: ٣/٦٥.

(٤) يوجد مخطوطاً بدار الكتب المصرية وبرلين. انظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٦٤.

(٥) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٦٤.

وينصّ صاحب «الكواكب السائرة» على أنه: «توفي والده وله من العمر خمس سنوات، وسبعة أشهر»[1].

ومعنى ذلك أن السّيوطيّ نشأ يتيماً، وما أحوج اليتيم إلى الرعاية وبخاصة في هذه المرحلة من العمر:

□ □ □

---

(١) الكواكب السائرة: ١/٢٢٦.

ثانياً:

تكوينه العلميّ

(أ) نشأته العلمية:

يذكر صاحب: «الكواكب السائرة» أنه لما توفي والده كان قد وصل في القراءة إلى سورة التحريم»[1].

ومعنى ذلك أن السيوطيّ نشأ في بيت علم، وأن والده كان له مكانته العلمية بين علماء عصره، فساعده والده على حفظ القرآن الكريم حتى وصل إلى سورة التحريم.

وكان بين والده وبين العلّامة كمال الدين بن الهمام من مشاهير عصر السّيوطيّ علاقة حميمة، وصداقة قوية، فأسند وصايته إلى العلّامة كمال الدين بن الهمّام، فتعلّم في الشيخونيّة، ورعاه رعاية كاملة، ولحظه بنظره على حد تعبير الغزّي في الكواكب السائرة، فختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثماني سنين.

على أنّ والد السّيوطيّ كان يحسّ أن لابنه شأناً، ولذلك كان يصحبه معه إلى مجالس العلماء، يقول الغزي: «وأحضره والده قبل موته وهو صغير

(١) المصدر نفسه والصفحة.

مجلس رجل كبير من العلماء، أخبره بعض أصحاب أبيه أنه مجلس الحافظ ابن حجر»[1]، ولم ينس السّيوطيّ أن يبيّن لنا أنه مبارك النشأة، وأن سبب نبوغه نابع من هذه البركة، ولو لم يصرّح بذلك، قال: «وحملت في حياة أبي إلى الشيخ محمد المجذوب، رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسيّ فبرك عليّ».

كما أنه أخبرنا بأنه عانى اليتم، وحنان الأب منذ صغره، فقال: «ونشأت يتيماً».

ولنا أن نتساءل، بعد حفظ السّيوطيّ للقرآن الكريم وهو دون الثامنة ما الخطوة الأولى التي بدأ بها في طريقه العلميّ الطويل بعد حفظ القرآن الكريم؟ ذلك ما أتحدّث عنه في النقطة الثانية.

(ب) معارف السّيوطيّ وثقافته:

حينما تحدّث السّيوطيّ عن نفسه في العلوم التي درسها، والمواد التي استوعبها كان حديثه موجزاً مجملاً، قال: «فحفظت القرآن ولي دون ثماني سنين ثم حفظت العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفيّة ابن مالك»[3].

ويبدو من حديث السّيوطيّ أن المرحلة الثانية بعد حفظ القرآن الكريم هي مرحلة حفظ هذه الكتب التي أشار إليها وهي متمثّلة في الفقه والأصول، والنحو واللغة، ولما بدأت سنة أربع وستين بدأت الخطوة الثانية وهي خطوة الاشتغال بالعلم،وكانت سن السّيوطيّ إذ ذاك خمسة عشر عاماً تقريباً، أي أن

---

(١) الكواكب السائرة: ١/٢٢٦.

(٢) حسن المحاضرة: ١/٣٣٦.

(٣) حسن المحاضرة: ١/٢٣٦.

السّيوطيّ قبل هذه السنة كان مشغولاً بالحفظ: حفظ القرآن الكريم، وحفظ الكتب المشار إليها ثانياً.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التلقي والأخذ، وهي مرحلة أهمّ سماتها الفهم والإدراك والاستيعاب للقضايا العلمية في ضوء الشرح والتحليل.

وعن هذه المرحلة، يحدّثنا السّيوطيّ، فيقول: «وشرعت في الاشتغال بالعلم من مستهلّ سنة أربع وستين، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ، وأخذت الفرائض عن العلامة فرضيّ زمانه الشيخ شهاب الدين الشار مساحيّ الذي كان يقال: إنه بلغ السن العالية، وجاوز المائة بكثير، والله أعلم بذلك...»

وفي مادة الفقه يخبرنا السيوطي أنه لازم شيخ الإسلام علم الدين البلقيني من الفقه إلى أن مات، فلازم ولده، وقرأ عليه من أول «التدريب» لوالده إلى «الوكالة».

وسمع عليه من أوّل: «الحاوي الصغير» إلى: «العِدد»، ومن أول «المنهاج» إلى: «الزكاة»، وقطعة من «الروضة» من باب «القضاء» وقطعة من تكملة: «شرح المنهاج» للزركشي، ومن: «إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها.

وبعد وفاة البلقيني الصغير لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناويّ، فقرأ عليه قطعة من المنهاج، وسمع إلى جانب ذلك دروساً من «شرح البهجة» ومن حاشيته عليها، ومن «تفسير البيضاوي» وفي مادة العربيّة لزم شيخه الإمام العلاّمة تقيّ الدّين الشّمنيّ الحنفي، وكانت مدة ملازمته أربع سنوات.

أما شيخه محي الدين الكافيجيّ فقد لزمه أربع عشرة سنة ولعل السبب

في ذلك أن الكافيجيّ واسع الثقافة، عميق التفكير، مستوعب لعلوم عصره في الفقه والأصول، والتفسير والعربيّة، والمعاني وغير ذلك من الفنون المختلفة التي برّز فيها.

وحضر السيوطيّ أيضاً دروساً متعدّدة في «الكشّاف» و «التوضيح» وحاشيته عليه، وتلخيص «المفتاح» و «العضد» على الشيخ سيف الدين الحنفيّ.

وتُعَدّ هذه المعارف الواسعة، والعلوم المتعددة، والفنون المختلفة لبنات في صرح السّيوطيّ العلميّ، فمن نسيجها تكوّنت شخصيته، ومن معينها لمع نجمه، وسطعت شهرته، ومن حقه أن يعطى ما أخذ وأن يعلّم ما تعلّم، وأن يتصدّر كما تصدّر شيوخه من قبل.

ولإحساس شيوخه بنبوغه أجازوه بتدريس العربيّة، وهذه الإجازة بدأت من وقت مبكّر، فقد نصّ السّيوطيّ على أنه أُجيز بالتدريس في مستهلّ سنة ست وستين، ومعنى ذلك أن سنه في هذا الوقت لا تتجاوز سبعة عشر عاماً، أي أن السّيوطيّ جلس معلماً وشيخاً في هذه السن مما يدل على عبقرية مشتعلة، ونبوغ عظيم.

ومن أساتذته الذين كتبوا له إجازة عظيمة أستاذه الكافيجي، فبعد الحديث عنه قال: «وكتب لي إجازة عظيمة».

(ج) البدء بالتأليف:

لم ينسَ السّيوطيّ أن يبيّن لنا بعد إجازته بالتدريس متى اشتغل بالتأليف؟ فيقول بعد حديثه عن إجازته بتدريس العربيّة في سنة ست وستين: «وقد ألّفت في هذه السنة، فكان أول شيء ألّفته: «شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البُلقيني فكتب عليه تقريظاً».

وشيخه الشمنيّ كتب له تقريظاً على شرح أَلِفيّة ابن مالك» وعلى «جمع الجوامع في العربيّة».

وينصّ السّيوطيّ على أن شيخه الشمني كان يجلّه ويقدّره لفضله وعلمه، قال السّيوطيّ: «وشهد لي غير مرّة بالتقدّم في العلوم بلسانه وبنانه».

وقد اعترف الشمني بقدرة السّيوطيّ في مجال الحديث الشريف في قضيته ساقها في كتابه: «حسن المحاضرة» وهي قضية مشهورة اعترف فيها الأستاذ بقدرة التلميذ الذي استطاع أن يخطىء رأي أستاذه، ويرشده إلى الصواب.

قال السّيوطي متحدثاً عن هذه القضية التي كانت بينه وبين أستاذه الشمني: «ورجع إلى قولي مجرّداً في حديث؛ فإنه أورد في حاشيته على «الشفا» حديث أبي الجمرا في الإسراء، عزاه إلى تخريج ابن ماجة، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت ابن ماجة في مظنّته، فلم أجده، فمررت به على الكتاب كله، فلم أجده، فاتهمت نظري، فمررت مرّة ثانية فلم أجده، فعدت ثالثة فلم أجده، ورأيته في «معجم الصحابة» لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرته، فبمجرّد ما سمع مني ذلك أخذ نسخته، وأخذ القلم فضرب على لفظ ابن ماجة وألحق ابن قانع في الحاشية، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي، واحتقاري في نفسي، فقلت: ألا تصبرون، لعلكم تراجعون! فقال: لا، إنما قلّدت في قولي: «ابن ماجة» البرهان الحلبي».

ألا تدل هذه القضية على قدرة السّيوطيّ في البحث، وتحرّيه في الوصول إلى الحقيقة والتي واجه بها شيخه فقبلها فرحاً مسروراً مما جعل السيوطيّ يعظمه ويهابه لانقياده إلى الحق مع عظم منزلته، ورفعة رتبته وسموّ مكانته؟

(د) السّيوطيّ المؤلّف:

سجل السّيوطيّ تاريخ مزاولته التأليف والتصنيف، فقال: «وشرعت في التصنيف سنة ست وستين».

وأول ما بدأ به من التصنيف ـ كما قدمت سابقاً: «شرح الاستعاذة والبسملة، وقد أوقف على هذا الشرح شيخه شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، فكتب عليه تقريظاً.

(هـ) السّيوطيّ المفتي:

والإفتاء مرتبة لا يصل إليها إلاّ الراسخون في العلم، وهي أعلى مراتب المعرفة. وقد وصل إلى هذه المرتبة السّيوطيّ في سن مبكرة لا تتجاوز اثنين وعشرين عاماً، وقد نصّ على ذلك بقوله: «وأفتيت في مستهل سنة إحدى وسبعين»[1]، وميلاده كما أسلفت سابقاً كان في سنة ٨٤٩هـ.

(و) السّيوطيّ المحدِّث:

وعلم الحديث كما يقول صاحب «مفتاح السعادة»: «هو علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول عليه الصلاة والسلام من حيث أحوال رواته ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السّند اتّصالاً وانقطاعاً. وموضوعه: ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام من حيث صحة صدورها عنه ﷺ وضعفه، إلى غير ذلك.

وفي هذا الفن منفعة بيّنة وغاية عظيمة، بل هذا أحد أركان الدين»[2].

---

(١) انظر في النصوص التي تقع بين علامتي التنصيص: حسن المحاضرة: ١/٣٣٦ وما بعدها.

(٢) مفتاح السعادة: ٢/٦٠.

والسّيوطيّ بعد تصديه للإفتاء بعام واحد تصدر لإملاء الحديث كما نصّ على ذلك بقوله: «وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنين وسبعين»[1]. والتصدر في إملاء علم الحديث الشريف منزلة لا يصل إليها إلّا الحافظ المستوعب، والفاهم الدقيق، والمستوعب الحصيف، والملهم الموفق.

وقد كان كذلك السّيوطيّ، ولا عجب أن يعبرّ عن منزلته في هذا المضمار وعن قدرته في هذا الميدان، لأن هذا من باب النعمة الآلهية: ﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾.

وقد تحدّث السّيوطيّ بنعمة ربه فقال في مقدمة: «تدريب الراوي» ما نصّه: «إن علم الحديث رفيع القدر، عظيم الفخر، شريف الذكر، لا يعتني به إلّا كل حَبْر، ولا يحرمه إلّا كل غَمْر[2]، ولا تفنى محاسنه على ممرّ الدّهر.

وكنت ممن عبّر إلى لجّة قاموسه[3]، حيث وقف غيري بشاطئه، ولم أكتفِ بورود مجاريه حتى بَقَرْتُ[4] عن منبعه ومناشئه، وقلت لمن على الرّاحة عوّل متمثلاً بقول الأول:

لسنا وإن كنا ذوي حسب يوماً على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

مع ما أمدّني الله تعالى به من العلوم كالتفسير الذي به يطلع على فهم الكتاب العزيز، وعلومه التي دونتها، ولم أسبق إلى تحريرها الوجيز، والفقه الذي

---

(١) حسن المحاضرة: ٣٣٨/١.

(٢) الغمر: الغبيّ الجاهل الذي لم يجرّب الحياة.

(٣) القاموس هو البحر.

(٤) بقر الشيء: شقّه.

من جهله فأنّى له الرفعة والتمييز، واللغة التي عليها مدار فهم السّنة والقرآن، والنحو الذي يفتضح فاقده بكثرة الزلل، ولا يصلح الحديث للّحّان، إلى غير ذلك من علوم المعاني والبيان التي لبلاغة الكتاب والحديث تبيان.

وقد ألفت في كل ذلك مؤلّفات، وحرّرت فيها قواعد ومهمّات، ولم أكن كغيري ممّن يدّعي الحديث بغير علم، وقصارى أمره كثرة السّماع على كلّ شيخ وعجوز، غير ملتفت إلى معرفة ما يحتاج المحدّث إليه أن يجوز، ولا مكترث بالبحث عمّا يمتنع أو يجوز، ثم ظنّ الانفراد بجمع الكتب، والضن بها على طلابها، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً عارياً عن الانتفاع بخطابها، إن سئل عن مسألة في المصطلح لم يهتد إلى جوابها، أو عرضت له مسألة دينية لم يعرف خطأها من صوابها، أو تلفظ بكلمة من الحديث لم يأمن أن يزل في إعرابها، فصار بذلك ضحكة للناظرين، وهزأة للساخرين، والله تعالى حسبي وهو خير الناصرين»[1].

لا شك أن هذا النص الذي تحدّث به السّيوطيّ عن نفسه في مجال الحديث الشريف يدلّ على أنه جمع أطرافه، واستوعب أحكامه، وبلغ فيه الذروة من التمام والكمال.

غير أن الذي يلفت النظر في هذا النصّ أن السّيوطيّ عرّض بغيره ممّن يدّعون المعرفة بعلم الحديث، وأكبر الظن أن المعني بذلك هو السّخاويّ، لأن السّخاويّ كما قال السّيوطيّ عنه في الترجمة التي سبقت له أنه: «أنه لا يحسن غير الفن الحديثي شيئاً أصلاً»[2]. وفي هذا النص الذي ذكره في مقدمة كتابه: «تدريب» الراوي جرّده من كل فضيلة في علم الحديث، لأن

---

(١) تدريب الراوي للسّيوطيّ: ٣٨، ٣٩.

(٢) نظم العقبان: ١٥٢ وما بعدها.

الحديث كما ذكر يحتاج إلى علوم تخدمه كالتفسير، وعلوم القرآن، والفقه واللغة، والنحو والمعاني والبيان، وليس للسّخاويّ في هذه العلوم بضاعة على حين وصل السّيوطيّ فيها إلى درجة تؤهله لخوض غماره، وركوب بحاره.

(ز) السّيوطيّ الرّحالة:

وتحدّث السّيوطيّ عن نفسه مبيّناً أنه رجل بحّاثة، يحب الرحلة والارتحال لمقابلة المبرّزين من الرجال، ومعرفة ما في البلاد التي يزورها من الأمور والأحوال ما يجعله واسع الأفق، كبير المعرفة بطبائع الناس وتباينهم في أخلاقهم ومعايشهم، ليصدق قلمه إذا كتب، ولسانه إذا حدّث، قال متحدّثاً عن رحلاته.

«وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، التكرور»[1].

ولمّا كان ماء زمزم لما شُرِب له، فإنه لم ينس حين حجّه أن يشرب من هذا الماء لغرض نبيل، وهدف جميل، وغاية شريفة، وقد بيّن ذلك بقوله: «ولمّا حججت شربت من ماء زمزم لأمور: منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر».

(ح) السّيوطيّ وعلوم عصره:

لم يضن علينا السّيوطيّ بالحديث عن العلوم التي نبغ فيها أو التي لم يصل فيها إلى درجة النبوغ، لقد أعطانا فكرة واضحةً عمّا نبغ فيه من العلوم كما نقد نفسه نقداً ذاتياً حينما قدّم لنا بعض العلوم التي لم يحالفه الحظ في الوصول إلى القمة فيها، ودرجة معرفته بها، والمرتبة التي وقف في تعلمه عندها.

---

(١) بلد من بلاد المغرب كما في القاموس.

إنـه الصدق الـذي لا يعرف الكـذب، والواقـع الذي لا يعـرف الادّعاء فماذا قال السّيوطيّ عن العلوم التي نبـغ فيها؟

قـال: «رزقت التبحر في سبعـة علوم: التفسيـر، والحـديث، والفقـه، والنحـو، والمعاني، والبيـان، والبديـع، على طـريقة العـرب البلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة».

على أن هذه العلوم التي تبحّر فيها السّيوطيّ ما عدا الفقه، انفرد بها في التعمّق فيها دون أشياخه، فلـم يصل أحد من أشياخه إلى قمة هـذه العلوم كما وصـل السّيوطيّ، ينصّ على هـذه الحقيقة بقـوله: «والـذي اعتقـده أن الـذي وصلت إليـه من هذه العلوم السبعـة سـوى الفقـه والنقـول التي اطلعت عليهـا فيها، لم يصل إليه، ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلاً عمّن هو دونهم».

ويعتـرف السّيوطيّ بـأن بـاعـه في الفقـه قصيـر، فيقـول: «وأمّـا الفقـه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخي فيه أوسع نظراً، وأطول باعاً».

وأمّـا العلوم الأخـرى السـائـدة في عصـره مثـل أصـول الفقـه والجـدل والتصـريف، والإنشاء، والتـرسّـل، والفـرائض، والقـراءات، والـطب، وعلم الحساب، فإن السّيوطيّ اعترف أن معرفته بها ليست متساوية فهي درجات في التحصيل والاستيعاب.

فبعد أن بيّن لنا العلوم التي نبـغ فيها أخذ يبيّن لنـا من ترجمتـه الذاتيـة درجات معرفته بالعلوم الأخرى، مبتدئاً بالأعلى معرفـة، ومنتهياً بالأدنى معرفةً والأعسـر علمـاً، فقـال: «ودون هـذه السبعـة في المعـرفـة: أصـول الفقـه، والجدل والتصريف.

ودونها: الإنشاء والترسّل.

ودونها: القراءات، ولم آخذها عن شيخ.

ودونها: الطبّ.

وأما علم الحساب «فهو أعسر شيء علي، وأبعده عن ذهني، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به، فكأنما أحاول جبلاً أحمله».

والسّيوطيّ حينما تحدّث عن العلوم التي نبغ فيها، والتي لم يصل فيها إلى درجة النبوغ، وقسمها إلى درجات لم يسرد فيها علم المنطق ولا أدري ما الدرجة التي وضع فيها السّيوطيّ علم المنطق بالنسبة إلى معرفته بها.

ويبدو أن السّيوطيّ غضّ النظر عن ذكر هذا العلم بين العلوم التي ذكرها، لأنه آثر أن يتحدّث عنه منفرداً لأمر يذكره، وعلة يبيّنها، فقال بعدما ذكر حديثه عن آلات الاجتهاد التي كملت عنده متحدّثاً عن علم المنطق، ما نصّه: «وقد كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته في قلبي، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه، فتركته لذلك فعوّضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم»[1].

ومعنى هذا النص كما توحي دلالته أن السّيوطيّ ليس جاهلاً في المنطق، وليس ضعيفاً فيه، إنما تركه لشعوره بكراهيته في قلبه، وبخاصة بعدما أفتى ابن الصلاح بتحريمه، ولا أدلّ على ذلك من أن السّيوطيّ ألّف في المنطق كتاباً سمّاه: «صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام».

ومن البدهي أنه لا يؤلف في هذا الفنّ إلاّ كل خبير بمسالكه، عليم بشعابه، دارس لفصوله وأبوابه. وقد ذكر في مقدّمة هذا الكتاب ما نصّه:

---

(١) انظر في النصوص التي بين علامتي تنصيص: حسن المحاضرة: ٣٣٦/١ وما بعدها.

«فقد كنت قديماً في سنة سبع أو ثمان وستين وثمانمائة ألّفت كتاباً في تحريم الاشتغال بفنّ المنطق سمّيته: «القول المشرق» ضمنته نقول أئمة الإسلام في ذمّه وتحريمه، وذكرت فيه أن شيخ المجتهدين تقيّ الدّين بن تيمية ألّف كتاباً في نقض قواعده، ولم أكن إذ ذاك وقفت عليه، ومضى على ذلك عشرون سنة، فلمّا كان في هذا العام، وتحدّثت بما أنعم الله به عليَّ من الوصول إلى رتبة الاجتهاد ذكر ذاكر أن من شروط الاجتهاد معرفة فن المنطق، يعني وقد فقد هذا الشرط عندي بزعمه.

وما شعر المسكين أني أحسنه أكثر ممّا يدّعيه، ويناضل عليه، وأعرف أصول قواعده وما يثبت عليه، وما يتولّد منها معرفة ما وصل إليه شيوخ المناطقة الآن ـ إلّا شيخنا العلّامة محيي الدّين الكافيجي ـ فقط»[1].

فالسّيوطي إذاً في ضوء هذا النصّ عالم بعلم المنطق، عارف بأصوله وقواعده معرفة شيوخ المنطق ـ لا تلاميذهم ـ ولكنّ السّيوطيّ استثنى من هؤلاء الشيوخ شيخه الكافيجي، فلم يدّع أنه خبير مثله بعلم المنطق، ولذلك التزام السّيوطيّ حدّه، ولزم غَرزه، وعرف حجمه بالنسّبة لشيخه الكافيجي في علم المنطق، ولذلك استثناه لأنه بحر لا يجاري، وسماء لا يرقى إليها أحد.

(ط) السّيوطيّ المجتهد:

ليس بغريب على السيوطيّ أنه يشعر نفسه بأنه من المجتهدين، وقد أدلى بدلوه في كل علم، وغاص بفكره في عُمق كل فن، ونبغ نبوغاً منقطع النظير في كل ما كتب أو ما ألّف.

---

(١) مقدمة كتاب: صون المنطق في الكلام للسيوطيّ: ١، ٢.

ورجـل شـأنـه هكـذا لِمَ لَمْ يَكن من المجتهـدين؟ نلمس ذلـك في الإحساس القوي الذي كان يشعـر به السّيـوطيّ في قرارة نفسـه نحو الاجتهاد لأنه كان يرجو أن يكون من مجتهدي قـرنه، وهو الذي يملك أدوات الاجتهاد ففي تـرجمته لنفسـه في «حسن المحاضـرة»، يقول:

وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد ــ بحمد الله تعالى ــ أقول ذلـك تحدّثـاً بنعمـة الله لا فخـراً، وأيّ شيء في الـدنيـا حتى يـطلب تحصيلهـا بالفخر، وقـد أزف الرحيـل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمـر! ولو شئت أن أكتب في كـل مسألـة مصنفاً بـأقوالهـا، وأدلّتها النقليـة والقياسيـة، ومداركهـا ونقـوضها، وأجـوبتها، والمـوازنة بين اختـلاف المذاهب فيهـا، لقدرت على ذلـك، من فضل الله لا بحـولي ولا بقوتي فـلا حول ولا قـوّة إلاّ بالله، مـا شاء الله، لا قوّة إلاّ بالله»[1].

أحسست وأنـا أقـرأ هـذا النص في «حسن المحـاضـرة» بـالإخـلاص المتدفق من قلب السّيوطيّ؛ وأنه ذكر مـا ذكر من قـدرته على الكتـابة في كـل مسـألـة من بـاب التحـدّث بنعمـة الله، لا من بـاب الافتخـار والغـرور فـإن السّيوطيّ، وضع كل هذه الأمور التي تتعلق بالفخر والغرور تحت قدمه حينمـا قال: «وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بـالفخـر»؟

إن الـرجل عـالم، ومن حق العالِم أن يشعـر بفضل الله تعـالى عليه في كـل ما يكتب وفي كـل ما يؤلف، لأن كـل ذلك بقـدرة الله تعـالى لا بقـدرتـه القاصرة، وقوته المحدودة.

ويثبت السّيـوطي هذه الحقـائق مرة أخـرى في كتـابـه: «الحـاوي على الفتاوي»، قال في بحثه: «تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة» ما نصّه:

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٣٩.

«وبعد فإني رجل حُبِّبَ إلى العلم، والنظر فيه، دقيقه وجليله، والغوص على حقائقه، والتطلع إلى إدراك دقائقه، والفحص عن أصوله، وجبلت على ذلك، فليس فيّ منبت شعرة إلّا وهي ممحونة بذلك، وقد أوذيت على ذلك كثيراً من الجاهلين والقاصرين، وذلك سنّة الله في العلماء السالفين، فلم يزالوا مبتلين بأسقاط الخَلْق وأرذالهم، ويمن هو من طائفتهم ممّن لم يرتقِ إلى محلّهم»[1].

ويعزّى السّيوطيّ نفسه بالسلف الصالح الذين لقوا من معاصريهم الجحود والنكران، والتعنت والأذى مع ما لهم من الفضل، وماتحلّوا به من العلم والإيمان.

ويستدل السّيوطيّ على هذه الطباع السيئة التي لا يخلو منها عصر من العصور وبخاصة في ميدان التنافس العلمي، والصراع النفسي، فيقول:

«ومن المعروف في «صحيح البخاري» وغيره ما قاساه سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة من جهال أهل الكوفة، وشكواهم إيّاه لعمر بن الخطاب، حتى قال له عمر: شكوك في كل شيء حتى قالوا: إنك لا تحسن أن تصليّ».

قال السّيوطيّ معقباً: «فانظروا بالله الذين أسلموا البارحة يزعمون في صاحب رسول الله ﷺ الذي كان يسمّى: ثلث الإسلام أورُبعه أنه لا يحسن الصلاة».

---

(١) الحاوي على الفتاوي: ٢/٣٠٠.

ويمضي السّيوطيّ يضرب الأمثلة من تاريخ الأسلاف الذين لَقُوا من الإجحاف والنكران ما لقوا، فيقول: «وما قاساه الإمام الشافعيّ من أهل مصر لمّا ألّف الرّد على مالك، واضطراب البلد حتى كاد البلد يفتتن، وما قاساه البخاريّ من أنداده، والغزالي من أعدائه وغيرهم من المتقدّمين والمتأخرين، وقد أجتمعوا كلهم عند الله، وظهر لهم المحقّ من المبطل، والأرفع رتبة عند الله من غيره، وظهر لنا مصداق ذلك في هذه الدار ببقاء كلام هذه الأئمة وانتشاره وظهوره، واضمحلال من ردّ عليهم، وطَمْس ذلك ودثوره»[1].

ويبدو أن السّيوطيّ تحرّج من باب الورع والزهد أن يعلن أنّه: مجتهد القرن التاسع، ولو فعل ذلك لما كان في هذا الإعلان ادّعاء، ولِمَ يدّعي وقد كملت عنده أدوات الاجتهاد؟

وقد تكون خشيته من المتزمتين الجهلاء هي السبب في عدم الإعلان عن هذه الرغبة، لأنهم كانوا يعتقدون أن باب الاجتهاد أغلق، وبإغلاقه لا يوجد مجتهد.

تحدّث عن ذلك السّيوطيّ في رسالة سمّاها: الرّد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» فقال: «وبعد، فإن الناس قد غلب عليهم الجهل وطمّهم، وأعماهم حبّ العناد، وأصمّهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد وعدُّوه منكراً بين العباد. ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة من كل قطر»[2].

---

(١) انظر هذه النصوص في «الحاوي على الفتاوي»: ٣٠٠.

(٢) انظر: صفحة ١٤ من كتاب: «جلال الدين السّيوطيّ منهجه وآراؤه الكلامية»، وانظر التعريف بهذه الرسالة في كتاب: «مكتبة الجلال السيوطي وهو سجل يجمع ويصف مؤلفات السيوطيّ»: ٣٢٤.

ويكرّر السّيوطيّ في كل موطن من مواطن اللقاءات الفكرية بينه وبين معاصريه أنه المجتهد الأوحد في عصره، لأن كثيراً من المشكلات العلمية لا يجدون حلّها إلاّ بين يديه:

ففي قضية عُمْر الدّنيا وما ورد فيها من الآثار، وردت مسائل إلى السّيوطيّ من أحد السائلين ليزيل حيرته فيما أشكل من هذه الآثار، وحاول السائل أن يجد الجواب عند السّيوطيّ، ولكن السّيوطيّ يضنّ به على هذا السائل النحرير لأنه من القوم الذين يحملون لواء الإنكار على السّيوطيّ في دعواه الاجتهاد.

يقول السّيوطيّ في هذه القضية معلناً عن نفسه، مشعراً خصومه وأعداءه أنه رجل الاجتهاد في عصره بأسلوب ساخر، ولسان حاد وعبارات ملؤها الانفعال والضيق من حسّاده وخصومه، «قلت: جولوا في الناس جولة، فإنه ثَمَّ من ينفخ أشداقه، ويدّعي مناظرتي، وينكر عليَّ دعواي الاجتهاد، والتّفرّد بالعلم على رأس هذه المائة، ويزعم أنه يعارضني، ويستجيش عليَّ منه لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد، ونفخت عليهم نفخة صاروا هباءً منثوراً فدار السائل المذكور على الناس، وأتى كل ذاكر وناس، وقصد أهل النجدة والبأس، فلم يجد من يزيل عنه الإلباس، ومضى على ذلك بقيّة العام.

والسؤال بكر لم يفضّ أحد ختامها، بل ولا جسر جاسر أن يحسر لثامها وكلما أراد أحد أن يدنو منها استعصت وامتنعت، وكل من حدّثته نفسه أنه يمدّ يده إليها قطعت، وكل من طرق سمعه هذا السؤال لم يجد له باباً يطرقه غير بابي وسلّم الناس أنه لا كاشف له بعد لساني سوى واحد وهو كتابي، فقصدني القاصدون في كشفه، وسألني الواردون أن أُحبِّر فيه مؤلفاً يزدان

بوصفه، فأجبتهم إلى ما سألوا، وشرعت لهم مَنْهَلاً، فإن شاءوا أعلّوا، وإن شاءوانهلوا،وسميته «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف»[1].

ونحن نعترف مع السيوطيّ بأنه مجتهد عصره، وإذا كان السّيوطيّ الموسوعة، المدقق، المستوعب، الحافظ غير مجتهد فمن المجتهد؟ وأحب قبل أن نختم الحديث عن السّيوطيّ المجتهد أن نسجل بعض المسائل التي اجتهد فيها، ولم يسبقه أحد إليها.

(ي) صور من المسائل الاجتهادية للسّيوطيّ:

١ ـ يشتهر بين العلماء والمؤرخين أن عمر بن الخطاب هو الذي أمر بالتأريخ الهجريّ.

ويؤكد السّيوطيّ أن هذا خطأ، والصواب غير ذلك، لأنه البادىء بالتاريخ الهجريّ هو النبي ﷺ، وعمر لم يفعل ذلك من نفسه، وإنما فعل ذلك تبعاً للنبي ﷺ، يقول السّيوطيّ: «وقفت على ما يُعضّد الأول [أي الرأي الذي ذكره] فرأيت بخط ابن القماح في مجموعة له: قال ابن الصلاح: وقفت على كتاب من الشروط للأستاذ أبي طاهر محمد بن محسن الزيادي، وذكر منه أن رسول الله ﷺ أرّخ بالهجرة حيث كتب الكتاب لنصارى نجران، وأمر عليّاً أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من الهجرة»[2].

---

(١) الحاوي على الفتاوي: ٢/٨٦؛ وانظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٨٩، وفي هذا الكتاب تعريف بهذه الرسالة والخزائن التي تحتفظ بها مخطوطة.

(٢) انظر: الشماريخ في علم التاريخ: ١٠؛ وانظر أيضاً: «جلال الدين السّيوطيّ» منهجه وآراؤه الكلامية: ١٥، ١٦.

٢ ــ مخالفته لابن عبّاس في إحدى القضايا العلمية:

ابن عبّـاس صحابـي جليـل، وحبْرٌ من أحبـار هذه الأمّـة، نشأ في بيت النبوّة، وصحب الرسول عليه السلام منذ الصّغر، ونبـغ في العلم نبوغاً منقطع النظير، ويرجع سبب هذا النبوغ إلى ظفره بدعـاء الرسـول عليه السـلام، له، حينمـا دعا، فقـال: «اللهم علّمه الكتـاب والحكمة»، وفي بعض الـروايات: «اللهم فقهه في الدّين، وعلّمه التأويل»[١].

ولحب ابن عبّاس للعلم، وبذله من أجله كل مـا يملك من جهد وطـاقة يحدّثنا عن نفسه فيقول: «وجدت عامّـة حديث رسـول الله ﷺ عند الأنصـار، فـإني كنت لآتي الرجـل فأجـده نائمـاً، لو شئت أن يـوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بـابه، تسفي على وجهي الـريـح حتى يستيقظ متى استيقظ وأسألـه عمّـا أريد، ثم أنصرف»[٢].

ابن عبّاس هذا نجـد في «حسن المحاضـرة» نصاً للسّيـوطيّ يرد قـوله، ويخالف رأيه «فعن ابن عبّاس ــ وقد ذكر مصر ــ فقال: سمّيت مصر بـالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن»[٣].

ولم يرتض السّيوطيّ هذا الرأي وردّه بالدليل، فقال: «قلت بل في اثني عشر موضعاً أو أكثر»، وأخذ السّيوطيّ يسرد هذه المواضع يردّ على ابن عبّاس حَبْر هذه الأمة[٤].

---

(١) أسد الغابة: ٣/١٩٢ ــ ١٩٥.

(٢) التفسير والمفسرون، للمرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي: ٦٨/١.

(٣) يعني أن كلمة: «الأرض» أريد بها مصر في عشرة مواضـع.

(٤) انظر: حسن المحاضرة: ١/٨، ٩.

٣ ـ ويردّ السّيوطيّ تصحيفاً لغويّاً في كتابه «حسن المحاضرة»، تحت عنوان: «فائدة».

قال السّيوطيّ: «اشتهر على ألسنة كثير من الناس في قوله تعالى: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾[1] إنها مصر، وقد نصّ ابن الصلاح وغيره على أن ذلك غلط نشأ من تصحيف، وإنما الوارد عن مجاهد وغيره من مفسّري السلف: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾، قال: مصيرهم، فصحف بمصر»[2].

بعد هذه النماذج التي قدمتها لتبيّن مقدرة السّيوطيّ في الاستنباط، والقوة في الاستيعاب، والموسوعة العلمية التي حملتها ذاكرته، لتسعفه في كل موقف، ويستدعيها في كل قضية، أقول: إنّ اجتهاد السّيوطيّ في رأيي اجتهاد مقيد في حدود الفهم والإدراك وقوة الغوص على المعاني التي تكمن وراء الألفاظ، وليس المقصود بالاجتهاد مثلاً أن يكون صاحب مذهب في الفقه أسوة بالفقهاء الأربعة الذين اجتهدوا اجتهاداً مطلقاً، وقد نصَّ السيوطي نفسه على أن ادّعاءه الاجتهاد هو في الاجتهاد المقيّد، وليس في الاجتهاد المطلق، ولذلك يقول: «قد أشاع الناس عنّي أني ادّعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة، وذلك باطل عني، إنما مرادي بذلك المجتهد المنتسب، ولمّا بلغت مرتبة الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النّووي. ولما بلغت مرتبة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الشافعيّ»[3].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٥.

(٢) انظر: حسن المحاضرة: ١/١٠.

(٣) ذيل طبقات الشعراني، نقلاً عن كتاب: جلال الدين السّيوطيّ: منهجه وآراؤه الكلامية: ١٧.

واضح إذاً من هذا النّص أن اجتهاد السّيوطيّ اجتهاد مقيّد، وحتى في الاجتهاد المطلق فهو اجتهاد منتسب إلى مذهب.

(ك) اتهامات السخاوي للسيوطي:

أكبر معاصر منافس للسيوطي هو السخاوي الذي قدمت ترجمته سابقاً والمنافس الوحيد، الذي حوّل قلمه ببأس شديد نحو السيوطي، يبدىء ويعيد، لا يجد مناسبة إلا ويكيل الاتهامات جزافاً، ولا مجلساً إلا ويسلقه بلسانه الحاد ظلماً وعدواناً.

لقد جرّده من كل فضيلة، واتهمه بالخيانة العلمية، والسرقات الفكرية والسطو على علوم العلماء لينسبها لنفسه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل بالغ في الشتم والسب، اتهمه بالعقوق نحو أمه واتهم أمه بأنها جارية تركية، ورماه بالكذب أكثر من مرة، واتهمه بالبلادة والغباء، لأنه يجهل مسائل الحساب.

ونستطيع أن نقسم هذه الاتهامات إلى قسمين:

١ ـ اتهامات شخصية:

ومن هذه الاتهامات: اتهمه بأنه ابن أمة. قال السخاوي: «وأمّه أمة تركيّة»[١].

* اتهمه بأنه غير مؤدب، ففي حلقة الشرف المناوي أستاذه جلس في مكان بارز في الحلقة، فلمح له المناوي بالأدب ليتخلى عن مكانه، ويتواضع في مجلسه.

---

(١) الضوء اللامع: ٣/٦٥.

قال السخاوي: «وحضر عند الشرف المناوي يسيراً جداً ولمح له الأدب حيث قال له، وقد تألم من جلوسه: كنا ونحن صغار لا نجلس إلا خلف الحلقة في كلمات من هذا النمط»[1].

* اتهمه بأنه تعلم تعليماً سطحياً، فبعد أن ذكر شيوخه، والعلوم التي درسها عليهم عقب على ذلك بقوله: «ولم يمعن الطّلب من كل ما أشرت إليه[2]».

* اتهمه بالسرقة العلمية من كتبه بقوله: «واختلس حين كان يتردد إلى ممّا عملْتُه كثيراً كالخصال الموجبة للظلال و «الأسماء النبوية» و «الصلاة على النبي ﷺ» و «موت الأبناء» وما لا أحصره[3].

* اتهمه بالسّطو على المكتبة المحمودية وغيرها بقوله: «أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدّمة التي لا عهد للكثير من العصريين بها من فنون، فغيّر فيها يسيراً، وقدّم وأخّر، ونسب لنفسه، وهوّل في مقدماتها بما يتوهّم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي ببعضه»[4].

* اتهمه بالاعتداء على كتاب ابن تيمية في تحريم المنطق، فأخذ أفكاره وجرّدها من الانتساب إلى صاحبها لينسبها إلى نفسه بقوله: «وأول ما أبرزَ له جزء في «تحريم المنطق» جرّده من مصنف لابن تيمية، واستعان بي في أكثره، فقام عليه الفضلاء بحيث كفّه العلم البلقيني عنه، وأخذ ما استكتبه به في المسألة، ولولا تلطفي بالجماعة كالأنباسي وابن قاسم لكان ما لا خير فيه»[5]

---

(١) الضوء اللامع: ٣/٦٦.
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) المصدر نفسه والصفحة.
(٥) الضوء اللامع: ٣/٦٦.

* اتهمه بأنه ضعيف الشخصية لا يحسن التدريس إلا للعوام بقوله: «وكذا درّس جمعاً من العوام بجامع ابن طولون، بل صار يملي على بعضهم ممّا لا يحسن شيئاً»[1].

* اتهمه بالوصولية والنفاق، فوصية شهاب الدين بن الضباح الذي عمل على تربيته عند (برسباي أستدار) هي التي ألحقته مدرساً بالشيخونية، يقول السخاوي، مكملاً النص السابق: «بحيث كان ذلك وسيلة لمساعدة وصيّه شهاب الدين بن الضباح حيث ربّاه عند «برسباي أستدار». . . حتى قرّره في تدريس الحديث بالشيخونية بعد وفاة الفخر عثمان المقسيّ. . . إلى أن يقول: «وليس بموافق شرط الواقف»[2].

* اتّهمه بالإقليمية حيث استعان بعناية ابن بلده أبي الطيب الأسيوطي ليتولّى مشيخة التصوف بتربة برقوق بقوله مبيّناً المناصب التي تولاها منها: «مشيخة التّصوّف بتربة برقوق نائب الشام التي بباب القرافة بعناية بلديِّه أبي الطيب السيوطي، وغير ذلك». ثم قال معقّباً على هذه المناصب التي تولّاها: «كل هذا مع أنه لم يصل ولا كاد، ولذا قيل: إنه تزبّب قبل أن يتحصرم»[3].

* اتهمه بالهوس والكبر وعقوق أمه بقوله: «لم أزل أعرفه بالهوس، ومزيد الترفع حتى على أمه بحيث كانت تزيد في التشكّي منه»[4].

(١) الضوء اللامع: ٣/٦٦.
(٢) الضوء اللامع: ٦٦، ٦٧.
(٣) الضوء اللامع: ٣/٦٧.
(٤) الضوء اللامع: ٣/٦٩.

* اتهمه بالكذب في عدة مواطن من كتابه حيث قال: «فهو كثير المجازفة، جاءني مرّة، وزعم أنه قرأ مسند الشافعي على (القمصي) في يوم، فلم يلبث أن جاء (القمصى)، وأخبرني متبرعاً بما تضمن كذبه، حيث بقّي منه جانباً»[1].

ومن كذبه في موطن آخر، قال السخاوي: «حكى عن الكمال أخي الجلال المحلّى مناماً، كذّبه الكمال فيه»[2].

اتهمه بسوء الخلق بقوله: «مقام إبراهيم أساء فيه الأدب على عالم الحجاز مما يستحق التعزير عليه»[3].

٢ ـ اتهامات علمية:

اتهمه بالتحريف والتصحيف: «قال السخاوي: «كل ذلك مع كثرة ما يقع له من التحريف والتصحيف وما ينشأ من عدم فهم المراد، لكونه لم يزاحم الفضلاء في دروسهم ولا جلس بينهم في مسائهم وتعريسهم، بل استبد بأخذه من بطون الدّفاتر والكتب»[4].

* ادعاؤه الاجتهاد بغير حق: قال السخاوي: «وقد قام عليه الناس كافّة لما ادّعى الاجتهاد»[5].

* ازدراؤه للعلماء: فقد صنف السيوطي كتباً، عاب فيها على الكثير

---

(١) الضوء اللامع: ٦٨/٣.
(٢) الضوء اللامع: ٦٨/٣.
(٣) الضوء اللامع: ٦٩/٣.
(٤) الضوء اللامع: ٦٩/٣
(٥) الضوء اللامع: ٦٩/٣.

من العلماء بأسلوبه ملؤه السخرية والازدراء. قال السخاوي: «وصنف: «اللفظ الجوهري في ردخُباط الجوجري»[1]. و«الكرّ في خُباط عبد البر» و«غضب الجبّار على ابن الأبّار»، و«القول المجمل في الرّد على المهمل»[2].

والكتاب الأول، وهو: اللفظ الجوهري الخ... ورد في كتاب مكتبة الجلال السيوطي[3] وهي سجل يجمع ويصنف مؤلفات جلال الدين السيوطي باسم: «اللفظ الجوهري في ردخباط الجوجري» في مسألة (الرؤية للنساء). وقد نسب هذا الكتاب إلى السيوطي حاجي خليفة في «كشف الظنون»، وجميل العظم في «عقود الجواهر» والبغدادي في «هداية العارفين».

والكتاب الثاني، وهو: «الكر في خباط عبد البر»، ورد في مكتبة الجلال السيوطي[4] باسم: «الكر على عبد البر»، نسبه إليه حاجي خليفة في: «كشف الظنون» قائلاً في إعراب آية الكرسي للسيوطي ذكره في فهرست مؤلفاته في فن النحو، وعزاه إليه اسماعيل البغدادي في: «هداية العارفين».

والكتاب الثالث، وهو: «غضب الجبار على ابن الأبار» لم يرد في مكتبة الجلال السيوطي مع النص عليه في الضوء اللامع.

والكتاب الرابع، وهو: «القول المجمل» الخ. ورد في مكتبة الجلال السيوطي[5] بلفظ: «القول المجمل في الردّ على المهمل»، وعزاه إليه حاجي خليفة في «كشف الظنون»، وجميل العظم في «عقود الجواهر» والبغدادي

---

(١) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٩٩. والخُباط بضم الخاء: الجنون.
(٢) الضوء اللامع: ٦٩/٣.
(٣) مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٩٩.
(٤) المرجع نفسه: ٢٨٦.
(٥) المرجع نفسه: ٢٨٦.

من: «هداية العارفين، وقد نسبه السيوطي إلى نفسه في «حسن المحاضرة».

وهذا الكتاب يوجد مخطوطاً بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة.

والكتاب في موضوع عبارة في آخر كتاب «الشفاء» للقاضي عياض وهي: «ويخصنا بخصيصي زمرة نبينا وجماعته» وهي في المسائل التي سنتناولها في البحث عند الحديث عن «خصومات السّيوطيّ العلمية».

وقد أشار إلى هذا الكتاب الرابع السّخاوي نفسه فقال: «وأمّا الرابع فهو ردٌّ على من قرأ قول القاضي عياض في آخر «الشفا»: و«يخصنا بخصيصي بالتثنية بعد أن كتب إليه ورقة فيها إساءة وغلطة لا تليق بمخاطبة طلبة العلم بحيث كان ذلك حاملاً له على الاستفتاء عليه، وكتب بموافقته فيما قرّره الأمين الأقصرائي، والعبادي، والزين قاسم الحنفيّ والفخر الديمي، وكاتبه [يعني نفسه أي السّخاويّ]، وأفرد القارىء جزءاً سمّاه: «المفصل في الرّد على المغفّل»[1].

* اتهامه بسرعة الفتوى من غير تثبّت: قال السّخاويّ: «زعم أنه رأى مناماً يقتضي ذمّ النّبي ﷺ له وأمره خليفته الصدّيق رضي الله عنه بحبسه سنة ليراجع الإقراء والإفتاء حيث التزامه تركهما، وأنه استغفر وترك هذا الالتزام بحيث لو جيء إليه بفتياً وهو مشرف على الغرق لأخذها ليكتب عليها»[2].

وفحوى هذا النص أنه لما عاتبه النبي عليه السلام في الرؤيا، ورأى أبو بكر أن يحبس سنة للمراجعة حتى لا يتسرّع بالفتوى، تاب إلى الله، وترك الإقراء والإفتاء كما قال السّخاويّ عنه: «جمد بحيث رام ستر نفسه بقوله:

---

(١) انظر: الضوء اللامع: ٣/٦٩، هذا ولم يرد بهذا الكتاب الذي نصّ عليه السّخاويّ في مكتبة الجلال السّيوطيّ.

(٢) الضوء اللامع: ٣/٦٩.

تركت الإقراء والإفتاء، وأقبلت على الله»[1].

* نقده للسّخاويّ: ويرى السّخاويّ أن السّيوطيّ افترى عليه ظلماً وعدواناً، ولذلك جعل هذا النقد من عيوبه، فماذا قال السّخاويّ: «وقبل ذلك كتب مؤلفاً سمّاه: «الكاوي في الرّدّ على السّخاويّ» خالف فيه الثابت من الصحيح مع كوني لم أتكلم في المسألة إلاّ قبل، بل مذهبي فيه ترك التكلّم إثباتاً ونفياً، فسبحان مقسّم العقول»[2].

و«الكاوي في الرّد على السّخاويّ» ليس كتاباً بالمعنى الدقيق الذي يفهم من معنى الكتاب، ولكنة مقامة من مقامات السّيوطيّ المتعددة، ومن حسن الحظ سجّل لنا مفهرس مكتبة الجلال السّيوطيّ فقرات من هذه المقامة، ولطرافتها نسجلها في هذا البحث إمتاعاً للقارىء: «قال في أوّلها:

يا أرباب النّهي والألباب، وأصحاب المعارف والآداب، وأولى الفتاوى والأحكام، وذوي الألسنة والأقلام، وأئمة الفقه والسنّة وهداية الدين الذين آراؤهم أمضى من الأسنّة: ما ترون في رجل ألّف تاريخاً، جمع فيه أكابر وأعياناً، ونصبه لأكل لحومهم خواناً، ملأه بذكر المساوىء، وثلب الأعراض، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه، والأعراض هي الأغراض، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه، واستغرق في أكلها وقت فطره وصيامه.

وقال في آخرها: «فالواجب على كل مسلم أن يطرح تاريخ هذا الرجل طرحاً، ويضرب عنه صفحاً، ولا يصغي إليه قدْحاً ولا جَرْحاً، ويتركه ومن ترجمه إلى أن يردوا القيامة متخاصمين، وينصفهم الحق سبحانه منه، إنه

---

(1) الضوء اللامع: ٣/٦٩.

(2) الضوء اللامع: ٣/٧٠.

الحكم العدل الذي ينصف المظلومين من الظالمين»[1].

(ل) اتّهامات السّخاويّ للسّيوطيّ في ميزان النقد:

القارىء لهذه الاتهامات سواء كانت شخصية أو علمية لا يرى فيها إلّا سموم الحقد، والكراهية، والحسد والبغض، إنها لم تصدر في إطار الموضوعية والاتزان، ولكنها جاءت مشحونة بالانفعال في الغض من قيمة الرجال، على أن هذه الاتهامات لم توجه إلى السّيوطيّ بعد موته، ولكنها وجّهت إليه في حياته، فمن المعروف كما قلت سابقاً: إن السّخاويّ توفي سنة ٩٠٢هـ أي قبل وفاة السّيوطيّ بتسع سنوات.

والسّيوطيّ ليس ضعيف الشخصية يظلم ويسكت، ويسام الضيم ولا ينطق، إنه صاحب لسان حادّ، وقلم باتر.

ولهذا نترك السّيوطيّ ليعرض علينا رأيه في هذه الاتهامات التي وجهها السّخاويّ ومن تابعه من أصحابه، فبماذا دافع السّيوطيّ عن نفسه؟

١ ــ دفاع عن النفس:

* أوّلاً ــ مع السّخاويّ:

* جرّده السّيوطيّ من كل علم، ورماه بالجهل في كل فن، ولم يبقَ له من المعارف غير الفن الحديثي، وحتى التاريخ لم يكن له فيه باع طويل اللهم إلّا الوقوع في أعراض الناس.

قال السيوطيّ: «وخرّج لنفسه ولغيره مع كثرة لحنه، وعريه من كل علم بحيث إنه لا يحسن غير الفن الحديثي شيئاً أصلاً، ثم أكبّ على التاريخ فأفنى فيه عمره، وأغرق فيه عمله وسلق فيه أعراض الناس، وملأه بمساوىء

---

(١) مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٣٧.

الخلق، وكل ما رموا به، إن صدقاً، وإن كذباً»[1].

وفي موضع آخر يقول عنه: «هذا، وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب عمياء، خابط خبط عشواء، ينسب إلى من تقدّم أخبار من تأخّر، ويعكس ذلك ولا يتدبّر»[2] . . . إلخ.

* أشرت فيما سبق إلى أنَّ السخاويّ نقده السيوطيّ في كلمة «خصيصي»، وأنه جهل حقيقتها، وهي قضية سوف نتحدث عنها فيما بعد، إن شاء الله، بعنوان: «الخصومات العلمية مع معاصريه».

* ردّ دعوى السّخاويّ أنه أغار على كتاب له في الخصال الموجبة لظل العرْش في مقامة سمّاها: «ساحب سيف على صاحب حيف»: «ذاكراً أنه ألّف كتابه: «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش»، وكتابه الآخر فيها المسمّى: «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال» من قبل أن يعلم أن للسّخاويّ فيها تأليفاً.

ثم أقسم على أنه ما سمع بكتاب السّخاوي فضلاً عن أن يكون رآه، بله أن يكون انتحل منه شيئاً»[3].

ثانياً ــ مع ابن الكركي:

* تناوله السّيوطيّ في مقامة سمّاها: «الدوران الفلكي على ابن الكركي» وفيها سلق الرجل بقلمه، ومزّق عرضه، وكشف مساوئه بأسلوب ساخر، وعبارات جارحة، وقد سبق أن ذكرت نصوصاً منها.

* دافع عن نفسه في مقامة ألّفها، وسمّاها: «الكاوي على تاريخ السّخاويّ» وقد سبق أن ذكرنا نصوصاً منها.

---

(١) نظم العقيان: ١٥٢، وسبق ذكر هذا النص في ترجمة السّخاويّ.

(٢) وانظر مقدمة نظم العقيان: ٤؛ وسبق ذكر هذا النص في ترجمة السّخاويّ.

(٣) انظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٣٣.

* والسّيوطيّ خصم عنيد لا يقنع بالقضاء على خصمه، ولكنه يحيط به من كل جانب حتى يسلبه كل حركة، ويقضي عليه قضاء من سيطر، ويستبدّ به استبداد من قهر.

ففي مقامته التي سمّاها: «طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة» هجوم مدبّر على ابن الكركي جعلَهُ سخرية للساخرين، وعبرة للمفترين، وعظة للمتكبرين وهذه المقامة تحوي من العبارات الأدبية، والصّور الفنية ممّا يدل على شخصية السّيوطيّ في الأدب نثراً وبخاصة في فن المقامات.

ولطرافة هذه المقامة نذكر بعض نصوصها التي وردت في كتاب مكتبة الجلال السّيوطيّ لنمتع القارىء بها: وموضوع هذه المقامة أن ابن الكركي التزم أن يسالم السّيوطيّ بعد خصام كان بينهما، فخان التزامه، وعاد إلى الخصام والمنابذة، قال السّيوطيّ: ﴿أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾[1].. ثم قال: «يا أيها الناس أصيخوا إليّ أنبئكم بتأويله، وأحدّثكم بجملة الأمر وتفصيله، اعتدى عليّ عاد، وظلمني ظلم عاد، وبدأني بالإساءة وعاد، وأكثر عليّ من السفه، وملأ بشتمي فاه والشفه، ومدّ لسانه إليّ وهو قصير ونظر إليّ بعين النقص فانقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير».

ثم قال بعد ذلك: «وكان مقتضى الحال ألا التفت إليه بحال، ولو صدر عنه ما صدر من المحال لئلا يصبح جِيدُه بتعرضي إليه وهو حال[2]، لكن رأيته كالأرقم، إن يترك يلقم، فعملت مقامة، يقلّدها طوق الحمامة، كأنها تاج مكلل، أو روض معلل، أو عقد مجوهر، أو كوكب درّي أزهر، أو حلي

---

(1) سورة البقرة: آية ١٠٠.

(2) من الحِلْيَة.

مذَهّب، أو نضار يتلهّب، ألَـذ من الماء على الظمأ، وأرقّ وألطف من قطر السما، وأحلى من السلوى، على قانون أهل العلم والأدب والتقوى، فلذلك سار بها السّير، وطاربها الطير، وسلكت كل مجاز، ولم يحجزها عن الشام والحرمين حجاز، وطربت عند سماعها المسامع، واهتزت عند قراءتها المجامع، فلمّا وصلت إلى المذكور، وأشرقت في الدّور إشراق البدور، شرقت منه الصّدور، وغلى كما تغلي القدور، واشتدّ غليان وفار، وجرى في الشقوق كأنه ابن عرس أو فار، ورقص كما يرقص القرد في السلسلة أو النمس في الأرض المرسلة، وصار كأنه نمر ذابح، أو ذئب نابح، أو حوت سابح، أو غراب ناعق، أو حمار ناهق وصاح صيحة الحبلى، وصرخ صراخ الثكلى، وأخذ يبكي ويشتكي إلى كل دانٍ وقصيّ، تلدغ العقرب وتصي[1]، ثم أخذ يحاول ويزاول، ويتطاول وهو قصير ويطاول، ويزعم أنه يباري ويقاول، وأين الثريا من يد المتناول، فسوّلت له نفسه أن يعارض ما كتبت وأن يجيب عمّا أجبت، فكتب شيئاً دعاه مقامة، وهو قمامة فيها كناسة وزبالة، وسفالة وفسالة، كأنّما صنع من خُثاء البقر، وحلّي بقلائد من البعر، وطُلِيَ بما في البيض الفاسد من المذر».

وهاجم السيّوطي الجماعة التي تناصر ابن الكركي ضده، فقال السّيوطيّ فيه وفيهم: «بال حمار فبال عشرة، بال حمار فاستبال أحمرة، ترادفت الحمر بأبوابها، وتعاقبت البهائم على تجاهلها، لو كنتم ماء لكنتم زبدا، أو كنتم لحماً لكنتم غدداً[2]، أو كنتم قولاً لكنتم فنداً أو كنتم شاء لكنتم نَقَداً»[3].

(١) في القاموس: وصى كوعَى: خسّ بعد رفعه، واتّزن بعد خفة.
(٢) الغدد التي في اللحم، واحدتها: غُددة وغدّة.
(٣) في القاموس: النَقَدُ بالتحريك جنس من الغنم قبيح الشكل وراعيه: نقّاد.

وابن الكركي اتّهم السّيوطيّ بأنه يلحن، ونسب إليه اللحن فردّ عليه السّيوطيّ في مقامته هذه بقوله: «أمثلي يلحن يا أحمق الحمقى، ولا أحد أعلم بالنحو منّي تحت القبة الزرقا، وهل أنت في رتبة من يفرّق بين اللحن والإعراب، أو يميّز بين المشهور وذي الإغراب، أنت رجل نكرة، عار عن المعرفة، خال من البيان، وأداة التعريف، ولمّح الصّفة، جمعك جمع تكسير، وقدرك من صغرك مدخول بحرف التصغير، وخيرك مقصور، وشرّك ممدود غير محصور، لو كنت سليم الباطن كنت بوجه زاهر، كطاهر القلب جميل الظاهر، أفعالك كأبنية المصادر الثلاثية أكثرها على غير قياس واستقامتك كالأفعال المماتة، مقطوع لها بالإياس، أنت كباب العدد تذكر المؤنث، وتؤنث المذكّر، وكتنوين «صه» ينكر المعرف، ويعرّف المنكر، طبعك على قلّة الحياء مبنّى، لشيء من الحروف مدني، شتان بينك وبين من سما، وسلم من شبه الحرف كأرض وسما، إنما صرت معرفة بالغلبة، والوعورة على الناس كالعقبة»[1] ولله درّ السّيوطيّ فقد ساعدته قريحته أن يقتبس من أَلِفيّة ابن مالك، ومن القواعد النحوية ما استطاع به أن يمزّق شخصية ابن الكركي قطعاً قطعاً حيث حوّل المعاني النحوية إلى معان هجائية، وهي قدرة لا تكون إلّا للسيوطيّ العنيد في خصومته، الشديد في بطشه، المصارع في حواره، يتلاعب بالألفاظ كأنها ملكه، ويسيطر على المعاني كأنها طوع بنانه.



---

(١) انظر: مكتبة الجلال السيوطي: ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥.

ثـالـثـاً:

دفاع السّيوطيّ عن ادعائه الاجتهاد

عـرفنا فيمـا سبق أن خصوم السّيـوطيّ، وعلى رأسهم السّخـاويّ رمـوه بانتحال صفـة الاجتهاد مـع أنه قليـل البضاعـة في العلم، ومن كان مثله على هذا القدر من العلم فعليه أن يعيش في حجمه، ولا يتـطاول إلى هذه المـرتبة التي لا يصل إليها إلّا الأفذاد من العلماء، والأبطال من النبغاء.

والسّيوطيّ ـ كما بينت رأيه في الاجتهاد سابقاً ـ يرى أنـه لا يوجـد في عصره من يستحق هذه المرتبة غيره.

وقـد ألّـف فـي هـذا الـشـأن مـقـامتـه زجـر فـيـهـا مـن أنـكـر عليـه دعـوى الاجتهـاد، وأنـه مجـدّدٌ حَبَاهُ الله منصب الاجتهـاد عـلى رأس هـذه المـائـة التاسعـة، قـال: «تبـارك الـذي منّ عليّ بحفظ السّنّـة، وآتاني من العلوم والحجج مـا هـو أمضى من الأسنّة، وجعلني رغم أنف كـل عدوّ تقاد إليَّ الأعناق بالأعنّـه، وحباني منصب الاجتهـاد والتجديـد على رأس هذه المائة التاسعة، وصدق وعد نبيّه ﷺ الذي جاءت به الأحاديث الصحيحـة السـاطعة، وأحـوج إلى الاستمـداد منّي كـل من هـو الآن على ظهـر البسيـطة واعترف كل من يعرفني في أقطار الأرض بأن دائرتهم بما حواه بحري المحيط غيـر محيطة، ونشـر علومي في الآفاق، وبثّ في جميـع الممـالك الإسـلامية ما أبرزته يدي من التصانيف، وثمار الأوراق».

وهـذه المقـامـة التي اقتصـرنـا على ذكـر هـذه الفقـرات منهـا سمّـاهـا السّيوطيّ: «المقامة الكلاجيّة[1] في الأسئلة الناجية» وقد ذكرها حـاجـي خليفـة في كشف الظنون في مسرد مقاماته[2].

على أن السّيوطيّ ردّ أبلغ ردّ على ابن الكركي الذي كان ينكر عليه هذه الدعوى، فقال في مقامـة: «الدوران الفلكي على ابن الكـركي»: «فقولوا له: إني حـامل لـواء العلم لمن يريـد أن يهتدي، والإمـام المقتدي لمن يـريد أن يقتـدي، ومنّي يستمد كـل دان ونائي، ومـا في المشرق والمغـرب الآن أحـد إلّا وهو داخل في العلم تحت لوائي، وإن قال كمـا قالت حسـدة اليهود: «أنـى يكـون لـه الملك علينـا، ونحن أحقّ بـالملك منـه ولم يؤت سعـة من المـال الجسيم، فقـولوا كمـا قيل لهم في الجواب: «إن الله اصطفـاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم»[3].

وبعـد، فقـد دافـع السّيـوطيّ بحق عن نفســه، وردّ كيـد أعــدائـه في نحورهم، ولكن مع ذلك لا نسلم للسّيوطيّ هذه المبالغات التي أضفاهـا على نفسـه، وهذه التهـويلات التي تكـاد تنطق بهـا كـل عبـاراتـه حينمـا يتحدّث عن نفسه.

ولعلّ المنافسة الحادة، وما رمى به كذباً وزوراً، ومـا حمل عليـه بعـض المعاصرين فجـرّدوه من العلم، ورموه بسوء الأدب، كل ذلـك جعل السّيـوطيّ يـركب هـذا الشـطط، ويبـالـغ في القـول لحـاجـة في نفس يعقـوب قضـاهـا «ولا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلّا من ظلم».

---

(١) في القاموس: الكلج محركة: الكريم الشجاع.

(٢) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٤٣، ٣٤٤.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٤٧.

ورحم الله ابن عبّاس حيث يقول: «العلماء أشدّ تغايراً من التيوس في زروبها»[1].

وإني لأعجب أشد العجب أن يتحوّل السّخاويّ إلى عدو للسّيوطيّ مع أنه كان صديقه، وقد اعترف السّخاويّ نفسه بفضائل السّيوطيّ في عدة مواضع من ترجمته في كتابه المشهور: «الضوء اللامع» فماذا قال عنه السّخاويّ مشيداً بفضله؟ قال ما نصه: «ولازمني دهراً، وكتب إليَّ في نثر طويل، وقد تطفلنا على شمول سخائه، وأنخنا ركاب شدّتنا برحاب رخائه، بل مدحني بغير ذلك من نظم ونثر كما بيّنته في موضع آخر»[2].

من خلال هذا النصّ نستطيع أن نؤكد الصداقة التي كانت بين السّيوطيّ والسّخاويّ بقوله: «ولازمني دهراً».

ومن هذا النص نستدل على أن السّيوطيّ كريم النفس ليس فقيراً كما اتهمه بذلك الكركي وغَيَّره بدليل قول السّخاويّ: «وقد تطفلنا على شمول سخائه».

وليس هذا فحسب، فالنصّ ينطق بأن السّيوطيّ كريم اليد طيّب النفس بدليل أنه يعيّن في وقت الشدّة أصدقاءه ولا يبخل عليهم بما يطلبون، ولا أدلّ على ذلك من قوله: «وانخنا ركاب شدّتنا برحاب رخائه».

كل هذا يتبدّد في نظر السّخاويّ وأصحابه ليتحوّل السّيوطيّ إلى الرجل الفقير، وإلى الرجل الجاهل، وإلى الرجل المغرور، وإلى الرجل الدعيّ

---

(١) انظر: مقدمة تدريب الرّاوي، للأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف: ١٧. وفي القاموس: الزّرْب: موضع الغنم ويكسر، وجمعه: زروب.

(٢) الضوء اللامع: ٣/٦٦.

هذا الأمر لا يصدقه العقل، لأنه نابع من حقد دفين على السّيوطيّ حينما بـرز في مجال علوم عصره، وكان الدرّة التي تتـلألأ في زمنه، والنجم السـاطع في سماء المعرفة والعلم.

على أنني أتـرك المـوقف لـلإمـام الشـوكـاني صـاحب «البـدر الـطالـع بمحـاسن من بعد القـرن السابـع» ليعـرض علينا رأيـه في قضية المنـافسة بين هؤلاء المتعاصرين.

والشوكاني كما يبدو مـن كتابته رجل منصف، إذا نقد نقد بعدالة، وإذا كتب كتب بحق، فماذا قال الشوكاني؟

رأي الشوكاني في السّيوطيّ:

الشوكاني عرض في كتابه لحياة السّيـوطيّ، وميلاده ونشـأته ومشـايخه، والعلوم التي ألّفها، ثم سجل في ترجمته أراء خصومه وبخاصة رأي السّخاويّ في السّيوطيّ وبعد أن قدّم هذه الآراء مـسـجّـلاً لها في كتابه، أخـذ يناقشهـا رأياً رأياً، ويفنّدها بالأدلة الموضوعية في إطار من الحقّ والأمانة العلميّـة، قال الشـوكاني في مقـدّمة حـديثه عن هـذه المناقشـة: «وقد نـافس هـو وصـاحب الترجمة منافسة أوجبت تأليف صاحب الترجمة لرسالة سمّاها: «الكاوي لدماغ السّخاويّ» فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل في «الضوء اللامـع» أنها صدرت من خصم له، غير مقبول عليه».

وأخذ الشوكانيّ بعـد هذا التقـديم يفنـد الاتهـامـات التي ألصقهـا بـه خصومه، وسأحاول تلخيصها من «البدر الطالع» بذكر الاتهـام ثم بذكـر تفنيده والرّد عليه:

* اتهامه بجهل علم الحساب، وأن هذا الجهل دليل الغباء.

فنّد الشوكاني هذا الاتهام بقوله: «إن ما اعترف به من صعوبة علم الحساب عليه لا يدلّ على ما ذكره من عدم الذكاء، فإن هذا الفن لا يفتح فيه على ذكيّ إلاّ نادراً كما نشاهده الآن في أهل عصرنا».

* اتهامه بالمسخ والآخذ:

قال الشوكاني: «ليس بعيب، فإن هذا ما زال دأب المصنفين يأتي الآخر، فيأخذ مِنْ كُتب مَنْ قَبله، فيختصر أو يوضّح، أو يعترض أو نحو ذلك من الأغراض التي هي الباعثة على التصنيف، ومن ذاك الذي يعمد على فن قد صنّف فيه من قبله فلا يأخذ كلامه».

* اتهامه بكثرة مؤلفاته لأن كثيراً منها لا يتجاوز ورقة واحدة:

قال الشوكانيّ: «قول السخاوي إنه رأى بعضها في ورقة، لا يخالف ما حكاه صاحب الترجمة من ذكر عدد مصنّفاته، فإنه لم يقل: إنها زادت على ثلاثمائة مجلّد بل قال: إنها زادت على ثلاثمائة كتاب، وهذا الاسم يصدق على الورقة وما فوقها».

* اتّهامه بالكذب من (القميصي) حين ادّعى أنه لم يقرأ المسند كاملاً كما قال بل بقيت منه بقيّة:

قال الشوكاني: «وقوله: إنه كذبه القميصي بتصريحه أنه بقي من المسند بقيّة ليس بتكذيب، فربما كانت تلك البقية يسيرة والحكم للأغلب، لا سيما والسهو والنسيان من العوارض البشريّة، فيمكن أنه حصل أحدهما للشيخ أو تلميذه».

* اتهامه بكثرة التصحيف والتحريف.

قال الشوكاني: «دعوى عاطلة عن البرهان، فهذه مؤلفاته على ظهر البسيطة محرّرة أحسن تحرير، ومتقنة أبلغ إتقان».

* وينفي الشوكاني هذه الاتهامات جملةً وتفصيلاً، فيقول:

«وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه، لما عرفت من قول أئمة الجرْح والتعديل بعدم قبول الأقران في بعضهم بعضاً مع ظهور أدنى مناقشة فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجُلين التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض، فإن أقلّ من هذا يوجب عدم القبول».

* السّخاويّ كثير التحامل.

ويذكر الشوكاني أن من طبيعة السّخاويّ أنه كثير التحامل، لا يتورّع عن إلقاء التهم جزافاً، فيقول:

«والسّخاويّ ـ رحمه الله ـ وإن كان إماماً غير مدفوع، لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه، كما يعرف ذلك من طالع كتابه: «الضوء اللامع» فإنه لا يقيم لهم وزناً، بل لا يَسْلم غالبهم من الحط منه عليه».

* اتهام بعض العلماء للسيوطي، والحط من شأنه.

ردّ على ذلك الشوكاني بقوله: «وأمّا ما نقله من أقوال ما ذكره العلماء مما يؤذن بالحط على صاحب الترجمة فسبب ذلك دعواه الاجتهاد كما صرّح به، وما زال هذا دأب الناس مع من بلغ تلك الرتبة، ولكن قد عرفناك من ترجمة ابن تيمية أنها جرت عادة الله سبحانه كما يدل عليه الاستقراء برفع شأن من عودي لسبب علمه، وتصريحه بالحق، وانتشار محاسنه بعد موته، وارتفاع ذكره، وانتفاع الناس بعلمه.

وهكذا كان أمر صاحب الترجمة، فإن مؤلفاته انتشرت في الأقطار، وسارت بها الركبان إلى الأنجاد والأغوار، ورفع الله له من الذكر الحسن، والثناء الجميل، ما لم يكن لأحد من معاصريه والعاقبة للمتقين»[1].

---

(١) انظر: دفاع الشوكاني عن السّيوطيّ في كتابه: «البدر الطالع» الجزء الأول ترجمة رقم (٢٢٨).

وهكذا وضع الشوكاني النقاط على الحروف، في قضية علا فيها صوت الباطل، وخفت في مجالها صوت الحق، وأصبحت هذه الاتهامات وما يتبعها من تحريفات كسراب بقيعة يحسّبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، بفضل هذه التحليلات اللطيفة، والتدقيقات البديعة، والتحريّات الرائعة لإنصاف السّيوطيّ من المظالم التي مشت في ركابه، والأباطيل التي أحاطت بشخصه، فرحم الله الشوكانيّ رحمة واسعة.

هذا، ولم يتعرّض الشوكانيّ للدفاع عن نسب السّيوطيّ من ناحية الأم حيث اتّهمه السّخاويّ كما سبق بيانه بأنه ابن أمة، وقد أشرت إلى دفاع السّيوطيّ عن نفسه في هذه التهمة التي حوّلها إلى شرف بقلمه المبدع عند الحديث عن نسبه، وأزيد في هذا الموقف فأقول: إن السّيوطيّ ردّ هذا الاتهام بأقوى ردّ حينما قال في مقامته: «طرز العمامة» التي أشرت إليها سابقاً.

«وقولك: إن والدتي أجدادها من الفرس، لأنها جركَسيّة تنقص بذلك وتذمّ، جوابه: أن النسب إلى الآباء لا إلى أجداد الأم، وقد نصت العلماء على أن أغلب نجباء الأمة وكبرائها أولاد سراريّ، وكتبت في ذلك كتاباً سمّيته: «النجوم الدراري»».

صور من القضايا العلميّة بينه وبين منافسيه:

١ ـ مع النّاجيّ:

برهان الدين إبراهيم بن محمد المعروف بالناجي ترجمت له سابقاً ترجمة تغني عن إعادتها هنا.

والذي أهدف إليه هنا هو: ذلك الحوار العلمي الذي حدث بينهما في

(١) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٦٤.

قضية والديّ الرسول عليه السلام، هل هما في الجنّة؟ ومن رأى السّيوطيّ أنهما في الجنة، وقد ألّف في ذلك كتاباً سمّاه: «التعظيم والمنّة في أن والدي المصطفى في الجنّة»[1]. فكتب إليه الناجي بأنه الحديث الوارد في إحيائهما ذكره ابن الجوزيّ في الموضوعات، فردّ عليه السّيوطيّ في كتاب ألّفه لِيُثبت صحة رأيه. وقد تقدمت هذه المناقشة في ترجمة الناجي[2].

٢ ـ مع الشيخ برهان الدين بن علي بن محمد:

سبقت ترجمة هذا المعاصر، وقد حدث بينه وبين السّيوطيّ حوار في قضية علميّة أشرت إليها فيما سبق، فقد وجّه السّيوطيّ إليه في مجلسة عدّة أسئلة في الحديث، فأجاب عنها بما لا يرضى، وجادله السّيوطيّ حتى أُفحم وانقطع، وبين السّيوطيّ أنه نقل له نقلاً عن: «الارتشاف» فأنكر، ثم أرسل أحضره من البيت فوجد النقل فيه كما ذكر السّيوطيّ، فخضع الشيخ المعاصر للسّيوطيّ وصار في نفسه ما فيها[3].

٣ ـ مع القسطّلاني:

في ترجمتي للقسطلاني في هذا الكتاب[4]، ذكرت تلك المشادّة العلمية التي كانت بينه وبين السّيوطيّ في قضية ترجع إلى سلسلة حديث من

---

(١) سمّي هذا الكتاب في مكتبة الجلال السّيوطيّ بـ «الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة»، نسبه السّيوطيّ لنفسه في «حسن المحاضرة»، وعزاه إليه خليفة في «كشف الظنون»، والبغدادي في «هدية العارفين» ويوجد مخطوطاً بالتيمورية وبالاسكوريال، صدرت له طبعة بحيدرآباد سنة ١٣١٧هـ. انظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٦، ٢٦٢. وانظر أيضاً دليل مخطوطات السّيوطيّ: ١٥٠.

(٢) انظر صفحة ٨٩ من هذا الكتاب وما بعدها.

(٣) انظر صفحة ٨٥ من هذا الكتاب.

(٤) انظر صفحة ١٠١ من هذا الكتاب.

الأحاديث الشريفة، وقد ذكر هذه القضية ابن العماد في: «شذرات الذهب» حيث ذكر القسطلاني في مجلس شيخ الإسلام زكريّا أنه يأخذ من كتبه ولا ينسب النقل إليها، فألزمه السّيوطيّ ببيان مدّعاه فعدّد مواضع، قال: إنه نقل فيها عن البيهقي، وقال: إن للبيهقي عدّة مؤلفات، فليذكر لنا: ذكَرَهُ في أي مؤلفاته، لنعلم أنه نقل عن البيهقي، ولكنه رأى في مؤلّفاتي ذلك النقل عن البيهقي فنقله برمّته، وكان الواجب عليه أن يقول: نقل السّيوطيّ عن البيهقي.

٤ ـ مع السّخاويّ:

في حديثي عن السّخاويّ الناقد بيّنت أنه حدثت قضية اشترك فيها أكثر من طرف، ووقف فيها السّخاويّ موقفاً صلباً لم يتزحزح عن رأيه على حين سلم الآخرون للسّيوطيّ، واقتنعوا برأيه والقضية ذكرها السخاويّ في ترجمته للسّيوطيّ مبتورة الأطراف ناقصة المعالم، ومن حسن الحظ أنني وجدت هذه القضية كاملة بأطرافها في كتاب: «الحاوي للفتاويّ» للسّيوطيّ فقد ذكرها مفصّلة، ليتضح فيها وجه الحقّ، وتتبيّن معالم الصواب. أمّا القضية فهي قضية: «خصّيصي» هل هي مثناة أو مقصورة؟ وأمّا تفصيلها فقد جاء على النحو الثاني في «الحاوي للفتاوي».

قال السّيوطيّ، وقد ألّف في ذلك كتاباً سمّاه: «ألوية النصر في خصّيصي بالقصر»، «مسألة: قرأ قارىء عليّ في ختم كتاب: «الشفا» بالخانقاة الشيخونية قوله: «ويخصنا بخصيصي زمرة نبيّنا، وجماعته، فقرأها: بخصيصيْ بالياء الساكنة آخرها، على أن الكلمة مثناة مضافة لما بعدها، فرددت عليه، وقلت له: قل بخصيصي ـ أعني بألف القصر ـ وذلك بحضرة شيخنا الإمام العلّامة محي الدين الكافيجيّ، فقال الشيخ: نعم بخصيصي

ـ يعني بالألف ـ فقال القارىء المذكور: فيها الوجهان، فقلت: ليس فيها إلاّ وجهٌ واحدٌ، فذهب، فكتب صورة سؤال، وأخذ عليه خطوط جماعة بتصويب ما قاله، وهُمْ الشيخ أمين الدين الأقصرائي والشيخ زين الدين قاسم الحنفيّ، والشيخ سراج الدين العبّادي والحافظ فخر الدين الدّيميّ، والمحدّث المؤرّخ شمس الدين السّخاويّ فجمعت نقول أئمة العربيّة واللغة وأرسلتها إلى الجماعة المذكورين ما عدا السّخاويّ، فعرفوا الصواب في ذلك، ورجعوا عمّا كتبوه أوّلاً، وكتبوا ثانياً بتصويب ما قلته: إنها بالألف المقصورة فذهب القارىء إلى السّخاويّ يستنجد به، فكتب له على سؤال آخر كتابة طويلة عريضة، مضمونها أنه لا يرجع كما رجع هؤلاء، وأنّ مستنده في ذلك أن عنده نسخة من «الشفا» صحيحة، قرئت على شيوخ عدّة، وفيها صورة السكون مرقومة بالقلم على الياء فقلت: كفى بهذا الكلام جهلاً، ومَن هذا مبلغ علمه، فهو غني عن الرّدّ عليه.

أطبقت أئمة اللغة العربيّة على: «خصيصي» بألف القصر وقد تمدّ شذوذاً، فيقال: خصيصاء مصدر بمعنى الخُصوصيّة، يقال: خصه بالشيء خصوصاً، وخصوصية أو خصيصي، وخصيصاً وفي لغة، وخاصّة، نصّ على ذلك سيبويه في كتاب: والسيرافي في «شرحه» والقالي في كتاب: «المقصور والممدود»، والفارابي في ديوان الأدب، وابن فارس في «المجمل»، ونشوان الحميري في «شمس العلوم» وابن دريد في «الجمهرة» والجوهريّ في «الصحاح»، وابن سيدة في «المحكم»، والخفاف في «شرح الجمل»، وأبو البقاء العكبري في «اللباب»، وابن عصفور في «الممتع»، والأزدي في «الدرر»، وابن مالك في منظومته وشرحها، وابنه في شرح الألِفيّة»، وفي «شرح لامية الأفعال»، وأبو حيّان في «شرح التسهيل»،

وابن هشام في «التوضيح» وابن جابر في «منظومته» والفيروزابادي في «القاموس، وخلائق»، ومن نظائرها: الحثيثي، والخطيبي، والدليلي، والزليلي، والمكيثي في ألفاظ عدّة، ولم يرد خصيصي البتّة حتى يقال في تثنيته: خصيصان. وقد عقد ابن دريد في «الجمرة» باباً لفعيل وفعّيلي، فذكر ما جاء منهما، ثم قال بعد ذلك: ليس لمولد أن يبني فعِّيلاً إلاّ ما بنت العرب، وتكلمت به، ولو أجيز ذلك لقلب أكثر الكلام، فلا تلتفت إلى ما جاء على فعّيل مما لا تسمعه إلاّ أن يجيء به شعر فصيح»[1].

* * *

رحم الله السّيوطيّ فقد كان فذاً في هذه القضية، واندحر فيها السّخاويّ الذي كان يرميه بأنه يأخذ العلم من الدفاتر والكتب، مع أن السّخاويّ هو الذي تمسّك برقم السكون على الياء، وقد يكون هذا الرقم تحريفاً، ولعل الناسخ هو الذي وقع في هذا الخطأ توهماً منه بأنها مثناة، وقد أخذها السّخاويّ على علتها، ولم يكلف نفسه الرجوع إلى ذوي الشأن، وأصحاب الفن، ورجال اللغة ليتضح له وجه الصواب كما فعل السّيوطيّ المستوعب للتّراث.

* * *

على أن السّيوطيّ لم يقف عند هذا الحد في مناقشته لمعاصريه بل تجاوزهم إلى شيوخه وأساتذته.

فمن شيوخه الذين ناقشهم وحاورهم شيخه تقيّ الدين الشّمنيّ، يقول السّيوطيّ في «حسن المحاضرة» عند حديثه عن شيخه الشمنيّ: «رجع إلى قولي في حديث، فإنه أورد في حاشيته على «الشفا» حديث أبي الجمرا في

---

(١) الحاوي على الفتاوي: ٢/٢٨٠، ٢٨١.

الإســرا، وعـزاه إلى تخـريـج ابن مـاجـة، فـاحتجت إلى إيـراده بـإسنـاده، فكشفت ابن مـاجـة في مـظنّتـه، فلم أجـده، فمـررت على الكتـاب كله، فلم أجده، فاتهمت نظري، فمررت ثانية فلم أجده.

ورأيتـه في معجم الصحابـة لابن قانـع، فجئت إلى الشيـخ وأخبـرتـه، فبمجـرّد مـا سمـع مني ذلـك أخـذ نسختـه، وأخـذ القلم فضـرب على لفظ ابن ماجة، وألحق ابن قانع في الحـاشية، فـأعظمت ذلـك وهبته لعـظم منزلـة الشيـخ في قلبـي، واحتقـاري فـي نفسـي، فـقلت: ألا تـصبـرون لـعلكـم تراجعون! فقال: لا، إنما قلدت في قولي: «ابن ماجة» البرهان الحلبي»[1].

ألا يدل هذا على منهجيّة السّيوطيّ العلمية، وأبرز ما في هذه المنهجيّـة التثبت في البحث، والرويّـة في التفتيش، واتهـام النـظر في التـدقيق حتى إذا اطمأن قلبه، واقتنع عقله أصدر حكمه، وهو ثابت النفس قوي الجنان.

ولثقة استاذه به قبل رأيـه، وأخذ بـدليله بدون منـاقشة مـع أن السّيوطيّ طلب منه ذلك، ولولا ثقته بتلميذه لما ضرب على لفظ «ابـن ماجة» بقلمه.

المناصب التي تولّاها السّيوطيّ:

تولى السّيوطيّ في عصره عدّة مناصب أو وظائف في عصره:

* فقد نصّ غير واحد من المؤرخين أنه دَرّس بجامع ابن طـولون[2].

وجامع ابن طولون بناه الأمير أبو العبّاس أحمد بن طولـون سنة ٢٦٣هـ، ونقل إليه القراء والفقهاء.

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) البدر الطالع، ترجمة رقم (٢٢٨)؛ والضوء اللامع: ٣/٦٦.

وقد جدّد هذا المسجد ــ في عهد المماليك ــ الملك المنصور الذي تولّى الحكم سنة ٦٩٦هـ، وأوقف على المسجد أوفاقاً عظيمة، وصرف إليه كل ما يحتاج إلى العمارة[١].

وفي سنة ٧٦٧هـ جدّد الأمير بلبغا العمري الخاصكي دروساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرّسين للحنفيّة، وقرّر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهماً، وأردب قمح، فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفيّة[٢].

وظل جامع ابن طولون مصدراً من مصادر الحركة الفكرية في مصر حتى عصر السّيوطيّ حيث زاول فيه التدريس.

* تولى دراسة الحديث بالشيخونية:

نص على ذلك السّخاويّ وغيره، ففي «الضوء اللامع» للسّخاويّ أنه تولّى تدريس الحديث الشريف بالشيخونية بعد وفاة الفخر عثمان المقدسيّ.

والمدرسة الشيخونية سبق الحديث عنها عند بحث (أشهر المدارس الفكرية في عصر السّيوطيّ).

* تولي مشيخة الصوفية بتربة برقوق:

نصّ على ذلك السّخاويّ فقال: «وفي مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التي بباب القرافة بعناية بلديّه أبي الطيّب السّيوطيّ»[٣].

---

(١) الخطط، للمقريزي: ٢٥٦/٢، الطبعة الأميرية.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٩.

(٣) الضوء اللامع: ٦٧/٣.

وبرقوق صاحب التربة هو سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أنص، لقّب بالملك الظاهر، وهو أول السلاطين من الجراكسة وليس فيهم من تسلطن وأبوه مسلم غيره، واستمرّ في السلطة إلى سنة ٨٠١هـ[١].

وظلت هذه التربة تعقد فيها جلسات شيوخ الصوفية حتى عصر السّيوطيّ التي تولّى مشيختها ورئاستها.

* تولي مشيخة البيبرسية:

نصّ على ذلك السّخاويّ، فقال: «وقد ساعده الخليفة حتى استقر في مشيخة البيبرسية بعد الجلال البكريّ»[٢].

ومشيخة البيبرسية هذه مشهورة في تاريخ المدارس المصرية فقبل السيوطي بقرن ونصف تقريباً كان يتولّى هذه المشيخة ضياء بن سعيد بن محمد بن عثمان القزويني، أحد العلماء الكبار فقد نصّ السيوطيّ في «البغية» أنه: «لما قدم القاهرة استقرّ في تدريس الشافعية بالشيخونية، ومشيخة البيبرسية. . . هذا وقد توفي القزويني سنة ٨٠٧هـ»[٣].

وتولاها أيضاً الحافظ ابن حجر العالم المصريّ المشهور المتوفي سنة ٨٥٢هـ، فقد نصّ السّخاويّ في: «الذيل على رفع الإصر» أنه تولّى مشيخة البيبرسية ونظرها»[٤].

---

(١) حسن المحاضرة: ١٢٠/٢.
(٢) الضوء اللامع: ٦٩/٣.
(٣) البغية: ١٣/٢، ١٤.
(٤) الذيل على رفع الإصر: ٨٤.

أمّا الخليفة الذي ساعده على ولايته هذه المدرسة فهو أبو العز عبد العزيز بن يعقوب الملقّب بالمتوكل، وكانت صداقته بالسّيوطيّ صداقة حميمة، قال عنه السّيوطيّ في «حسن المحاضرة»: «وعهد بالخلافة إلى سيّدي عبد العزيز أبي العزّ يعقوب بن المتوكل على الله».

ثم قال: «وهو الآن عين بني العبّاس وشامتهم، لم يزل مشاراً إليه محبوباً في صدور الناس».

ثم قال: «وألفت برسمه كتاب: «الأساس في فضل بني العبّاس» وكتاب: «رفع البأس عن بني العبّاس» أبقاه الله بقاءً جميلاً»[1].

توليه القضاء:

يبدو أن السّيوطيّ كان يطمح أن يتولّى القضاء، وقد شعر بذلك منافسه الخطير السّخاويّ، فقال عنه في «ضوئه» بلسان ساخر ما نصه: «ومن هوس قوله لبعض ملازميه إذا صار إلينا القضاء قرّرنا لك كذا وكذا، بل تصير أنت الكل»[2].

ويظهر أن هذه الأمنية عمل السّيوطيّ على تحقيقها، ففي مكتبة الجلال السّيوطيّ ما نصه: «وكان السّيوطيّ قد غلب على المتوكل [الخليفة] واستبدّ به حتى عيّنه عام ٩٠٣هـ قاضياً على القضاة في جميع الممالك الإسلامية، يولّي منهم من يشاء ويعزل من يشاء، وقد كانت هذه الوظيفة تعطلت في زمن بني أيوب»[3].

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/٦٢.
(٢) الضوء اللامع: ٣/٧٠.
(٣) مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣١.

تولّيه الفُتيا:

القارىء لتاريخ السّيوطيّ في كتب المؤرخين المنصفين أو الحاسدين الحاقدين يجد أنه تصدّى للفتيا في كثير من القضايا الفكرية، والمسائل العلمية.

ومنهج السّيوطيّ العلميّ في حياته الفكرية منهج الرجل الذي لا يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويقيدها في قرطاس، أو يسطرها في كتاب، ففتاويه التي أفتى بها لولا تسجيله لها في كتاب يحويها لضاعت، وتبعثرت في بطون الكتب والمراجع.

ولذلك حرص السّيوطيّ على أن يجمع هذه الفتاوى في كتاب سمّاه: «الحاوي للفتاوي».

وقد قال في مقدمته: «وبعد، فقد استخرت الله تعالى في جمع نبذ من مهمات الفتاوى التي أفتيت بها على كثرتها جدّاً، مقتصراً على المهمّ والعويص، وما في تدوينها نفعٌ... وتركت غالب الواضحات وما يخفى على ذوي الأذهان القادحات، وبدأت بالفقهيات مرتبة على الأبواب، ثم بالتفسير، ثم الحديث، ثم بالأصول، ثم بالنحو والإعراب، ثم بسائر الفنون إفادة للطلاب، وسميت هذا المجموع: «الحاوي على الفتاوي»[1].

وقد اتهمه منافسه السّخاويّ بأنه سريع الفتوى، لا يتثبّت فيما يفتي فيه، ولا أدلّ على ذلك من قوله: «لو جيء إليه بفتيا وهو مشرف على الغرق لأخذها ليكتب عليها»[2].

---

(١) الحاوي على الفتاوي: ١/٥.

(٢) الضوء اللامع: ٣/٦٩.

ومعنى ذلك أنه محبّ للفتوى، متطلع إليها حتى ولو كان في الرمق الأخير من حياته، وهذه العبارة السّخاويّة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على السخرية به، والغض من قدره، لأن الإفتاء أقلّ ما يقال فيه أنه لا يعرف التسرّع في الحكم، والعجلة في الرأي. ولعلّ السّيوطيّ أحسّ ذلك في نفسه حينما زعم أنه: «رأى مناماً يقتضي ذمّ النبّي ﷺ له، وأمره خليفته الصديق رضي الله عنه بحبسه سنة ليراجع الإقراء والإفتاء»[1].

وظل السّيوطيّ متصدياً للإفتاء حتى تزاحمت عليه الأحداث وتغير له الزمن، ولقي من معاصريه ما لقي، فآثر العزلة، وتجنّب الفتوى، وانقطع عن الناس، وألّف في ذلك كتاباً سمّاه: «التنفيس في الاعتذار عن ترك الفتيا والتدريس»[2].

علاقته بالسلاطين:

تحدثت فيما سبق عن علاقة السيوطي بالخليفة المتوكل الذي ساعده على الوصول إلى مشيخة البيبرسية، والخلفاء في دولة المماليك لا حول لهم ولا طول، فعلاقة السيوطي بهم علاقة دينية، وليست سياسية.

أما علاقته بالأمراء فهي علاقة لا تقوم على النفاق أو الوصولية والتقرب إلى هؤلاء السلاطين كما يفعل ذلك معظم علماء عصره لقد حمّل نفسه أبيّة جعلته يستعلى على هؤلاء السلاطين.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) ذُكر في مكتبة الجلال السّيوطيّ أنه نسبه إليه خليفة في كشف الظنون و«النظم في عقود الجوهر»، والبغدادي في «هديّة العارفين»: ١٤٨.

وقـد حدثنـا المؤرخون أن السلطان الغـوري أهدى إليـه: «خصيًّا وألف دينار، فردّ الألف، وأخذ الخصي، فأعتقـه، وجعله خادماً في الحجرة النبوية، وقـال لقـاصـد السلطان: لا تعد تـأتينا قط بهـديـة فـإن الله تعـالى أغنـانـا عن مثل ذلك»[1].

ويقول صاحب «الكواكب السائرة»: «كان لا يتردد إلى السلطان ولا إلى غيره، وطلبه مراراً فلم يحضر إليه. وقيل له: إن بعض الأولياء كـان يتردد إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس، فقال: اتباع السلف في عدم ترددهم أسلم لـدين المسلم، وألّف كتابـاً سمّـاه: «مـا رواه الأسـاطين في عـدم التـردّد إلى السلاطين»»[2].

أخـــلاقـــه:

لا يستـطيـع الباحث أن يصف السيـوطي بـأكثـر من أنـه صـاحب خلق فـاضـل ورجـل حـق عـادل، مهمـا اتهمـه الحـاسـدون، ووقـع في عــرضـه الحاقدون.

فالسخاوي حين يصفه بالكذب، فإن هذا الوصف نابـع من حقد دفين، وقد دافـع الشوكاني عن هذه القضية دفاعاً مجيداً ذكرته فيما قبـل.

وإساءته الأدب على عـالم الحجاز في مقـام إبـراهيم[3] هي إسـاءة من وجهة نظر السخاوي فقط، ولكن من وجهة نظر السيوطي قـد تكون دفـاعاً عن النفس، والـدفاع عن النفس مشروع، وقـول السخـاوي وابن كـركي أنـه كـان

---

(١) انظر: الكواكب السائرة: ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه والصفحة، وفي مكتبة الجلال السّيوطيّ: يوجد مخطوطاً بـالتيموريـة ودار الكتب المصرية: ٣٠٣.

(٣) انظر: الضوء اللامع: ٣/٦٩.

يترفع على أمه[1]، ولا يُبِرُّ بهاهذا أمر مشكوك فيه، لا يقبل على عِلاّته، فقد كان باراً بأمه بدليل ما ذكره صاحب «السّنا الباهر» أن والدة السيوطي: «عملت له على قبره بناء لطيفاً، وصار ضريحه مقصوداً بالزيارة والتبرّك»[2].

ومن البدهي أن الأم لا تقوم بهذا البناء إلاّ إذا كانت راضية كل الرضا عن ابنها البار.

ومن أخلاقه: الرجوع إلى الحق، وقد اعترف بذلك السخاوي نفسه ففي قضية الحرف، اجتمع مع بعض علماء عصره اتهموه بأنه نسب إلى السيد الجرجاني قولاً لم يقله حيث ادعى السيوطي: أن السيد الجرجاني، قال: «إن الحرف لا معنى له أصلاً لا في نفسه ولا في غيره» ولما عرضوا عليه ما قاله السيد الجرجاني في هذه القضية قائلين له: «هذا كلام السيد الناطق بتكذيبك فيما نسبته إليه فأوجدنا مستندك فيما زعمته، فقال: «إنني لم أر له كلاماً، ولكنني لما كنت بمكة تجاريت مع بعض الفضلاء الكلام في المسألة، فنقل لي ما حكيته وقلّدته فيه»[3].

* وقد اتهمه السخاوي بأنه جافي الطبع، خشن العشرة، فقد «فارقه المحيوي بن مغيزل لـمّا رأى منه الجفاء الزائد، بعد كونه القائم بالتنويه به»[4].

والواقع أن السيوطي معتزّ بشخصيته، واثق من نفسه، وقد أعطاه هذا الاعتزاز، وهذه الثقة صلابة في الحق، وشِدّة في القول وليس معنى هذا أنه سيء العشرة أو سيء السلوك.

---

(١) انظر: الضوء اللامع: ٣/٦٩.
(٢) نقلاً عن كتاب مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٥.
(٣) الضوء اللامع: ٣/٦٧.
(٤) الضوء اللامع: ٣/٦٧.

* ومن أبرز أخلاق السيوطي الكرم والسخاء، ولله در عبارة السّخاوي نفسه حيث اعترف بذلك، والفضل ما شهدت به الأعداء يقول السخاوي: «وقد تطفلنا على شمول سخائه، وأنخنا ركاب شدتنا برحاب رخائه» فالسيوطي سخي النفس إلى جانب كونه يُعين برخائه، ويسعد الناس بجوده:

* والسيوطي مضرب المثل في الأمانة العلمية، وسوف نورد أمثلة على هذه الأمانة عند الحديث عن منهجه في التأليف.

* والسيوطي كما أشرنا سابقاً كبير النفس حتى على السلاطين فقد ردّ هدية الغورى، وطلبه السلاطين للسير في ركابهم ونيل الخطوة عندهم، ولكنه أبى كما وضّحت ذلك سابقاً.

* والسيوطي غضوب حينما تُمسّ كرامته، وهذا من شأن العلماء الذين وثقوا في أنفسهم، ما دام الحق معهم.

* والسيوطي سمح النّفس غير جبار أو متكبر كما وصفه حسّادة ولا أدل على ذلك من القصة التي جرت بينه وبين معاصره برهان الدين قاض مكة. فعلى الرغم من سوء التفاهم الذي حدث بينهما استجاب السيوطي لصوت الصلح والصفاء وسماحة لنس، وزالت الجفوة بينه وبين برهان الدين وكتب بذلك رسالة أو كتاباً سماه: كتاب «الصفاء» يفيض روعة ويفطر حناناً، وقد سبق أن سجلت هذه الرسالة عند حديثي عن برهان الدين قاض مكة.

* والسيوطي من أخلاقه ألاّ يبدأ بالخصام والمعاداة، فكل خصوماته هي من باب الدفاع عن النفس لا من باب الهجوم ولا أدل على ذلك من أنه اتفق مع ابن الكركي أن يتسالما وينبذا الخصام.

وقد وفّى السيوطي بعهـده، ولكن ابن الكركي عـاد فنقض العهد. فمـا كـان من السيوطي إلا أن سلـقـه بقلمه الحاد في مقامته المشهورة، والتي قـدمنا بعض نصوصها سابقاً وهي: «طرز العمامـة في التفرقة بين المقامـة والقمامـة» افتتحها بقولـه: «أوكلما عـاهدوا عهـداً نبذه فـريق منهم»[1]، ثم قال: «يـأيها النـاس أصيـخـوا إليّ أنبئكم بتـأويله، وأحـدثكم بجملة الأمـر وتفصيله،، اعتدى على عاد، وظلمني ظلم عاد، وبدأني بـالإساءة وعـاد، وأكثر على من السفه، وملأ بشتمي فاه والشفة، ومـدّ لسانـه إليّ وهو قصيـر، ونظر إلى بعين النقص، فانقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير»[2].

كـرامـاتـه:

أفاض صاحب «الكواكب السائرة» في إضفاء كثيـر من الكرامـات على الإمام جلال الدين السيوطي.

وفي رأيي أن هذه الكرامـات ليست مستحيلة بالنسبـة للسيوطي، فـرجل خدم العلم هذه الخـدمة، وعـاش فيه بكـل وجدانـه ومشاعـره ليس عجيباً أن يمنحه الله هذه المنزلة ويخصه بهـذه الكرامات.

والكرامة أمر خارق للعادة يظهـره الله على يـد عبد من عبـاده الصالحين من باب التكريم.

فقـد روى الشيخ عبـد القادر الشـاذليّ من كتاب تـرجمته للسيـوطي أن السّيـوطي كان يقـول: « رأيت النبي ﷺ يقظة، فقـال لـي: يا شيـخ الحـديث

(١) سورة البقرة: آية ١٠٠.
(٢) مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٣٣، ٣٣٤.

فقلت: يا رسول الله: أمن أهل الجنة أنا؟ قال: نعم، فقلت: من غير عذاب يسبق، فقال ﷺ: لك ذلك. وألف السيوطي من ذلك كتاب: «تنوير الحلَك في إمكان رؤية النبي والملك»[1].

هذا وقد ظفرت بهذا الكتاب في كتابه المشهور: «الحاوى للفتاوى» وقد جاء في مقدمته: «وبعد فقد كثر السؤال عن رؤية أرباب الأحوال للنبي ﷺ في اليقظة. وأنّ طائفة من أهل هذا العصر ممن لا قدم لهم في العلم بالغوا في إنكار ذلك، والتعجب منه، وادعوا أنه مستحيل، فألّفْتُ هذه الكراسة في ذلك، وسميتها: «تنوير الحلَك، في إمكان رؤية النبي والملك[2].»

وأخذ السيوطي يسرد الأدلّة والحجج من ذلك، وأشبع هذا الموضوع بحثاً وتدقيقاً. ويروي لنا الشيخ عبد القادر الشاذلي مرة أخرى أنه قال للسيوطيّ: «يا سيدي كم رأيت النبي ﷺ يقظةً؟ فقال: بضعاً وسبعين مرة»[3].

ويروي خادمه قصة تدل على أن السيوطي له قدم راسخ في باب الكرامات، والسيوطي لم يرو هذه القصة في كتبه تحرّجاً منه، وأدباً مع الله وخلاصة القصة أن خادمه محمد بن علي الحبّاك ذكر أن السيوطي قال له يوماً: «وقت القيلولة وهو عند زاوية الشيخ عبد الله الجيوشي بمصر بالقرافة: نريد أن نصلي العصر في مكة بشرط أن أن تكتم ذلك على حتى أموت قال:

(1) الكواكب السائرة: ١/٢٢٨، ٢٢٩.. وفي مكتبة الجلال نصّ على أن السّيوطيّ نسبه لنفسه في حسن المحاضرة، وعزاه إليه خليفة في: «كشف الظنون» مرّة بلفظ أنوار الحلك، ومرة بلفظ: تنوير الحلك، يوجد مخطوطاً بالتيمورية ودار الكتب المصرية.

(2) الحاوي للفتاوي: ٢/٢٥٥.

(3) الكواكب السائرة: ١/٢٢٩.

فقلت: نعم، قال: فأخذ بيدي، وقال: غمِّض عينيك فغمضتها، فرَمـل[1] في نحـو سبع وعشرين خطوة، ثم قال لي: افتح عينيك فإذا نحن بباب (المعلا)، فزرنا أمنا خديجة، والفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة، وغيرهم، ودخلت الحرم فطفنا وشربنا من ماء زمزم، وجلسنا خلف المقام حتى صلينا العصر، وطفنا وشربنا من زمزم، ثم قال لي: يا فلان ليس العجب من طيّ الأرض لنا، وإنما العجب من كون أحد من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا، ثم قال لي: إن شئت تمضي معي، وإن شئت تقم حتى يأتي الحج، قال: فقلت: بل اذهب مع سيدي، فمشينا إلى باب المعلى، وقال لي: غمِّض عينيك فغمضتها فهرول في سبع خطوات، ثم قال لي: افتح عينيك، فإذا نحن بالقرب من الجيوشي فنزلنا إلى سيدي عمر بن الفارض، ثم ركب الشيخ حمارته، وذهبنا إلى بيته في جامع طولون»[2].

هذه رواية أو قصة تحدث بها خادم السيوطي ذكرها بعد موته التزاماً بالعهد الذي بينه وبينه، ولو كان السيوطي محبّاً للادعاء، مغرماً بالرياء، شغوفاً بتعلق الناس به، وبإضفاء الولاية عليه لأوحى إلى خادمه أن يذكر هذه القصة في حياته.

وهي، على أية حال، رواية خادم وليست برواية عالم، والباحث يقف أمامها بدون تعليق، فقد تكون حقاً وصدقاً، وقد تكون من خيال خادمه الذي يرى أنه من البر بسيده أن يذيع عنه مثل هذه الكرامات. وليس بعجيب أن يكون السيوطي كذلك فالكرامات غير منكرة في الإسلام، وفي القرآن الكريم

---

(١) الرّمل بفتحتين: الهرولة.

(٢) الكواكب السائرة: ٢٢١/١.

عجائب من هذه الكرامات كولادة عيسى وانبثاق الحياة في جذع النخلة الخاوية لتسقط على أمه مريم رطباً جنيًّا إلى غير ذلك.

زهـــده:

بعد هذه الحياة الطويلة التي قضاها في صراع مع منافسيه، بعد هذا العراك الطويل في ميدان الْعلم، وحقل المعرفة مع علماء عصره وشيوخه مؤيداً ومعترضاً، محاوراً ومناقشاً، مسجلاً ثمار هذا الحوار والنقاش في كتب فاضت بها المكتبة العربية، وما زال الكثير منها مخطوطاً.

أقول بعد أن عاش بكل ما يملك من رصيد فكري، كتبه بنفسه أو سجله علماء عصره، أو حرره بعض طلابه، بعد أن عاش بهذا الرصيد عملاقاً في زمنه، نجماً في سماء مجتمعه، فرض نفسه بزاده الفكري على عصره، فكان درّة تاجه، ومشرق نوره، ومصدر فكره، بعد هذا كله حبب إليه الخلاء، فاتجه إلى بيته في: «الروضة» بالقاهرة ليغلقه على نفسه تاركاً الصّراع لأهله مدبراً عن مشكلات الدنيا والحياة، زاهداً بما في أيدي الناس.

والله درّ السّيوطيّ، فقد أراح الباحث من الجرْي وراء الأسباب والتعليلات لهذا الزهد في الحياة الذي جعله يؤثر أن يفرّ من الناس ليصحب نفسه متأمّلاً، ويصاحب كتبه مبتهجاً، ويعيش مع مؤلفاته مؤنساً أقول: لقد أراح الباحث من عناء البحث وراء هذا التحوّل الجديد بما سطّره السّيوطيّ نفسه بقلمه مبيّناً الأسباب، كاشفاً النقاب عن سرّ تحوله إلى هذا الاتجاه، فقال في المقامة اللؤلؤيّة: «هذا زمان الصبر، والصابر فيه كالقابض على الجمر، رأينا فيه ما أنذر به الرسول، وصَحَّت به الأحاديث لكل مسؤول، من آيات وعلامات، ما كانت تقع فيما مضى منامات، من ذلك الشحّ المطاع، ودنيا مؤثرة، وهوى

له أتباع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وذلك عين الابتداع، وقد مرجت[1] الأمانات والعهود، وكثر القائلون بالزّور والشهود، وجمّ الاختلاف، وقلّ الائتلاف، وكذب الصادق، وصدق الكاذب المائق، وخوّن الأمين، واؤتمن الخائن ومَنْ يمين، ورفعت الأشرار، ووضعت الأخيار...

إلى أن قال: «واستعلى الجهال على العلماء، وقهر السفهاء الحلماء ووليَ الرأي غير أهله، وظهر الفحش من كل جاهل على قدر جهله، وأرشدنا نبيّنا الهادي ﷺ، ما راح رائح، وغدا غاد إلى أننا إذا رأينا ذلك قد وقع، وبدا لنا نجمه الكاسف وطلع، فلنجلس في البيوت، ولنلزم السكوت.

وكم من عاقل قبلي قد قبل هذه الوصيّة، إذ رأى ما ليس له قِبَل، وترك الإقراء والإفتاء وأقبل على خاصة نفسه والعمل، وقد اقتديت بهم، ونعم القدوة، وائتسيت بالحديث الذي هو لكل مؤمن أسوة، طالما قطعت نهاري في التدريس والإفتاء، واستغرقت أوقاتي في نفع الناس وقتاً فوقتاً، ولم أسلم على ذلك ممّن يوليني أذىً ومقتاً، ويرميني كذباً وبهتاً.

إلى أن يقول: «قد تدبرت المصالح، واقتديت في الترك والعزلة بالسلف الصالح، وانتظرت رحمة الله وهي قريب، وعدلت عن طريق من هو في شك من ذلك مريب، وكررت على سمعي حديث: «كن في الدنيا كأنك غريب»[2].

ويحدّد لنا صاحب: «الكواكب السائرة» تاريخ انقطاعه عن الناس فيقول: «ولما بلغ أربعين سنة من عمره أخذ في التجرّد للعبادة والانقطاع إلى

---

(١) مرج الأمر: اختلط.

(٢) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٣.

الله، والاشتغال به صِرْفاً، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعرف أحداً منهم، وشرع في تحرير مؤلفاته وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف ألّفه وسمّاه: «التنفيس في الاعتذار عن الإفتاء والتدريس»[1] وأقام في «روضة المقياس»، فلم يتحوّل منها إلى أن مات، لم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه، وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته، ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردّها»[2].

ولهذه العزلة التي قرّرها في بيته بالرّوضة أفسّر عدم استقباله لمعاصره المؤلف المشهور الإمام القسطلاني، فقد حدث بينهما خلاف في سند حديث شريف، وقد أشرت إلى هذه الواقعة العلمية في ترجمة القسطلاني «فقد حكى الشيخ جار الله بن فهد أن القسطلاني قصد إزالة ما في خاطر جلال السيوطيّ فمشى من القاهرة إلى الروضة إلى باب السّيوطيّ ودق الباب فقال له: من أنت؟ فقال: أنا القسطلاني، جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك، فقال له: قد طاب خاطري عليك ولم يفتح له الباب ولم يقابله»[3].

وتعليقي على هذه الزيارة يتلخص فيما يأتي:

١ ــ لولا مكانة السّيوطيّ العظيمة في نفس معاصره القسطلاني ذلك الرجل الذي له وزن كبير في عصره، لما كلّف نفسه هذا العناء الشاق من المشي والإرهاق ابتداءً من القاهرة إلى الروضة.

---

(١) الكواكب السائرة: ٢٢٨/١.

(٢) شذرات الذهب: ١٢١/٨، ١٢٢، ١٢٣.

(٣) شذرات الذهب: ١٢١/٨، ١٢٢، ١٢٣.

٢ ـ إتيانه إلى السّيوطيّ حافي القدمين، مكشوف الرأس يدل دلالة واضحة على أن السّيوطيّ ليس رجلاً عادياً كرجال العصر أو علمائهم فإلى جانب علمه يتمتع بإيمان عظيم، وخلق كريم وروح شفافة، وعلاقة بالله وطيدة، ولولا إحساس القسطلاني بذلك لما جاء على هذه الصورة.

٣ ـ صرامة السيوطيّ في التزامه مبدأ العزلة، ولولا هذه الصرامة لفتح الرجل باب بيته للذي جاء إليه معتذراً خاشعاً خاضعاً ولا أدل على ذلك من أن السّيوطيّ قبل عذره، ومسح ما في نفسه من جهته، ولكن التزام العزلة حال بينه وبين لقاء هذا الرجل.

وبعد، فقد ظلّ السّيوطيّ في عزلته يؤلف ويبحث ويكتب ويدقق ويقرأ ويلخص حتى وافاه الأجل.

وفاته:

توفي السّيوطيّ كما يقول العماد: «بعد أذان الفجر المسفر صباحه عن يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأول سنة ٩١١هـ»[1].

وفي مقدمة المحقق لـ «معترك الأقران» للسّيوطيّ نقل المحقق نصّاً عن ذيل طبقات الشعراني، فقال[2]: «أرسل لي ورقة مع والدي بإجازته لي بجميع مروياته ومؤلفاته، ثم جئت إلى مصر قبيل وفاته، واجتمعت به مرّة واحدة، فقرأت عليه بعض أحاديث من الكتب السّتة، وشيئاً من «المنهاج» في الفقه تبركاً، ثم بعد شهر سمعت ناعية تنعي موته، فحضرت الصلاة عليه عند الشيخ أحمد الأباريقي بالروضة عَقِبَ صلاة الجمعة.

---

(١) شذرات الذهب: ١/٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) القائل الشعراني.

ومات رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة.

وكان مرضه سبعة أيام بورم شديد في ذراعه اليسار، فقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر، وثمانية عشر يوماً وكان له مشهد عظيم، ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة، وقبره ظاهر وعليه قبة»[1].

وقال صاحب: «السنا الباهر» يذكر تكرمة الأمير (قرقماش) للسّيوطيّ بعد موته واحتفاله بجنازته: «وعمل له الأمير الكبير قرقماش صندوقاً من خشب، وستراً أسود خليفيّاً مطرّزاً بالأبيض بآية الكرسي».

وقال أيضاً: «لما مات لم يتعرّض أحد في تركته مع أن الزمن كان زمن جور، وقال الغوريّ: لم يقبل الشيخ منا شيئاً في حياته فلا نتعرّض لتركته»[2].

* * *

أما الزاوية التي دفن بها السّيوطيّ، فقد تحدّث عنها علي مبارك باشا في خططه، فقال: «هذه الزاوية عند باب القرافة، وهي عامرة، وشعائرها الإسلامية مقامة، يجري عليها إيراد الطاحون، ومنزلين تحت نظر الديوان، وبها ضريح العلّامة الشيخ جلال الدين السّيوطيّ، ويعمل له مولد كل سنة في شعبان»[3].

وقبرَ السّيوطيّ لم ينْسَ العلّامة أحمد تيمور باشا أن يوضح لنا صفته وشكله، فقال: «في مقال نشرته مجلة الزهراء بعنوان: «قبر الإمام السّيوطيّ، وتحقيق موضعه»، فقال: «أما صفته فهو زاوية متوسّطة يقع فيها بجوار حائط

---

(١) مقدمة معترك الأقران، للمحقق/ ص:ل.

(٢) نقلاً عن مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٤، ٣٥.

(٣) نقلاً عن مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٥، ٣٦.

القبلة في مقصورة من خشب تحت قبة صغيرة، وفوقه تابوت مغطّى بستر أخضر مطرّز بآيات كريمة».

وعلى باب الزاوية من الخارج لوح رخام نقش فيه: «هذا مسجد العارف بالله سيدي جلال الدين السّيوطيّ»[1].

أمّا قبره في أسيوط فإن العلاّمة أحمد تيمور ينكره على الرغم من النذور التي تقدّم إليه، والموالد التي تقام كل عام في شهر شعبان.

يقول العلاّمة المصري أحمد تيمور: «مما ينبغي التنبّه له أنّ في مدينة أسيوط مسجداً يعرف بجامع سيدي جلال السّيوطيّ، وبه ضريح تزعم العامّة جهلاً أنه ضريحه، ومن عاداتهم إقامة مولد له كل سنة ليلة ٢٧ من شعبان فيجتمع.. المريدون بالطبول والأعلام، ويحملون ستر الضريح فيطوفون به شوارع المدينة، ثم يجتمعون بالمسجد للذكر، وتلاوة القرآن، ودلائل الخيرات وغيرها إلى الصباح.. ويجعلون تلك الليلة ويومها ميقاتاً لإيفاء النذور»[2].

رثاء السّيوطي:

بعد موته رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفيّ بقصيدة جاء فيها:

مات جلال الدين غيث الورى	مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السّنة مهديّ الهدى	ومرشد الضال بنفعٍ يعود
فيا عيوني انهملي بعده	ويا قلوب انفطري بالوقود

(١) مكتبة الجلال السّيوطي: ٣٦.

(٢) المرجع نفسه والصفحة، بتصرّف.

إلى أن يقول:

مصيبة حلّت فحلّت بنا	وأورثت نار اشتعال الكبود
صبّرنا الله عليها وأو	لاه نعيما حلّ دار الخلود
وعمه منه بويل الرّضا	والغيث بالرحمة بين اللحود

ويذكر صاحب: «الكواكب السائرة» أنه: «لعله رثي بالمراثي الحافلة، ولم أقف إلاّ على هذه القصيدة في تاريخ ابن طولون، ذكر أنه استملاها من بعض من قدم عليهم دمشق من القادمين، فكتبها هنا من خطه، لئلا تخلو الترجمة من مرثيّة ما، رحمه الله تعالى»[1].

□ □ □

(١) الكواكب السائرة: ٢٣١.

الفصل الثالث

مؤلّفات السّيوطيّ

تمهيد:

مؤلّفات السيوطي كثُرت وفاضت حتى ملأت المكتبة الإسلامية والعربية، وما زال المخطوط من هذه المكتبة قابعاً في مكانه، ولم ير النور إلّا القليل الذي سنذكره في هذا الفصل إن شاء الله.

والسيوطي فلتة من فلتات التاريخ الإسلامي، فلم نجد من علماء عصره أو ممن سبقه أو ممن جاء بعده من استولى على العلم هذا الاستيلاء، وسيطر على الفكر هذه السيطرة.

لم يترك شيئاً إلّا وكتب فيه، ولم يطرق باباً من أبواب المعرفة إلّا وفتح هذا الباب على مصراعيه.

كتب في كل فن، وأبدع في كل علم، وعاش في محراب الفكر متبتلاً، فقدم لنا هذا الزاد الذي تفخر به المكتبة الإسلامية. وكان السيوطي على حق حينما قال بدون مبالغة: «ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها، وأدلّتها النقليّة والقياسية ومداركها ونقوضها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوّتي»[1].

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٣٩.

ومؤلفات السيوطي متنوّعة، استوعبت كل جوانب الفكر الإسلامي، والحضارة العربية في مجالاتها المختلفة.

ولمّا كانت كتب السيوطيّ المخطوط منها أكثر من المطبوع، والمحقَّق قليل بالنسبة لما لم يُحقَّق، رأيت من الفائدة العلمية أن أسرد هذه المؤلفات مبيّناً منها المخطوط والمطبوع، مستعرضاً أيضاً المؤلفات المفقودة التي أشارت إليها كتب الفهارس، ولم تحدّد أمكنتها.

كل ذلك لأسهِّل على الباحث المحقّق مئونة البحث في كتب الفهارس ليبدأ عمله في تحقيق ما يستطيع تحقيقه من هذا التراث السيوطي الذي نحن في أشدّ الحاجة إليه، ليضيف جديداً، ويثري المكتبة التراثية المحققة بزاد من هذا الفيض العظيم الذي ما زال قابعاً في سراديب المكتبات في العالم الإسلامي وغيره ليرى النور من جديد في عصر الفن الطباعي، والتحقيق والإخراج.

ومن حسن الحظ أن المكتبة العربية في عصرنا الحاضر ظفرت بكتابين موقوفين على فهرسة كتب السيوطي، وبيان المخطوط منها والمطبوع والمفقود، واكتفيت بهما لأنهما تخصصا في هذه الفهرسة من ناحية، وعدم تكرار الجهد من ناحية أخرى، وهما:

(أ) كتاب: «مكتبة الجلال السيوطي، سجل يجمع ويصف مؤلفات جلال الدين عبد الرحمن السيوطي»، تأليف أحمد الشرقاوي إقبال، طبع بمطبعة دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر بالرباط سنة ١٩٧٧م.

(ب) كتاب: «دليل مخطوطات السيوطي، وأماكن وجودها»، للأستاذين أحمد الخازندار، رئيس مكتبة المخطوطات العربية بجامعة الكويت.. ومحمد إبراهيم الشيباني، مسؤول لجنة المخطوطات،

جمعية إحياء التراث، نشر مكتبة ابن تيميّة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٣م.

هذان المؤلَّفان في فهرسة مكتبة جلال الدين السّيوطيّ يكمّل أحدهما الآخر، فالكتاب الأول قام منهجه على ما يأتي:

١ ـ بيان المطبوع من المؤلفات السيوطية مع معرفة تاريخ الطباعة والجهة التي طَبعت فيها هذه المؤلفات.

٢ ـ حرص مؤلف هذا الكتاب على أن يورد طوالع الكتب التي وقعت تحت يده أو التي أشارت إلى طوالعها كتب الفهارس مثل كشف الظنون.

وهذه الطوالع مهمة جداً للتعريف بالكتاب، لأنه يبيِّن فيه هدفه من التأليف، ومنهجه فيه.

وإلى جانب ذلك حرص المؤلف على الإتيان بالخواتم، لأن السيوطي كما يقول المؤلف يذكر فيها أحياناً مدّة التأليف، وتاريخ الفراغ منه.

٣ ـ عنى المؤلف أيضاً بتوضيح علاقة المؤلفات السّيوطية بما تقدمها من مؤلفات أسلافه، فالسيوطي كثيراً ما تدور مؤلفاته حول شروح لمؤلفات أُلّفت في عصره أو قبل عصره.

٤ ـ وقد بلغت المؤلفات التي أحصاها المؤلف للسّيوطيّ في هذا الكتاب ٧٢٥ مؤلفاً.

وهو كتاب قيِّم، وجهد عظيم يغني الدارسين لمؤلفات السيوطيّ في مجال معرفة أماكنها، وموضوعاتها، وأهدافها عن الجري وراء الفهارس المبعثرة في أمهات كتب التراث.

وتبرز قيمة هذا المؤلف أنه استوعب المراجع التراثية في فن الفهارس واستخرج منها بعد عناء هذا الجهد العظيم المتمثل في «مكتبة الجلال السيوطيّ»، غير أن هذا الكتاب ترك جانباً مهماً، وهو أماكن وجود هذه المؤلفات المخطوطة، حقاً إنه أشار إلى بعض هذه الأماكن من هذه المخطوطات السّيوطيّة، ولكنه لم يستوعب، فضلاً عن أنه ترك الكثير من هذه المخطوطات في مجال معرفة أماكنها، وأرقامها في هذه الأماكن التي تقبع فيها.

ومن حسن الحظ، هذا النقص قام بتكملته زميلنا وصديقنا الأستاذ أحمد الخازندار وزميله الأستاذ محمد إبراهيم الشيباني في كتابهما، وهو: «دليل مخطوطات السّيوطيّ وأماكن وجودها».

* ومنهج هذا الكتاب يقوم على ما يأتي:

١ ــ تقصّي وتتبُّع مؤلفات السّيوطيّ وجمعها من فهارس مكتبات العالم، وقد كان مجموع هذه الفهارس التي اعتمدوا عليها في فهرسة مؤلفات السيوطيّ مائة وعشرون فهرساً.

٢ ــ وتمثّل عمل المؤلفين في بيان اسم الكتاب، وأماكن وجوده في الخزتئن العالمية والمكتبات الخاصة، وبيان رقم المؤلف في الخزانة إذا كان الرقم مستقلاً أو في مجاميع.

٣ ــ بيان طبعات الكتاب إذا كان مطبوعاً وعدد طبعاته، وتاريخ الطبع واسم المطبعة، والمكتبة الناشرة له وفي أيّ بلد.

٤ ــ وقد قام المؤلفان بترتيب موضوعات الكتاب مع تذييله بفهرس هجائي للعناوين، وفهرساً للمكتبات العالمية والخزائن الخاصة.

٥ ــ أحجم المؤلفان عن بيان بعض المؤلفات وأماكن وجودها دفعاً للحياء، لأنها أسماء مخلّة بالآداب والأخلاق الإسلامية.

هذا هو خلاصة منهجهما كما نقلته حرفياً من مقدمة كتابهما.

* * *

والحق، أنه جهد عظيم في تذليل معرفة مؤلفات السّيوطيّ وأماكن وجودها أمام الباحثين والدارسين، فقبل هذا التنسيق والتبويب، والتتبُّع لهذه المؤلفات كان يصعب على الباحث أو المحقق أن يلمّ بمؤلفات السّيوطيّ هذا الإلمام. غير أنهما لم يسجّلا بعض المؤلفات، وبيان أماكن وجودها لأنها مخلّة بالآداب، وفي رأيي أن ناقل الكفر ليس بكافر، وفي تراثنا الكثير من هذه النصوص المخلّة بالآداب من وجهة نظر المؤلفين، لكن العلم لا يعترف بهذا المبدأ، فقد يهتم باحث بالحياة الاجتماعية في عصر السّيوطيّ أو المجالس الترفيهية الأدبيّة التي كانت تضمّ أعداداً من العلماء والمفكّرين.. أقول قد يهتمّ باحث لدراسة هذه الظاهرة علمياً، ومع ذلك لا يجد المرجع الذي يساعد، والمؤلف الذي يعين في هذا المجال.

وفي كتب التفسير والحديث واللغة والنحو فضلاً عن الأدب، سيل من هذه النصوص التي تدرّس في قاعات الدرس للطلّاب والطالبات، لأنها تمثّل ظاهرة فكرية أو اجتماعية أو لغوية أو طرفة أدبية.

* * *

ولمّا كان السّيوطيّ قد عدّد مؤلفاته، وسجّلها في كتابه «حسن المحاضرة»، فإنني سأكتفي بالمؤلفات التي نسبها السّيوطيّ لنفسه.

أما المؤلّفات التي لم ينسبها لنفسه، ونسبها إليه المفهرسون،

فلا أتعرّض لها هنا، ومن طلبها وجدها في المرجعين الحديثين لفهرسة مؤلفات السيوطي اللذين أشرت إليهما، أو كتب الفهارس القديمة.

على أنّ السّيوطي بيّن لنا في «حسن المحاضرة» أنّ مؤلفاته بلغت ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه[1]. غير أن الشيخ عبد الحيّ الكتاني في فهرس الفهارس (٣٥٩/٢)، يقول: «وقد ظفرت بكراسة من تأليف السّيوطيّ عدَّد فيها تآليفه إلى سنة ٩٠٤هـ قبل موته بسبع سنين أوصل فيها عدد مؤلّفاته إلى ٥٣٨»[2].

وقد اختلفت كتب الفهارس والتراجم في أعداد هذه المؤلفات:

فابن العماد في شذرات الذهب، ذهب إلى أن عدتها نافت على خمسمائة مؤلف.

وابن إياس أوصلها إلى خمسمائة مؤلف.

وحاجي خليفة في كشف الظنون أوصلها إلى ستمائة مؤلّف.

وإسماعيل البغدادي في هديّة العارفين أوصلها إلى ستمائة مؤلّف، كصاحب كشف الظنون.

وأوصلها بروكلمان إلى ٤٢٥ مؤلّفاً.

وقد أوصلها صاحب: مكتبة الجلال السّيوطيّ إلى ٧٢٥ مؤلّفاً[3].

وأوصلها صاحبا: دليل مخطوطات السّيوطيّ إلى ٩٨١ مؤلّفاً[4].

---

(١) حسن المحاضرة: ٣٣٨/١.

(٢) مكتبة الجلال السّيوطي: ٣٨.

(٣) انظر: مكتبة الجلال السيوطي: ٣٨، ٣٩.

(٤) انظر الصفحة الأخيرة من دليل مخطوطات السيوطي.

مؤلفات السيوطيّ التي نسبها إلى نفسه

مؤلّفات السّيوطيّ التي نسبها إلى نفسه في كتابه: «حسن المحاضرة»[1] هي التي أهتمّ بها من حيث تعريفها، وأماكن وجودها مطبوعة ومخطوطة. وليس معنى ذلك أنني أنفي ما نسبته إليه كتب الفهارس من مؤلفات أخرى.. لأن هذه المؤلفات قد تحتمل أن تكون للسّيوطيّ نفسه، وقد تحتمل أيضاً أن تكون لغيره.

لهذا، فإني أعرض هذه المؤلفات التي ذكرها بنفسه في كتابه «حسن المحاضرة» بالترتيب، والتقسيم الذي اختاره السّيوطيّ مع أنه روادتني فكرة ترتيب هذه الكتب أو المؤلفات حسب حروف الأبجدية تيسيراً للقارىء، ولكن رأيت أنّ السّيوطيّ لم يفعل ذلك، وهو أقدر على هذا مني، فتركت هذه الفكرة، واقتصرت على الترتيب الذي ذكره لمؤلفاته والتقسيم الذي وضعه لهذه المؤلفات.

ومنهجي في سرد كتبه يقوم على ما يأتي:

١ ـ ذكر المؤلف كما ورد اسمه في حسن المحاضرة.

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٣٩ ـ ٣٤٤.

٢ ـ التعقيب على هذا المؤلف لمعرفة موضوعه إذا أمكن، وطبعه إذا طبع، أو رقمه ومكان وجوده إذا كان مخطوطاً.

٣ ـ الاكتفاء في هذا التعقيب بما ورد في الكتابين المشار إليهما سابقاً، وهما كتاب «مكتبة جلال الدين السيوطي»، و«دليل مخطوطات السيوطي».

٤ ـ ذكر أرقام مؤلفات السّيوطي في أماكن وجودها بالنسبة للمخطوطات فقط.



سـرد مـؤلّفـاتـه

أولاً:

فن التفسير وتعَلّقاته والقراءات

١ ـ «الإتقان في علوم القرآن»:

* كتاب مشهور، ومطبوع عدة طبعات.

* * *

٢ ـ «الدر المنثور في التفسير المأثور»:

* لخّصه من تفسيره المسند الذي سمّاه: «ترجمان القرآن»، بحذف الأسانيد، والاقتصار على متون الأحاديث مع عزوها إلى من خرّجها من الأئمة.

قال مؤلّفه: «ألّفت كتاب «ترجمان القرآن»، وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وتم بحمد الله في مجلّدات».

* ثم قال السيوطي: «فرغت من تبييضه يوم عيد الفطر سنة ٨٩٨هـ، والحمد لله وحده»[١].

* طبع بالمطبعة الميمنية عام ١٣١٤هـ في ستة أجزاء كبار، صفحاتها زهاء ٢٥٠٠ وبهامشه تفسير ابن عباس[٢].

---

(١) مكتبة الجلال السيوطي: ١٩١، ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

* وطبع أيضاً بالمكتبة الإسلامية بطهران سنة ١٣٧٧هـ، نشر محمد أمين دمج.

* * *

٣ - «ترجمان القرآن في التفسير»:

* تحدّث عنه السيوطي في الإتقان بقوله: «جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبي ﷺ والصحابة، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تمّ والحمد لله في أربعة مجلدات».

* وفي مكتبة الجلال السيوطي ورد في صفحة ١٣١: «ترجمان القرآن» فقط وورد في: «دليل مخطوطات السيوطي»: «ترجمان القرآن في تفسير المسند». ونصّ على أنه طبع بمصر سنة ١٣١٤هـ، على حين لم ينصّ على ذلك كتاب: «مكتبة الجلال السّيوطيّ».

* * *

٤ - «أسرار التنزيل، يسمى«قطف الأزهار في كشف الأسرار»:

* ذكر هذا الكتاب السّيوطيّ في كتاب «الإتقان» في النوع «الثالث والستين» «في الآيات المتشابهات»، قائلاً: «وفي كتاب أسرار التنزيل المسمّى: «قطف الأزهار في كشف الأسرار»، من ذلك الد ...م إلغفير والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة»[1].

* ونصّ فهرس دليل مخطوطات السّيوطيّ على أنه يوجد في (برلين رقم ٦/٧٢٣).

* * *

(١) الإتقان: ١١٥/٢.

٥ ــ «لباب النقول في أسباب النزول»:

* طبع على هامش الجلالين بمطبعة وهبي عام ١٩٢٧، وبالأزهرية عام ١٣٠١هـ، وبالخيرية على هامش الجلالين عام ١٣١٦هـ، وبمطبعة دار إحياء الكتب العربية على هامش الجلالين عام ١٩٤٢م، وطبْع البابي الحلبي سنة ١٩٥١، ١٩٥٤م والدار التونسية للنشر سنة ١٩٨٤م.

* * *

٦ ــ «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن»:

* يقول السيوطي في مقدمته: «فإن من علوم القرآن التي يجب الاعتناء بها معرفة مبهماته»... إلى أن يقول: «وعزو كل قول إلى من قاله مخرجاً من كتب الحديث والتفاسير المسندة، فإن ذلك أدعى لقبوله، وأوقع في النفس».

* طبع ببولاق سنة ١٢٨٤هـ، وبمطبعة محمد أفندي مصطفى سنة ١٣٠٣هـ على هامش «الفتوحات الإلهية»، لسليمان الجمل، وبالميمنية سنة ١٣٠٩هـ، وبمطبعة السعادة مع: «فتح المنّان»، للسجاعي سنة ١٣٤٦هـ، وطبع حديثاً في مؤسسة علوم القرآن، سوريا سنة ١٩٨٣م.

* * *

٧ ــ «المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب»:

* قال فيه السّيوطيّ: «فهذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعرّبة في القرآن، بعد الفحص الشديد سنين، ولم يجتمع قبل في كتاب قبل هذا»، وكُتِبَ بآخر مخطوطته المحفوظة بمكتبة الأوقاف العامة بالعراق ما نصّه: «علّقه مؤلفه عبد الرحمن بن أبي بكر السّيوطيّ يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة سنة ٨٧٨هـ».

* طبع المهذّب محقّقاً ضمن المجلّد الأول من مجلّة المورد العراقية سنة ١٩٧١م بعناية السيد عبد الله الجبوري أمين مكتبة الأوقاف العامة بالعراق.

* * *

٨ ـ «الإكليل في استنباط التنزيل»:

* قال فيه السيوطي: «ما من شيء إلّا ويمكن استخراجه من القرآن».

* طبع بدلهي على هامش جامع البيان في تفسير القرآن، لمعين الدين محمد بن عبد الرحمن الايجي سنة ١٢٩٦هـ، وطبع بالقاهرة بعناية السيد عبد الله الغماري سنة ١٩٥٤م.

* * *

٩ ـ «تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلّى»:

* هذا الكتاب اشتهر بكتاب «الجلالين»، وقد طُبع عدّة مرات ومن الكتب المتداولة المشهورة للسيوطي.

* * *

١٠ ـ «التحبير في علوم التفسير»:

* قال فيه السيوطي: «وإن مما أهمل المتقدمون تدوينه حتى تجلّى في آخر الزمان بأحسن زينة: علم التفسير الذي هو كمصطلح الحديث»... إلى أن يقول: «فجرّدت الهمّة إلى وضع كتاب في هذا العلم أجمع به إن شاء الله شوارده».

* وبيَّن السّيوطيّ تاريخ الانتهاء من تأليفه، بقوله: «وقد تمّ هذا الكتاب ولله الحمد من سنة اثنتين وسبعين، وكتبه من هو في طبقة أشياخي من أولى التحقيق».

* منه مخطوطة بالتيمورية، فرغ منها ناسخها سنة ٩٨١هـ.

* ونسخة بآيا صوفيا بتركيا رقم (٢٩٨٣).

* ونسخة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم (١٦٩/ تفسير).

* ونسخة شيستر بيتي رقم (٤٦٥٥، ٥١١٢).

* ونسخة مخطوطات جامعة الكويت رقم (٣١٥٢، ٣٦٠٩).

* ونسخة ليدن رقم (٩٣٤).

* مخطوطات الأوقاف العراقية، الموصل، خزانة حسن باشا الحلبي رقم (٥/٣).

* مخطوطات جامعة الإمام محمد بن سعود رقم (٥١١٢/ف، ٤٧٨/ف، ٤٦٥٥/ف).

* * *

١١ ــ «حاشية على تفسير البيضاوي»:

* سقط من فهرس «مكتبة الجلال السيوطي».

* وأشار إليه: «دليل مخطوطات السّيوطيّ» وبيَّن أنه في مكتبة (برلين) رقم (٨٣٤).

* * *

١٢ ــ «تناسق الدرر في تناسب السّور»:

* كتابه السابق رقم (٤): «أسرار التنزيل» الذي عرّفت به.

* لخّص السّيوطي منه مناسبة السّور خاصة في جزء لطيف فرغ من تأليفه عام ٨٨٣هـ.

* يوجد مخطوطاً بالخزانة التيمورية، والظاهرية رقم (٥٠٥٠)، وشيستر بيتي رقم (٥١١٢)، ومخطوطات جامعة الكويت رقم (٣٦٠٩)، فهرس المخطوطات اليمنية بحضرموت رقم (٣٦٢).

* جامعة الإمام محمد بن سعود رقم (٥١١٢/ف، ٤٧٢٥).

* وقد عرّفه الدكتور محمد حجّي في فهرس الخزانة العلمية الصبيحيّة، فقال: «أول المخطوط: الحمد لله الذي أنزل كتابه على أحسن أسلوب. آخره: سورة الناس. رقمه (١/٣٥٨)»[1].

* * *

١٣ ـ «مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع»:

* موضوعه: التناسب بين فواتح بعض السور القرآنية وخواتيمها.

* منه نسخة مخطوطة بمكتبة شيستر بيتي رقم (٥١١٢).

* من مخطوطات جامعة الكويت رقم (٣٦٠٩).

* منه نسخة مخطوطة بليدن رقم (٤٧٤/٢٤).

* * *

---

(١) انظر فهرس الخزانة العلمية الصبيحية، للدكتور محمد حجي، صفحة رقم (٣١)، من منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت.

١٤ ـ «مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير»:

* ذكره السّيوطي في مقدّمة «الإتقان»، إذ يقول عن: «الإتقان» ما نصّه: «جعلته مقدّمة للتفسير الكبير الذي شرعت فيه، وسمّيته بمجمع البحرين، ومطلع البدرين، الجامع لتحرير الرواية، وتقرير الدراية»[1].

* ويبدو أن الكتاب مفقود، فلم تشر الكتب التي فهرست مؤلفات السّيوطي إلى أمكنة وجوده.

* * *

١٥ ـ «مفاتيح الغيب في التفسير»:

* هذا الكتاب مفقود، لعدم الإشارة إلى أمكنة وجوده في فهارس مؤلفات السيوطي.

* * *

١٦ ـ «الأزهار الفائحة على الفاتحة»:

* ذكر في دليل مخطوطات السّيوطي أنّ نسخة منه في برلين برقم (١٦/٩٤٩).

* * *

١٧ ـ «شرح الاستعاذة والبسملة»:

* هذا الكتاب يعتبر أول مؤلَّف للسّيوطيّ، فقد قال في: «حسن المحاضرة»: «إن أول شيء ألّفته شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فكتب عليه تقريظاً»[2].

---

(١) انظر صفحة رقم (٦) من الإتقان.

(٢) حسن المحاضرة: ٣٣٧/١.

* وقد كان ذلك في سنة ست وستّين.

* وفي دليل مخطوطات السّيوطيّ: سمّي: «رياض الطالبين في شرح الاستعاذة والبسملة».

* والسيوطيّ لم ينصّ على كلمة: «رياض الطالبين» في كتابه «حسن المحاضرة». وفي هذا الدليل أيضاً نجد أنّ نسخة المخطوطة موزّعة على المكتبات على النحو التالي:

* برلين برقم (٢٢٥٨).
* دار الكتب المصرية برقم (٤٧٤) مجاميع.
* الخزانة التيمورية,
* الخزانة العامّة بالرباط.
* جامعة الإمام محمد بن سعود رقم (٤٧٢٥).

* * *

١٨ ـ «الكلام على أول الفتح»:

* قال السيوطي عنه في «حسن المحاضرة»:(١)«وهو تصدير ألقيته لمّا باشرت التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخنا البلقيني».

* ليس له ذكر في «دليل مخطوطات السّيوطي»، مما يدلّ على أنه مفقود.

* * *

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٤٠.

١٩ ـ «شرح الشاطبية»:

* من تآليف السيوطي المطبوعة.
* وفي دليل مخطوطات السيوطي توجد منه:
* نسخة في الظاهرية رقم ٢٩٩ (١٠ قراءات).
* نسخة في دار الكتب المصرية رقم (٣٣، ٨٠، ١٥٨).
* نسخة في برلين رقم (١٩/٦١٢).
* نسخة في الخزانة التيمورية.

* * *

٢٠ ـ «الألفية في القراءات العشر»:

* لم تشر الفهارس إلى أماكن وجوده.

* * *

٢١ ـ «خمائل الزهر في فضائل السور»:

* ذكر في «دليل فهارس مخطوطات السيوطي» أنه يوجد في برلين رقم (٨/٤٦٢).

* * *

٢٢ ـ «فتح الجليل للعبد الذليل في الأنواع البديعيّة المستخرجة من قوله تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا...﴾، الآية، وعدّتها مائة وعشرون نوعاً»:

* صدرت منه طبعة بمصر ليس بها اسم المطبعة، ولا تاريخ الطبع.
* وطبع بالمطبعة المحمدية في لاهور بالهند ضمن مجموع رسائل.

* * *

٢٣ ـ «القول الفصيح في تعيين الذبيح»:

* رسالة طُبعت في (الحاوي للفتاوي).

* * *

٢٤ ـ «اليد البسطى في الصلاة الوسطى»:

* مخطوط بالخزانة التيمورية.

* سقط من مخطوطات: «دليل المخطوطات للسيوطيّ».

* * *

٢٥ ـ «معترك الأقران في مشترك القرآن»[1]:

* طبع بدار الفكر العربي سنة ١٩٦٩م، بتحقيق علي محمد البجاوي.

* * *

---

(١) حقق باسم: «معترك القرآن في إعجاز القرآن».

ثانياً:

فنّ الحديث وتعلّقاته:

٢٦ ــ «كشف المغطّى في شرح الموطّا»:

* والموطأ هو كتاب مالك بن أنس في الحديث الشريف.

* سقط هذا المخطوط من فهرس: «دليل مخطوطات السّيوطي».

* والكتاب مفقود، لأن فهرس مكتبة الجلال السيوطي لم يشر إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٧ ــ «إسعاف المبطّا برجال الموطّا»:

* موضوع هذا الكتاب ترجمة رواة الموطأ للإمام مالك بن أنس مع إشادته بمالك، رضي الله عنه في تحرّيه ودقّته، واحتياطه في التلقّي عن هؤلاء الرجال.

* طبع في حيدرآباد سنة ١٣٢٠هـ..

* وطبع أيضاً بمصر بمطبعة دار إحياء الكتب العربية مع كتابه: «تنوير الحوالك»، بدون تاريخ.

* وقد سقط هذا الكتاب من: «دليل مخطوطات السيوطي».

* * *

٢٨ ــ «التوشيح على الجامع الصحيح»:

* موضوعه: قال السيوطي: «هذا تعليق على صحيح الأستاذ شيخ الإسلام أمير المؤمنين أبي عبد الله البخاري، سمِّي بالتوشيح... يشتمل على ما يحتاج إليه القارىء والمستمع من ضبط ألفاظه، وتفسير غريبه، وبيان اختلاف رواياته».

* مخطوطاته:

١ ــ مخطوطة محفوظة بخزانة ابن يوسف بمراكش برقم (١٣٦)، كان السلطان المغربي زيدان السّعدي وقفها على جامع الحرّة القائم بمراكش.

٢ ــ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب، بتونس، رقم (١٨٢٠٩).

٣ ــ برلين برقم (١٢٢٥/٣٥).

٤ ــ المكتبة الوطنية باستانبول ــ فيض الله برقم (٣٢٠).

٥ ــ مخطوطة جيدة صحيحة محفوظة بمكتبة الجامع الأعظم بتطوان وقفها عليه السلطان المغربي محمد بن عبد الله العلوي.

٦ ــ مخطوطة محفوظة بالمكتبة التيمورية.

٧ ــ مخطوطة محفوظة بأوقاف بغداد.

٨ ــ مخطوطة محفوظة بمكتبة الخزانة العلمية الصبيحيّة رقم (٣٤، ١٩٦)، وفي آخرها كتب السيوطي: «هذا آخر ما تيسّر تعليقه على الصحيح. وفرغت من تأليفه يوم الخميس ١٥ من شعبان سنة ٨٨هـ»[١].

---

(١) انظر: فهرس الخزانة العلمية الصبيحية: ٧٢.

* لم يرد هذا المخطوط في كتابي: «مكتبة الجلال السيوطي»، و«دليل المخطوطات».

* * *

٢٩ ـ «الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج»:

* بعد أن فرغ السيوطي من التعليق على صحيح البخاري، قال: «وجهت الوجهة إلى تعليق مثله على صحيح الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج مسمّىً بالديباج... يشتمل على ما يحتاج إليه القارىء والمستمع من ضبط ألفاظه وتفسير غريبه... وتسمية مبهم، وإعراب مشكل»... إلخ.

* مخطوطاته:

١ ـ مخطوطة بمكتبة الأستاذ أحمد الكنوسي أحد علماء مراكش وشيوخها.

٢ ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢١٩).

٣ ـ مخطوطة الأوقاف العراقية برقم (٧٠١).

٤ ـ المكتبة الوطنية باستانبول (فيض الله / ٣٢١).

٥ ـ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس برقم (١٨٢٠٩).

* * *

٣٠ ـ «مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود»:

* علق عليه العالم المغربي علي بن سليمان الدمغاني البوجمعوي حاشية سمّاها: «درجات مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود».

* طبع هذا الكتاب بالمطبعة الوهبية عام ١٢٩٨هـ.

* وقد سقط هذا الكتاب من كتاب: «دليل مخطوطات السّيوطيّ».

* * *

٣١ ـ «شرح ابن ماجة»:

* سقط هذا الكتاب من كتاب: مكتبة الجلال السيوطي».

* ولم يشر فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي» إلى أماكن وجوده، مما يظنّ أنه مفقود.

* * *

٣٢ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي»:

* طبع: تدريب الراوي في القاهرة بالمطبعة الخيرية عام ١٣٠٧هـ.

* وقد حقّقه وراجع أصوله الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف، الأستاذ المساعد بكلّية أصول الدين بجامعة الأزهر.

* وعلى غلاف الكتاب إشارة إلى أنه طبع لأول مرة، ولعل المحقق لم يطّلع على طبْعة المطبعة الخيرية التي أشرت إليها آنفاً.

* * *

٣٣ ـ «شرح ألفيّة العراقي، وتسمى: «نظم الدرر في علم الأثر»، وشرحها يسمى: قطر الدرر»:

* مخطوطاته:

١ ـ مخطوطة بالاسكوريال ضمن مجموع يحويه.

٢ ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٣٢٣٤/ب).

٣ ـ مخطوطة ببرلين برقم (١٠٨٣/٥).

٤ ـ مخطوطة الأوقاف العراقية برقم (٧٦٧).

٥ ـ مخطوطة الظاهرية برقم (١١٤٨).

* * *

٣٤ ـ «التهذيب في الزوائد على التقريب»:

* سقط هذا الكتاب من فهرس «مكتبة الجلال السيوطي».

* ولم يشر إليه فهرس «دليل مخطوطات السيوطي»، إلّا بقوله: «حسن المحاضرة ج/ ٣٤٠. ولم يبيّن أماكن وجوده، ولعلّ الكتاب مفقود».

* * *

٣٥ ـ «عين الإصابة في معرفة الصحابة»:

* هو تلخيص لكتاب الإصابة لابن حجر، وتكلّم عنه صاحب كشف الظنون في حرف العين، حيث قال: «وله عين الإصابة في معرفة الصحابة».. لم يتم[1].

* وقد سقط هذا الكتاب من سجلّ «دليل مخطوطات السيوطيّ».

* * *

٣٦ ـ «كشف التلبيس عن قلب أهل التدليس»:

* يوجد في برلين مخطوطاً، رقم (١٦٤١/ ١٠).

* * *

٣٧ ـ «توضيح المدرك في تصحيح المستدرك»:

* وكتاب المستدرك هو للحاكم النيسابوري عبد الله محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٤٠٥هـ، أورد فيه ما لم يذكره البخاري ومسلم.

* وقد انتقدت طائفة من المحدّثين هذا الكتاب، ولكنّ السيوطي دافع عنه في كتابه هذا[2].

---

(١) انظر: مكتبة الجلال السيوطيّ في حرف العين.

(٢) مكتبة الجلال السّيوطيّ: ١٥.

* وفي فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي» إشارة بأنه لم يتمّ.

* ويبدو أنّ الكتاب مفقود، لأنّ كتاب «فهرست مؤلفات السّيوطي» لم يشر إلى أماكن وجوده.

* * *

٣٨ ـ «اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة»:

* طبع بالهند سنة ١٣٠٣هـ، وبالمطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة ١٣١٧هـ، ودار الكتب الثقافية بالكويت سنة ١٩٨٣هـ.. في مجلدين.

* * *

٣٩ ـ «النكت البديعيات في الموضوعات

* اقتصر في هذا الكتاب على إيراد الحديث، وذكر من أعلّه، والإشارة إلى من خرّجه من الأئمة المعتبرين.

* مخطوطاته:

١ ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط محمد بن علي الداوودي تلميذ السّيوطي[1]، بأرقام: (٦٠، ١٤٩٧، ١٧٦٠، ١٩٦٢، ٥٢٥ ـ ٧٢٧).

٢ ـ مخطوطة ببرلين، رقم (١٦٤١/١٠٠).

* * *

(١) مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٧٢.

٤٠ ـ «الذيل على القول المسدّد»:

* في مكتبة الجلال السّيوطي سمّاه: «الذيل الممهّد، على القول المسدّد»، جعله ذيلاً على مؤلف الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي ألّفه دفاعاً عن مسند الإمام أحمد بن حنبل، والذي سمّاه: «القول المسدّد في الذّبّ عن مسند أحمد».

* يبدو أن الكتاب مفقود، لأنه لا توجد إشارة إلى أماكن وجوده في فهرسَيْ مؤلّفات السيوطي.

* * *

٤١ ـ (أ) «لب اللباب في تحرير الأنساب»:

* هذا الكتاب مطبوع، وقد أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنّى ببغداد، لصاحبها قاسم محمد الرجب.

* وهذا الكتاب قال عنه السيوطي في مقدمته: «هذا ما اشتدّت إليه حاجة المتحدّث اللبيب عن مختصر في الأنساب... نقّحت فيه اللباب لابن الأثير، واستوفيت ضبط ألفاظه مع مزيد عليه كثير، وتتبّعت فيه أشياء أهملها، واستدركت ألفاظاً أغفلها»[١]... إلخ.

* * *

٤١ ـ (ب) «تقريب القريب»:[٢]

* لعلّ الكتاب مفقود، فليس في الفهرسين إشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

---

(١) انظر: مقدمة «لب اللباب».

(٢) وفي حسن المحاضرة: ١/٣٤٠: «العزيب» بالعين والزّاي، تحريف.

٤٢ ـ «المدرج إلى المدرج»:

* الحديث المدرج وأقسامه تطرّق إليه النواوي في كتابه «التقريب»، وهو مصطلح من مصطلحات الحديث الشريف.

* طبع هذا الكتاب في الدار السلفية بالكويت سنة ١٩٧٩م.

* * *

٤٣ ـ «تذكرة المؤتسي بمن حدّث ونسي»:

* حقّقه عبد الله محمد الدرويش ـ دمشق، دار هشام للطباعة سنة ١٩٨٤م.

* وحقّقه أيضاً صبحي البدري السامرائي ـ الدار السلفية بالكويت سنة ١٩٨٤م.

* * *

٤٤ ـ «تحفة النّابه بتلخيص المتشابه»:

* هو تلخيص لكتاب «تلخيص المتشابه في الرسم، وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم»، للخطيب البغداديّ.

* وقد اختصره السّيوطي بالتسمية المعنون لها.

* سقط هذا المخطوط من: «دليل مخطوطات السّيوطي»، ولم يشر فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» إلى أماكن وجوده، ممّا يحتمل أنه مفقود.

* * *

٤٥ ــ «الروض المكلّل والورد المعلّل في المصطلح»:

* يبدو أن الكتاب مفقود، فليس في الفهرسين إشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٤٦ ــ «منتهى الآمال في شرح حديث: إنما الأعمال»:

* نسخه المخطوطة:

١ ــ نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٢٠٨٧/ حديث)، و (٢٣٢٣٨/ب).

٢ ــ نسخة برلين، رقم (١٥٩٢).

* * *

٤٧ ــ «المعجزات والخصائص النبويّة»:

* ليس لهذا المؤلف ذكر في فهرسَيْ السّيوطي، وربما يكون عنواناً لمؤلفات تتعلق بهذا الموضوع.

* * *

٤٨ ــ «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور»:

* في مكتبة الجلال السيوطي سُجِّل باسم: «شرح الصدور بشرح أحوال الموتى والقبور».

* طبع محقّقاً بتحقيق: محمد حسن الحمصي بمؤسسة الإيمان بدمشق، ودار الرشيد ببيروت سنة ١٩٨٤م

* * *

٤٩ ـ «البدور السافرة عن أمور الآخرة»:

* طبع بالهند سنة ١٣١١هـ، وبمطبعة كرويد بلاهور سنة ١٣٣٧هـ، ونشر بمجلة المورد، مجلد ٧، عدد ٢، سنة ١٣٩٨هـ.

* * *

٥٠ ـ «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»:

* سقط من فهرس مكتبة الجلال السيوطي.

* مخطوطاته:

١ ـ نسخة مخطوطة ببرلين، رقم (١٤٢٩).

٢ ـ نسخة مخطوطة بالظاهرية، رقم (١١٥٨حديث).

٣ ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم (٣٣/مجاميع)، و(١٠٢/مجاميع).

٤ ـ نسخة مخطوطة بليدن، رقم (٤٥٥/٢).

٥ ـ نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية.

* * *

٥١ ـ «فضل موت الأولاد»:

* يبدو أنه مفقود، فلم يُشرْ إليه في «فهرس مؤلفات السيوطي».

* * *

٥٢ ـ «خصائص يوم الجمعة»:

* فهرس مكتبة الجلال السيوطي، ورد باسم «نور اللمعة في خصائص يوم الجمعة»، وكذلك ورد بهذه التسمية في فهرس: «دليل مكتبة السيوطي».

* طبع بالهند، وبمصر عام ١٢٧٧هـ، وبمكة المكرمة عام ١٣١٢هـ بهامش كتاب: «صلح الجماعتين»، ثم طبع بالمطبعة العربية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية عام ١٣٤٣هـ.

* وطبع محقّقاً بدمشق سنة ١٩٦٤م بتحقيق محمد رياض المالح.

* * *

٥٣ ـ «منهاج السنّة، ومفتاح الجنّة»:

* في فهرس «دليل مخطوطات السيوطيّ»، أشار بأنه من مخطوطات جامعة الرياض، رقم ١٣٨٣).

* * *

٥٤ ـ «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش»:

* وهو تعليق على حديث السبعة الذين يُظلّهم الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، وبيّن فيه أن العدد لا مفهوم له، وقد تتبّع الأحاديث التي فيها الخصال الموجبة لظل العرش، وتتبعها فتمت سبعين خصلة.

* ثم لخّص هذا الكتاب في مختصر سمّاه: «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال»[1].

* مخطوطة بمكتبة الاسكوريال ضمن مجموع كما في «دليل مخطوطات السّيوطيّ».

* * *

---

(١) ملخص من مكتبة الجلال السّيوطيّ: ١٤٤، ١٤٥.

٥٥ ــ «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال»:

* هو تلخيص للكتاب السابق.

* مخطوطاته:

١ ــ مخطوطات البحرين، رقم (٣٠٤/).

٢ ــ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس، رقم (١٨٢٥٠).

٣ ــ مخطوطات الأوقاف بالموصل ــ الأحمدية (مجاميع ٢٤/٨٤).

٤ ــ مخطوطات الأوقاف بالعراق، رقم (٩٥٠).

٥ ــ برلين: رقم (١٨٣١، ٢٨/٢٣٩٣).

٦ ــ جامعة الرياض، رقم (٢٨١١).

٧ ــ مكتبة الأوقاف العامّة في بغداد (حسن الانكرالي ١٣٧٦٧/١٤٦).

٨ ــ دار الكتب المصرية (٥ مجاميع، ٤٤، مجاميع، ١٠٢، ٤١٦ مجاميع)، المكتبة التيمورية.

٩ ــ الخزانة العامة بالرباط.

* * *

٥٦ ــ «مفتاح الجنّة في الاعتصام بالسنّة»:

* طبع بالمنيرية سنة ١٣٤٧هـ، وبمطبعة النهضة بدون سنة.

* طبع محقّقاً بتحقيق بدر الدين بمكتبة ابن تيمية سنة ١٤٠٢هـ.

* طبع في سوريا، مكتبة دار السلام، حلب، سنة ١٣٩٩هـ.

* * *

٥٧ ــ «مطلع البدرين فيمن يؤتى أجرين»:

* مخطوطاته:

١ ــ نسخة بالتيمورية.

٢ ــ نسخة بمكتبة أوقاف بغداد، رقم (١٢٦٥).

٣ ــ مكتبة الأوقاف العامة ببغداد (حسن الأنكرلي ١٣٧٨٢/١٥٤).

٤ ــ مكتبة حسن عبد الوهاب بتونس، مجموع رقم ٣٥٠.

٥ ــ مكتبة شيستر بيتي، رقم (٣١٨٤، ٥٥٠٠).

٦ ــ مكتبة مخطوطات جامعة الكويت، رقم (١٦٨٣، ٣٩٩٧).

٧ ــ مكتبة برلين، رقم (٥٥٨٧).

٨ ــ جامعة الرياض، رقم (٣١٣٨٣).

٩ ــ دار الكتب المصرية (٥ مجاميع)، و (٣٢ مجاميع)، (٢٢٥)، و(٢٩٥)، و(٤١٦).

١٠ ــ أوقاف بغداد، الكشاف، رقم (٤/٤٠٣، ٣/١٠٠٢٣، ٢/١٠٠٥٧، ٢/٧١٦٢).

* * *

٥٨ ــ «سهام الإصابة في الدعوات المجابة»:

* طبع بمصر سنة ١٣٠٧هـ.

* وله مخطوطات متعدّدة. انظر: «دليل مخطوطات السيوطيّ»، صفحة ١٦٩.

* * *

٥٩ ــ «الكلم الطيّب والقول المختار، في المأثور من الدعوات والأذكار»:

* ذكر في مكتبة الجلال السيوطي أنه ألّف في شعبان سنة ٨٧٨هـ.

* وفي حسن المحاضرة: «الكلم الطيب، القول المختار»، بدون واو العطف، مما يوهم أن: «القول المختار» كتاب آخر.

* مخطوطاته:

١ ــ جامعة كمبردج، رقم (١٣٤٧/١، مجاميع ٣٢٥٧/١٠، ٩٤٢/١).

٢ ــ دار الكتب المصرية، رقم (١٢٦م، ١٢٤ مجاميع).

٣ ــ مخطوطات الموصل، خزانة داود الجلبي، رقم (٣/٣، ج ٦، ص ١٥٩).

٤ ــ الخزانة التيمورية.

* * *

٦٠ ــ «أذكار الأذكار»:

* هو مختصر الأذكار للنووي.

* مخطوطاته:

١ ــ جامعة الرياض (فيلم ٧).

٢ ــ عارف حكمت بالمدينة، رقم (١٠٨ مجاميع).

٣ ــ الظاهرية، رقم (١١١٤حديث، عام ٦٦١٠).

٤ ــ دار الكتب المصرية، رقم (٧ مجاميع، ٤١٦ مجاميع).

٥ ــ جامعة الإمارات، رقم (٢٢٣ ــ ٢ / ٣٠).

* * *

٦١ ـ «الطبّ النبوي»:

* مخطوطاته:

١ ـ برلين، رقم (٦٣٠١).

٢ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٣١٥٧).

* * *

٦٢ ـ «كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة»:

* عرف به في إيضاح مفهرس مكتبة الجلال السيوطيّ، وبيّن أنّ هذا الكتاب يحتوي على قسمين رئيسيين يحتوي أولهما: ما جاء في الزلازل من الآيات والأحاديث والأخبار.

* ويحتوي ثانيهما: ذكر بعض الزلازل الحادثة قبل الإسلام، ثم ذكر الزلازل التي حدثت في ديار الإسلام منذ ظهوره إلى بداية القرن العاشر.

* ترجم مختصراً إلى اللغة الإنجليزية سنة ١٨٤٣هـ، وهي من عمل سبرانكر اعتمد فيها على نسخة مخطوطة محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس، رقم (٤٦٥٩).

* أعاد ترجمته إلى الإنجليزية السيد امبراسي سنة ١٩٦١م معتمداً على مخطوطة المتحف البريطاني.

* صدرت له طبعة محقّقة بالمغرب بتحقيق الدكتور عبد اللطيف السعداتي، وقدّم لها الأستاذ محمد الفاسي منوّهاً بالكتاب، ومعرّفاً بقيمته.

* وحققه أيضاً عبد الرحمن عبد الجبّار الفريوائي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة.

* * *

٦٣ ـ «الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة»:

* ويسمى: التعظيم والمنّة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنّة».

* طبع بحيدرآباد عام ١٣١٧هـ.

* وفي فهرس دليل مخطوطات السّيوطيّ ورد بالتسمية الآتية: «التعظيم والمنّة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنّة».

* مخطوطاته:

١ ـ برلين، رقم (٢٧٣٠).

٢ ـ المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء (مجموع).

٣ ـ الخزانة التيمورية.

٤ ـ مكتبة الاسكوريال.

* طبع بحيدرآباد سنة ١٣١٧هـ.

* * *

٦٤ ـ «المسلسلات الكبرى»:

* ذكر صاحب كشف الظنون أنها خمسة وثمانون حديثاً[1].

* والحديث المسلسل مصطلح من مصطلحات علم الحديث.

* منه نسخة في مكتبة برلين برقم (١٦١٩/٨).

* * *

٦٥ ـ «جياد المسلسلات»:

* في فهرس مكتبة الجلال: ١٧١، ذكر أن عدّة ما فيه من المسلسلات ٢٣ حديثاً.

* يوجد مخطوطاً بدار الكتب المصرية.

* * *

---

(١) انظر: مكتبة الجلال السيوطي: ٣١٨.

٦٦ ــ «أبواب السعادة في أسباب الشهادة»:

* ذكر في مكتبة الجلال السيوطي أنه أتى فيه بالأحاديث الواردة في الشهادة.

* مخطوطاته:

١ ــ مخطوطة بدار الكتب المصرية، ضمن مجموع تمت كتابته سنة ١٢٨٢هـ.

٢ ــ مخطوطتان بالتيمورية كتبت إحداهما سنة ١٠٨٧هـ.

٣ ــ مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع.

* ويضيف فهرس دليل السيوطي إلى مخطوطة دار الكتب المصرية (٥٣٠، ٣٢ مجاميع م، ٢١٢ مجاميع، ٥٣٠ مجاميع).

* وكذلك يضيف المخطوطات الآتية:

٥ ــ برلين، برقم (١٤٠٦).

٦ ــ جامعة الرياض.

٧ ــ الظاهرية، رقم (٦٦١٩).

٨ ــ الخزانة العامة بالرباط مجموع (١٠٣٧/٣٦).

٩ ــ مكتبة الأوقاف العامة في بغداد (حسن الانكرلي، رقم ١٢٤/٢٣٨٧٨).

* طبع بالهند.

* * *

٦٧ ـ «أخبار الملائكة»:

* سقط ذكره من سجل «مكتبة الجلال السيوطي» ولم يشر فهرس «دليل مخطوطات السيوطي» إلى أماكن وجوده، ولهذا يحتمل أن يكون مفقوداً.

* * *

٦٨ ـ «الثغور الباسمة في مناقب السيدة آمنة»:

* مخطوطاته:

١ ـ دار الكتب المصرية، رقم (١٢٣ مجاميع، ٧٤٢ مجاميع).

٢ ـ الظاهرية، رقم (١١٣١ حديث).

٣ ـ برلين، رقم (٩٦٨٥، ٩٦٨٦).

* * *

٦٩ ـ «مناهج الصفا في تخريج أحاديث الشفا»:

* هي الأحاديث التي خرّجها من كتاب «الشفا في تعريف حقوق المصطفى».

* طبع بمصر مع «الشفا»، سنة ١٢٧٦هـ.

* * *

٧٠ ـ «الأساس في مناقب بني العبّاس»:

* مخطوطاته كما وردت في: «دليل مخطوطات السّيوطي»:

١ ـ برلين، رقم (١٥١٨).

٢ ـ دار الكتب المصرية، رقم (١٤٢٠، ٤١٦ ـ مجاميع)، جامعة الرياض، فيلم ٧.

٣ ـ مكتبة عارف حكمت، رقم (١٠٨ مجاميع).

٤ ـ الخزانة العامة بالرباط، مجموع ١٠٢٧/١١.

* * *

٧١ ـ «درّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة»:

* مخطوطاته كما وردت في «دليل مخطوطات السيوطي»:

١ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٣٩م).

٢ ـ شيستر بيتي، رقم (٤٧١٣).

٣ ـ مخطوطات جامعة الكويت.

* طبع بمصر ضمن كتاب «حسن المحاضرة» سنة ١٣٢١هـ.

* * *

٧٢ ـ «زوائد شعب الإيمان للبيهقي»:

* في فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي» بزيادة: «على الكتب الستة»، وعلى الرغم من الإشارة إليه في الفهرسين، فأنه لم يشر إلى أمكنة وجوده مما يحتمل أن يكون مفقوداً.

* * *

٧٣ ـ «لمّ الأطراف، وضمّ الأطراف»:

* فهرسا مؤلفات السيوطي لم يشر إلى أماكن وجوده، ولذا يحتمل أن يكون مفقوداً.

* * *

٧٤ ـ «أطراف الأشراف بالإشراف على الأطراف»:

* على الرغم من الإشارة إليه في فهرس مؤلفات السّيوطيّ، إلاّ أنهما لم يشيرا إلى أماكن وجوده، ولهذا يحتمل أن يكون مفقوداً.

* * *

٧٥ ـ «جامع المسانيد»:

* أشار إليه الفهرسان، ومع ذلك لم يشيرا إلى أماكن وجوده، ولعله مفقود.

* * *

٧٦ ــ «الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة»:

* في فهرس مكتبة الجلال السيوطي ورد النص الآتي: «تحدّث عنه [أي السّيوطيّ] في: «الأزهار المتناثرة»، فقال بالنص التام:

«وبعد، فأني جمعت كتاباً سمّيته: «الفوائد المتكاثرة، في الأخبار المتواترة» أوردنا فيه ما رواه من الصحابة عشرة فصاعداً، مستوعباً طرق كل حديث وألفاظه، فجاء كتاباً حافلاً لم أسبق إلى مثله، إلاّ أنه لكثرة ما فيه من الأسانيد... رأيت تجريد مقاصده في هذه الكرّاسة ليعمّ نفعه».

* ويبدو أنّ الكتاب مفقود، لأن الفهرسين لم يشيرا إلى أماكن وجوده.

* * *

٧٧ ــ «الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة»:

* طُبع بدار التأليف بمصر مع كتاب: «إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة»، وله عدّة نسخ مخطوطة موزعة في المكتبات العالمية. انظر: فهرس «دليل مخطوطات السّيوطيّ»، ص ٥١.

* وفي فهرس مكتبة الجلال السّيوطيّ تعريف بهذا الكتاب حيث بيّن أنّ هذا الكتاب له علاقة بالكتاب السابق، وهو: «الفوائد المتكاثرة»، لأن الكتاب الأول اقتصر فيه على ما رواه من الصحابة عشرة فصاعداً..

وفي الكتاب الثاني يذكر الحديث وعدة من رواه من الصحابة مقروناً بالعزو إلى من خرّجه من الأئمة المشهورين. ورتّبه على الأبواب كاملة، وقد اشتمل على عشرة أحاديث ومائة حديث.

* وتمّ هذا الكتاب في يوم الأربعاء ١٤ من جمادى الأولى سنة ٨٨١هـ.

* انظر مخطوطاته في: «فهرس دليل مخطوطات السيوطي»، ص ٥١.

* * *

٧٨ ـ «تخريج أحاديث الدرّة الفاخرة»:

* سقط من سجلّ: «دليل مخطوطات السّيوطيّ».

* والدرّة الفاخرة في كشف علوم الآخرة»، كتاب لأبي حامد الغزالي.

* تحدّث السّيوطيّ عنه في «الحاوي»، فقال: «وقد أمليت عليها الدرّة الفاخرة تخريجاً في خمسين مجلساً في سنة أربع وسبعين، حرّرت فيها ما وقع فيها من الأحاديث والآثار، وبيّنت ما له أصل، وما لا أصل له»[1]، ويبدو أنّ الكتاب مفقود لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٧٩ ـ «تخريج أحاديث الكفاية، يسمّى «تجريدالعناية»:

* في فهرس «دليل مخطوطات السّيوطيّ»، سجّل باسم: «تجريد العناية في تخريج أحاديث الكفاية».

* وكتب محرّفاً في حسن المحاضرة: «تجربة» مكان «تجريد».

* والكفاية كتاب في فروع الشافعية، لأبي حامد محمد بن إبراهيم السهيليّ.

---

(١) انظر: مكتبة الجلال السيوطي: ١٢٧.

* والفهرسان لم يشيرا إلى أماكن وجود هذا الكتاب، مما يدلّ على فقدانه.

* * *

٨٠ ـ **«الحصر والإشاعة لأشراط السّاعة»:**

* يبدو أنّ الكتاب مفقود، لأن الفهرسين أشارا إليه ولم يذكرا مكان وجوده.

* * *

٨١ ـ **«الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»:**

* طُبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٣٧م.

* طُبع أيضاً على هامش الفتاوي الحديثية، لابن حجر، بالمطبعة الميمنية.

* وله عدّة نسخ مخطوطة في المكتبات العالمية سجّلها فهرس: «دليل مخطوطات السّيوطيّ»، ص ٦٩، ٧٠.

* في فهرس «مكتبة الجلال السّيوطيّ» بعض النصوص من هذا الكتاب، وهي تشير إلى أنه رتّبه على حروف المعجم ليكون أسهل في الكشف.

* كذلك أشار السيوطيّ في مؤلفه إلى أنه فرغ من تأليفه في يوم السبت خامس رجب سنة ٨٨٠هـ.

* * *

٨٢ ـ **«زوائد الرجال على تهذيب الكمال»:**

* تهذيب الكمال يعني به الكتاب الذي ألّفه الحافظ جمال الدين يوسف بن الزكيّ المزي، المتوفى سنة ٦٠٠هـ[1].

---

(١) انظر: مكتبة الجلال السيوطي: ٢١٧.

* ويظهر أن الكتاب مفقود، لأن الفهرسين لم يشيرا إلى أماكن وجوده.

* * *

٨٣ ـ «الدرّ المنظّم في الاسم المعظّم»:

* طُبع بمطبعة دار الإرشاد بالقاهرة.

* ودار الإرشاد للشؤون الجامعية بسوريا سنة ١٩٧٩م.

* ونسخة المخطوطة كثيرة، وقد سجلها: فهرس «دليل مخطوطات السّيوطيّ»، ص ١٥٧.

* وقد طُبع هذا الكتاب ضمن الرسائل التي ضمّها كتاب: «الحاوي»، للسيوطي، انظر الجزء الثاني من «الحاوي»، ص ٣٩٤.

* * *

٨٤ ـ «جزء في الصلاة على النبي ﷺ»:

* سقط من فهرس: «دليل مخطوطات السّيوطيّ»، ولم يشر الفهرس الثاني إلى أماكن وجوده، ولم تُشِر إليه كتب الفهارس الأخرى، مما يدلّ على أنه مفقود.

* * *

٨٥ ـ «من عاش من الصحابة مائة وعشرين»:

* سقط من سجلّ «مكتبة الجلال السيوطي»، ولم يشر فهرس «مخطوطات السيوطي» إلى أماكن وجوده، مما يدلّ على أنه مفقود.

* * *

٨٦ ـ «جزء في أسماء المدلّسين»:

* سقط من سجلّ : «دليل مخطوطات السيوطي».

* وقد ذكره فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» على أنّ الـذي نسبه إلى السيوطي هو السّيوطيّ نفسه في «حسن المحـاضرة» وليس لـه ذكر في كتب الفهارس الأخرى، والكتاب على هذا مفقود.

* * *

٨٧ ـ «اللّمع في أسماء من وضع»:

* نسبته إلى السيوطي كتب الفهرسة المشهورة.

* ولم يرد في الفهرسين أية إشارة إلى أمـاكن وجوده، ممـا يدلّ على فقدانه.

* * *

٨٨ ـ «الأربعون المتباينة»:

* الكتاب مفقود، لأن فهـرس مؤلفات السيـوطي لم يشير إلى أمـاكن وجوده، أما كتب الفهرسة التراثية فقد أشارت إليه ونسبته للسيوطي.

* * *

٨٩ ـ «درر البحار في الأحاديث القصار»:

* مخطوطاته:

١ ـ برلين، رقم (١٣٥٦).

٢ ـ المكتبة المحمودية، رقم (٦٥ مجاميـع).

٣ ـ جامعة الرياض، (فيلم ٧، ٨٦).

٤ ـ عارف حكمت، رقم (١٠٨ مجاميـع، ٢٧ ـ حديث).

٥ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٢٣٢٤٠).

٦ ـ الخزانة العامّة بالرباط، رقم (١٠٢٧).

* * *

٩٠ ــ «الرّياضة الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة»:

* هو مختصر كتاب: «المرقاة العليّة في شرح الأسماء النبويّة».

* يوجد مخطوطاً ببرلين، رقم (٩٥١٤).

* * *

٩١ ــ «الآية الكبرى في شرح قضية الإسرا»:

* طُبع بمطبعة الترقّي بدمشق سنة ١٣٥٠هـ.

* ومخطوطاته سجّلها فهرس دليل مخطوطات السّيوطيّ مبيّناً أمكنة وجودها وأرقامها في هذه الأمكنة. انظر ص ١٤٠.

* * *

٩٢ ــ «أربعون حديثاً من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر»:

* يوجد مخطوطاً بدار الكتب المصرية برقم (٣٢ مجاميع، ٢٣ مجاميع م).

* * *

٩٣ ــ «فهرس المرويات»:

* سقط من فهرس «دليل مخطوطات السّيوطي».

* ولم يشر فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» إلى أماكن وجوده، مما يدلّ على أنه مفقود.

* * *

٩٤ ــ «بغية الرّائد في الذيل على مجمع الزوائد»:

* في حسن المحاضرة: «الرائد» بالراء، ونقله بالراء أيضاً سجل مكتبة الجلال السيوطي.

* وفي «دليل مخطوطات السّيوطيّ» بالزاي، وفي رأيي أن الموقع للراء، ولو كانت الراء زاياً لقيل: «بقية الزائد على مجمع الزوائد».

* هذا الكتاب كما ذكر الفهرسان لم يتمه السّيوطي إذ عاجلته المنية قبل أن يفرغ من تدوينه.

* وليس في الفهرسين إشارة إلى أماكن وجوده، ممايدلّ على أنه مفقود.

* * *

٩٥ ـ «أزهار الآكام في أخبار الأحكام»:

* يوجد مخطوطاً ببرلين، رقم (٤٨١٠/٣٥)[١].

* ويذكر مؤلف فهرس مكتبة الجلال السيوطي أن الكتاب يعتبر ضائعاً أو في حكم الضائع[٢].

* وهو ليس ضائعاً بعد ثبات أنه ببرلين.

* * *

٩٦ ـ «الهبة السنيّة في الهيئة السنيّة»:

* في «حسن المحاضرة»: الهبة في أول العنوان مكان: الهيئة التي وردت في: دليل فهرس مخطوطات السّيوطيّ.

* أورد في هذا الكتاب ما جاء في خلق السموات والأرض، والماء والرياح وغيرها من الآثار.

* مخطوطاته:

١ ـ جامعة كمبردج، رقم (١/١٢٢٣).

٢ ـ برلين، برقم (٥٦٩٧).

---

(١) انظر: دليل فهرس مخطوطات السيوطي: ٩٩.

(٢) فهرس مكتبة الجلال السيوطي: ٦٢.

٣ ــ الظاهرية ١١٦٥، فهرس الحديث مجموع ١٢٦، عام ٦٦١٩، ٨٥٨١، ٥٠١٦، ٨٧٣٧، ٣٨٦١.

٤ ــ جامعة الرياض، رقم (١١٨م، ٢٢٧٥، ٢٨١٠).

٥ ــ عارف حكمت بالمدينة، رقم (١٠٨ مجاميع).

٦ ــ شيستر بيتي، رقم (٤٢٥٠، ٥٤٩١، ٥٥٠٠).

٧ ــ مخطوطات جامعة الكويت، رقم (٢٧٠٢، ٧٥١، ٣٩٩٧، ٣٩٨٨).

٨ ــ الخزانة العامّة بالرباط، رقم (مجموع ١٠٠١).

٩ ــ مكتبة بشير آغا باستانبول، رقم (مجموع ٦٥٥).

١٠ ــ المكتبة الغربيّة بالجامع الكبير بصنعاء، رقم (مجموع ٢٥٩).

١١ ــ دار الكتب المصرية، رقم (٥٢٨، ٥٣٠، ١٦٥١، ١٤٣٣، ١٥٨٠، ١٠ مجاميع، ١٠٢ مجاميع، ١٨٥م مجاميع).

١٢ ــ المتحف البريطاني، الذيل، رقم (١٢٢٦، ١٢٥٠ مجموع).

١٣ ــ الخزانة التيمورية.

* * *

٩٧ ــ «تخريج أحاديث شرح العقائد»:

* يضيف إلى هذا العنوان فهرس «دليل مخطوطات السيوطي» كلمة: النسفيّة.

* العقائد النسفيّة متن الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي، المتوفى سنة ٥٣٧هـ.

* مخطوطاته:

١ ــ الظاهرية، رقم (١١٢٥ حديث).

٢ ـ مكتبة الرّباط ـ مصوّرات مكتبة الشيخ صبحي السامرائي، رقم (٢٩).

٣ ـ دار الكتب المصرية.

* * *

٩٨ ـ «فضل الجَلَد»:

* في الفهارس الأخرى: «فضل الجلَد عند فقد الولَد».

* يوجد في مكتبة التيجاني الماحي بجامعة الخرطوم.

* ويضيف فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» أنه يوجد مخطوطاً أيضاً بالتيمورية ودار الكتب المصرية.

* * *

٩٩ ـ «الكلام على حديث ابن عباس: «احفظ الله يحفظك» هو تصدير ألقيته لمّا ولّيت درس الحديث بالشيخونيّة»:

* انفرد بذكره «حسن المحاضرة» فقط، وليس له ذكر في الفهارس الأخرى، مما يدلّ على أنه مفقود.

* * *

١٠٠ ـ «الأربعون حديثاً في فضل الجهاد»

* وقد فرغ منها عام ٨٨٢هـ.

* مخطوطاته:

١ ـ الخزانة التيمورية.

٢ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٦١٦ مجاميع).

٣ ـ جامعة الإمارات، رقم (٢٢٣ ـ ٢/٣).

* * *

١٠١ ــ «أربعون حديثاً في رفع اليدين في الدعاء»:

* الكتاب مفقود، فلم يشر الفهرسان إلى أماكن وجوده.

* * *

١٠٢ ــ «التعريف بآداب التأليف»:

* طبع بالقاهرة سنة ١٩٧٠م، تحقيق الدكتور عبد الصبور مرزوق.

* * *

١٠٣ ــ «العشاريات»:

* في فهرس: «مكتبة الجلال السيوطي»: «تحدّث عنه حاجي خليفة في الكشف قائلاً بالنص الحرفي التام:

«هي ثلاثة أحاديث خرّجها جلال الدين السيوطي، وجدت في رحلته بنواحي دمياط، قال: «اعتنى أهل الحديث بتخريجها، فخرجوا الثلاثيات، ثم الرباعيات، ثم الخماسيات، ثم السداسيات، إلى العشاريات...»، إلى أن يقول: «وقد فحصت فوقع لي أحاديث يسيرة عشارية»[1].

* مخطوطاته:

١ ــ الظاهرية، رقم (١١٥١ حديث).

٢ ــ دار الكتب المصرية، رقم (١٠٢م مجاميع).

* * *

١٠٤ ــ «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه، فقد عرف ربّه»:

* طبع ضمن «الحاوي للفتاوي».

---

(١) مكتبة الجلال السيوطي: ٢٥٤.

* وله مخطوطات متعدّدة في فهرس «دليل مخطوطات السيوطي».

* * *

١٠٥ ــ «كشف النقاب عن الألقاب»:

* يبدو أنه ضائع أو مفقود، لأنه على الرغم من ذكره في كتب الفهارس، فإن الفهرسين لم يشيرا إلى أماكن وجوده.

* * *

١٠٦ ــ «نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير»:

* والشرح الكبير هو شرح الرافعي الكبير على وجيز الغزالي في فقه الشافعي.

* طُبع.. فقد ذكر في «فهرس الفهارس» أنه مطبوع.

* وتوجد منه نسخة مخطوطة في برلين، رقم (١٣٨٣/ ٥٠، ١٢/٤٤٧١).

* * *

١٠٧ ــ «من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة»:

* مخطوطاته:

١ ــ بالخزانة العامة بالرباط.

٢ ــ مكتبة جامعة الكويت، رقم (٣٤٠ مجموع / ٨).

* * *

١٠٨ ــ «ذمّ زيارة الأمراء»:

= مخطوط ببرلين، رقم (٥٦٤٤/٤١).

* * *

١٠٩ ـ «زوائد نوادر الأصول للحكيم الترمذي»:

* يبدو أنه ضائع أو مفقود، فلا توجد أدنى إشارة في الفهرسين المعروفين إلى أماكن وجوده.

* * *

١١٠ ـ «تخريج أحاديث الصحاح، يسمى فلق الصباح»:

* وهي الأحاديث المخرّجة من كتاب صحاح اللغة، للجوهري.

* توجد منه نسخة ببرلين، رقم (٦٩٤٩/١٠).

* * *

١١١ ـ «ذمّ المكس»:

* مخطوطاته:

١ ـ دار الكتب المصرية، رقم (١٤١٦).

٢ ـ مكتبة شيستر بيتي، رقم (٥٥٠٠).

٣ ـ مخطوطات جامعة الكويت، رقم (٣٧٩٧).

٤ ـ برلين، رقم (٥٦٢٠).

٥ ـ الخزانة التيمورية.

* * *

١١٢ ـ «آداب الملوك»:

* ذكر السّيوطيّ، فقال: «وقد ألّفت كتاباً في آداب الملوك مَن طالع ما فيه من الأحاديث والآثار علم أن غالب أمور بيت المال جارية على غير القانون الشرعيّ».

* يوجد مخطوطاً في برلين، رقم (٥٦٤٤/٢٨).

* وانظر «فهرس مؤلفات السيوطي».

* * *

ثالثاً:

فنّ الفقه وتعلّقاته

١١٣ ـ «الأزهار الغضّة في حواشي الرّوضة»:

* الرّوضة كتاب في الفروع، لمحيي الدين أبي زكريا، يحيى بن شرف النوويّ.

* وفي «دليل مخطوطات السّيوطي»: «الأزهار الفضّة»، بالفاء، تحريف مطبعي.

* وفي «دليل مخطوطات السيوطي» توجد منه نسخة ببرلين، رقم (٦/٤٤٧٦، ١١٤/٤٦٦٣).

* * *

١١٤ ـ «الحواشي الصّغرى»:

* سقط من فهرس «مكتبة الجلال السيوطي»، ولم يرد إلاّ في «حسن المحاضرة»، حيث لم تُشر إليه كتب الفهارس، ولعلّه مفقود.

* * *

١١٥ ـ «مختصر الروضة»:

* سقط من فهرس : «دليل مخطوطات السيوطي»، ولم يرد له ذكر إلاّ في «حسن المحاضرة».

* * *

١١٦ ـ «مختصر التنبيه، يسمى: «الوافي»:

* التنبيه، كتاب في فروع الشافعية، تأليف أبي إسحاق الشيرازي، ونصّ حاجي خليفة على أنّ شرح الشيخ السّيوطي هو شرح ممزوج، سمّاه: «الوافي»، لكنه لم يكمّله.

* توجد منه نسخة ببرلين، رقم (٤٤٦٩/٢٨).

* * *

١١٧ ـ «شرح التنبيه»:

* ليس له ذكر إلاّ في «حسن المحاضرة»، ولعلّه مفقود.

* * *

١١٨ ـ «الأشباه والنظائر»:

* طُبع عدّة طبعات.

* طُبع بحيدرآباد سنة ١٣١٦هـ، وبمكة المكرمة سنة ١٣٣١هـ.

* وبمطبعة البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٩م، ومطبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٣٥٩هـ، ودار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ لبنان، سنة ١٩٨٤م.

* وله عدّة نُسخ مخطوطة أشار إليها فهرس «دليل مخطوطات السّيوطي».

* * *

١١٩ ـ «اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق»:

* على الرغم من الإشارة إليه في كتب الفهارس، إلاّ أن الفهرسين لم يشيرا إلى أماكن وجوده، ويحتمل أن يكون مفقوداً.

* * *

١٢٠ ـ «نظم الرّوضة، يسمى: الخلاصة»:

* في «فهرس مكتبة الجلال السيوطي»، ص ١٨٤ أنّ: الخلاصة نظم لكتاب الروضة في الفروع، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، فمن أبياتها التي نظمها في المواضع التي يستحبّ فيها الوضوء قوله:

ويندب الوضوء للقراءة
والعلم شرعيّاً وللرواية
والسعي والوقوف والزياره
والنوم والتأذين والإقامة

* ويوجد في مكتبة برلين مخطوطاً، رقم (١٨/٤٤٧٦).

* * *

١٢١ ـ «دفع الخصاصة»:

* في فهارس المخطوطات سمّي: «رفع الخصاصة في شرح الخلاصة»، والخلاصة هي النظم الذي نظم به كتاب الروضة السابق.

* والكتاب مفقود، لأنه لم يشر إلى أماكن وجوده.

* * *

١٢٢ ـ «الورقات المقدّمة»:

* لم يرد ذكره إلّا في «حسن المحاضرة» فقط.

* * *

١٢٣ ـ «شرح الروض»

* للنووي، في الفروع.

* الرّوض اختصار لكتاب: «الرّوضة في فروع الشافعية»، للشيخ محيي الدين النووي.

* يبدو أنه مفقود، لأن الفهرسين لم يُشيرا إلى أماكن وجوده.

* * *

١٢٤ ـ «حاشية على القطعة للأسنوي»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٢٥ ـ «العذب السلسل في تصحيح الخلاف المرسل» في الروضة:

* منه نسخة ببرلين، رقم (١٤٤٧٦/١٠).

* * *

١٢٦ ـ «جمع الجوامع»:

* طُبع بدار النصر للطباعة، مصر سنة ١٩٨١م.

* وطُبع أيضاً بمجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٧١ ـ ١٩٧٥م.

* له عدّة نسخ مخطوطة. انظر: «دليل مخطوطات السيوطي»، ص ٦٦.

١٢٧ ـ «الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع»:

* وهو حاشية على الروضة في الفروع.

* منه نسخة مخطوطة ببرلين، رقم (٤٤٧٦/١٠).

* * *

١٢٨ ـ «مختصر الخادم، يسمى: تحصين الخادم»:

* وهو مختصر كتاب: خادم الرافعي والرّوضة في الفروع.

* وسقط من فهرس: «مكتبة الجلال السيوطي».
* والكتاب مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٢٩ ـ «تشنيف الأسماع إلى أماكن الإجماع»:
* ليس له وجود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٣٠ ـ «شرح التدريب»:
* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٣١ ـ «الكافي» في زوائد المهذّب على الوافي:
* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٣٢ ـ «الجامع في الفرائض»:
* منه نسخة في برلين، رقم (٤٧٦٠/٣٨).

* * *

١٣٣ ـ «شرح الرحبية في الفرائض»:
* الرحبيّة أرجوزة في الفرائض من مائة وأربعة وسبعين بيتاً.
* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٣٤ ـ «مختصر الأحكام السلطانية للماوردي»:
* سقط من فهرس: «دليل مخطوطات السيوطيّ».

* لم يشر إلى أمكنة وجوده فهرس: «مكتبة الجلال السيوطي»، مما يرجح أنه مفقود.

* * *

مسائل مخصوصة فقهيّة

الأجزاء المفردة في مسائل مخصوصة على ترتيب الأبواب

١٣٥ ـ «الظفر بقلم الظفر»:

* مخطوطاته:

١ ـ برلين، رقم (٥٤٣٨).

٢ ـ الظاهرية، رقم (١١٥٠ حديث).

٣ ـ جامعة الرياض، (فيلم ٧).

٤ ـ عارف حكمت بالمدينة، رقم (١٠٨ مجاميع).

٥ ـ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس، رقم (١٨٠٥٦ مجموع).

٦ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٣٢ مجاميع).

٧ ـ الخزانة التيمورية.

* * *

١٣٦ ـ «الاقتناص في مسألة النماص»:

* في «حسن المحاضرة»: «التماص» بالتاء، تحريف.

* وقد ذكر في مكتبة الجلال السيوطي معنى النّماص، وهو في اللغة نتف الشعر، والنامصة التي تزيّن النساء بالنمص، والمتنمّصة التي تتزيّن به، والأداة التي يفعل بها ذلك هي المنماص.

* وفي الحديث أنّ الرسول ـ عليه السلام ـ لَعَن النامصة والمتنمّصة[1].

* وفي «دليل مخطوطات السيوطي» ورد بلفظ «التماص» بالتاء، ص ٢٦٢، وهو تحريف مطبعي.

* والكتاب مفقود، فعلى الرغم من الإشارة إليه في كتب الفهارس إلاّ أنّ الفهرسين لم يشيرا إلى مكان وجوده.

* * *

١٣٧ ـ «المستطرفة في أحكام دخول الحشفة»:

* والمستطرفة، كما ذكر في فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي»، هي قصيدة لابن العليف، شرحها السيوطي.

* مخطوطاتها:

١ ـ ليدن، رقم (٢٧/٤٧٤).

٢ ـ مخطوطات الأوقاف العراقية، رقم (٢١٧٥، ٢٩٩٢ مجاميع).

* * *

١٣٨ ـ «السلالة في تحقيق المقرّ والاستحالة»:

* ورد في «حسن المحاضرة» باسم: «السلالة في تحقيق المقرّ والاستحالة»

* وورد في فهرس مخطوطات السيوطي: «... المقرر والاستحالة»، بزيادة راء، والكتاب مفقود، فليس لأمكنة وجوده إشارة في الفهرسين.

* * *

---

(١) انظر صفحة ٨٧.

١٣٩ ــ «الروض الأريض في طهر المحيض»:

* مخطوطاته:

١ ــ برلين، رقم (١٩/٥٠٢٩).

٢ ــ الخزانة التيمورية.

* * *

١٤٠ ــ «بذل العسجد لسؤال المسجد»:

* موضوع هذا الكتاب: حكم السؤال في المسجد.

* مخطوطاته:

١ ــ الظاهرية، رقم (مجموع ١٤٧ عام ٣٨٨٠).

٢ ــ جامعة الكويت، رقم (٧٤٦ مجموع ٨).

٣ ــ جامعة الرياض، (فيلم ٧).

٤ ــ مكتبة عارف حكمت، رقم (١٠٨ مجاميع).

٥ ــ دار الكتب المصرية، رقم (١٥٦١ مجاميع، ٣٢، مجاميع، ٤١٦ مجاميع).

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤١ ــ «الجواب الجزم على حديث التكبير جزم»:

* موضوعه: التعليق على حديث: «التكبير جزم»، أي النطق بالتكبير مجزوماً، هل هذا الحديث ثابت أم لا؟

* رسالة في ورقة أجابت عن مسائل هذا السائل.

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤٢ ـ «الفذاذة في تحقيق محل الاستعاذة»:

* طُبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤٣ ـ «ميزان المعدلة في شأن البسملة»:

* مخطوطاته:

١ ـ من مخطوطات الأوقاف العراقية، رقم (٤٩٢).

٢ ـ الخزانة التيمورية.

* * *

١٤٤ ـ «جزء في صلاة الضحى»:

* مخطوطاته:

١ ـ من مخطوطات الأوقاف العراقية، رقم (٢٠٦٨، ١٣٧٦٧/٥ مجاميع).

٢ ـ الخزانة التيمورية.

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤٥ ـ «المصابيح في صلاة التراويح»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* وله مخطوطات عدّة. انظر فهرس «دليل مخطوطات السيوطيّ»، ص ١٣٨.

* * *

١٤٦ ـ «بسط الكف في إتمام الصفّ»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤٧ ـ «اللمعة في تحقيق الركعة لإدراك الجمعة»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤٨ ـ «وصول الأماني بأصول التّهاني»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٤٩ ـ «بلغة المحتاج في مناسك الحاج»:

* من مخطوطات برلين، رقم (١٩/٤٠٨٢).

* * *

١٥٠ ـ «السلاف في التفضيل بين الصلاة والطواف»:

* في «حسن المحاضرة»: «التفصيل»، بالصاد.
* سقط من مخطوطات: «دليل مخطوطات السيوطي».
* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٥١ ـ «شدّ الأثواب في سدّ الأبواب في المسجد النبوي»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٥٢ ـ «قطع المجادلة عند تغير المعاملة»:

* موضوعه، كما ذكر السيوطي، هو: اختلاف الخصوم في المطالبة بعد المناداة على الفلوس.. وهل يطالب من عليه الدين بقيمته يوم اللزوم أو يوم المطالبة؟.

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي: ١/٩٥.

* * *

١٥٣ ـ «إزالة الوهن عن مسألة الرهن»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى مكانه.

* * *

١٥٤ ـ «بذل الهمة في طلب براءة الذمّة»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٥٥ ـ «الإنصاف في تمييز الأوقاف»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٥٦ ـ «أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب»:

* هو تلخيص لكتاب: كفاية اللبيب في خصائص الحبيب.

* مخطوطاته:

١ ـ جامعة الإمارات، رقم (١١٦ ـ ٤/٥).

٢ ـ الأحمدية بتونس، رقم (١٥٩٤).

٣ ـ مكتبة حسني عبد الوهاب، رقم (١٨٢٥٠).

٤ ـ مخطوطات الموصل ـ مدرسة الخياط ـ الأحمدية، مجموع ٢٥/١٦.

٥ ـ مخطوطات الموصل، الأحمدية مجموع ٦٣/٢٤، رقم (٢١).

٦ ـ برلين، رقم (٢٥٧٧).

٧ ـ الظاهرية ١١٢١ حديث عام ٦٦١٩، ٣٨٦١، ٦٢٧٣.

٨ ـ الخزانة العامة بالرّباط، رقم (٨/١٠٣٢).

٩ ـ جامعة الرياض، رقم (٨١١م)، (فيلم ١٥، ٧٣، ٧).
١٠ ـ مكتبة عارف حكمت بالمدينة، ١٤٠ مجاميع، ١٧٤ مجاميع، ١٠٨ مجاميع.
١١ ـ مكتبة الأوقاف العامة، مجموع ٥٩٣٠ ـ حسن الأنكرلي ١٣٤/١٣٧٧٨.
١٢ ـ المسجد الأحمدي بطنطا، ص ٤٥، عام ٢٧٢.
١٣ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٢٣٢٠٠، ٢١٥٦٥، ٤٧، ١١٢٧ مجاميع، ١٦٥١ مجاميع، ١٨٨٦، ١٢٤م، ١٤٣٨، ١٥٨٩، ١٥٩٠، ١٨٨٩، مجاميع ٣٢، ٧٧، ١٨٢، ٣٥٦).
١٤ ـ المتحف البريطاني، الذيل (١٢٤٦).
١٥ ـ شيستر بيتي، رقم (٣١٦١، ٥١١٢).
١٦ ـ مخطوطات جامعة الكويت، رقم (١٦٦٠، ٣٦٠٩، ٧٥١ مجموع، ١٣٩/٢ مجموع / ٢٠).
١٧ ـ جون ريلاند، رقم (٣٠٧).

* * *

١٥٧ ـ «الزهر الباسم فيما يزوّج فيه الحاكم»:

* في الأشباه والنظائر الفقهية التي ألّفها السّيوطيّ تحدّث عن «الصور التي يزوّج فيها الحاكم»، وختمها بقوله: «وقد ألفت في هذه الصورة كراسة سميتها؛ الزهر الباسم فيما يزوّج فيه الحاكم»[1].

* مخطوطاته:

١ ـ الظاهرية، رقم (٥٨٩٦).

---

(١) انظر: الأشباه والنظائر الفقهية: ٥٠٣، ٥٠٤.

٢ ـ دار الكتب المصرية، رقم (١٥١٨، ٣٨٤، ١٨٣ مجاميع، ٢٩٠ مجاميع، ٤١٦ مجاميع).

٣ ـ مخطوطات الأوقاف العراقية، رقم (٢٠٧٤، ١٣٧٦٧/٩ مجاميع عبد الله الجبوري ١/٦١١١).

٤ ـ المكتبة العباسية.

* * *

١٥٨ ـ «القول المضي في الحنث في المضي»:

* في فهرس: «دليل المخطوطات»: القول المغني في الحنث في المعنى، تحريف، صوابه من «الحاوي على الفتاوي»، ص ٢٠٤.

* طبع في «الحاوي على الفتاوي».

* وبدأ بقوله: فقد تكرر السؤال عمّن حلف أنه فعل كذا أو لم يفعله أو كان كذا أو لم يكن ناسياً أو جاهلاً ثم تبين خلاف ذلك، هل يحنث في اليمين أو الطلاق أو لا يحنث فيهما؟

* * *

١٥٩ ـ «القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق»:

* طُبع ضمن الحاوي.

* * *

١٦٠ ـ «فضل الكلام في ذم الكلام»:

* مفقود، فلم يشر إلى أمكنة وجوده الفهرسان.

* * *

١٦١ ـ «جزيل المواهب في اختلاف المذاهب»:

* مخطوطاته:

١ ـ ببرلين، رقم (٢٨٠٩).

٢ ـ المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، رقم (٦٥ مجاميع).

٣ ـ دار الكتب المصرية ٣٠ أصول، ٣٥ مجاميع، ٤١٦ مجاميع، ١٢٣م مجاميع، ٤٦٠ مجاميع.

٤ ـ ليدن، رقم (٤٧٤/٣٥).

٥ ـ مخطوطات الأوقاف العراقية، رقم (ج ٢/٢٤٠٧).

٦ ـ فهرس التيمورية.

٧ ـ الكشاف لخزائن الأوقاف ببغداد، رقم (٧٠٢٠/٤).

* * *

١٦٢ ـ «تقرير الإسناد في تيسير الاجتهاد»:

* حققه الدكتور فؤاد عبد المنعم ـ الاسكندرية ـ دار الدعوة، سنة ١٩٨٤م.

* * *

١٦٣ ـ «رفع منار الدين، وهدم بناء المفسدين»:

* من مخطوطات دار الكتب المصرية، رقم (٩٩٦ ـ فقه شافعي).

* * *

١٦٤ ـ «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء»:

* طبع بالهند ضمن مجموع سنة ١٣١٧هـ بحيدرآباد.

* وطبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٦٥ ــ ذمّ القضاء»:

* مخطوطاته:

١ ــ مخطوط ببرلين، رقم (١٤١٢، ٤٩٥٩/١٤).

٢ ــ دار الكتب المصرية، رقم (١٣٩٠).

* * *

١٦٦ ــ «فصْل الكلام في حكم السّلام»:

* مخطوطاته:

١ ــ مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة، رقم (٣٤ مجاميع).

٢ ــ برلين، رقم ٥٥٩١/٦٦.

* * *

١٦٧ ــ «نتيجة الفكر في الجهر بالذكر»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٦٨ ــ «طيّ اللسان عن ذمّ الطيلسان»:

* صدرت له طبعتان بالهند، وله نسخ مخطوطة متعدّدة موزعة في مكتبة العالم. انظر ص ٢٧٣ من فهرس: «دليل مخطوطات السّيوطيّ».

* * *

١٦٩ ــ «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبيّ والملك»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٧٠ ـ «أدب الفتيا»:

* يوجد مخطوطاً في الخزانة التيمورية، كتب سنة ١١٧٣هـ. . وفي المكتبة الظاهرية، رقم (١١٠٦ حديث).

* * *

١٧١ ـ «إلقام الحجر لمن زكى سباب أبي بكر وعمر»:

* هي رسالة جاء في أولها: «أمّا بعد حمد الله تعالى. . . إلخ، ذكر فيها أنه سمع من بعض المبتدئين أن سابَّ الشيخين تقبل شهادته فنهاه عن ذلك فما أفاد، فكتب نصحاً للمسلمين»[1].

* مخطوطاته:

١ ـ مخطوطة برلين، رقم (٤٩٥٧).

٢ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٣٢ مجاميع، ٤١٦ مجاميع).

٣ ـ مكتبة البلدية بالاسكندرية، رقم (٢٢٧٩/٣ح).

٤ ـ شستر بيتي، رقم (٤٢٩٤/٣).

٥ ـ مخطوطات جامعة الكويت، رقم (٢٧٩١/٣).

٦ ـ مخطوطات الأوقاف العراقية ـ حسن الاتكرلي، رقم (١٠٠٥٧/٤ مجاميع، ١٣٧٧٨/٤ مجاميع، ١٣٧٨٢/٢٣، مجاميع ج ٢/٣٤، ٤٠٣/٣).

٧ ـ الكشاف في خزائن بغداد، رقم (٤٠٣/٣، ١٠٠٢٣/٢، ١٠٠٥٧/٣).

* * *

(١) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٩٠.

١٧٢ ـ **«الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم»:**

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* * *

١٧٣ ـ **«الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة»:**

* طبع: ضمن مجموع عنوانه (رسائل (اثنا عشر) للسيوطي) بالمطبعة المحمدية في لاهور.

* وتوجد منه نسخ مخطوطة موزعة في مكتبات العالم.

* انظر فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي»، ص ٢٤٨.

* * *

١٧٤ ـ **«فتح المغالق من: أنت طالق»:**

* طبع ضمن: الحاوي للفتاوي.

* * *

١٧٥ ـ **«فصل الخطاب في قتل الكلاب»:**

* على الرغم من وجوده في كتب الفهارس، إلاّ أنه لم يشر إلى مكان وجوده، فلعله ضائع أو مفقود.

* * *

١٧٦ ـ **«سيف النظار في الفرق بين الثبوت والإنكار»:**

* وزاد في فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي» عبارة: «على مسند الشافعي أو السيف البتّار».

* والكتاب مفقود لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

رابعاً:

فنّ العربيّة وتعلّقاته

١٧٧ ــ «شرح ألفيّة ابن مالك، يسمّى: البهجة المرضية في شرح الألفية»:

* طبع بمطبعة المدارس بمصر، سنة ١٢٩١هـ.

* طُبع بالمطبعة الخيرية، سنة ١٣١٠هـ.

* طبع بالهند، سنة ١٢٧٤هـ.

* طبع بالقاهرة بمطبعة البابي الحلبي، سنة ١٩٣٧م.

* طبع بتحقيق عبد القادر أحمد عبد القادر ــ كلية الآداب ــ جامعة دمشق.

* طبع بتحقيق صالح سليمان العمير ــ رسالة دكتوراه ــ جامعة الإمام محمد بن سعود، بالرّياض.

* * *

١٧٨ ــ «الفريدة في النحو والتصريف والخط»:

* طبع بالمطبعة الشرفية بمصر سنة ١٣٣٢هـ.

* طُبع محققاً بوزارة الأوقاف العراقية ــ قسم التراث، تحقيق الشيخ عبد الكريم مدراس، بمطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٧م.

* وطُبع محققاً أيضاً بدار الرسالة ببغداد بتحقيق الدكتور نبهان ياسين حسين. ساعدت الجامعة المستنصرية على طبعه.

* * *

١٧٩ ـ «النكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والنزهة»:

* (أي نزهة الطرف)، للميداني.

*مخطوطاته:

١ ـ مخطوطات الموصل ـ المدرسة اليونسيّة، رقم (٩/١٦ ج ٨، ص ٨٤).

٢ ـ الظاهرية، رقم (١٧٩٥، ٥٠٤١، ٨٣١٨، ٥٨٤٨).

٣ ـ جامعة الرياض، رقم (٨٤٥، فيلم ٣٧).

٤ ـ عارف حكمت بالمدينة المنورة، رقم (٢٠٧ نحو).

٥ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٦).

٦ ـ المكتبة الأزهرية بالقاهرة، رقم (٣٠٥، ٦٤٩).

٧ ـ مدرسة الحجيات بالموصل ـ الجلبي، رقم (١١٨).

٨ ـ المسجد الأحمدي بطنطا، خاص ٤٠، عام ٤١.

٩ ـ ليدن، رقم (٢٨٦٩).

١٠ ـ الأحمدية بتونس، رقم (٤١٧٨، ٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١).

١١ ـ أوقاف بغداد، رقم (١٢٢٠، ١٤٢٠).

١٢ ـ ثلاث نسخ بالمكتبة التيمورية.

* * *

١٨٠ ـ «الفتح القريب على مغني اللبيب»:

* مخطوط. دار الكتب المصرية ١١٣٨ ـ نسخة فريدة.

* تحدّث عنه في فاتحة مقدمته لشرح شواهد المغني قائلًا: «وبعد فإن لنا حاشية على مغني اللبيب، لابن هشام مسمّاة بالفتح القريب أودعتها من الفوائد والفرائد، والغرائب والزوائد ما لو رامه أحد غيري

لم يكن له إلى ذلك سبيل، ولا فيه نصيب»[1].

* * *

١٨١ ــ «شرح شواهد المغني»:

* طُبع مذيلاً بتصحيحات وتعليقات الشنقيطي، طبع لجنة التراث العربي، ببيروت.

* طُبع بدار مكتبة الحياة ببيروت.

* طُبع قديماً بالمطبعة البهية، سنة ١٣٢٢هـ.

* * *

١٨٢ ــ «جمع الجوامع شرحه يسمى: همع الهوامع»:

* حقّق الجزء الأول منه د/ عبد العال سالم مكرم، بالاشتراك مع أستاذه المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون.

* وانفرد د/ عبد العال سالم مكرم بتحقيق الأجزاء الخمسة الباقية بالإضافة إلى جزء سابع خاص بفهارس هذا الكتاب.

* وقد حقّق د/ عبد العال سالم مكرم أيضاً الدرر اللوامع على همع الهوامع، تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطي، في سبعة أجزاء متعلقة بشواهد همع الهوامع.

* * *

١٨٣ ــ «شرح الملحة»:

* والملحة هي «ملحة الإعراب» المشهورة، تأليف الحريري، وشرحها السيوطي في ثلاث كراريس شرحاً ممزوجاً كما ذكر كشف الظنون[2].

---

(١) انظر: شرح شواهد المغني (المقدمة).

(٢) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٣٤، ٢٣٥.

* منه نسخة فريدة مخطوطة في دار الكتب المصرية رقم (٣٥ ش).

* * *

١٨٤ ـ «مختصر الملحة»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٨٥ ـ «مختصر الألفية ودقائقها»:

* لم يشر إليه في فهارس المخطوطات القديمة والحديثة، ولم يرد ذكره إلّا في حسن المحاضرة، مما يحتمل أنه مفقود.

* * *

١٨٦ ـ «الأخبار المرويّة في سبب وضع العربيّة»:

* طبع ضمن مجموعة: التحفة البهية والطرفة الشهية، بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢هـ.

* وله مخطوطات مختلفة في مكتبات العالم. انظر ص ١٨٤ من فهرس «دليل مخطوطات السيوطي».

* * *

١٨٧ ـ «المصاعد العليّة في القواعد النحويّة»:

* منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين، رقم (٦٨٤٤/٧٥).

* * *

١٨٨ ـ «الاقتراح في أصول النحو وجدله»:

* نُشر محققاً بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٧٦ بتحقيق د/ أحمد محمد قاسم، المدرس في كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر.

* * *

١٨٩ ــ «رفع السّنة في نصب الزّنة»[١].

* في فهرس: «دليل امخطوطات» ص ١٩٨: «الزينة» بالياء مكان «الزنة»، تحريف.

* انظر مخطوطاته في فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي»، ص ١٩٨.

* وطُبع ضمن الحاوي للفتاوي، ص ٣٥٤.

* * *

١٩٠ ــ «الشمعة المضيئة في علم العربيّة»:

* ذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون» أنه ألّفها في ابتداء حاله، وهي ورقتان في النحو[٢].

* مخطوطاتها:

١ ــ مخطوطة ببرلين، رقم (٦٧٦٩).

٢ ــ جامعة الرياض، رقم (٩٢١).

٣ ــ المكتبة الأزهرية، رقم (٢٢٧٤٩، ٣٤٨٢٣).

٤ ــ دار الكتب المصرية.

* * *

١٩١ ــ «شرح كافية ابن مالك»:

* هذا الشرح مفقود، على الرغم من الإشارة إليه في كتب الفهارس، ولم يشر أحد إلى مكان وجوده.

* * *

---

(١) في قوله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله وبحمده زنة عرشه...

(٢) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٣٧.

١٩٢ ـ «درّة التاج في إعراب مشكل المنهاج»:

* المنهاج هو: «منهاج الطالبين في فروع الشافعية»، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى عام ٦٧٦هـ[١].

* مخطوطاته:

١ ـ دار الكتب المصرية، رقم (٩٢١).

٢ ـ برلين، رقم (٤٥٤٤/٢٠).

٣ ـ جامعة الرياض، (فيلم ٦٠).

٤ ـ عارف حكمت، رقم (١٦٥ ـ نحو).

٥ ـ الظاهرية، رقم (٥٨٩٦).

٦ ـ المسجد الأحمدي بطنطا (خاص ٨٤، عام ١٩٤).

* * *

١٩٣ ـ «مسألة ضربي زيداً قائماً»:

* هو مؤلف ألحق بالأشباه والنظائر النحوية للسّيوطي، وقد قمت بتحقيقه في تسعة أجزاء، نشر دار الرسالة ببيروت.

* هذا وقد سقط هذا المؤلف من سجل فهرس مكتبة الجلال السيوطي.

* * *

١٩٤ ـ «السلسلة الموشحة»:

* على الرغم من إشارة السيوطي إليها في همع الهوامع، وفي مقدمة

---

(١) انظر: مكتبة الجلال السّيوطيّ: ١٨٧.

الأشباه والنظائر النحوية، وإشارة كتب الفهارس إليها فإن الكتاب مفقود لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٩٥ ـ «الشهد في النحو»:

* قصيدة في سبعين بيتاً.

* المخطوط مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

١٩٦ ـ «شذا العرف في إثبات المعنى للحرف»:

* سقط من فهرس: «دليل مخطوطات السيوطيّ».

* ولم يشر إلى أماكن وجوده فهرس «مكتبة الجلال السيوطي، مما يدلّ على أنّ الكتاب مفقود.

* * *

١٩٧ ـ «التوشيح على التوضيح لابن هشام»:

* منه نسخة مخطوطة برلين، رقم (٨/٦٦٤١).

* * *

١٩٨ ـ «السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل»:

* مفقود لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

١٩٩ ـ «حاشية على شرح شذور الذهب»:

* لم يذكر إلاّ في «حسن المحاضرة»، فالكتاب مفقود.

* * *

٢٠٠ ـ «شرح القصيدة الكافية في التصريف»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٠١ ـ «قطر الندى في ورود الهمزة للندا»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٠٢ ـ «شرح تصريف العزى»:

* في فهرس: «دليل مخطوطات السّيوطيّ»: «الغزى» بالغين، تحريف.

* تصريف العزي، تأليف الزنجاني عبد الوهاب بن إبراهيم. وقد شرحه مسعود بن عمر التفتازاني.

* حقّق هذا الشرح د/ عبد العال سالم مكرم وطُبع ونُشر بذات السلاسل في الكويت.

* وشرح هذا الكتاب للسيوطي مفقود، فلم تشر الفهارس إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٠٣ ـ «شرح ضروريّ التصريف لابن مالك»:

* الكتاب مفقود، لعدم إشارة الفهارس إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٠٤ ـ «تعريف الأعجم بحروف المعجم»:

* توجد منه نسخة فريدة ببرلين، رقم (١٤/١٣).

* * *

٢٠٥ ـ «نكت على حرف الشواهد للعينيّ»:

* حرّفت «العيني» : «المغني» في فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي».

* منه نسخة ببرلين، رقم (٦٧٣١/٥).

* ونسخة أخرى بمخطوطات الأوقاف الموصل، مجموع ٢٢/٩٩ ج ٣.

* * *

٢٠٦ ـ «فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد»:

* طُبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* له مخطوطات أشار إليها فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي».

* * *

٢٠٧ ـ «الزند الوريّ في الجواب عن السؤال السكندريّ»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي، ٢/٢٨١.

□ □ □

خامساً:

فنّ الأصول والبيان والتصوّف

٢٠٨ ــ «شرح لمعة الإشراق في الاشتقاق»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٠٩ ــ «الكوكب السّاطع في نظم جمع الجوامع»:

* طبع البسفور، سنة ١٣٣٢هـ.
* له مخطوطات متعددة. انظر فهرس دليل السيوطي، ص ١٢٧.

* * *

٢١٠ ــ «شرح الكوكب الساطع في نظم جمع الجوامع»:

* مخطوطاته:

١ ــ شستر بيتي، رقم (٣٥١٥).

٢ ــ مخطوطات جامعة الكويت، رقم (٢١٩٤).

٣ ــ دار الكتب المصرية، رقم (٢٣٠٧٥).

٤ ــ مخطوطات الأوقاف العراقية ببغداد، ج ١/٢٦٠٩، ١/٤٩٣٤ مجاميع، ١/٧٣٩٠.

٥ ــ نسخة في خزانة سعيد حمزة. انظر مجلة معهد المخطوطات، المجلد ٢، ص ٦٠٨.

٦ ـ الخزانة العامة بالرباط.

٧ ـ خزانة ابن يوسف بمراكش.

* * *

٢١١ ـ «شرح الكوكب الوقّاد في الاعتقاد»:

* الكوكب الوقّاد في الاعتقاد، منظومة لعلم الدين علي بن الصمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣هـ، شرحها السيوطي.

* مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم (١١٨١، ٩٥ مجاميع).

* * *

٢١٢ ـ «نكت على التلخيص يسمّى الإفصاح»:

* تحدّث عنه خليفة في كشف الظنون (٤٧٩) قائلاً إنه: يعني تلخيص المفتاح للقزويني، وتخريج أبياته مرويّة بالإسناد مع ذكر القصيدة.

* والكتاب مفقود، لعدم وجود الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢١٣ ـ «عقود الجمان في المعاني والبيان»:

* طبع بولاق سنة ١٢٩٣هـ.

* طُبع بمكتبة المنهل، بالكويت.

* * *

٢١٤ ـ «شرح عقود الجمان ي المعاني والبيان»:

* طُبع بمطبعة شرف بالقاهرة سنة ١٣٠٢هـ، ومطبعة بولاق سنة ١٢٩٣هـ.

* وطبع البابي الحلبي سنة ١٩٣٩م، مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢١هـ.

* * *

٢١٥ ــ «شرح أبيات تلخيص المفتاح»:

* مخطوط بالأوقاف العراقية، الموصل، (مجموع ٤/٢٢ ج ٣).

* * *

٢١٦ ــ «مختصر المفتاح»:

* سقط من فهرس: «دليل مخطوطات السيوطيّ».

* الكتاب مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده، ولم يشر إليه إلّا في كتاب «حسن المحاضرة» فقط.

* * *

٢١٧ ــ «نكت على حاشية المطوّل لابن الفنريّ»[١]:

* في حسن المحاضرة: (ابن الفنري) بالفاء والنون، وفي فهرس مكتبة السيوطي: «الغفري» بالغين والفاء تحريف.

* الكتاب مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢١٨ ــ «حاشية على المختصر»:

* لم يرد في كتب الفهارس، ووجد فقط في حسن المحاضرة، مما يدلّ على أنه مفقود.

* * *

٢١٩ ــ «البديعية»:

* نصّ عليها في «حسن المحاضرة» السّيوطيّ، ولم تذكرها كتب الفهارس، مما يدلّ على أنها مفقودة.

* * *

(١) ابن الفنري له ترجمة في البغية ١/٩٧.

٢٢٠ ـ «الجمع والتفريق في أنواع البديع»:

* طُبع بالمطبعة المصرية الوهبية سنة ١٢٩٨هـ.

* * *

٢٢١ ـ «النظم البديع في مدح الشفيع»:

* في فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» تعريف بهذا النظم، فقد ورد فيه أن هذا النظم هو بديعيته التي مدح بها الرسول عليه السلام، ووري في مديحها بألقاب البديع، والتي نظمها معارضة لبديعية ابن حجة الحموي. وهي قصيدة من بحر البسيط على رويّ الميم، تنتظم أبياتها من ١٣٣ بيتاً، ومطلعها:

من العقيق ومن تذكار ذي سلم

براعة العين في استهلالها يدم

* طبعت هذه البديعية مع الشرح الذي وضعه عليها ناظمه، والذي يسمّى «الجمع والتفريق» بالمطبعة الوهبية بمصر، سنة ١٢٩٨هـ[١].

* له عدّة مخطوطات أشار إليها فهرس: «دليل مخطوطات السّيوطي»[٢].

* * *

٢٢٢ ـ «تأييد الحقيقة العليّة، وتشييد الطريقة الشاذليّة»:

* طُبع بالمطبعة الإسلامية، بالقاهرة، سنة ١٩٣٤م.

* وله عدة مخطوطات.

* * *

---

(١) انظر مكتبة الجلال السيوطي: ٣٦٩.

(٢) انظر صفحة ٢١٦ من هذا البحث.

٢٢٣ ــ «تشييد الأركان في: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»:

* كتب ردّاً على من أنكر على الغزالي قولته المشهورة: «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان».

* مخطوطاته:

١ ــ شستر بيتي، رقم (٥٥٠٠).

٢ ــ مخطوطات جامعة الكويت، رقم (٣٩٩٧).

٣ ــ دار الكتب المصرية، رقم (١٢).

٤ ــ تيمور ٤٨، ٣٢ مجاميع، ١٢٢ مجاميع م.

* * *

٢٢٤ ــ «درج المعالي في نصرة الغزالي على المنكر المتغالي»:

* طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٦هـ.

* مخطوط في الخزانة التيمورية، وفي الخزانة العامة بالرباط.

* * *

٢٢٥ ــ «الخبر الدالّ على وجوب القطب والأوتاد والنجباء والأبدال»:

* طُبع ضمن الحاوي للفتاوي، ومنه عدّة نسخ مخطوطة.

* انظر ص ٢٢٤، ٢٢٥ من فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي».

* * *

٢٢٦ ــ «مختصر الإحياء»:

* الإحياء، هو كتاب مشهور للغزالي.

* الكتاب مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده في الفهارس.

* * *

٢٢٧ ــ «المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة»:

* طُبع بمصر سنة ١٢٨٥هـ، مع «طرح الدر» للشيخ علي يوسف.

* له عدّة مخطوطات سجّلها فهرس «دليل مخطوطات السيوطيّ»، ص ١٨٣.

* * *

٢٢٨ ـ «النُّقاية في أربعة عشر علماً»:

* زاد في فهرس «مكتبة الجلال السيوطي»: «أو الأصول المهمّة في علوم جمّة».

* هذا الكتاب أودع فيه السيوطي خلاصة أربعة عشر عَلَماً.

* طُبع قسم من النقاية ضمن: «التحفة البهية» عام ١٣٠٢هـ.. ثم طُبعت النقاية تامّة بشرحها المسمّى: «إتمام الدراية» بفاس، عام ١٣١٧هـ.

* من النقاية عدّة نسخ مخطوطة أشار إليها فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي»، ص ٢٥٨.

* * *

٢٢٩ ـ «شوارد الفوائد»:

* زاد في مكتبة الجلال السيوطي: «في الضوابط والقواعد».

* أشار إليه السيوطي في مقدمة كتابه: «الأشباه والنظائر في الفقه» قائلاً: «واعلم أن الحامل لي على إبداء هذا الكتاب أني كنت كتبت من ذلك أنموذجاً لطيفاً في كتاب سمّيته: «شارد الفوائد في الضوابط والقواعد»، فرأيته وقع موقعاً حسناً من الطلّاب، وابتهج به كثير من أولي الألباب.

* وهذا الكتاب هو بالنسبة إلى هذا كقطرة من قطرات بحر، وشذرة من شذرات تبر»[1].

---

(١) مقدمة الأشباه والنظائر في الفقه: ٥.

* منه نسخة مخطوطة برلين، رقم (٦٨٤٤/٢٣).

* * *

٢٣٠ ـ «قلائد الفوائد»:

* تحدّث عنها «كشف الظنون» قائلاً: هي منظومة، مما أودعته فوائد علمية، أو مسألة حكميّة، أو نادرة بها يعتني كل ذي نفس أدبية، ورتّبتها على حروف المعجم «انظر: فهرس «مكتبة الجلال السّيوطي»، ص ٢٧٨).

* وفي فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي» بزيادة: «وشرائد الفوائد».

* مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم (٢٥٢٣، ٥٢١ مجاميع).

* * *

٢٣١ ـ «نظم التذكرة»، ويسمّى: «الفلك المشحون»:

* قال عنه خليفة في كشف الظنون: التذكرة في العربية هي مؤلف كبير، ثم نظمها وسمّاها: الفلك المشحون، وتذكرته في خمسين مجلّداً[1].

* يوجد مخطوطاً في مكتبة صامصون بتركيا، رقم (٩٧٠).

* * *

٢٣٢ ـ «الجمع والتفريق في الأنواع البديعية»:

* طُبع بالمطبعة الوهبيّة بمصر، سنة ١٢٩٨هـ، وانظر رقم (٢٢١) من مؤلفاته.

* * *

---

(١) انظر مكتبة الجلال السيوطي: ٢٧٠.

سـادسـاً:

فـنّ التـاريـخ والأدب

٢٣٣ ـ «طبقات الحفّاظ»:

* طُبـع بمطبعة وهبة بالقاهرة، تحقيق علي محمد عمر.
* طُبـع بفرنسا سنة ١٨٣٣هـ.
* لـه عدّة مخـطوطات. انـظر فهرس دليـل مخطوطـات السيوطي، ص ٢٣٨.

* * *

٢٣٤ ـ «طبقات النحاة الكبرى، والصغرى والوسطى»:

* أما طبقات النحاة الكبرى، فقد تحدّث في مقدمة «بغية الوعاةعنها مبيّناً أنها كبيرة، وأنّ مسوداتها بلغت سبعة مجلدات، ثم لخّصها في مجلدة تحتوي على المهمّ من التراجم، وسمّـاها: «بغيـة الوعـاة في طبقات اللغويين والنحويين»، وهي المعنية بالطبقات الصغرى. وأمـا طبقـات النحاة الـوسطى فقـد ذكر جـورجي زيدان في تـاريـخ آداب اللغة العربية أنّ منها مخطوطة بباريس، كما أخبـرنا أنهـا طبعت سنة ١٣٢٢هـ[1].

---

(١) انظر فهرس مكتبة الجلال السيوطي: ٢٤٨، ٢٤٩.

* ولا تنسَ أن المرحوم الأستاذ محمد أبا الفضل إبـراهيم حقّق بغية الوعاة تحقيقاً علمياً بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٦٤م.

* * *

٢٣٥ ـ «طبقات المفسرين» ـ (لم يتمّ):

* طُبـع بليدن سنة ١٨٣٩م.

* طُبـع بطهران سنة ١٩٦٠م.

* طُبـع بمطبعة الحضارة العربية بمصر سنة ١٩٧٦م.

* له عدة مخطوطات. انـظر فهرس «دليـل مخطوطـات السيوطي»، ص ٢٣٩.

* * *

٢٣٦ ـ «طبقات الأصوليين»:

* مخطوط ببرلين، رقم (٤٣/٩٩١٣).

* * *

٢٣٧ ـ «طبقات الكتّاب»:

* مخطوط ببرلين، رقم (٣١/١٠٠٦٣).

* * *

٢٣٨ ـ «حلية الأولياء»: ويسمى: «طبقات الأولياء»:

* مفقود، ولم تشر الفهارس إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٣٩ ـ «طبقات شعراء العرب»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٠ ـ «تاريخ الخلفاء»:

* طُبع بدار الفكر العربي سنة ١٣٩٤هـ.
* طُبع بلاهور سنة ١٨٧٠م
* طُبع بكلكتا سنة ١٨٥٦م.
* طُبع بمطبعة المنيرة بالقاهرة سنة ١٣٥١هـ.
* طُبع بدار الكتب الثقافية سنة ١٩٥٢م.

* * *

٢٤١ ـ «تاريخ مصر»:

* سقط من الفهارس. ولم يشر إليه إلّا «حسن المحاضرة»، مما يرجح فقدانه.

* * *

٢٤٢ ـ «تاريخ أسيوط»:

* وفي الفهارس: «المضبوط في أخبار أسيوط»:
* يوجد مخطوطاً في مكتبة برلين، رقم (٥٧/٩٨٤٥).

* * *

٢٤٣ ـ «حاطب ليل وجارف سيل»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٤ ـ «المنتقى» = «المعجم الصغير»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٥ ـ «ترجمة النووي»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٦ ـ «ترجمة البلقيني»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٧ ـ «الملتقط من الدرر الكامنة»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٨ ـ «تاريخ العمر»:

* وهو ذيل على «أنباء الغمر في أنباء العمر» لابن حجر.

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٤٩ ـ «رفع الباس عن بني العباس»:

* مخطوط بمكتبة عارف حكمت، رقم (٩٦ مجاميع).

* * *

٢٥٠ ـ «النفحة المسكيّة، والتحفة المكّية على نمط «عنوان الشرف»»:

* مخطوطاته:

١ ـ الأوقاف بالموصل، رقم (مجاميع ٢٣/١٩).

٢ ـ توجد نسخة في مكتبة الشيخ سليمان الصالح البسّام ـ المملكة العربية السعودية، مجلّة البحث العلمي، عدد ٢، سنة ١٣٩٩هـ.

٣ ــ الظاهرية ، رقم (٤٢٥٥).

٤ ــ مكتبة الاسكوريال.

٥ ــ مكتبة فينّا.

* وفي «مكتبة الجلال السّيوطي»، ص ٣٧٠: هي تـوليف ضـاهى به السيوطي تـوليفياً ظهـر نسيـج وحده هـو عنوان «الشرف الوافي في الفقــه والتـاريـخ والنحــو والعــروض والقـوافي»، لشــرف الــدين إسماعيل بن بكر اليمني المعروف بابن المقري المتوفى عام ٨٣٧هـ.

* هذا، وقد ذكـر السيوطي أنـه ألّفها بمكـة في يوم واحـد في شهر رجب عام ٨٦٩هـ.

* * *

٢٥١ ــ «درر الكلم وغرر الحكم»:

* مخطوطاته:

١ ــ دار الكتب المصرية، رقم (مجاميـع ١٩٤، ٤١٦).

٢ ــ جامعة الكويت، رقم (٧٥١ مجموع ٣).

٣ ــ الظاهرية، رقم (١٢٠).

٤ ــ برلين، رقم (٢٧/٨٢٩).

٥ ــ الخزانة العامة بالرباط.

* * *

٢٥٢ ــ «ديوان خطب»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٥٣ ـ «ديوان شعر»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٥٤ ـ «المقامات»:

* طُبع حجر بمصر سنة ١٢٧٥هـ.

طُبعت بالهند.

* طُبعت بتركيا.

* حقّقها سمير الدروبي بكلية الآداب ـ الجامعة الأردنية (رسالة ماجستير)، عام ٨٣/٨٤.

* * *

٢٥٥ ـ «الرحلة الفيّومية والمكيّة والدمياطية»:

* توجد مخطوطة ببرلين، رقم (٦١٥٧/١٥).

* * *

٢٥٦ ـ «الوسائل إلى معرفة الأوائل»:

* نشره المستشرق النمساوي جوخه سنة ١٨٦٧م.

* نشره الدكتور أسعد طلس بالعراق سنة ١٩٥٤م.

* له عدّة نسخ مخطوطة. انظر فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي».

* * *

٢٥٧ ـ «مختصر معجم البلدان لياقوت»:

* سقط من فهرس: «مكتبة الجلال السيوطي» و«دليل مخطوطات السيوطي»، فهو مفقود.

* * *

٢٥٨ ـ «الشماريخ في علم التاريخ»:

* طُبع في ليدن سنة ١٨٩٤م.

* طُبع في العراق سنة ١٩٧١م.

* طُبع في الكويت سنة ١٩٧٩، تحقيق محمد الشيباني، طبعة دار السلفية.

* * *

٢٥٩ ـ «الجمانة في تفسير ألفاظ متداولة»:

* وردت باسم الحماسة في فهرس: «دليل مخطوطات السيوطي» وهو تحريف.

* يوجد مخطوطاً في برلين، رقم (٧٠٦١/٢٣).

* * *

٢٦٠ ـ «مقاطع الحجاز»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٦١ ـ «نور الحديقة»:

* وهي مختصر حديقة الأديب، وطرفة الأريب للسيوطي.

* يوجد مخطوطاً بدار الكتب المصرية، رقم (٧٤٢ مجاميع).

* * *

٢٦٢ ـ من نظم القول المجمل في الرد على المهمل»:

* ليس له ذكر في فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» و«دليل مخطوطات السيوطي»، فهو مفقود.

* * *

٢٦٣ ــ «المنى في الكنى»:

* سقط من فهرس «مكتبة الجلال السيوطي» و«دليل مخطوطات السيوطي»، فهو مفقود.

* * *

٢٦٤ ــ «فضل الشتاء»:

* وفي فهرس «دليل مخطوطات السيوطي» ورد باسم أحاديث الشتاء.

* مخطوطاته:

١ ــ دار الكتب المصرية، رقم (٣٥ مجاميع).

٢ ــ الظاهرية، رقم (١١٠٩ حديث).

٣ ــ الخزانة التيمورية.

* * *

٢٦٥ ــ «مختصر تهذيب الأسماء للنووي»:

* مفقود لعدم الإشارة إلى أماكن وجوده.

* * *

٢٦٦ ــ «الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكيّة»:

* طبع ضمن الحاوي للفتاوي.

* ويوجد مخطوطاً بالمكتبة العربية بالجامع الكبير بصنعاء، رقم (مجموع ١٨٧).

* * *

٢٦٧ ــ «رفع شأن الحُبْشان»:

* مخطوطاته:

١ ــ فورشوتلي بتركيا، رقم (٤/١٤٣).

٢ ــ كوبريلي بتركيا، رقم (٤٥٨).

٣ ــ الخزانة التيمورية.

٤ ــ مكتبة الاسكوريال.

* * *

٢٦٨ ــ «أحاسن الأقباس في محاسن الاقتباس»:

* يوجد مخطوطاً ببرلين، رقم (٢/٧٣٤٨).

* * *

٢٦٩ ــ «تحفة المذاكر في المنتقى من تاريخ ابن عساكر»:

* يوجد مخطوطاً في برلين رقم (٥/٩٧٨٨).

* * *

٢٧٠ ــ «شرح بانت سعاد»:

* يوجد مخطوطاً ببرلين، رقم (٧٤٩٧).

* * *

٢٧١ ــ «تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء»:

* مخطوطاته:

١ ــ الأحمدية بتونس، رقم (٤٧٦٣).

٢ ــ الظاهرية، رقم (٦٠٤٢ تاريخ).

٣ ــ دار الكتب المصرية، رقم (٢٠م، ٤٧٦٥ مجموع ٢).

٤ ــ ليدن، رقم (٢٦١٧).

٥ ــ جون ريلاند، رقم (٢٥٠).

* * *

٢٧٢ ــ «قصيدة رائيّة»:

* مفقود، لعدم الإشارة إلى أماكن وجودها.

* * *

٢٧٣ ــ «مختصر شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل»:

* اختصره في كتاب آخر سمّاه: الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب.

* طُبع بمطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٦٨هـ.

[انتهت مؤلفات السيوطي]

دراسة إحصائية لمؤلفات السيوطي

في ضوء مؤلفاته التي ذكرتها مرقمة، ورتبتها على حسب ورودها في «حسن المحاضرة» مع عدم تناول المؤلفات الأخرى التي نسبت إليه والاكتفاء بما سجله هو في كتابه: «حسن المحاضرة. تبين لنا ما يأتي:

أولاً ـ المؤلفات التي طبعت وحققت:

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
١	٧	١٠	١٦٤
٢	٢٥	١١	١٧٧
٣	٣٢	١٢	١٧٨
٤	٤٨	١٣	١٨١
٥	٥٢	١٤	١٨٢
٦	٥٦	١٥	١٨٨
٧	٦٢	١٦	١٩٣
٨	١٠٢	١٧	٢٥٣
٩	١٦٢	١٨	٢٥٧

ثانياً ــ مؤلفات طبعت بدون تحقيق :

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
١	١	٢٦	٩١
٢	٢	٢٧	١٠٤
٣	٣	٢٨	١٠٤
٤	٥	٢٩	١٠٦
٥	٦	٣٠	١١٨
٦	٨	٣١	١١٨
٧	٩	٣٢	١٢٦
٨	١٢	٣٣	١٤٠
٩	٢٢	٣٤	١٤١
١٠	٢٣	٣٥	١٤٢
١١	٢٧	٣٦	١٥١
١٢	٣٠	٣٧	١٥٢
١٣	٣٨	٣٨	١٥٤
١٤	٤١	٣٩	١٥٥
١٥	٤٢	٤٠	١٥٨
١٦	٤٩	٤١	١٥٩
١٧		٤٢	١٦٤
١٨	٥٨	٤٣	١٦٧
١٩	٦٣	٤٤	١٦٨
٢٠	٦٦	٤٥	١٦٩
٢١	٦٩	٤٦	١٧٢
٢٢	٧١	٤٧	٢٧٤
٢٣	٧٧	٤٨	١٧٦
٢٤	٨١	٤٩	١٨٩
٢٥	٨٣	٥٠	٢٠٦

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
٥١	٢٠٧	٥٩	٢٢٨
٥٢	٢٠٩	٦٠	٢٣٢
٥٣	٢١٣	٦١	٢٣٣
٥٤	٢١٤	٦٢	٢٣٤
٥٥	٢٢٠	٦٣	٢٣٩
٥٦	٢٢١	٦٤	٢٥٣
٥٧	٢٢٥	٦٥	٢٥٥
٥٨	٢٢٧	٦٦	٢٦٥

ثالثاً ــ مؤلفات مخطوطة في مكتبات العالم ولها أرقامها المختلفة :

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
١	٤	١٤	٣٦
٢	١٠	١٥	٣٩
٣	١١	١٦	٤٦
٤	١٢	١٧	٥٠
٥	١٣	١٨	٥٣
٦	١٦	١٩	٥٤
٧	١٧	٢٠	٥٥
٨	١٩	٢١	٥٧
٩	٢١	٢٢	٥٩
١٠	٢٤	٢٣	٦٠
١١	٢٨	٢٤	٦١
١٢	٢٩	٢٥	٦٤
١٣	٣٣	٢٦	٦٥

مسلسل	مؤلف
٢٧	٦٨
٢٨	٧٠
٢٩	٨٩
٣٠	٩٠
٣١	٩٢
٣٢	٩٥
٣٣	٩٦
٣٤	٩٨
٣٥	١٠٠
٣٦	١٠٧
٣٧	١٠٨
٣٨	١١٠
٣٩	١١١
٤٠	١١٢
٤١	١١٣
٤٢	١١٦
٤٣	١٢٠
٤٤	١٢٥
٤٥	١٢٧
٤٦	١٣٢
٤٧	١٣٥
٤٨	١٣٧
٤٩	١٤٣
٥٠	١٤٥
٥١	١٤٧
٥٢	١٤٩
٥٣	١٥٦
٥٤	١٥٧
٥٥	١٦١
٥٦	١٦٣
٥٧	١٦٥
٥٨	١٦٦
٥٩	١٧٠
٦٠	١٧٣
٦١	١٧٤
٦٢	١٧٩
٦٣	١٨٠
٦٤	١٨٣
٦٥	١٨٦
٦٦	١٨٧
٦٧	١٩٠
٦٨	١٩٢
٦٩	١٩٧
٧٠	٢٠٤
٧١	٢٠٥
٧٢	٢١٠
٧٣	٢١١
٧٤	٢١١
٧٥	٢١٥
٧٦	٢٢٣
٧٧	٢٢٤
٧٨	٢٢٩
٧٩	٢٣٠
٨٠	٢٣١
٨١	٢٣٥

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
٨٢	٢٣٦	٨٩	٢٦٠
٨٣	٢٤٨	٩٠	٢٦٣
٨٤	٢٤٩	٩١	٢٦٦
٨٥	٢٥٠	٩٢	٢٦٧
٨٦	٢٥٤	٩٣	٢٦٨
٨٧	٢٥٨	٩٤	٢٦٩

رابعاً ـ مؤلفات مفقودة، مشار إليها في الفهارس التراثية، وليس لها أماكن توجد فيها:

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
١	١٤	١٤	٤٧
٢	١٥	١٥	٥١
٣	١٨	١٦	٦٧
٤	٢٠	١٧	٧٢
٥	٢٦	١٨	٧٣
٦	٣١	١٩	٧٤
٧	٣٤	٢٠	٧٥
٨	٣٥	٢١	٧٦
٩	٣٧	٢٢	٧٨
١٠	٤٠	٢٣	٧٩
١١	٤١	٢٤	٨٠
١٢	٤٤	٢٥	٨٤
١٣	٤٥	٢٦	٨٥

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
٢٧	٨٦	٥٤	١٥٣
٢٨	٨٧	٥٥	١٦٠
٢٩	٨٨	٥٦	١٧٥
٣٠	٩٣	٥٧	١٨٤
٣١	٩٤	٥٨	١٩١
٣٢	٩٩	٥٩	١٩٤
٣٣	١٠١	٦٠	١٩٥
٣٤	١٠٥	٦١	١٩٦
٣٥	١٠٩	٦٢	١٩٨
٣٦	١١٤	٦٣	١٩٩
٣٧	١١٥	٦٤	٢٠٠
٣٨	١١٧	٦٥	٢٠١
٣٩	١١٩	٦٦	٢٠٢
٤٠	١٢١	٦٧	٢٠٨
٤١	١٢٢	٦٨	٢١٢
٤٢	١٢٣	٦٩	٢١٦
٤٣	١٢٨	٧٠	٢١٧
٤٤	١٢٩	٧١	٢١٩
٤٥	١٢٩	٧٢	٢٢٦
٤٦	١٣٠	٧٣	٢٣٧
٤٧	١٣١	٧٤	٢٣٨
٤٨	١٣٣	٧٥	٢٤٠
٤٩	١٣٤	٧٦	٢٤٢
٥٠	١٣٦	٧٧	٢٤٣
٥١	١٣٨	٧٨	٢٤٤
٥٢	١٣٩	٧٩	٢٤٥
٥٣	١٥٠	٨٠	٢٤٦

مسلسل	مؤلف	مسلسل	مؤلف
٨١	٢٤٧	٨٥	٢٦١
٨٢	٢٥١	٨٦	٢٦٢
٨٣	٢٥٦	٨٧	٢٦٤
٨٤	٢٥٩	٨٨	٢٧١

من خلال هذه الاحصائية تبين لنا ما يأتي:

١ ـ الكتب المحققة من تراث السيوطي وطُبعت ـ ١٨ كتاباً.

٢ ـ الكتب المطبوعة بدون تحقيق ـ ٦٦ كتاباً.

٣ ـ الكتب المخطوطة وتنتظر من يخرجها من الظلمات إلى النور ـ ٩٤ كتاباً.

٤ ـ الكتب المفقودة التي لم تسجل في فهارس مكتبات العالم، ولا يعرف لها وجود ـ ٨٨ كتاباً.

وأكرر القول مرة أخرى أن هذه الكتب هي التي نص عليها مؤلفها في كتابه المشهور المطبوع: «حسن المحاضرة»، وتركت بقية الكتب التي نسبت إليه لأنها تحتاج إلى مساحة أوسع من هذا الكتاب والحصول عليها سهل، فقد وفق الله تعالى صديقنا وأخانا أحمد الخازندار وزميله بالقيام بفهرستها، والإشارة إلى الخزائن التي تحتويها، وما ذكرته في هذا الفصل من مؤلفات أخذ من فهرسهما، وفهرس مكتبة الجلال السيوطي كما بينت سابقاً في مقدمة هذا الفصل.

□ □ □

كثرة كتب السيوطيّ
في ضوء البحث والمناقشة

يعتقد كثير من الباحثين أن السّيوطيّ لم يجمع نصوص هذه المؤلفات بقلمه، وإنما جمعها طلاّبه وتلاميذه من المؤلفات التي ورثها عصر السّيوطيّ من العصور التي سبقته، وهذه المؤلفات تناولت العلوم الإسلامية السائدة في هذه العصور وعمل تلاميذه ـ كما يدعي بعض الباحثين ـ هو التنقيب عن النصوص المختلفة، وجمعها ثم تقديمها للسّيوطيّ ليرتّبها حسب قدرته الاستيعابية لعلوم عصره، أي أن السّيوطيّ قدّمت له المادة، فتولاها بالتنقيح والتهذيب، والتصنيف والتبويب مما ساعده على أن يقوم بتأليف هذه الكتب التي كثر عددها.

وفي رأيي أن هذا الرأي لو صحّ لما كان في ذلك نقص لفكر السّيوطيّ، أو اتهام لعقله، فلا ضيْر مطلقاً أن يوجه طلابه إلى البحث، ويشير إلى المراجع التي تحتوي النصوص، ثم تقدّم هذه النصوص للسّيوطيّ، فيعمل فيها عقله، ويطوّع لها فكره، وينسقها ويهذبها، ثم يخرجها شراباً سائغاً لمفكري عصره ليرتووا منه وفي ذلك إسهام فكريّ في ثقافة عصره من ناحية، وبناء علميّ لتلاميذه حيث يعوّدهم على البحث، ويدرّبهم على جمع النصوص، ويعرّفهم مصادر المعرفة من ناحية أخرى.

أقول لو صحّ هذا الرأي لما كان في ذلك عيب يلتصق بالسّيوطيّ،

أو نقص يغضّ من قيمته العلميّة، ولكن الأمر ليس كما يدّعي هؤلاء الباحثون للأمور الآتية:

١ ـ لم يحدّثنا نقّاد السّيوطيّ ومنافسوه الذين عاصروه كالسّخاويّ وغيره بهذه الفكرة التي تتردّد على ألسنة كثير من المفكرين في العصر الحاضر، فعلى الرغم من ضراوة المنافسة التي كانت بينه وبين السّخاويّ لم نجد نصّاً واحداً يشير به السّخاويّ إلى هذا الادّعاء، ولو كان الأمر كما يقولون لاتخذها السّخاويّ فرصة سانحة للتنديد بالرجل، والتقليل من شأنه، لأن علمه المتمثّل في كتبه ليس له فيه إلّا التهذيب والترتيب والتنظيم، وهذا لم يفعله السّخاويّ مما يؤكد أن التهمة باطلة، والادّعاء غير سليم.

٢ ـ حقاً إن السّخاوي اتهمه بالاختلاس من مصنّفات مشايخه حيث ذكر في «الضوء اللامع» عند التعرّض لمؤلفات السّيوطيّ أن كتبه «فيها ما اختلسه من مصانيف شيخنا: «لباب النقول في أسباب النزول»، و«عين الإصابة في معرفة الصحابة»... إلى أن يقول: «فكل هذه تصانيف شيخنا، وليته إذا اختلس لم يمسخها، ولو نسخها على وجهها لكان أنفع، وفيها ممّا هو لغيره الكثير». رحم الله السّخاويّ، فقد كان مبالغاً إلى حدٍ كبيرٍ في اتهامه للسّيوطيّ، ووجه المبالغة أن معظم مشايخ السّخاويّ هم مشايخ السّيوطيّ، فلا يستطيع معاصر أن ينقل عن مشايخه المعاصرين الأحياء كتبهم وينسبها لنفسه في عصر ازدهرت ثقافته، ولا يخفى لصوص الكلمة على أحد، فأغلب الظن أن السّخاويّ أطلق الاتهام من غير أن يقدّم الدليل، فلم يبيّن لنا الطريقة التي مسخ بها السّيوطيّ كتب شيوخه أو الاختلاس الذي اختلسه من مؤلفاتهم ومصنّفاتهم. هذه ناحية، وناحية أخرى كيف يرضى شيوخه الأحياء أن تمسخ كتبهم أمام أعينهم وهم ساكتون، مع أن هؤلاء الشيوخ الكثير منهم

كما قدّمنا سابقاً أشادوا بالسيوطيّ وأجازوه، وأعطوه قدره من الإجلال والتكريم. لهذا لا نأخذ بكلام السّخاويّ في هذه القضيّة، لأنه كلام منافس لا يصدر منه إلاّ ما يكرهه السّيوطيّ وقد قدمنا قول ابن عبّاس في منافسة العلماء إذ يقول: «العلماء أشدّ تغايراً من التيوس في زروبها»[1].

٣ ـ تحدثنا كتب التاريخ للسّيوطيّ «لما بلغ أربعين سنة من عمره أخذ في التجرّد للعبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والاستقلال به صرْفاً، والإعراض عن الدنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحداً منهم»[2]. ومعنى ذلك أن السّيوطيّ تجرّد للعبادة والتأليف، وترك الفتيا والتدريس وبقي على حاله في هذا الميدان طوال ٢٢ عاماً، ففي خلال هذه المدّة ألّف هذا العدد الضخم من المؤلفات، وهذا أمر ليس بغريب لأن السّيوطيّ لم يشغله شيء في الحياة سوى العلم فإضافة مؤلفاته التي ألّفها قبل سنّ الأربعين إلى المؤلفات التي ألّفها في فترة الانقطاع ومدتها اثنان وعشرون عاماً يتضح لنا أن هذه الكثرة طبيعية جدّاً، وليست غريبة حتى تنسب إلى تلاميذه كما يدّعي بعض المحدثين.

٤ ـ على أن هذه المؤلفات بعضها لا يتجاوز ورقات، أو في حجم كرّاسة من الكرّاسات وقد اعترف بذلك السّخاويّ نفسه حينما قال عن كتبه: «رأيت فيها ما هو ورقة أو دون الكرّاسة»[3]. والناظر إلى مؤلفات السّيوطي التي عرضها سابقاً يجد أن السّيوطيّ نفسه بين أن بعض مؤلفاته تلخيص من

---

(١) انظر مقدمة تدريب الراوي: ١٧.

(٢) الكواكب السائرة: ١/٢٢٨.

(٣) الضوء اللامع: ٣/٦٨.

مؤلفات أخرى لـه، أي أنه يلخص مـا ألف ويسميه كتـاباً، وقـد يعلق عليه، ويسميه كتاباً آخر، ومن هنا تعدّدت المؤلفات وكثرت.

٥ ــ الكثير من كتب السّيوطيّ حواها كتاب: «الحاوي للفتـاوي» الذي طبع في جزأين ويحوي كثيراً من علوم الفقه والتفسير، والنحو، والإعـراب، وسائر الفنون يضمّ هذا المؤلف حوالي ٧٨ كتاباً. وقد ذكـر الأستاذ محمـد أبو الفضل إبراهيم في مقدمة تحقيقه لكتاب: «معترك الأقران» «أنه إذا كان العدد الـذي ذكره السّيـوطيّ وغيره يحـوي أمثال هـذه الكتب الصغيـرة فليس بعيـداً صحة ما نسب إليه من الكتب»[1].

ولا أدل على ذلـك من أن كتـاب «الأشبـاه والنـظائـر» في النحـو الـذي حققته ألحق به كتاب للسّيوطيّ سمّاه في الأشباه والنظائر: «الكلام على مسألة ضرْبي زيداً قائماً» وهو لا يتجاوز خمس صفحات، وكتاب آخر سمّاه: «تحفة النجبـا في قـولهم: هــذا بسـراً أطيب منــه رطبــاً» وهــو لا يتجــاوز خمس صفحات أيضاً.

٦ ــ تيسير الحصول على المراجع والمصادر، هذا التيسير لا شك أنـه سـاعد السّيـوطيّ على إنجاز مؤلفـاته بهـذا العدد الـوفير، والسـرعة المنقـطعة النظير فالسّيوطيّ أشار علماء عصره أنه «أخذ من كتب المحموديّة وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدّمة التي لا عهد لكثيـر من العصريين بهـا في فنون، فغيّـر فيها يسيراً وقدّم وأخرّ، ونسبها إلى نفسه، وهوّل في مقدّمـاتها بمـا يتوهّـم منـه الجاهل شيئاً مما لا يوفي ببعضه»[2].

---

(١) مقدمة كتاب: معترك الأقران ص: ك.

(٢) البدر الطالع: الجزء الأول ترجمة رقم (٢٢٨).

وهذا القول نسبه صاحب «البدر الطالع» إلى السّخاويّ.

أمّا المكتبة المحموديّة فهي المكتبة التي ألحقت بالمدرسة المحموديّة التي تحدّثت عنها سابقاً.

ويبدو أن هذه المكتبة كان السّيوطيّ من روّادها الذين عاشوا في أحضانها وليس بعيب أن يستوعب السّيوطيّ مصادر أو مراجع هذه المدرسة ليؤلف في ضوء هذه المصادر، واعتماداً على هذه المراجع ما أصدره من كتب وما ألّفه من فنون، وما سطرّه من علوم.

وكان للسّيوطيّ رأي في مراجع هذه المكتبة ومؤلّفاتها وخلاصة رأيه أن العلم لا يحبس، فمن حق القراء أن يستعيروا من هذه المكتبة ما شاءوا ليقرءوا في المكان الذي يستريحون إليه، وفي الوقت الذي يريدون تسهيلاً لطلب المعرفة، وتذليلاً للبحث العلمي.

والذي حمله على ذلك أن واقف الكتب على هذه المكتبة اشترط ألّا يخرج منها كتاب خارج مبناها بإعارة أو غيرها.

وقد ظفرت بوثيقة تضم فتوى السّيوطيّ في شأن مؤلفات هذه المكتبة وهي وثيقة رائعة تدلّ دلالة واضحةً على قدسية العلم والمؤلفات في هذا العصر المزدهر.

نشرت هذه الوثيقة في مجلة معهد المخطوطات العربيّة الجزء الأولّ من المجلّد الرابع مايو سنة ١٩٥٨هـ: باسم «بذل المجهود في خزانة محمود»، وبتحقيق المرحوم فؤاد سيد.

وهذه الوثيقة هي من مؤلفات السّيوطيّ التي أشارت إليها كتب الفهارس مع أنها لا تتجاوز صفحتين ونصف.

وقد أشار المحقق إلى مكان وجودها ورقمها، فقال: «عن المجموعة الخطيّةرقم (٣٥) المخطوطة بدار الكتب المصرية من ورقة ٣٤ ـ ٣٥ وهي بخط شهاب الدين بن ناصر الدين بن أحمد بن محمد بن يوسف العبّادي الغمري الشافعي سنة ٩٨١هـ»[١].



(١) أنظر صفحة ١٣٤ من مجلة معهد المخطوطات العربيّة.

نصّ وثيقة الفتوى
تأليف جلال الدين السّيوطيّ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وقف محمود الاستادار كتباً، وجعل مقرّها بمدرسته، وشرط ألّا تخرج من المدرسة، وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، وشيخنا شيخ الإسلام شرف الدين المناويّ، يستعيران منها، ويخرجان منها الكتب إلى منزلهما، وتمكث عندهما الأيام الكثيرة، وهما الإمامان يقتدى بهما، فإنهما كانا من الفقه بالمحلّ الأعلى، بحيث بلغا رتبة الاجتهاد في المذهب، وكان المناويّ صوفياً له أحوال وكرامات، فلو لا رأيا ذلك جائزاً ما فعلاه.

فإن قيل: ما وجه الجواز مع مخالفته لشرط الواقف؟

قلت: له أربعة أوجه، وجهان ضعيفان، ووجه حسن، ووجه قوي صحيح:

* **الوجه الأول**: إن هذا الشرط باطل جنح إليهم بعضهم، لكنه ردّه السّبكي، وقال: إنه شرط صحيح، لأن للواقف فيه غرضاً صحيحاً، لأن إخراجها مظنّة ضياعها.

* **الوجه الثاني**: أن يحمل قول الواقف: «لا تخرج» على نقلها من مقرّها بالمدرسة إلى محل يجعل مقرّها فيه، فيمتنع، وإن رأى الناظر ذلك، لا، لأن الإخراج لمستعير ينتفع به، ثم يعيده.

وهذا التأويل وإن كان بعيداً إلّا أنه قد يقرّ به أن عبارة الواقف وشرطه أن لا يخرج ذلك ولا شيء منه من المدرسة المذكورة، فجعل نفي الإخراج منصباً أوّلاً على مجموع الكتب، فهذا يقرّب أن المراد بالإخراج نقل الكتب بأسرها من هذا المقرّ إلى مقرّ آخر لا الإخراج لمستعير، فإنه لم تجر العادة في الخزائن بإعارة ما فيها دفعة واحدة، وبالجملة فهذا الوجه والذي قبله ضعيفان.

* الوجه الثالث: أن بعض الأئمة جوّز مخالفة شرط الواقف، إذا اقتضت المصحلة ذلك، ويعزي هذا المذهب إلى الإمام أحمد، فإن كان هو المشهور عندهم، فهو وجه حسن، يصلح للاستناد إليه.

* الوجه الرابع: وهو القوي: أن من قواعد الشرع أنه يجوز أن يستنبط من النصّ معنىً يخصصه، وذلك معلوم، فإذا كان هذا في نصّ الشارع ففي نصّ الواقف أولى، فيقال: إن مقصود الواقف تمام النفع وتمام الحفظ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بها في تصنيف، وذلك لا يمكنه على الوجه الأتمّ في المدرسة، ووثق بتمام حفظه وصونه جاز الإخراج له. ويستثنى من المنع، ويخصّص عموم لفظ الواقف بهذا المعنى المستنبط كما خصّص عموم قوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾[1]، واستثنى منه المحارم بالمعنى المستنبط، وهو الشهوة، ولا دليل لاستثناء المحارم من آية أو حديث سوى هذا الاستنباط، فكذلك هذا.

وقد ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه: أن في بعض السنين ببغداد منع معلّموا الأطفال من تعليمهم في المساجد إلّا رجلاً واحداً كان موصوفاً بالخير فاستثنوه من المنع.

---

(١) سورة المائدة: آية ٦.

وإنهم استفتوا الماوردي صاحب «الحاوي» من أئمتنا[1]، والقدوري من أئمة الحنفية وغيرهما فأفتوا باستثنائه، واستدلوا بأنه ﷺ أمرّ بسدّ كل خوخة في المسجد إلاّ خوخة أبي بكر، وقاسوا استثناءهم لهذا الرجل على استثناء خوخة أبي بكر.

وهذا استنباط دقيق، لا يدركه إلاّ الأئمة المجتهدون كالماوردي والقدوري ونحوهما. وقد استندت إلى قولهم هذا قديماً حين استفتيت في أبنية القرافة، فأفتيت بهدمها كما هو المنقول إلاّ مشاهد الصالحين، فاستفدت في هذا الاستثناء إلى ما صنفه الماوردي والقدوري، ثم إن هنا أمرين لا بدّ من التنبيه عليهما:

أحدهما: أنه ينبغي ألا يُستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسّر وجوده في غيرهما.

والثاني: أنه لا يمكث عند المستعير إلاّ بقدر ما تقضي حاجته منه في العادة، ومدْرك الأمرين. أن ما جاز للضرورة يتقدّر بقدرها.

وهذا كنت كتبته مؤلفاً سنة سبع وستين وثمانمائة، وسميته: «بذل المجهود في خزانة محمود».

هذه فتوى السّيوطيّ في استعارة الكتب، وهي وثيقة يجب أن تدرس في المعاهد المتخصّصة في المكتبات.

فللّه درّ الرجل، فقد قدّم لنا في هذه الفتوى ما يبرهن على عقلية السّيوطيّ الفذّة، وقدرته في الاستنباط، وإحاطته بالتاريخ، وفقهه بالقضايا وغوصه إلى أعماق النصوص.

(١) أي الشافعية.

ثم إننا لو ألقينا نظرة على تاريخ هذه الفتوى لرأينا أمراً عجيباً، فمن المعروف أن السّيوطيّ ولد سنة ٨٤٩هـ، وهذه الفتوى أفتى بها السّيوطيّ في مؤلف سنة ٨٦٧هـ أي أن سن السّيوطيّ لم تتجاوز ١٧ عاماً.

مدهش حقاً أن تفتح عبقرية في تاريخ الإنسانية في هذه السن المبكرة. وهي فتوى ليست سهلة المنال، لا يدرك غورها إلّا أعاظم الرجال، فكيف بفتىً في هذه الحداثة يصل إلى ما لم يصل إليه أكابر العلماء.

على أية حال هي حكمة الله، والله يؤتي الحكمة من يشاء.

على أننا قبل أن ننهي الحديث في قضية كثرة كتب السّيوطيّ أحبّ أن أستنبط من هذه الفتوى كما أستنبط السّيوطّي: أنه وراء هذه الفتوى هدفاً كبيراً للسّيوطيّ، وهو الانتفاع بذخائر هذه المكتبة ويبدو أنها مكتبة تميزت عن المكتبات الأخرى السائدة والمتعدّدة في هذا العصر بأنها تحوي كتباً نادرة لا توجد في غيرها، ومراجع ثمينة لا توجد إلّا فيها.

ولا شك أن السّيوطيّ البحّاثة عاش في بواكير سنّه بين رفوفها يقلب الصفحات، ويجري وراء النصوص حتى خبرها خبرة دقيقة مما حدا به إلى أن يقدّم هذه الفتوى لتتاح له فرصة نقل ما يشاء منها في بيته إذ يقول: «فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بها في تصنيف، وذلك لا يمكن على الوجه الأتمّ في المدرسة، ووثق بتمام حفظه وصونه جاز الإخراج له».

والسّيوطيّ ليس بدعاً في هذا، فشيخ الإسلام علم الدين البلقيني وشيخ الإسلام شرف الدين المناوي كانا يستعيران منها، ويخرجان منها الكتب إلى منزلهما.

لهذا أقرّر أنه ليس بعجيب على رجل استولى على هذه المكتبة في هذه السن المبكرة أن يؤلف هذه الكتب الكثيرة، والمؤلفات الغزيرة.

وليس بغريب على رجل يملك من القدرة الفكرية مع امتلاكه هذه المكتبة المحموديّة أن يمتعنا بهذا التراث الضخم في المكتبة الإسلامية والعربيّة.

٦ ـ وأكبر ردّ على هؤلاء الناقدين للسّيوطيّ قديماً وحديثاً في الاختلاس أو السرقة أو استغلال نفوذه نحو طلابه لينقلوا له ما يريد كُتُب السّيوطيّ نفسها ومؤلفاته، لا تجد نصاً نقله غفلاً من الكتاب الذي نقل عنه، وفي كل نص من النصوص المنقولة عن المصادر أو المراجع يشير إليه عند الانتهاء من نقله بكلمة «انتهى» ممّا يدلّ على الدقة في النقل، والأمانة في العلم، ومن الأمثلة على ذلك:

(أ) يسرد في الأشباه والنظائر الذي حققته: «خواص ظن وأخواتها» فينقل نصّاً لابن القوّاس في «شرح الدرّة» لخواص هذه الأفعال، فيقول: «فائدة» قال ابن القوّاس في «شرح الدرّة»: لهذه الأفعال خواصّ لا يشاركها فيها غيرها من الأفعال المتقدمة... ثم يختم النصّ بقوله: انتهى[1].

(ب) وفي باب الفاعل يذكر أن الفاعل جزء من أجزاء الأفعال، ثم يسرد قول أبي البقاء في «اللباب» الأدلة على ذلك.

فلأمانته بعد أن انتهى من سرد الأوجه، عقب على ذلك بقوله: «وهذه الأوجه مأخوذة من «سرّ الصناعة لابن جنيّ» أي لم يؤثر السكوت في هذا الموطن، ويكتفي بالنقل من أبي البقاء العكبري لأن الأمانة العلميّة تقتضي أن يبيّن من أين استقى العكبري هذه الأوجه، فبيّن مصدر العكبري في هذا وهو كتاب:

---

(١) الأشباه والنظائر، المحقق: ١٣٤/٣، تحقيق د. / عبد العال سالم مكرم.

«سر الصناعة لابن جني» إنه ضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثال: أعطى الأمانة حقها، ثم بين لنا إلى جانب هذه الأمانة قدرته في استيعاب التراث، وأنه لا يخفى عليه شيء منه.

(ج) ولأمانة السّيوطيّ العلميّة نجده يثور على هؤلاء المؤلفين الذين سرقوا من كتبه ومن كتب غيره ولم يشيروا إلى ذلك، ولو كان السّيوطيّ مختلساً أو سارقاً كما يقول خصومه ومنافسوه لسكت عن هذا النقد، وأطفأ هذه الثورة في نفسه، لأن عين الرضا كليلة عن كل عيب، كلا إن السّيوطيّ لم يكن مختلساً ولذلك تلمس ثورته على الناقلين والآخذين بدون أدنى إشارة إلى ذلك بالقضية النحوية التي سجلها في كتابه «الأشباه» قال تحت العنوان: الفروع هي المحتاجة إلى العلامات، والأصول لا تحتاج إلى علامة، قال الشيخ بهاء الدين النحاس في التعليقة[1].

وجد ذلك بخط عالي بن عثمان بن جنّي عن أبيه، قال: بدليل أنك تقول في المذكرّ: قائم، وإذا أردت التأنيث قلت: قائمة، فجئت بالعلامة عند المؤنث، ولم تأت للمذكر بعلامة، وتقول: رأيت رجلاً فلا يحتاج إلى العلامة، وإن أردت التعريف أدخلت العلامة، فقلت: رأيت الرجل، فأدخلت العلامة في الفرع الذي هو التعريف ولم تدخلها في التنكير، وإذا أردت بالفعل المضارع الاستقبال أدخلت عليه السّين، لتدلّ بها على استقباله، وذلك يدلّ على أن أصله موضوع الحال، ولو كان الاستقبال فيه أصلاً لما احتاج إلى علامة، انتهى.

قال السّيوطيّ معلّقاً:

---

(١) التعليقة هي كتاب لابن النحاس علق به على المقرّب، لابن عصفور.

وانـظر إلى دين الشيـخ بهاء الـدين بـأمـانـته، كيف وجـد فـائـدة بخط ولـد ابن جنّي نقلها عن أبيـه، ولـم تسطّر في كتـاب، فنقلها عنـه، ولـم يستجز ذكـرها من غيـر عزو إليـه كالسـارق الذي أغـار على تصـانيفي التي أقمت في تتبعهـا سنين، وهي كتـاب: «المعجــزات الكبـرى» وكتـاب «المعجــزات الصغرى» وغير ذلـك فسرقهـا وضمّها وغيـرها ممّـا سرقـه من كتب الخيضري والسّخاويّ شيئاً مما نقله منها، وليس هذا من أداء الأمانة في العلم»[1].

هـذا، ولو ذهبت أعـدد الأدلة على أمـانة السّيـوطيّ في كـل مـا كتبـه، وبخاصة الكتب اللغـوية والنحـوية التي عـايشت فيها السّيـوطيّ لقدّمنـا الكثير الذي يضيق هذا الكتاب عن استيعابه لكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ولننتقل إلى نقطة أخرى وهي قضية التلخيص في كتب السّيوطيّ.

قضية التلخيص في كتب السّيوطيّ:

أومأت سابقاً إلى أن السّيوطيّ كان مغرماً بالتلخيص لكتب غيره، ولكتبه أحياناً فما السّر في هذه الظاهر إذاً؟

الـواقع أن التـراث الإسلامي والعـربـيّ بعد سقـوط بغـداد سنة ٦٥٦هـ تبدَّد الكثير منه، وما بقي تناولته الأيدي المختلفة من هنـا وهناك حتى أصبـح موزّعاً في أمكنة مختلفة في بلاد متعدّدة.

ولولا أن المماليـك كانـوا على وعي تام بهـذه الكتب القيمة التي بقيت بعـد هذه الهجمـة التتاريـة على الفكر الإسـلامي، فقامـوا بإنشـاء المكتبـات المتعدددة وألحقوهـا بمدارسهم، ففي كـل مدرسـة تقريبـاً مكتبة تحـوي شتى ألوان المعارف.

---

(١) انظر: الأشباه والنظائر، تحقيق د. /عبد العال سالم مكرم: ٢٨٢/٣، ٢٨٣.

أقول: لولا هذا الوعي المملوكي لما بقي من تراثنا الإسلامي والعربيّ إلّا القليل الذي لا يروي غليلاً، ولا يبل ظمأ،ومن هذه المكتبات المكتبة المحمودية التي تحدّثنا عنها آنفاً.

ولما فتح السّيوطيّ عينيه على التراث الإسلامي، وجد أنه في حاجة إلى إعادته عن طريق التلخيص والتهذيب، والتبويب والتقسيم.

فالسّيوطيّ من الظلم ان ننكر عبقريته، لأنه ملخص، والتلخيص ظاهرة شائعة في كتبه.

ولا أبالغ إذا قلت: إن التلخيص فن وقدرة، واستيعاب، ولا يستطيع السّيوطيّ أن يلخص إلّا إذا كان متمتعاً بعقل نفاذ، وشخصية قوية.

وإذا لخّص السّيوطيّ فليس تلخيصاً مشوّهاً، ولكن تلخيص العالم الفطن الذي يعرف ماذا يأخذ من الأفكار، وماذا يترك؟

على أن معظم الكتب التي لخّصها السّيوطيّ لم تكن معروفة لدى كثير من الباحثين في عصره، فبتلخيصه قدّم لنا مادّة حيّة من التراث تعتز بها المكتبة الإسلامية.

إلى جانب ذلك كانت هناك مؤلفات مفقودة، وأعيانها غير موجودة، وقد ظفر بها السّيوطيّ، ولو نسبها إلى نفسه لما عرف ذلك أحد، ولكن السّيوطيّ أحسّ في نفسه أن بعض معاصريه قد يتهمه بالسرقة عن غيره، وإن كان في حقيقة الأمر ملخّصاً أو من غير معاصريه الذين عاشوا في رحاب كتبه التي خلدت من بعده، وملأت رفوف المكتبات في العالم الإسلامي والعربيّ، فلإزالة هذه الشبه من النفوس ألّف كتابه الشهير ليضع النقاط على الحروف في قضية السرقة والتلخيص، وهو كتاب: «الفارق بين المصنّف والسارق»،

وهو مقامة طريفة من مقاماتهالبديعية، وقد ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون، وبيّن السبب في هذا المؤلف أو في هذه المقامة، وهو أن أحد المعاصرين انتحل بعض كتبه، ونقل من بعضها من غير إشارة إلى ما نقل عنه، فكتب هذه المقامة ليفضح ذلك السارق، فقال:

«هل أتاك حديث الطارق، وما أدراك ما الطارق، الخائن السارق والمائن المارق الذي توسّل إلينا بأولاد الحنفاء، وتوصّل إلينا بأبناء الخلفاء فأوسعناه برّاً، فقابله بجفاء، وعاملنا بغدر إذ عاملناه بوفاء، وتطفّل علينا في الموائد، فأنعمنا له بشيء ممّا لدينا من الفوائد، وأذنّا لطلبتنا أن يسمحوا له بإعارة مصنّفاتنا «الدرر الفرائد»، فما كان من هذا العديم الذوق إلاّ أنه نبذ الأمانة وراء ظهره وخان، وجنى ثمار غروسنا، وهو فيما جناه جانٍ، وافتض أبكار عرائسنا التي لم يطمثهن إنس قبلنا ولا جانّ».

ثم قال عنه: «وهذا الرجل لست أعرفه في سرّ ولا جهر، وإنما قيل لي عند السؤال، وأنا بالروضة: إنه رجل من أهل ما وراء النهر، فما أجدر هذا السارق الأعجم بأن تقطع منه اليُمْنى، ويؤخذ منه باليمين، وإن حلف على يمين أنه لم يسرق فإنه يمين»[1].

في هذه المقامة وضّح لنا في جلاء أن السّيوطيّ سمّى السارق المختلس: خائناً ومارقاً، وطلب أن تقطع يده اليمنى، لأنه صنع جريمة وارتكب إثماً، فكيف إذاً يتهم السّيوطيّ بالسرقة حينما يلخّص، وبالاختلاس حينما يهذّب، وبالأخذ عن غيره دون أن ينسب.

---

(١) انظر فهرس مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٣٥، ٣٣٦.

والسّيوطيّ رحمه الله يعرف تمام المعرفة أنه خادم للعلم، وخادم العلم لا بدّ أن يكون صادقاً مع نفسه ليكون صادقاً مع غيره.

وفي كتابات السّيوطيّ وتآليفه تحس بهذا الصدق، وتشعر بعمق الإخلاص حينما تقرأ له بحثاً، أو تدرس له كتاباً، حقّاً إنه يشيد بكتابه، ويرفع من قدر مؤلفه، وهذه ليست تزكية للنفس، وإنما هي إحساس صادق في أعماق نفسه، وحقيقة ساطعة في قرارة شعوره ولا يملك إلاّ أن يعبّر عنها بما يحسّ وبما يشعر، وهذه هي الأمانة حتى في نقل الشعور، وعرض الإحساسات.

ومن الأمثلة على صدقه مع الإشادة بكتبه ما ذكره في الوجه الخامس والثلاثين من وجوه إعجاز القرآن الكريم، قال السّيوطيّ بنصّه وفصّه: «وقد أفردها بالتصنيف خلائق من المتقدّمين والمتأخرين كالهروي، وابن أم قاسم وابن هشام، وأنفعها هذا الكتاب[1] البديع المثال، المنيع المقال، بنيت لك مصاعد، ترتقي عليها إلى مقاصد، وتطّلع فيه على فهم الكتاب المنزّل، وفتحت لك من كنوزه كل باب مقفل، فخذه كـ «قُرْصة»[2] نقيّ منقّى، من كل خلط ردي، وكل إن كنت آكلاً، وإلاّ فلا تمنعه من الناقل إن لم تكن ناقلاً».

وبعد هذه الإشادة بكتابه كما نقل ذلك عن شعوره وحسّه يبدأ صفحة أخرى من التواضع الجمّ، والخلق العلميّ، فيقول: «على أني ليس لي فيه مزيّة، وإنما الفضل لمتقدمي علماء الأمة المحمّدية، ملأ الله قبورهم نوراً، وزاد قلوبهم حبوراً، وأفاض من بركاتهم يوم نلقى كتابنا منشوراً، فنظرنا إليه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ولا خفيّة محرّفة عندنا إلاّ عدّها

(١) يقصد بذلك مؤلفه.
(٢) القرصة: من الخبز.

واستقصاها، وأسمعنا تعالى عظيم كلامه، وخاطبنا بعتابه وملامه، وقال: عبدي، أدنُ مني، فدنوت منه بقلب خافق وجل، فيقول: عبدي طالما أمرتك فعصبتني وأمهلتك فما راعيتني، وخوّفتك عتابي فما خفتني، وتسترت بالقبيح من عبادي، وبه بارزتني، ألم أكن على قلبك وجوارحك رقيباً؟ «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً»(1).

فهناك يخرس اللسانْ، وتطيش العقول والأذهان، ولا تطيق من الهيبة البيان، بل تشهد جوارح الإنسان.

اللهم إنك تعلم أنه ليس لي من ينقذني من والد علم ولا ولد علم في ذلك الموقف العظيم غير الاشتغال بخدمة كتابك، واستخراج زبده ودرره، واقتطاف ثمره وأزهاره. فاجعله لنا شافعاً مشفعاً، وخصوصاً هذا الكتاب، فإني أودعت فيه فنون العلم على تنوّعها، ومررت على رياض التفاسير على كثرة عددها، وختمته بأقوال كلية، فخلصت سبائكها، وفوائد مهمّة سبكت تبرها، وأقوال محمّديّة على بعض آياتك رجاء بركتها»(2).

* * *

وبعد، فهذا هو السّيوطيّ المؤلّف، والسّيوطيّ الملخّص، والسيوطيّ الأمين، والسّيوطيّ المتواضع، والسّيوطيّ الذي اشتغل بالعلم من أجل العلم، ولذلك عمّ نفعه، وأزهر ثمره، وكثر خيره، وقدم للمكتبة الإسلامية والعربيّة مائدة حافلة، فيها من كل لون، وبها من كل فنّ، وعليها كل صنف مما يغذّيّ العقول، وينمّي الأفكار، ويبدّد ظلام الليل بالأنوار الساطعة من فكره والأشعة المضيئة من عقله، فلله دره ـ رحمه الله.

□ □ □

---

(1) سورة الإسراء: آية ١٤.

(2) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٥١٨/١.

الباب الثاني

أثر السيوطي في الدراسات اللغوية

الفصل الأول:

مـؤلفـاته اللغـويـة .

الفصل الثاني:

ألوان من الدراسة اللغوية في المزهر .

الفصل الثالث:

أثر السيوطي في الدراسات اللغوية
من خلال القـرآن الكـريم .

الفصل الرابـع :

كلمات لغوية في إطار قضايا فكرية .

الباب الثاني
أثر السيوطي في الدراسات اللغوية

تمهيد:

يعتبر السيوطي في عصره نجماً من نجوم الدراسات اللغوية، فقد كان الرجل بحق مستوعباً للعلوم اللغوية، وذلك بفضل تتبعه لنصوص اللغويين الذين سبقوه في هذا المضمار، والبحث في المصادر اللغوية التي وقعت تحت يده لاستخراج كنوزها، وعرضها عرضاً جذاباً في مؤلفاته ومصنفاته.

وساعده على ذلك حب بالغ وصل به إلى درجة العشق لهذه اللغة مما جعله يسيطر سيطرة كاملة على المكتبة العربية بفنونها، فليس هناك كتاب من كتبها أو مصدر من مصادرها إلا والسيوطي يعرفه معرفة جيدة، لا تغيب عنه شاردة من شوارده، ولا نص من نصوصه، ولا نادرة من نوادره، ولا غريب من غرائبه.

فالرجل ـ رحمه الله ـ أشبه بمكتبة متنقلة اختزنها في خلايا مخه، واكتنزها في صفحات عقله، ومنابع تفكيره مما جعله يقول عن نفسه في مقام الاعتراف بنعمة الله بعيداً عن الفخر والرياء: «ولو شئت أن أكتب من كل مسألة مصنفاً بأقوالها، وأدلّتها النقلية والقياسية، ومداركها، ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك، من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي»[1].

---

(١) حسن المحاضرة: ١/٣٣٩.

وللسيـوطي مؤلفات لغـوية، منهـا ما هـو مفقود، سجلتـه كتب الفهارس ولكنهـا لم تشر إلى أمـاكن وجوده، ومنهـا مـا هـو مخـطوط مـا زال قـابعـاً في سراديب المكتبات في العـالم، وينتظر من ينيـر له الـطريق ليخرج من ظلمته، ومنهـا ما هـو مطبـوع لم يحقق بعـد، ومنها أيضـاً ما هـو مطبـوع محقق وذلك ما نسجله في الفصل التالي:

□ □ □

الفصل الأول
مؤلفاته اللغوية

*** من مؤلفاته اللغوية المفقودة:**

شذا العرْف في إثبات المعنى للحرْف:

هذا الكتاب أشار إليه السيوطي في كتابه: «حسن المحاضرة»[1] ولم تشر فهارس المخطوطات إلى أماكن وجوده.

* * *

٢ ـ (شرح القصيدة الكافية في التصريف لابن مالك):

أشار السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» إليه، ونسبه إلى نفسه[2] وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون مطلع هذه القصيدة، وهو:

أقول له قريضي ما كفاكا   فخذ ما فيه كي تحوي مناكا

قال في كشف الظنون، شرحها جلال الدين السيوطي وأولها: «الحمد لله المنفرد في ملكه بالتصريف الخ، قال، أمليته في ثلاثة مجالس، آخرها سابع عشر من محرّم سنة ٨٨٤هـ، والكتاب مفقود لم تشر الفهارس إلى أماكن وجوده[3].

---

(١) انظر مسلسل رقم (١٩٦) من هذا الكتاب.

(٢) انظر مسلسل رقم (٢٠٠) من هذا الكتاب.

(٣) انظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٢٣٣.

٣ ـ (شرح تصريف العزي):

وتصريف العزّي من تأليف الزنجاني: عبد الوهاب بن إبراهيم، ومن أعظم شروحه شرح مسعود بن عمر التفتازاني الذي قمت بتحقيقه[١]، وقد أشار السيوطي إليه ضمن كتبه التي احتواها: «حسن المحاضرة» وقد سبقت الإشارة إليه في هذا الكتاب.

٤ ـ (شرح ضروري التصريف):

وهو مختصر في التصريف لابن مالك صاحب الألفية المتوفى ٦٧٢هـ.

وهذا مفقود حيث لم تشر إلى أماكن وجوده كتب الفهارس.

* * *

* من مؤلفاته اللغوية المخطوطة والمعروفة:

٥ ـ (تعريف الأعجم بحروف المعجم):

هذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة ببرلين رقم ١٤ / ١٣[٢]. وقد أشار إليه السيوطي في «حسن المحاضرة» ضمن مؤلفاته في فنون العربية، وقد وردت إشارة إلى هذا الكتاب في كتاب: «الحاوي للفتاوى» للسيوطي. فمن الأسئلة التكرورية التي وردت إلى السيوطي من التكرور في شوال سنة ٨٩٨هـ سؤال من رجل معاصر يسأل عن حروف التّهجّي، ونص السؤال كما ورد في الحاوي للفتاوي:

«وبلغني أنّك ألّفت شيئاً في حروف التّهجّي، فلا يليق بكرمك أن

---

(١) نشرته ذات السلاسل بالكويت.

(٢) انظر مسلسل رقم (٢٠٤) في مؤلفات السّيوطيّ.

تكتمه عنا، وأنا أحبك في الله، وإني لمشتاق إلى لقائك غاية. واسمي محمد بن محمد بن علي اللّمتوني، فلا تنسني في دعائك والسلام»[1].

فأجابه السيوطي بما نصه: «وسألت عن الرسالة التي في حروف في التهجي، وسأرسل لكم منها نسخة أيضاً، وإني أحبّك في الله كما أحببتني، ونرجو من فضل الله أن يجمعنا في الجنّة من غير عذاب سبق، ولا تنسني من دعائك، والسلام عليك ورحمة الله»[1].

* * *

** ومن مؤلفاته اللغوية المطبوعة:**

٦ ـ المتوكلي:

وهو كتاب مشتمل على الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم بغير العربية ألفه باسم المتوكل على الله الخليفة العباسي بمصر.

وقد طبع بمطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٤٨هـ. وذكر ناشره أنه طبعه على أصل من ملك السيد عبد الباقي الحسني الجزائري، ونسبه إليه خليفة في كشف الظنون، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي[2].

** ومن أبحاثه اللغوية المطبوعة:**

٧ ـ ألوية النصر في «خصيصي» بالقصر:

أشرت إلى هذا البحث، وسجّلت نصوصه في مجال الخلافات الفكرية بينه وبين معاصريه، ومن أهمّهم المحدّث المؤرّخ شمس الدين السّخاوي[3]

* * *

---

(١) الحاوي للفتاوي: ١/٢٩١.

(٢) المرجع نفسه: ١/٢٩٤.

(٣) انظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٣٠٥.

على أنّ أهمّ كتاب لغوي ألّفه جلال الدين السّيوطي هو كتاب: «المزهر» الذي طبقت شهرته الآفاق، وأبدع فيه السّيوطي أيّما إبداع، ولأهميّة هذا الكتاب نخصّه بمزيد من البحث.

* * *

(١) انظر صفحة ١٨٥ ــ ١٨٩ من هذا الكتاب.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها
ومنهجه في الدراسة اللغوية

على الرغم من أنّ كتاب: «المزهر» طبع طبعات عِدّة، فإنه لم يحقق حتى الآن تحقيقاً علمياً.

أمّا طبعاته فهي: طبعة بولاق عام ١٢٨٢هـ، ثم طبعة السعادة بمصر، ثم طبعة صبيح بالقاهرة[1]، ثم طبع أخيراً طبعة مصححة مشروحة بعناية محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد (أبو الفضل) وعلي البجاوي[2]».

ومما يدعو للعجب أنّ لهذا الكتاب الثمين نسخاً مخطوطة، مبعثرة في مكتبات العالم ومع ذلك فإن أساتذتنا الفضلاء لم يقوموابتحقيقه تحقيقاً علمياً، وذلك بإحضار نسخه المخطوطة ومقابلة بعضها ببعض لمعرفة ما زاد وما نقص، وتوثيق ما ضُبِطَ وما نُقِل.

ومن الحق أن نقول : إن أساتذتنا الفضلاء كانوا على مستوى من الخلق العظيم حال بينهم وبين أن يسجلوا على غلاف هذا الكتاب كلمة «تحقيق» وإنما وضعوا على غلافه هذه العبارة: «شرحه وضبطه وصححهوعنون موضوعاته، وعلق حواشيه».

---

(١) انظر مكتبة الجلال السّيوطيّ: ٤١٥.

(٢) طبع عيسى البابي الحلبي.

محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

وقد بينوا ذلك في عبارة صريحة بقولهم في تقديمهم لهذا الكتاب: «وهذا الكتاب طبع ثلاث مرات: أولها بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٢هـ وثانيها بمطبعة السعادة، والأخيرة بمطبعة صبيح بالقاهرة.

ولما عزمنا على طبع هذا الكتاب رجعنا إلى الثلاث الطبعات، فوجدناها جميعاً صورة واحدة لا تختلف واحدة عن الأخرى، ورأيناها كلها قد ملئت تحريفاً وتصحيفاً.

ولما كان السّيوطي قد نقل كتابه كما أسلفنا ـ من كتب اللغة، فقد رجعنا في تصحيحه إلى ما عثرنا عليه من مراجعه الأصلية أولاً، ثم إلى المعجمات اللغوية ثانياً، وصححنا مئات من الأخطاء التي كانت قد شوّهت الكتاب وحالت دون الإفادة منه[1]».

ومما يدعو إلى العجب أن أساتذتنا الفضلاء علقوا في الهامش على نسخة المطبعة الأميرية بقولهم في هامش رقم (١): «رجعنا إلى دار الكتب نرجو إطلاعنا على نسخ الكتاب المخطوطة، فأجابنا الثقات فيها أن المطبوعة الأميرية لا تختلف في حرف واحد عن النسخ المخطوطة من الكتاب» وكأنهم اقتنعوا بهذه الإجابة، قائلين في أنفسهم: «قطعت جهيزة قول كل خطيب».

وإنني في حيرة من أمري كيف يقع هؤلاء الأساتذة الكبار الذين يعتبرون في عهدهم من رواد التراث العربي، ومن قوّاد اللغة العربية في

---

(١) انظر مقدمة الكتاب.

هذا الخطأ ، هل يكفي الاقتناع بأقوال بعض موظفي المخطوطات بأن هذه المخطوطات لا تختلف عن النسخة الأميرية،؟ هل هؤلاء الموظفون يستطيعون أن يحكموا هذا الحكم إلّا بعد مقابلة النسخة الأميرية بالنُسَخ المخطوطة؟ .

وهل نسخ دار الكتاب المصرية وحدها تكفي بالإقتناع بما قال الموظفون فهناك نسخ مخطوطة من هذا الكتاب موزعة في مكتبات العالم خلاف نسخ دار الكتب المصرية؟ .

أكبر الظن أن أساتذتنا الكبار رأوا أن مقابلة النسخة الأميرية بالنسخ المخطوطة يكلّف جهداً، ويأخذ وقتاً، ويحملهم على العناء والتعب والسهر والمشقة، فآثروا السلامة، ورضوا من الغنيمة بالإياب.

على أنّ هناك عبارة في هامش التقديم، وهي تعليق على قولهم في التقديم: « ولمّا كان السّيوطي قدنقل كتابه كما أسلفنا ـ من كتب اللغة فقد رجعنا في تصحيحه إلى ما عثرنا عليه من مراجعه الأصلية أولاً » فقد جاء التعليق على النحو التالي:

«بعض مراجع المزهر مفقود أو غير مطبوع»

أقول إذا كانت بعض مراجع المزهر مفقودة أو مخطوطة غير مطبوعة، فكيف إذا صححتم ما عثرتم عليه من المراجع الأصلية؟ وإذا كان البعض الآخر مخطوطاً وعثرتم عليه وصححتم في ضوئه فما هو هذا البعض الآخر المخطوط؟ إنه ليس له ذكر في هوامش الكتاب، وليس له وصف في مقدمة الكتاب.

وفي رأيي أنّ هذه التعليقات توحي بعقدة الذنب في اللاشعور لأن الواجب كان يقضي بتتبع مخطوطات المزهر، وإخراج هذا الكتاب وتحقيقه في ضوئها تحقيقاً علمياً.

هذه ناحية، وناحية أخرى وهي أن شواهد هذا الكتاب لم تخرّج تخريجاً علمياً، فمعظمها يساق بدون الإشارة في الهوامش إلى القائل والديوان، والمصادر التي ورد ذكر الشواهد فيها إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

ولذلك فإني أرجو أن يوفقني الله تعالى أن أعيش في محراب هذا الكتاب لإخراجه إخراجاً علمياً كما فعلت من قبل في كتابيه: همع الهوامع، والأشباه والنظائر.

□ □ □

رأي الناشرين الشارحين للمزهر في «المزهر»

في تقديم أساتذتنا الذين نشروا هذا الكتاب نقد للسّيوطي ، لأنه ليس له في هذا الكتاب على ضخامته «إلاّ الجمع والترتيب عدا بدوات قليلة، نجدها مبعثرة في ثنايا الكتاب، وفقرات قد يقدم بها بين يديّ الباب أو يختتمه»[1] .

والواقع ليس في هذا نقصان من شخصيّة السّيوطيّ، أوغضّ من قدره، فإن تنسيق النصوص واختيارها، والترتيب بينها، ووضع كل نوع مع أخيه وكل قسم مع نظيره، وراء فكرة جمعت المتشابه، ووصلت بين المتفرّق.

أقول: إن الذي يفعل ذلك يعرف كل المعرفة أسرار النصوص، فيضع كل نصّ في مكانه، وكل لفظ في موضعه، وكل نوع في بابه، وكل قسم في فصله، وكل فرع تحت أصله، وهذا تجديد، ولهذا كان السّيوطيّ على حقّ حينما قال في مقدمة كتابه:

«هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع، وقد كان كثير ممّن تقدّم يلم بأشياء من ذلك، ويعتني ببيانها بتمهيد المسالك غير أن هذا

(١) انظر مقدمة التحقيق.

المجموع لم يسبقني إليه سابق، ولا طرق سبيله قبلي طارق، وقد سمّيته بـ «المزهر في علوم اللغة» وهذا أكبر رد على الناشرين لهذا الكتاب، وإذا لم يكن هذا إبداعاً فماذا يكون الإبداع.

الموضوعات التي احتواها «المزهر»:

السّيوطيّ رجل منهجيّ في التأليف، لا يترك المسائل تتشابك، والموضوعات يختلط بعضها ببعض ممّا يؤدي إلى الاضطراب في الفهم، والعجز في معرفة فحوى النصوص ولهذا صنع لكتابه فهرساً يحتوي على الموضوعات، وأنواعها، وفروعها، وتقاسيمها، وإقامة الحدود والفواصل بينها حتى لا تضطرب المعاني، وتختلط الفروع، وحتى يبقى كل فرع على حدة في قالبه المرسوم، وفي وضعه الموسوم، وبذلك تحصل الفائدة، وتجنى الثمرة.

وقد شعر السّيوطيّ أن كتابه «المزهر» يحتوي على خمسين موضوعاً في اللغة وأنها لو تركت وشأنها من غير تحديد لضاعت المعالم بين موضوع وموضوع وذابت الفوارق بين نصّ ونصّ، ولهذا بادر بعد تقديمه لكتابه أن يقدّم للقارىء فهرست موضوعاته، فقال:

«وهذا فهرست أنواعه:

النوع الأول: معرفة الصحيح الثابت.

النوع الثاني: معرفة ما روي من اللغة ولم يصحّ ولم يثبت.

النوع الثالث: معرفة المتواتر والآحاد.

النوع الرابع: معرفة المرسل والمنقطع.

النوع الخامس: معرفة الأفراد.

النوع السادس: معرفة من تقبل روايته ومن تُرَدّ.

النوع السابع : معرفة طرق الأخذ والتّحمّل.

النوع الثامن : معرفة المصنوع وهو الموضوع ، ويذكر فيه المدرج والمسروق.

وهذه الأنواع الثمانية راجعة إلى اللغة من حيث الإسناد.

النوع التاسع : معرفة الفصيح.

النوع العاشر: معرفة الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات.

النوع الحادي عشر: معرفة الرديء المذموم من اللغات.

النوع الثاني عشر: معرفة المطّرد والشّاذ.

النوع الثالث عشر: معرفة الحوشي والغرائب والشوارد والنوادر.

النوع الرابع عشر: معرفة المهمل والمستعمل.

النوع الخامس عشر: معرفة المفاريد.

النوع السادس عشر: معرفة مختلف اللغة.

النوع السابع عشر: معرفة تداخل اللغات.

النوع الثامن عشر: معرفة توافق اللغات.

النوع التاسع عشر: معرفة المعرب.

النوع العشرون : معرفة الألفاظ الإسلامية.

النوع الحادي والعشرون : معرفة المولّد.

وهذه الأنواع الثلاثة عشر راجعة إلى اللغة من حيث الألفاظ.

النوع الثاني والعشرون : معرفة خصائص اللغة.

النوع الثالث والعشرون : معرفة الاشتقاق.

النوع الرابع والعشرون : معرفة الحقيقة والمجاز.

النوع الخامس والعشرون : معرفة المشترك.

النوع السادس والعشرون : معرفة الأضداد.

النوع السابع والعشرون: معرفة المترادف.

النوع الثامن والعشرون: معرفة الإتباع.

النوع التاسع والعشرون: معرفة الخاص والعام.

النوع الثلاثون: معرفة المطلق والمقيّد.

النوع الحادي والثلاثون: معرفة المشجّر.

النوع الثاني والثلاثون: معرفة الإبدال.

النوع الثالث والثلاثون: معرفة القَلْب.

النوع الرابع والثلاثون: معرفة النّحت.

وهذه الأنواع الثلاثة عشر راجعة إلى اللغة من حيث المعنى.

النوع الخامس والثلاثون: معرفة الأمثال.

النوع السادس والثلاثون: معرفة الآباء والأمهات، والأبناء والبنات، والإخوة والأخوات، والأذواء والذوات.

النوع السابع والثلاثون: معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف.

النوع الثامن والثلاثون: معرفة ما ورد بوجهين بحيث إذا قرأه الألثغ لا يعاب.

النوع التاسع والثلاثون: معرفة الملاحن والألغاز، وفتيا فقيه العرب.

وهذه الأنواع الخمسة راجعة إلى اللغة من حيث لطائفها وملحها.

النوع الأربعون: معرفة الأشباه والنظائر.

وهذا راجع إلى اللغة وضبط مفاريدها.

النوع الحادي والأربعون: معرفة آداب اللّغوي.

النوع الثاني والأربعون: معرفة كفاية اللغة.

النوع الثالث والأربعون: معرفة التصحيف والتحريف.

النوع الرابع والأربعون: معرفة الطبقات والحفّاظ، والثّقات والضعفاء.

النوع الخامس والأربعون: معرفة الأسماء والكُنى والألقاب، والأنساب.

النوع السادس والأربعون: معرفة المؤتلف والمختلف.

النوع السابع والأربعون: معرفة المتفق والمفترق.

النوع الثامن والأربعون: معرفة المواليد والوفيّات.

وهذه الأنواع الثمانية راجعة إلى اللغة ورواتها.

النوع التاسع والأربعون: معرفة الشعر والشعراء.

النوع الخمســون: معرفة أغلاط العرب.

□ □ □

مصادر كتاب «المزهر»

تعدّدت مصادر كتاب «المزهر» للسّيوطيّ فبلغت ما يقرب ١٧١ مصدراً، وبعض هذه المصادر مفقود في المكتبة الإسلامية والعربيّة، ولولا النصوص التي نقلها السّيوطيّ منها لما عرفنا عنها شيئاً.

وقد قلت عند حديثي عن الأسباب الكامنة وراء مؤلفات السّيوطيّ الكثيرة، إن التراث الإسلامي العربيّ بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد التتار تبدّد الكثير منه وتفرّق، وما بقي منه تناولته الأيدي المختلفة من هنا وهناك حتى أصبح موزّعاً في أمكنة مختلفة في بلاد متعدّدة، ولولا جهد المماليك في إنشاء المكتبات العلمية لتضم هذه المصادر الموزعة والمراجع المتفرّقة لضاع الكثير من معالم حضارتنا التي احتوتها هذه المؤلّفات، ومكتبة المحموديّة التي تحدّثت عنها آنفاً واحدة من أعظم المكتبات التي تخرج فيها أساطين العلماء، وأكابر المفكرين في عصر السّيوطيّ.

والسّيوطيّ نفسه سيطر على مؤلفات هذه المكتبة بفتوى سجلت نصّها فيما سبق لتبيح له أن يستعير منها ما يشاء في الوقت الذي يريد دون رسوم وشروط.

ولهذا فإننا لا نعجب إذا رأينا السيوطي ينقل هذه النصوص الكثيرة من مصادر عزَّ الكثير منها على علماء عصره، فالرجل جعل من نفسه راهباً في حقل هذه المؤلفات مما جعله خبيراً بها، عالماً بكل ما فيها، مستوعباً لكل موضوعاتها.

واستطاع السّيوطيّ من هذا التراث الضخم الذي بين يديه أن يؤلّف هذه المؤلّفات الكثيرة عن طريق التلخيص والتهذيب، والتبويب والتقسيم، وإذا رماه حسّاده بهذه الظاهرة، وأنه لا جهد له إلاّ جهد النقل كما قال معاصروه، أو كما قال شارحو كتابه في تقديمهم لهذا الكتاب فإنني لا أعترف بهذا الاتهام، لأن التلخيص فن، وقدرة واستيعاب ووراءه فكرة معيّنة تندرج تحتها هذه التلخيصات التي تمثلها النصوص التي يوردها للفكرة التي يعرضها.

وماذا يصنع المؤلفون في عصرنا الحاضر أكثر من هذا، فكرة تبدو، وخاطر يخطر، ثم خطوط عريضة أوّلاً لهذه الفكرة، تتلوها خطوط دقيقة حينما تكبر الفكرة وتتفرّع كما تتفرّع الأغصان من جذر نبت في الأرض، فإذا أثمرت الفروع نقول: إن الشجرة قد آتت أكلها، وكذلك الكتاب حينما تتشابك فروعه، وتكثر أغصانه، وتطيب ثماره، نقول: إنه قد آتى أكله، وحان قطافه.

فالسّيوطيّ في مؤلّفاته لا ينقل اعتباطاً، وإنما ينقل في ضوء فكرة يحاول أن يبرزها مستعيناً بالمصادر التي بين يديه، والنصوص التي تدعم هذه الفكرة حتى تنضج، فتزدهر ثمارها.

وهكذا كان «المزهر» الذي أزهرت ثماره، وازدحمت أفكاره، وتعدّدت مسائله وكثرت مصادره.

* * *

أمّا مصادر كتاب «المزهر» فإني أنقلها كما وردت في فهرس «المزهر» ليقف القارىء على الجهد المبذول في نقل النصوص منها، وحسن استخدامها، وطريقة الانتفاع بها:

١ ـ الأباء والأمهات، للأحول.

٢ ـ الإبدال، لابن السكيت.
٣ ـ كتاب الأبنية، لابن القطاع.
٤ ـ الأحكام، للآمدي.
٥ ـ أخبار المذاكرة ونشوار المحاضرة، للتنوخيّ.
٦ ـ أدب الكاتب، لابن قتيبة.
٧ ـ الأدب المفرد، للبخاري.
٨ ـ الاستدراك، لأبي بكر الزبيدي.
٩ ـ الارتشاف، لأبي حيان.
١٠ ـ الأشراف، لابن أبي الدنيا.
١١ ـ إصلاح المنطق، لابن السكيت.
١٢ ـ كتاب الأصوات، لابن السكيت.
١٣ ـ الأصول، لابن السرّاج.
١٤ ـ الأضداد، لأبي داود.
١٥ ـ الأضداد، لأبي عبيد.
١٦ ـ الأضداد، لابن الأنباري.
١٧ ـ الاعتضاد، لابن مالك.
١٨ ـ الأغاني، لأبي الفرج.
١٩ ـ كتاب الأفعال، لابن القوطية.
٢٠ ـ الألفاظ والحروف، لأبي نصر الفارابي.
٢١ ـ الألقاب، للشيرازي.
٢٢ ـ إلماع الأتباع، لابن فارس.
٢٣ ـ آمالي ثعلب.
٢٤ ـ آمالي ابن دريد.

٢٥ ـ آمالي الزّجاجي.
٢٦ ـ آمالي أبـي عبيد.
٢٧ ـ آمالي القالي.
٢٨ ـ الأنواء، لابن قتيبة.
٢٩ ـ الأوائل، للعسكري.
٣٠ ـ الأيام والليالي، للفرّاء.
٣١ ـ أيام العرب، لأبـي عبيدة.
٣٢ ـ الإيضاح، لأبـي علي الفارسي.
٣٣ ـ البداية والنهاية، لابن كثير.
٣٤ ـ البحر المحيط، للزركشي.
٣٥ ـ البرهان، لإمام الحرمين.
٣٦ ـ تاريـخ حلب، لابن العديم.
٣٧ ـ تاريـخ المسعوديّ.
٣٨ ـ تاريـخ دمشق، لابن عساكر.
٣٩ ـ التاريـخ، لابن النجار.
٤٠ ـ تحرير التنبيه، للنووي.
٤١ ـ التحصيل، لسراج الدين الأرموي.
٤٢ ـ تذكرة ابن مكتوم.
٤٣ ـ الترقيص، لمحمد بن المعلى الأزدي.
٤٤ ـ ترقيق الأسل لتصنيف العسل، للفيروزابادي.
٤٥ ـ التسهيل، لابن مالك.
٤٦ ـ التصحيف والتحريف، للعسكري.
٤٧ ـ التفسير، لابن جزي.

٤٨ ـ التفسير، لابن وكيع.

٤٩ ـ التلخيص، لإمام الحرمين.

٥٠ ـ التنوير، لابن دحية.

٥١ ـ تهذيب إصلاح المنطق، للتبريزي.

٥٢ ـ تهذيب اللغة، للأزهري.

٥٣ ـ جامع الأمثال، لأبي علي أحمد بن إسماعيل القمي النحوي.

٥٤ ـ جزء أبي أحمد الغطريف.

٥٥ ـ جمع الجوامع، للسّبكي.

٥٦ ـ الجمهرة،لابن دريد.

٥٧ ـ الجوهرة، للصاحب بن عبّاد.

٥٨ ـ الحاصل، لتاج الدين الأرموي.

٥٩ ـ الخصائص، لابن جني.

٦٠ ـ ديوان الأدب، للفارابي.

٦١ ـ ديوان ذي الرّمّة.

٦٢ ـ ديوان رسائل الشريف بن القاسم علي بن الحسين المصري.

٦٣ ـ ذيل الفصيح، للموفق البغدادي.

٦٤ ـ ربيع الأبرار، للزمخشري.

٦٥ ـ رسالة في الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن السّرى.

٦٦ ـ رسالة في الوضع لعضد الدين الإيجي.

٦٧ ـ رفع الحاجب، لابن السّبكي.

٦٨ ـ الروضة، للإمام النووي.

٦٩ ـ زاد المسافر (بدون نسبة).

٧٠ ـ سرّ الفصاحة، للخفاجي.

٧١ ــ سرّ الصناعة، لابن جني.

٧٢ ــ شرح أدب الكاتب، للزجاجي.

٧٣ ــ شرح التسهيل لابن حيّان.

٧٤ ــ شرح جمع الجوامع، لعز الدين بن جماعة.

٧٥ ــ شرح الخطب النباتية، لعبد اللطيف البغدادي.

٧٦ ــ شرح الشافية، للجار بردى.

٧٧ ــ شجر الدر، لأبي الطيب اللغوي.

٧٨ ــ شرح شعر هذيل، للسكري.

٧٩ ــ شرح شواهد الجمل، لأحمد بن عبد الجليل التدميري.

٨٠ ــ شرح الشواهد لابن هشام.

٨١ ــ شرح العنوان لابن دقيق العيد.

٨٢ ــ شرح الفصيح للمرزوقي.

٨٣ ــ شرح الفصيح، لابن درستويه.

٨٤ ــ شرح الفصيح، لابن خالويه.

٨٥ ــ شرح الفصيح للبطليوسي.

٨٦ ــ شرح الفصول لابن الابار.

٨٧ ــ شرح الكامل لابن إسحاق البطليوسيّ

٨٨ ــ شرح المحصول، للقرافي.

٨٩ ــ شرح المعلقات، لابن النحاس.

٩٠ ــ شرح المفصل، للزملكاني.

٩١ ــ شرح المقامات، لسلامة الأنباري.

٩٢ ــ شرح المقامات، للمطرزي.

٩٣ ــ شرح مقصورة ابن دريد، لابن خالويه.

٩٤ ـ شرح المهاج، للتاج السبكي.
٩٥ ـ شرح نكت الحماسة، للترميسي.
٩٦ ـ شعب الإيمان، للبيهقي.
٩٧ ـ صحيح البخاري.
٩٨ ـ صحيح مسلم
٩٩ ـ صحاح الجوهري.
١٠٠ ـ طبقات الشعراء، لابن سلام.
١٠١ ـ طبقات الشعراء،لابن شبة.
١٠٢ ـ طبقات النحويين، للزبيديّ.
١٠٣ ـ الطريق إلى الفصاحة، لابن الفطيس.
١٠٤ ـ عروس الأفراح، لبهاء الدين السبكي.
١٠٥ ـ كتاب العسل، للفيروزابادي.
١٠٦ ـ العمدة، لابن رشيق.
١٠٧ ـ عمل من طبَّ لمن حبَّ، لبدر الدين الزركشي.
١٠٨ ـ كتاب العين.
١٠٩ ـ الغرّة، لابن الدّهان.
١١٠ ـ الغريب المصنف، لأبي عبيد.
١١١ ـ كتاب الفرق، لأبي محمد البطليوسي.
١١٢ ـ الفتاوي، للعز بن عبد السلام.
١١٣ ـ الفروق، لأبي الطيب اللغوي.
١١٤ ـ الفصيح لثعلب.
١١٥ ـ فعلت وأفعلت، للزجاج.
١١٦ ـ فعال، للصاغاني.

١١٧ ــ فقه اللغة، للثعالبي.

١١٨ ــ فقه اللغة، لابن فارس.

١١٩ ــ الفهرست، لأبي الحسن الشاري.

١٢٠ ــ فوائد النجيرمي.

١٢١ ــ القاموس للفيروزابادي.

١٢٢ ــ الكامل، للمبرد.

١٢٣ ــ الكتاب، لسيبويه.

٢٤١ ــ لمع الأدلّة في أصول النحو لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري.

١٢٥ ــ كتاب ليس، لابن خالويه.

١٢٦ ــ الليل والنهار، لأبي حاتم.

١٢٧ ــ ما اتفق لفظه واختلف معناه، للمبرد.

١٢٨ ــ المبتدأ، لإسحاق بن بشر.

١٢٩ ــ متشابه القبائل، لابن حبيب.

١٣٠ ــ المتفق والمفترق، للخطيب.

١٣١ ــ متفق القبائل ومفترقها، لابن حبيب.

١٣٢ ــ المثنى، لابن السكيت.

١٣٣ ــ مجاز الكلام، وتصاريفه، لثعلب.

١٣٤ ــ المجتبى، لابن دريد.

١٣٥ ــ المجمل، لابن فارس.

١٣٦ ــ المحصول، لفخر الدين الرازي.

١٣٧ ــ المحكم، لابن سيده.

١٣٨ ــ المختصر لابن الحاجب.

١٣٩ ــ مختصر العين.

١٤٠ ــ مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي.

١٤١ ــ المرصع لابن الأثير.

١٤٢ ــ المستوفى، لابن الفرحان.

١٤٣ ــ مسند الفردوس، للديلمي.

١٤٤ ــ كتاب المشاكلة، لأبي بكر عبد الله الأزدي.

١٤٥ ــ الصاحب لأبي بكر بن أبي داود.

١٤٦ ــ معجم الأدباء، لياقوت.

١٤٧ ــ المعرَّب، للجواليقيّ.

١٤٨ ــ مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني.

١٤٩ ــ مقاتل الفرسان، لأبي عبيدة.

١٥٠ ــ مقامات الحريري.

١٥١ ــ المقصور والممدود، لابن السكيت.

١٥٢ ــ المقصور والممدود، لابن سيدة.

١٥٣ ــ المقصور والممدود، للقالي.

١٥٤ ــ المقصور والممدود، للأندلسي.

١٥٥ ــ المقصور والممدود، لابن ولّاد.

١٥٦ ــ الملخص في أصول الفقه، للقاضي عبد الوهاب.

١٥٧ ــ الملاحن، لابن دريد.

١٥٨ ــ المنحول، للغزالي.

١٥٩ ــ المنهاج، لحازم.

١٦٠ ــ المؤتلف والمختلف، للآمدي.

١٦١ ــ الموازنة، لحمزة بن الحسن الأصفهاني.

١٦٢ ـ نظم الفرائد، لابن مالك.

١٦٣ ـ نوادر ابن الاعرابي.

١٦٤ ـ نوادر أبي زيد.

١٦٥ ـ نوادر أبي عمرو الشيباني.

١٦٦ ـ نوادر النجيرمي.

١٦٧ ـ نوادر اليزيدي.

١٦٨ ـ نوادر يونس.

١٦٩ ـ الوشاح، لابن دريد.

١٧٠ ـ الوصول إلى الأصول، لأبي فتح بن برهان.

١٧١ ـ يتيمة الدهر، للثعالبي.

* * *

وبعد، فهذه الكثرة من المؤلفات التي وقعت في يدّ السّيوطي تدلّ دلالة واضحة على غزارة علمه، لأنه استطاع أن يأخذ منها، ويقتبس من نصوصها ما ساعده على إنجاز مزهره في هذا المستوى الرائع من تلاحم الموضوعات، وتناسق النصوص في ظلال فكر مرتب منظم.

على أن هذه الكثرة تدل دلالة واضحة على الازدهار الفكري في هذا العصر، إذ كيف ينتشر الكتاب هذا الانتشار، وليس هناك وسيلة لانتشاره غير أقلام النساخ.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على هذه المصادر لرأينا أن هذه المصادر لم تكن على مستوى واحد في النقل منها، والأخذ عنها.

فبعض المصادر نقل السّيوطي عنها كثيراً من النصوص، والبعض الآخر نقل منه نصاً أو نصين أو ثلاثة تبعاً لما يقتضيه الموقف في النقل فمن المصادر التي كثر النقل منها ما يلي:

١ ــ الصحاح، للجوهري. فقد نقل منه السيوطي ما يقرب مِن ١٣٨ نصاً.

٢ ــ يليه أمالي القالي. فقد نقل منه ما يقرب من ٨٩ نصاً.

٣ ــ وتأتي بعده في كثرة النقل الجمهرة، لابن دريد. فقد نقل منها ما يقرب من ٦٤ نصاً.

٤ ــ وديوان الأدب للفارابي. نقل منه ٥٩ نصاً.

ومن الغريب أنّ الخصائص، لابن جني على الرغم من شهرته، ومن الاعتماد عليه في كتبه الأخرى في كثير من النصوص كالأشباه والهمع، فإن السّيوطي لم ينقل منه في المزهر إلّا ١٥ نصاً.

ومن المصادر التي نقل منها نصاً واحداً من كل مصدر:

١ ــ الأصول، لابن السّراج.

٢ ــ الأضداد، لأبي عبيد.

٣ ــ الألفاظ والحروف، لأبي نصر الفارابي.

٤ ــ الأضداد، لابن الأنباري.

٥ ــ آمالي أبي عبيد.

٦ ــ الأبنية، لابن القطاع.

٧ ــ الإيضاح، لأبي علي الفارسي... إلخ.

وما بين النص الواحد والنصوص الكثيرة في هذه المصادر تفاوت النقل، قلّة وكثرة تبعاً لمواقف الاستشهاد في استدعاء النصوص لتأييد فكرة، وتوضيح غرض، وبيان مقصود.

* * *

وقبل أن نختم الحديث عن المصادر، أحبّ أن أبيّن بعض الحقائق

التي غفل عنها بعض الدارسين في مجال نقل هذه النصوص من هذه المصادر.

فمن الحقائق أنّ السيوطي لم يكن بدعاً في هذا النقل الذي جعله موضع اتهام عند بعض القدماء وبعض المعاصرين.

وكأنّ السّيوطي أحسّ بما يدور في خلجات نفوس ناقديه، فصدر كتابه «المزهر» بمقالة ذكرها أبو الحسن أحمد بن فارس في أوّل كتابه: «فقه اللغة»، ليبيّن لهم أنه وإن نقل أو لخّص، أو جمع مفرق أو اختصر مبسوط، فإنه يجري على سنن من قبله ممن سبقه من العلماء الكبار أمثال ابن فارس.

قال السّيوطيّ يوضح هذه القضيّة بما نصّه:

«وقبل الشروع في الكتاب نصدّر بمقالة ذكرها أبو الحسين أحمد بن فارس في أول كتابه «فقه اللغة»:

قال: اعلم أن لعلم العرب أصلاً وفرعاً، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات، كقولنا: رجل وفرس، وطويل وقصير، وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلّم.

وأمّا الأصل فالقول على وضع اللغة وأوّليتها ومنشئها، ثم على رسوم العرب في مخاطباتها، وما لها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً».

إلى أن يقول:

«ثم قال: والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرّق في أصناف كتب العلماء المتقدمين (رضي الله عنهم، وجزاهم عنا أفضل الجزاء)، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرّق». انتهى.

قال السّيوطيّ: «وبمثل قوله أقول في هذا الكتاب، وهـذا حين الشروع في المقصود بعون الله المعبود».

□ □ □

منهـج السّيوطي في «المزهـر»

السّمة العامّة في منهج السّيوطيّ من حيث التقاسيم والأنواع هي سمـة مناهج أهل الحديث، ولذلك قال في مقدمة كتابه: «حاكيت به علوم الحديث من التقاسيم والأنواع»:

ومما لا شكّ فيه أنّ السّيوطيّ سار في هذا المنهج بدقّة وإتقان، فلا يسوق خبراً إلاّ برواية، ولا يأتي بنصّ إلاّ وهو موثّق من حيث المصدر، ومن حيث الراوي.

فقضية اللغة أهي توقيف ووحي أم اصطلاح وتواطؤ؟

عرضها السّيوطي في كتابه عرضاً جذّاباً على النحو التالي:

١ ـ عرض رأي ابن فارس بأن لغة العرب توقيف، وذكر أدلته معتمداً على ما ذكره ابن عباس في هذه القضيّة.

وابن فارس حينما أصدر حكمه بأن لغة العرب توقيف توقع من معارضيه أدلـة على هدم هـذا الحكم ونقده، فـردّ عليهم ابن فارس أدلّتهم، وبيّن لهم موضع الفساد فيها، وينهي السّيوطي رأي ابن فارس في النصوص التي نقلها من كتابه، بقوله: «هذا كله كلام ابن فارس»[1].

---

(١) «المزهر»: ١/١٠.

وذلك ليزيل شبهة، ويرفع لبساً، فربما ظن القارىء أن في هذه النصوص كلاماً من كلام السّيوطيّ، أو قولاً من أقواله فلأمانته العلمية أنهى حديث ابن فارس بقوله السابق، ثم يشير إلى أنّ ابن فارس كان من أهل السنّة، ولأهل السنّة منهج وطريق، فجاء كلام ابن فارس في هذه القضية وفق هذا المنهج سائراً في هذا الطريق.

٢ ـ ولحبّ السّيوطيّ دراسة هذه القضية من جميع جوانبها، يذكر الرأي المخالف لرأي ابن فارس، وهو رأي أبي عليّ الفارسيّ وتلميذه ابن جني مبيناً قبل أن يسوق رأيهما بأنهما معتزليّين، ليكون القارىء على بيّنة من هذا الرأي ليعرف السرّ في هذا الخلاف بين الرأيين، وأن وراءه مذهباً، والحامل عليه فكراً دينياً سنياً أو معتزلاً.

وعلى عادة السّيوطيّ بعد أن يطول حديث النقل بنصوصه المتعدّدة يبادر في نهاية النقل فيقول: «هذا كلّه كلام ابن جني»[١].

٣ ـ وحينما يعرض السّيوطيّ رأي الإمام فخر الدين الرازي فإنه يعرضه لا بنصّه وفصّه، كما يقولون، ولكن يعرضه ملخصاً، وإذا كان الأمر كذلك ما دام الأسلوب أسلوبه فلا يذكر في نهاية النصوص التي ساقها العبارة العادية، وهي: انتهى كلام الإمام فخر الدين مثلاً، وإنما يقول: انتهى، لأنّ اللفظ لفظه والكلام كلامه، وإن كانت الفكرة والمعاني لغيره. ولبيان هذا المنهج بالمثال أعرض طرفاً من هذه القضيّة كما وردت في كتاب «المزهر»:

---

(١) ١/١٦.

قضية اللغة أتوقيف هي ووحيٌ
أم اصطـلاح وتـواطـؤ؟

من منهج السيوطيّ أن يجعل لكل قضية من قضاياه مقدمة أو تمهيداً موجزاً لهذه القضية، فبدأ قبل أن يدخل في صميمها ليبيّن لنا: حدّ اللغة وتصريفها ومن شأنه أيضاً في التمهيدات أن يستشهد بكلام اللغويين في هذه التمهيدات، قال السّيوطيّ: قال أبو الفتح بن جني في «الخصائص»:

حدّ اللغة: «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»، وبهذا التعريف الجامع والذي يصدق حدّه على جميع اللغات، انتقل السّيوطيّ إلى نقل نصّ من نصوص ابن جني في تصريفها، فقال: «ثم قال [أي ابن جني]: «وأمّا تصريفها فهي (فُعلَة) من: (لَغَوْت)، أي تكلّمت، وأصلها: لغوة كـ«كرة» وقلة وثبة[1]، كلها لامات واوات لقولهم: كروْت بالكرة، وقلوت بالقلة، ولأن (ثبة) كأنها مقلوب: ثاب يثوب. وقالوا فيها: لغاتٌ ولغُون كـ (ثبات وثبون). وقيل منها: لَغِيَ يَلْغي إذ اهتدى، قال:

وربّ أسرابِ حجيجٍ كُظّمِ   من اللّغا ورَفث التّكلّمِ

وكذلك (اللغو): «وإذا مَرّوا باللغو مَرّوا كراماً»[3]، أي بالباطل، وفي الحديث: «من قال في الجمعة صَهْ فقد لغا، أي تكلّم».

وبعد أن ساق السّيوطي رأي ابن جني في هذه المقدمة التي خصّها لحد اللغة وتصريفها ينهى النص، بقوله: «انتهى كلام ابن جني»[4].

---

(١) في هامش «المزهر»: القلة: عودان يلعب بهما الصبيان، والثبة: الجماعة.
(٢) انظر: اللسان: مادة «رفث».
(٣) سورة الفرقان: آية ٧٢.
(٤) ٧/١.

والسّيـوطيّ، المستوعب للتـراث، لم يكتفِ بما ذكـر ابن جني في حـدّ اللغة وتصريفها، بل أضاف إلى ما ذكـر ابن جني ثلاثـة أقوال أخـرى في هذا الموقف:

أحـدها: قـول إمام الحـرمين في «البرهـان»، إذ يقول: اللغـة من لَغِيَ يَلْغي، من باب رضي، إذا لهج بالكلام، وقيل: من لَغى يَلْغِي.

ثانيها: قـول ابن الحاجب في «مختصـره»: حدّ اللغـة: كل لفظ وضـع لمعنىً.

ثالثها: قول الأسنويّ في «شـرح منهاج الأصـول»: اللغات: عبـارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني».

* * *

وإلى هنا أنهـى السّيوطيّ الحديث عن حدّ اللغة وتصرّفها، حيث نقل نصوصاً منسـوبة إلى علمـاء معروفين في حقـل الدراسـات اللغويـة، ولم يكتفِ بنسبة النصوص إلى أصحابهـا، وإنما جـرى كعادتـه في التدقيق في طـريق التحقيق حينما ذكر المصادر التي نقل منها هذه النصوص.

وبعد هذا التمهيد، انتقل السّيوطيّ إلى القضيّة الأم، وهي القضية التي بدأ بها كتابه وهي: أتوقيف اللغة ووحيٌ أم اصطلاح وتواطؤ؟

بدأ يعرض السّيوطيّ آراء اللغويين في هذه القضية، فبـدأ بتسجيل رأي ابن فارس:

«قال أبو الحسين أحمد بن فارس في «فقه اللغة»: إعلم أنّ لغـة العرب تـوقيف، ودليـل ذلـك قـولـه تعـالى: ﴿وعلّم آدم الأسمـاء كلها﴾[1]، فكـان

---

(1) سورة البقرة: آية ٣١.

ابن عباس يقول: علّمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابّة وأرض، وسهل وجبل، وجمل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وروى خصيف عن مجاهد، قال: علّمه اسم كل شيء، وقال غيرهما: إنما علّمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علّمه أسماء ذريّته أجمعين.

قال ابن فارس: والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عبّاس. فإن قال قائل: لو كان ذلك كما تذهب إليه لقال: «ثم عرضهن أو عرضها»، فلما قال: «عرضهم» علم أنّ ذلك لأعيان بني آدم أو الملائكة، لأن موضوع الكناية في كلام العرب أن يقال لما يعقل: «عرضهم» ولما لا يعقل عرضها أو عرضهن».

قيل له: إنما قال ذلك ـ والله أعلم ـ لأنه جَمَعَ ما يعقل وما لا يعقل، فغلب ما يعقل، وهي سنّة من سنن العرب [أعني باب التغليب]، وذلك كقوله تعالى: ﴿والله خلق كلّ دابّة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع﴾[1]، فقال: «منهم» تغليباً لمن يمشي على رجلين.

فإن قال: أفتقولون في قولنا: سيف، وحسام، وعضْب إلى غير ذلك من أوصافه[2] إنه توقيف حتى لا يكون شيء منه مصطلحاً عليه؟ قيل له: كذلك نقول.

والدليل على صحّته إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه، أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم.

ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منّا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق.

---

(١) سورة النور: آية ٤٥.
(٢) أي من أوصاف السيف.

ولعلّ ظاناً يظنّ أنّ اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة في زمان واحد، وليس الأمر كذلك، بل وقّف الله عز وجلّ آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلّمه إياه مما احتاج إلى علمه من زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله، ثم علّم بعد آدم من الأنبياء صلوات الله عليهم نبيّاً نبيّاً ما شاء الله أن يعلّمه، حتى انتهى الأمر إلى نبيّنا محمد ﷺ، فأتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قرّ الأمر قراره، فلا نعلم لغة من بعده حدثت، فإن تعمّل اليوم من ذلك متعمّلٌ وجد من نُقّاد العِلْم من ينفيه ويردّه.

وقد بلغنا عن أبي الأسود الدؤلي أنّ امرءاً كلّمه ببعض ما أنكره أبو الأسود عنه، فقال: هذه لغة لم تبْلُغْك، فقال له: يا بن أخي، إنه لا خير فيما لم يبلغني. فعرّفه بلطف أن الذي تكلم به مختلق، وخَلّة[1] أخرى: أنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسميته شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدلّ بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم.

وقد كان في الصحابة رضي الله عنهم ــ وهم البلغاء والفصحاء ــ من النظر في العلوم الشرعية ما لا خفاء به، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة، لم تتقدمهم.

ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي إلاّ بانقضائه، ولا تزول إلاّ بزواله وفي كل ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه من هذا الباب.

ثم يقول السّيوطيّ مختتماً رأي ابن فارس: «هذا كله كلام ابن فارس وكان من أهل السّنّة»[2].

---

(١) الخلّة بالفتح: الخصلة.

(١) المزهر: ١/٨ ــ ١٠.

والناظر إلى قول السّيوطيّ الذي ختم به هذا النص يرى أن السّيوطيّ علّق على كلام ابن فارس ـ بعد الإشعار بانتهاء نصّه ـ تعليقاً موجزاً فيه فهم دقيق لنصّه، واستيعاب كبير لمعناه. فالسّيوطيّ يريد أن يقول: إن ابن فارس كان سنيّاً، ومن شأن أهل السنّة أن يقفوا عند النصوص فلا يحمّلوها ما لا تحتمل، وقد استمسك ابن فارس بالنصوص التي أوردها وكأنه استمسك بحبل متين، ولم يكتف بهذا بل دافع دفاعاً حاراً عن أن اللغة توقيف وليست تواطؤاً واصطلاحاً،على أن السّيوطيّ كان يكفيه هذا القدر من الاستدلال بكلام ابن فارس وبخاصة فإن السّيوطيّ سني يشرب مما شرب منه ابن فارس، وينهل مما ينهل، ولكن العلم عند السّيوطيّ احتكاك فكر بفكر، ومقابلة رأي برأي فكان لا بدّ منه أن يأتي بالرأي الآخر، وللقارىء حرية الاختيار فيما يأنس إليه، ومن ثم ذكر رأي ابن جني وشيخه أبي علي ونصّ على أنهما من أهل المعتزلة فما النصوص التي أوردها السّيوطيّ لهذين الشيخين الكبيرين؟



رأي ابن جني وشيخه الفارسيّ
في هذه القضية

قال السّيوطيّ: قال ابن جني في الخصائص ـ وكان هو وشيخه أبو علي الفارسي معتزليّين ـ: باب القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح؟ هذا موضوع محوج إلى فضل تأمّل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحيٌ ولا توقيف إلاّ أنّ أبا علي رحمه الله قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله تعالى: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنه يجوز أن يكون تأويله: أقْدَر آدم على التواضع عليها. وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به.

وقد كان أبو عليّ ــ رحمه الله ــ أيضاً قال به في بعض كلامه، وهذا رأي أبي الحسن على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه، وعلى أنه قد فسّر هذا بأن قيل: إنه تعالى علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربيّة الفارسيّة، والسريانيّة، والعبرانيّة، والروميّة، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلّق كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه واضمحلّ عنه ما سواها، لِبُعد عهدهم بها، وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقّيه باعتقاده، والانطواء على القول به.

فإن قيل: فاللغة فيها أسماء وأفعال وحروف، وليس يجوز أن يكون المعلّم من ذلك الأسماء وحدها دون غيرها مما ليس بأسماء فكيف خصّ الأسماء وحدها؟

قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القُبُل[1] الثلاثة، ولا بدّ لكل كلام مفيد منفرد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلّة عن كلّ واحد من الفعل والحرْف، فلما كانت الأسماء من القوّة والأوليّة في النفس والرتبة، على ما لا خفاء به جاز أن يكتفي بها عمّا هو تالٍ لها، ومحمول في الحاجة إليه عليها.

قال: ثم لنعد، فلنقل في الاعتدال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً، وذلك ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بدّ فيه من المواضعة، قالوا: بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف ما مسمّاه ليمتاز عن غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب، وأخفّ وأسهل من تكلّف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه كالفاني، وحال اجتماع الضّدين على المحلّ الواحد، وكيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا ممّا هو جارٍ في الاستحالة والتعذّر مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه، وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضّرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى

---

(١) القُبُلُ: الضروب والجماعة.

ذلك، فقالوا: يد، عين، رأس، قدم أو نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معيّنها، وهلم جرّا فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف.

ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذي اسمه إنسان فليجعل مكان: «مرْد»، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه «سرّ»[1] وعلى هذا بقيّة الكلام.

وكذلك لو بُدئت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل ويولدّ منها لغات كثيرة من الرّوميّة، والزنجيّة وغيرهما، وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراع الصنّاع لآلات صنائعهم من الأسماء كالنّجار والصانع، والحائك والبنّاء، وكذلك الملاّح، قالوا: ولكن لا بدّ لأوّلها من أن يكون متواضعاً عليه بالمشاهدة والإيماء.

قالوا: والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحداً على شيء، وقد ثبت أن المواضعة لا بدّ معها من إيماء وإشارة بالجارحة، نحو المومأ إليه، والمشار نحوه.

قالوا: والقديم سبحانه لا حاجة له، فيصح الإيماء والإشارة منه يها فبطل عندهم أن تصح المواضعة، على اللغة من تقدست أسماؤه».

ويسترسل السّيوطيّ في نقل النصوص من خصائص ابن جني ليؤيد مذهبه بأن اللغة اصطلاح وتواضع إلى أن يقول: [والقائل ابن جني] وذهب بعضهم: إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب،

---

(١) في هامش المزهر علّق على هاتين الكلمتين بقولهم: «مرْد باللغة الفارسية معناه: إنسان، و«سرّ» معناه بهذه اللغة أيضاً: رأس.

وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد.

وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل».

وابن جني بعد هذا التفكير المبدع، والدّليل المقنع في اصطلاحية اللغة، وأنها ليست وحْياً راجع نفسه أخيراً بعد طول بحث وكثرة تنقير فرأى أن الذين يقولون بالتوقيف أقرب إلى الصواب من قوله، وأدنى إلى الحق من رأيه، قال:

«وأعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالج قويّة التجاذب لي، مختلفة جهات التّغول على فكري، وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدّقة، والإرهاف والرّقة ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوة السِّحر فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا ـ رحمهم الله ـ ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده، وبُعد مراميه وآماده، صحّةَ ما وفّقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به، وفُرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تعالى، فقوي في نفسي اعتقادُ كونها توقيفاً من الله سبحانه وأنّها وحي.

ثم أقول في ضدّ هذا: إنه كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبّهوا وتنبّهنا على تأمّل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا، وإنْ بَعُد مداه عنّا من كان ألطف منّا أذهاناً، وأسرع خواطر، وأجرأ جناناً، فأقف بين تَيْن الخلّتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفىء مكثوراً[1]، وإن

---

(١) أي مغلوب في الكثرة.

خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به وبالله التوفيق».

ثم يختتم السّيوطيّ ما نقله من نصوص ابن جني في هذه القضية بقوله: «هذا كله كلام ابن جنيّ»(١).

* * *

ولم ينقطع نفس السّيوطيّ فيقف عند هذا الحدّ في هذه القضية، وإنما يحاول أن يشبعها بحثاً فيقدم لنا رأي الإمام فخر الدين الرازي وتاج الدين الأرمويّ،وسراج الدين الأرموي.

نقل من كتاب «المحصول» للرازي، ومن «الحاصل» لتاج الدين الأرموي و «من التحصيل» لسراج الدين الأرموي.

نظر السّيوطيّ في مؤلفات هؤلاء العلماء الثلاثة التي عرضت لهذه القضية، وحتى لا تختلط نصوص هذه المؤلّفات بعضها ببعض اكتفى السّيوطيّ بتلخيص هذه الآراء وفي النقطة التالية نسجل تلخيص السّيوطيّ لآراء هؤلاء الأعلام الثلاثة.

□ □ □

---

(١) المزهر: ١/١٠ ـ ١٦.

رأي الإمام فخر الدين الرازي وتابعَيْه

«وقال الإمام فخر الدين الرازي في «المحصول» وتبعه تاج الدين الأرموي في الحاصل، وسراج الدين الأرموي في: «التحصيل» ما ملخّصه: النظر الثاني في الواضع: الألفاظ إمّا أن تدلّ على المعاني بذواتها، أو بوضع الله إيّاها، أو بوضع الناس أو يكون البعض بوضع الله، والباقي بوضع الناس.

والأول: مذهب عباد بن سلمان.

والثاني: مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وابن فُورَك.

والثالث: مذهب أبي هاشم.

وأما الرابع: فإما أن يكون الابتداء من الناس والتتمّة من الله، وهو مذهب قوم، أو الابتداء من الله، والتتمّة من النّاس، وهو مذهب أبي إسحاق الأسفرايني.

والمحققون متوقّفون في الكل إلاّ في مذهب عبّاد، ودليل فساده: أن اللفظ لو دلّ بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات، لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازم باطل، فالملزوم كذلك.

واحتجّ عبّاد بأنه لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بإزاء معنىً من المعاني ترجيحاً بلا مرجّح، وهو محال.

وجوابه: أن الواضع إن كان هو الله فتخصيصه الألفاظ بالمعاني كتخصيص العالم بالإيجاد في وقت من بين سائر الأوقات.

وإن كان هو الناس فلعلّه لتعيّن الخطران[1] بالبال.

ودليل إمكان التوقف احتمال خلق الله تعالى الألفاظ، ووضعها بإزاء المعاني، وخلق علوم ضرورية في ناس بأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني.

ودليل إمكان الاصطلاح: إمكان أن يتولّى واحد أوجمعٌ وضع الألفاظ لمعانٍ، ثم يُفهموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالدات مع أطفالهن وهذان الدليلان هما دليلا إمكان التوزيع.

* واحتجّ القائلون بالتوقيف بوجوه:

أوّلها: قوله تعالى: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾، فالأسماء كلها معلّمة من عند الله بالنّص، وكذا الأفعال والحروف، لعدم القائل بالفصل، ولأن الأفعال والحروف أيضاً أسماء، لأن الاسم ما كان علامة والتمييزُ من تصرّف النّحاة لا من اللغة ولأن التكلّم بالاسماء وحدها متعذّر.

وثانيها: أنه سبحانه وتعالى ذمّ قوماً في إطلاقهم اسماء غير توقيفية في قوله تعالى: ﴿إن هي إلاّ أسماء سميتموها﴾[2]، وذلك يقتضي كون البواقي توقيفيّة.

---

(1) علّق في هامش المزهر: ١٧/١، هكذا في كل النسخ، وفي كتب اللغة: خطر بباله من باب قعد وضرب.

(2) سورة النجم: آية ٢٣.

وثالثها: قوله تعـالى: ﴿ومن آياتـه خلق السموات والأرض، واختـلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[1]، والألسنة اللّحمـانيّة غيـر مرادة لعـدم اختلافهـا، ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر، فالمراد هي اللغات.

ورابعها: ـ وهو عقليّ ـ لـو كـانت اللغـات اصـطلاحيـة لاحْتِيـجَ في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة ويعود إليه الكلام، ويلزم إمّـا الـدّوْر أو التسلسـل في الأوضـاع وهـو مُحـالٌ، فـلا بـدّ من الانتهـاء إلى التوقيف.

* واحتجّ القائلون بالاصطلاح بوجهين:

أحدهما: لو كانت اللغات توقيفيّة لتقدّمت واسطة البعثة على التوقيف، والتّقدّم باطل، وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفيّة فلا بدّ من واسـطة بين الله والبشر، وهو النبيّ، لاستحالة خـطاب الله تعالى مـع كلّ أحد، وبيان بـطلانه التقدّم قوله تعالى: ﴿ما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه﴾[2].

وهذا يقتضي تقدّمَ اللغة على البعثة.

والثاني: لو كانت اللغة تـوقيفيّة، فـذلك إمّـا بأن يخلق الله تعـالى عِلماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا، أو في غيـر العاقـل، أو بألا يخلق علماً ضرورياً أصلاً.

والأول بـاطل، وإلاّ لكـان العاقـل عالمـاً بالله بـالضرورة، لأنـه إذا كان عالماً بالضرورة يكون الله وضع كذا لكذا كـان علمه بـالله ضروريـاً، ولو كـان كذلك لبطل التكاليف.

(١) سورة الروم: آية ٢٢.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٤.

والثاني باطل، لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاءُ تمام هذه الألفاظ، والثالث باطل لأنّ العلم بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيف آخر ولزم التسلسل.

والجواب عن الأوّل من حجج أصحاب التوقيف: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من تعليم الأسماء الإلهامَ، إلى وضْعها، ولا يقال: التعليم إيجاد العلم، فإنا لا نسلّم ذلك، بل التعليم فعلٌ يترتب عليه العلم ولأجله يقال: علّمته فلم يتعلّم.

سلّمنا أن التعليم إيجاد العلم، لكن قد تقرّر في الكلام أن أفعال العباد، مخلوقة لله تعالى؛ فعلى هذا: العلم الحاصل بها موجَد لله تعالى. سلّمناه لكن الأسماء هي سمات الأشياء وعلاماتها مثل أن يُعلّم آدمُ صلاحَ الخَيْل للعدْو، والجمال للحَمل، والثيران للحَرْث، فلم قلتم: إن المراد ليس ذلك؟ وتخصيص الأسماء بالألفاظ عرف جديد.

سلّمنا أن المراد هو الألفاظ، ولكن لم لا يجوز أن تكون هذه الألفاظ وضعها قوم آخرون قبل آدم، وعلّمها الله آدم؟

* * *

وعن الثانية أنه تعالى ذمّهم، لأنهم سمّوا الأصنام آلهة واعتقدوها كذلك.

* * *

وعن الثالثة: أن اللسان هو الجارحة المخصوصة، وهي غير مرادة بالاتفاق، والمجاز الذي ذكرتموه يعارضه مجازات أخرى، نحو مخارج الحروف أو القدرة عليها، فلم يثبت الترجيح.

* * *

وعن الرابعة: أن الاصطلاح لا يستدعي تقدم اصطلاح آخر بدليل تعليم الوالدين الطفل دون سابقة اصطلاح ثمّة.

* * *

ويستمر السّيوطيّ في تلخيصه بعد أن قدّم أدلة القائلين بالاصطلاح ليردّ حجتهم، وينقض أدلتهم فيقول: «والجواب عن الأولى من حجّتي أصحاب الاصطلاح: لا نسلّم توقّف التوقيف على البعثة، لجواز أنه يخلق الله فيهم العلم الضروريّ، بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا.

* * *

وعن الثانية: لم لا يجوز أن يخلق الله العلم الضروريّ في العقلاء أنْ واضعاً وضع تلك الألفاظ لتلك المعاني، وعلى هذا لا يكون العلم بالله ضرورياً، سلّمناه، لكن لم لا يجوز أن يكون الإله معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء.

* * *

وقوله: لبطل التكليف قلنا: بالمعرفة أمّا بسائر التكاليف فلا» انتهى[1].

وهكذا لخّص السّيوطيّ أراء الإمام فخر الدين الرّازي وتابعيْه، ولعله بعد عرض هذه القضية في هذا الإطار العلمي يتضح لنا منهج السّيوطيّ في عرض القضايا اللغوية.

* * *

ونسوق إلى جانب هذه القضية قضية أخرى لغوية وهي قضية: مناسبة الألفاظ للمعاني.

---

(١) المزهر: ١/٨ ـ ٢٠.

سار في عرضه لهذه القضية على المنهج نفسه الذي سار عليه في القضيّة السابقة.

بدأ بعرض رأي ابن جني في هذه القضية، فساق نصوصاً من خصائصه تثبت هذه المناسبة، وقد تفرّع من هذه القضية اللغوية قضية أخرى منبثقة منها وهي قضية مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث وحين انتهى من بسط آراء ابن جني وعرضها بنصوصها التي احتوت هذه الآراء يبادر السيوطيّ فوراً ليخبرك أن ابن جني ليس فارس هذا الميدان، فقد سبقه إلى ذلك ابن دريد في الجمهرة، ومعنى ذلك أن ابن جني تابع لغيره، مستفيد ممّن سبقه.

ويسوق السّيوطيّ نصوص ما جاء في الجمهرة.

ويقوّي السّيوطيّ رأيه بأن ابن جني مسبوق بهذه الفكرة برأي ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤هـ بنصّ يبين فيه ورود هذه الفكرة عند ابن السكيت ويضيف إلى ذلك أيضاً رأي صاحب الغريب المصنّف، وهو أبو عبيد القاسم بن سلّام المتوفى سنة ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين.

ولم يكتف السّيوطيّ بهذا، فإن استيعابه للتراث استغله في هذه القضية ليثبت قدرته على الإحاطة بهذه القضية من جميع جوانبها.

إنه يسوق رأي النسائي، ورأي ابن عمر، ورأي الأصمعي، ثم علّق بعد هذا العرض بتعليق لطيف مؤكداً صدق هذه النظرية، وثبات هذه القضية.

ولمّا كانت هذه القضية اللغوية تهمّ جانباً كبيراً من دارسي اللغة، والمشتغلين في حقولها المتعددة رأيت أن أعرضها هنا كما جاءت في «المزهر» بعدما وضحت طريقة السّيوطيّ ومنهجه في عرض القضايا.

قضية مناسبة الألفاظ للمعاني

قال السّيوطيّ:

«وقد عقد ابن جنيّ في الخصائص باباً لمناسبة الألفاظ للمعاني وقال: اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته، قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً، فقالوا: «صرّ»، وفي صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر.

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النقزان[1] والغليان، والغثيان، فقابلوا بتوالى حركات الأمثال توالي حركات الأفعال.

قال ابن جني: وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط.

من ذلك: المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والجرجرة، والقرقرة[2].

ووجدت أيضاً الفَعلى في المصادر والصفات تأتي للسرعة نحو:

---

(١) النقزان: الوثب.

(٢) القرقرة: الضحك الكثير.

البشكى[1]، والجمزي[2]، والولقى[3]. . .

وكذلك جعلوا تكرير العين نحو فرّح، وبشّر، فجعلوا قوّة اللفظ لقوة المعنى، وخصّوا بذلك العين، لأنها أقوى من الفاء والام، إذ هي واسطة لهما، ومكنوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها.

* * *

فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع ونهج متلئبٌ[4] عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمتَ الأحداث المعبّر بها عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره.

من ذلك قولهم: خَضِمَ[5] وقَضِمَ[6]، فالخَضْم لأكل الرّطْب كالبطيخ والقثاء، وما كان نحوها من المأكول الرّطب، والقضْم لأكل اليابس نحو: قضمت الدّابة شعيرها، ونحو ذلك:

وفي الخبر «قد يدرك الخضم بالقضم»، أي قد يدرك الرخاء بالشدّة واللين بالشظف، وعليه قول أبي الدرداء: «يخْضمون، ونقضَم، والموعد الله».

---

(١) البشكي: خفة اليدين في العمل والسرعة.

(٢) الجمزي: السريع.

(٣) سرعة الناقة في العدو.

(٤) متلئبٌ: مستقيم.

(٥) كضرب وسَمِع.

(٦) كَسَمِعَ.

فاختاروا الخاء لرخاوتها للرّطب، والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

ومن ذلك قولهم: النّضح للماء، والنّضخ أقوى منه، قال الله سبحانه ﴿فيهما عينان نضّاختان﴾[1]، فجعلوا الحاء لرقّتها للماء الخفيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه.

ومن ذلك قولهم: القدّ طولاً، والقطّ عَرْضاً، لأن الطاء أخفض للصوت، وأسرع قطعاً له من الدّال المستطيلة، فجعلوا الطاء للمناجزه لقطع العَرْض لقربه وسرعته، والدّال المماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طولاً.

قال: وهذا الباب واسع جدّاً لا يمكن استقصاؤه.[2].

هذا هو نصّ ابن جني نقله السّيوطيّ من الخصائص.

ثم يعلّق السّيوطيّ بقوله: «قلت» وهذا التعليق إضافات جديدة يضيفها السّيوطي إلى رأي ابن جني، فيقول:

«قلت: ومن أمثلة ذلك ما في الجمهرة: الخنن في الكلام أشدّ من الغنن، والخُنّة أشدّ من الغُنّة، والأنيتُ[3] أشدّ من الأنين، والرنين أشدّ من الحنين.

وفي الإبدال لابن السّكيت يقال: القمصة أصغر من القَبضة قال في الجمهرة: القبْص: الأخذ بأطراف الأنامل، والقبض: الأخذ بالكفّ كلها.

وفي الغريب المصنّف عن أبي عمرو: هذا صوْغ هذا: إذا كان على قدره، وهذا سوْغ هذا: إذا ولد بعد ذاك على أثره.

---

(١) سورة الرحمٰن: آية ٦٦.

(٢) المزهر: ٤٨/١ ــ ٥١.

(٣) في القاموس: أنت يأنت أنيتاً = أنّ.

ويقال: نقب على قوم ينقُبُ نِقابة من النقيب وهو العريف.

ونكب عليهم ينكبُ نِكابة، وهو المَنكِب، وهو عون العريف.

وقال الكسائي: القضم للفرس، والخضم للإنسان.

وقال غيره: القضْم بأطراف الأسنان، والخضم بأقصى الأضراس.

وقال أبو عمرو: النضحُ بالضّاد المعجّمة: الشرب دون الرّيّ.

والنصحْ بالصاد المهملة: الشرب حتى يروَى، والنشْح بالشين المعجّمة دون النصح بالضاد المعجمة.

وقال الأصمعي من أصوات الخيل: الشخير، والنخير، والكرير، فالأول من الفم، والثاني من المَنخَرين، والثالث من الصّدْر.

وقال الأصمعي: الهتْل من المطر أصغر من الهطْل.

وفي الجمهرة: العطعطة بإهمال العين: تتابع الأصوات في الحرّب وغيرها.

والغطغطة بالإعجام: صوت غليان القدر وما أشبهه، والجمجمة بالجيم، أن يُخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يبديه، والحمحمة بالحاء: أن يردّد الفرس صوته ولا يصهل، والدحداح بالدال: الرجل القصير، والرحراح بالرّاء: الإناء القصير الواسع، والجفجفة بالجيم: هزيز الموكب، وحفيفه في السّير.

والحفحفة بالحاء: حفيف جناحي الطائر، ورجل دحدح بفتح الدالين، وإهمال الحاءين قصير، ورجل دُخْدُخ بضم الدالين، وإعجام الخاءين: قصير ضخم.

والجرجرة بـالجيم: صوت جَـرْع الماء في جـوف الشارب: والخـرخرة بالخاء: صوت تردّد النـفس في الصدر، وصوت جرْي الماء في مضيق.

والـدردرة: حكايـة صوت المـاء في بطون الأوديـة وغيـرهـا إذا تـدافـع فسَمِعْت له صوتاً.

والغرغرة: صوت ترديد الماء في الحلق من غير مجّ ولا إساغة.

والقرقرة: صوت الشراب في الحلق.

والهرهرة: صوت ترديد الأسد زئيره.

والكهكهة: صوت ترديد البعير هديره.

والقهقهة: حكاية استغراب الضحك.

والوعوعة: صوت نباح الكلب إذا ردّده.

والوقوقة: اختلاط أصوات الطير.

والوكوكة: هدير الحمام.

والزعزعة بالزاي: اضطراب الأشياء بالريح.

والرعرعة بالراء: اضطراب الماء الصافي والشراب على وجه الأرض.

والزغزغة بالزاي وإعجام الغين: اضطراب الإنسان في خفّة ونزق.

والكركرة بالكاف: الضحك.

والقرقرة بالقاف: حكاية الضحك إذا استغرق الرجل فيه.

والرفرفة بالراء: صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح.

والزّفزفة بالزّاي: صوت حفيف الريح الشديدة الهبوب، وسمعت زفزفة الموكب: إذا سمعت هزيزه.

والسفسفة بإهمال السين: تحريك الشيء من موضعه ليُقلع مثل الوتد، وما أشبهه، ومثل السن.

والشغشغة بالإعجام: تحريك الشيء في موضعه ليتمكّن، يقال: شغشغ السّنان في الطعنة إذا حرّكه ليتمكّن.

والوسوسة بالسين: حركة الشيء كالحَلْي.

والوشوشة بالإعجام: حركة القوم، وهمس بعضهم إلى بعض».

وعلّق السّيوطيّ على هذه النصوص بقوله:

«فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين، والأخفى، والأسهل، والأهمس لما هو أدنى وأقلّ وأخفّ عملاً أو صوتاً.

وجعلت الحرف الأقوى والأشدّ، والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً، وأعظم حسّاً.

ومن ذلك المدّ والمطّ، فإن فعل المط أقوى، لأنه مدٌّ وزيادة جذب فناسب الطاء التي هي أعلى من الدّال»[1].

---

(١) المزهر: ١/٥١ ـ ٥٣.

تأثّر السّيوطيّ في «المزهر» بمنهج أهل الحديث

في مقدمة السّيوطيّ لمزهره نصّ على ذلك صراحة، فقال: «هذا علم شريف، ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع»[1].

ولو ألقينا نظرة فاحصة على معظم القضايا التي أوردها السّيوطيّ في «المزهر» لرأينا هذه المحاكاة واضحة جليّة، لا تخفى على ذي عينين.

ففي قضية الطريق إلى معرفة اللغات يقول السّيوطيّ: «قال الإمام فخر الدين الرازي في «المحصول» وأتباعه: الطريق إلى معرفة اللغات إمّا النقل المحْض كأكثر اللغة، أو استنباط العقل من النقل كما إذا نقل إلينا أن الجمع المعرّف يدخله الاستثناء، ونقل إلينا أن الاستثناء إخراج ما يتناوله اللفظ، فحينئذٍ يستدلّ بهذين النقلين على أن صيغ الجمع للعموم.

وأمّا النّقل الصرف فلا مجال له في ذلك»[2].

قال: «والنقل المحْض إمّا تواتر أو آحاد»

---

(١) مقدمة المزهر.

(٢) المزهر: ١/٥٧.

ثم قال السّيوطيّ معلّقاً على رأي الإمام فخر الدين ما نصّه:

«ولم يذكر ابن الحاجب في مختصره، ولا الآمدي في «الأحكام» سوى الطريق الأول، وهو النقل المحْض إمّا تواتراً، وهو ما لا يقبل التشكيك كالسماء والأرض، والحرّ والبرد ونحوها.

وإما آحاداً كالقُرْء ونحوه من الألفاظ العربيّة»[1].

ثم نقل السّيوطيّ رأي ابن فارس في هذه القضية، فقال: «وقال ابن فارس وتؤخذ سماعاً من الرّواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُتّقى المظنون»[2].

ويضيف السّيوطيّ إلى رأي ابن فارس رأي ابن الأنباري في ذلك فيقول: «ويؤخذ من كلامهما أن ضابط الصحيح من اللغة: ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه على حدّ الصحيح من الحديث»[3].

ويضع السّيوطيّ الأمر في نصابه في منهجه اللغوي في ضوء منهج الحديث النّبوي، فيقول:

«وقال الزركشي في البحر المحيط: قال أبو الفضل بن عبدان في شرائط الأحكام وتبعه الجيلي في الإعجاز: لا تلزم اللغة إلّا بخمس شرائط:

أحدها: ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح يوجب العمل.

والثاني: عدالة الناقلين كما تعتبر عدالتهم في الشرعيات.

والثالث: أن يكون النقل عمّن قوله حجة في أصل اللغة، كالعرب العاربة مثل قحطان، ومعدّ وعدنان، فأمّا إذا نقلوا عمّن بعدهم بعد فساد

---

(١) المزهر: ١/٥٧.

(٢) المزهر: ١/٥٨.

(٣) المزهر: ١/٥٨.

لسانهم، واختلاف المولّدين فلا»[1].

* * *

ويعقد السّيوطيّ مقارنة بين اللغة والنحو من جانب، والفقه والحديث من جانب آخر فيقول:

«وقال عبد اللطيف البغداديّ في «شرح الخطب النباتية»: أعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعدّاه.

وأمّا النحو فشأنه أن يتصرف فيما نقله اللغوي، ويقيس عليه، ومثالهما المحدّث والفقيه، فشأن المحدّث نقل الحديث برمّته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرّف فيه، ويبسط فيه علله ويقيس عليه الأمثال والأشباه»[2].

* * *

وفي موضع آخر نلمس أثر هذا المنهج في قول السّيوطيّ في النوع السابع من «المزهر» معرفة طرق الأخذ والتّحمل»[3].

قال السّيوطيّ: هي ستّة:

أحدها: السماع من لفظ الشيخ أو العربيّ، قال ابن فارس: «تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة منهم على مرّ الأوقات.

وتؤخذ اللغة تلقّناً من ملقّن، وتؤخذ سماعاً من الرّواة الثّقات»[4].

وللمتحمّل بهذه الطرق عند الأداء والرّواية صيغ:

---

(١) المزهر: ١/٥٨.
(٢) المزهر: ١/٥٩.
(٣) المزهر: ١/١٤٤.
(٤) المزهر: ١/١٤٥.

(أ) الإمــــلاء:

أعلاها أن يقول: «أملى عليّ فلان أو أملّ عليّ فلان»[1].

وأخذ السّيوطيّ يضرب الأمثلة على هذه الطريقة نذكر منها ما يلي:

«قـال القالي: أول كلمـة سمعتها من أبـي بكـر بن دريد، دخلت عليـه وهو يُملي على الناس: العرب تقول: هذا أعلق من هذا، أي أمرّ منه».

وأنشدنا:

نهـار شـراحيــل بـن طَـوْدٍ يــريبني ... ولـيــل أبـي لـيــلى أمــرُّ وأعــلق

أي أشد مرارة».

* * *

(ب) السمــــاع:

ويلي في القوّة الإملاء كلمة: «سمعت».

قـال السّيوطيّ: «ويلي ذلـك: «سمعت» قال ثعلب في أمـاليه: حـدثنـا مسلمة، قال: «سمعت الفرّاء يحكي عن الكسائي: أنه سمع: «اسقني شربة مـا يا هذا»، يريد شربة ماء، فقصر».

ويكـرر السّيـوطيّ الأمثلة في نـطاق كلمـة: «سمعت»، فمن ذلـك قـال القالي: «حدثنا أبو بكر بن دريد، حـدّثنا عبـد الرحمن، عن عمّـه الأصمعيّ، قال: «سمعت أعرابيـاً يدعـو لرجـل، فقال: جنّبـك الله الأمرّين، وكفـاك شر الأجـوفين، وأذاقـك البـردين، قـال القالي: الأمـرّان: الفقــر والعُــري، والأجوفان: البطن والفرج، والبردان: برد الغنى وبرد العافية».

* * *

---

(١) المزهر: ١/١٤٥. وأملّ عليه، قال في القاموس: «أملّه، قال له، فكتب عنه».

(جـ) الحـــديث:

ويلي هذه المرتبة في طرق الأخذ والتحمّل أن يقول: حدثني وحدّثنا.

قال السيّوطيّ:

«ويلي ذلك أن يقول: حدّثني فلان، وحدّثنا فلان، ويستحسن حدّثني إذا حدّث وهو وحده، وحدّثنا إذا حدّث وهو مع غيره».

وأخذ السّيوطيّ يضرب الأمثلة على ذلك، فيقول:

«وقال ثعلب في أماليه: حدّثنا ابن الأعرابي، قال: حدّثني شيخ عن محمد بن سعيد الأموي عن عبد الملك بن عمير، قال: كنت عند الحجاج بن يوسف، فقل لرجل من أهل الشام: هل أصابك مطر؟ قال: نعم، أصابني مطر أسال الآكام، وأدحض التلاع، وخرّق الرّجْع[1]، فجئتك في مثل مجرّ الضبع»[2].

ثم سأل رجلاً من أهل الحجاز: هل أصابك مطر؟ قال: نعم، سقتني الأسمية[3]، فغيبت الشِّفار، وأطفئت النار، ونشكّت[4] النساء، وتظالمت[5] المعزى، واحتلبت الدِّرّة[6] بالجرّة.

---

(١) الرّجع: كما في القاموس: «رجع»: ممسك الماء والغدير.

(٢) في هامش المزهر: يريد السّيل قد خرق الأرض، فكأن الضّبع جرت فيه.

(٣) الأسمية: جمع سماء، والسماء: المطر.

(٤) الشكوة: وعاء من أدم للماء واللبن، ونشكت النساء: اتخذتها (انظر هامش المزهر: ١٤٨/١).

(٥) تظالمت: تناطحت.

(٦) الدّرّة: اللبن.

ثم سأل رجلاً من أهل فارس، فقال: نعم، ولا أحسن كما قال هؤلاء إلّا أني لم أزل في ماء وطين حتى وصلت إليك»[1].

ومثل آخر يسوقه السّيوطيّ عن اللحن، فيقول:

«وقال: [أي ثعلب]: حدثني أبو بكر بن الأنباري، عن أبي العبّاس، عن ابن الأعرابي، قال: يقال: لَحَنَ الرجل.. يلْحَن لحناً، فهو لاحن: إذا أخطأ، ولَحِن يَلْحَنُ لَحْناً فهو لَحِن: أصاب وفطن»[2].

* * *

(د) الإخبـــار:

ويسترسل السّيوطيّ معدّداً طرق الأخذ والتحمّل، فيبين لنا المرتبة التي تلي المرتبة السابقة.

هذه المرتبة تتمثل في التعبير بأخبرني فلان، وأخبرنا فلان.

قال السّيوطيّ:

«ويلي ذلك أخبرني فلان، وأخبرنا فلان، ويستحسن الإفراد حالة الإفراد، والجمع حالة الجمع كما تقدّم»[3].

ويضرب السّيوطيّ لذلك مثلاً فيقول: «قال ثعلب في أماليه: «أخبرنا أبو المنهال، قال: أخبرنا أبو زيد، قال: السانح: الذي يليك ميامنه إذا مرّ من طير أو ظبي أو غيره، والبارح: الذي يليك مياسِره إذا مرّ بك، وإن استقبلك فهو ناطح، وإن استدبرك استدباراً فهو قعيد، وإن مرّ معترضاً فهو الذابح»[4].

* * *

---

(١) المزهر: ١/١٤٨.

(٢) المزهر: ١/١٤٨.

(٣) المزهر: ١/١٥٠.

(٤) المزهر: ١/١٥١.

(هـ) القول بإضافة «لي»:

ثم يمضي السّيوطيّ فيبين درجات التحمّل والأخذ، والتلقي، فيتحدّث عن مرتبة أخرى تلي هذه المرتبة وهي مرتبة: قال لي فلان».

قال السّيوطيّ:

«ويلي ذلك أنْ يقول: قال لي فلان» ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول: «قال ثعلب في أماليه: قال لي يعقوب، قال لي ابن الكلبي: بيوت العرب ستّة: قبّة من أدَم، ومِظَلّة من شَعَر، وخباء من صوف، وبجاد من وبر، وخيمة من شجر، وأقنة[1] من حَجَر»[2].

* * *

(و) القول: بدون «لي»:

ويصف السّيوطيّ الطريقة التي تلي الطريقة السابقة، فيقول:

«ويلي ذلك أن يقول: قال فلان: بدون: «لي».

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول: «قال ثعلب في أماليه: قال أبو المنهال، قال أبو زيد: لست أقول: قالت العرب إلاّ إذا سمعته من هؤلاء: بكر بن هوازن، وبني كلاب، وبني هلال، أو من عالية السافلة، أو من سافلة العالية، وإلاّ لم أقل: قالت العرب»[3].

قال: [والقائل ثعلب]: وعرضت قوله على الأخفش صاحب الخليل

---

(١) في القاموس: الأُقنة بالضمّ: بيت من حجر.
(٢) المزهر: ١/١٥١.
(٣) المزهر: ١/١٥١.

وسيبويه في النحو، فجعل يقول: قال يونس: حدثني الثقة عن العرب، قلت له: من الثقة؟ قال: أبو زيد، فقلت له: فمالك لا تسمّيه؟ قال: هو حيّ بعد، فأنا لا أسمّيه».

* * *

(ز) الزّعـــم:

ودرجة القول تقرب منها درجة الزعم في رأي السّيوطيّ، فيقول: «ونحو ذلك أو مثله أن يقول: زعم فلان» ويضرب لذلك مثلاً بقول القالي في أماليه:

قال السّيوطيّ: «قال القالي في أماليه: قرأت على أبي عمر المطرّز حدّثنا أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي، قال: زعم الثقفي عثمان بن حفص أن خلفاً الأحمر أخبره عن مروان بن أبي حفصة أن هذا الشعر لابن الدمينة الثقفي:

ما بال من أسعى لأجْبُرَ عظمه حفاظاً، وينوي من سفاهته كسري

الأبيات...[1].

* * *

(ح) القول عن فلان:

ومن درجات أخذ اللغة وتحملها القول: «عن فلان» ويضرب لذلك مثلاً فيقول:

«ويلي ذلك أن يقول: عن فلان، قال ثعلب في أماليه: قال الأصمعي:

---

(١) المزهر: ١/٥١.

عن أبي عمرو بن العلاء، قال: قاتل الله أمة بني فلان سألتها عن المطر، فقالت: غثنا ما شئنا»[1].

ويذكر السّيوطيّ مثلاً آخر، فيقول:

«قال القالي في أماليه: حدثنا أبو بكر بن دريد، حدثنا أبو حاتم، عن الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء، قال: لقيت أعرابياً بمكة، فقلت: ممّن أنت؟ قال: أسديّ، قلت: ومن أيّهم؟ قال: نمريّ، قلت: من أي البلاد؟ قال: من عمان، قلت: فأنّى لك هذه الفصاحة؟ قال: إنا سكنّا أرضاً لا نسمع منها ناجخة التّيار، قلت: صف لي أرضك، قال: سيفٌ أفْيَح، وفضاء ضحضح، وجبل صردح، ورمل أصبح، قلت: فما مالك؟ قال: النَّخْل، قلت: فأين أنت عن الإبل؟ قال: إنّ النخلة حملها غذاء، وسعفها ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء، وليفها رشاء، وخوصها وعاء، وقَرْوُها إناء» ويفسّر القالي راوي هذا الخبر الكلمات الغريبة فيه، فيقول:

« الناجخة: الصوت، والتيار: الموج، والسيف: شاطىء البحر، وأفيح: واسع، والفضاء: الواسع من الأرض، والضحضح: الصحراء، والصردح: الصلب، والأصبح: الذي يعلو بياض حمرة، والرشاء: الحبل، والقَرْو: وعاء من جذع النخل النخيل ينبذ فيه»[2].

(ط) إن فلاناً:

ويضع السّيوطيّ: عبارة: «إن فلاناً قال» في درجة: «عن فلان»، فيقول:

---

(١) المزهر: ١٥٣/١.

(٢) المزهر: ١٥٤/١.

«ومثل: «عن»: «إن فلاناً قال»، ويعطي لذلك أمثلة نذكر منها ما يلي:

قال القالي في أماليه: حدثني أبو عمر الزاهد عن أبي العبّاس ـ يعني ثعلباً ـ عن ابن الأعرابي أنّ غليماً من بني دبير أنشده:

يا ابن الكرام حسباً ونائلاً حقًّا ولا أقول ذاك باطلاً
إليك أشكو الدهر والزلازلا وكلّ عام نقّح الحمائلا

قال القالي: التنقيح: القشر، قال: قشروا حمائل السيوف فباعوها لشدّة زمانهم»[1].

ويضيف السّيوطيّ إلى المثال السّابق:

قال يروي عن القالي: حدثنا أبو بكر الأنباري أنّ أبا عثمان أنشدهم عن التّوّزي، عن أبي عبيدة لأعرابي طلّق امرأته، ثم ندم، فقال:

ندمت وما تُغني النّدامة بعدما خَرَجن ثلاثٌ ما لهن رجوعُ
ثلاث يحرّمن الحلال على الفتى ويصدعن شمل الدار وهو جميع[2]

* * *

وهكذا قدّم لنا السّيوطيّ دراسة طيبة عن معرفة طرق الأخذ والتحمّل في اللغة، والسّيوطيّ حينما عرض هذه الطرق عرضها في حقل الدراسة المستوعبة، والبحث العميق ذلك لأن هذه الطرق، لم يجمعها كتاب واحد، أو نسبت للغويّ واحد، وإنما هي منثورة في بطون كتب التراث، وكان دور السّيوطيّ أن يقلب صفحات هذا التراث واستطاع أن يقدّم لنا هذه الطرق بعد

---

(١) المزهر: ١/١٥٤.

(٢) انظر: في هذه النصوص المزهر: ١/١٤٤ ـ ١٥٤.

أن نسّقها، وبوّبها ووضعها على درجات يتلو بعضها بعضاً، ولم يكتف بهذا بل أخذ يقدّم الأمثلة تلو الأمثلة ليعزز رأيه، ويقوّي فكره، ويثبت منهجه الذي أشار إليه في مقدمة كتابه وهو «منهج أهل الحديث»، فللّه درّه من رجل لم تفته صغيرة ولا كبيرة في هذا المجال، إلّا سجلها، وعرضها عرضاً جذاباً رائعاً.

* * *

على أن السّيوطيّ أيضاً لم يقف عند هذا الحدّ في تأثّره بمنهج المحدّثين في «المزهر» وإنما تجاوز ذلك إلى موضوعات أخرى لها علاقة بالعلم من حيث هو علم، ولها علاقة خاصة بعلوم الحديث:

من هذه الموضوعات:

١ ــ معرفة آداب اللغوي.

٢ ــ الدّءوب والملازمة للعلم.

٣ ــ الكتابة والقيد.

٤ ــ الرحلة في طلب الفوائد والغرائب كما رحل الأئمة.

وسنتناول هذه الموضوعات بالدراسة والبحث في الإيجاز الذي تسمح بــه مساحة هذا الكتاب.

* **أما الموضوع الأول: وهو معرفة آداب اللغوي:** فإن السّيوطيّ حدّد هذه الآداب في ثلاث نقاط: الإخلاص، تصحيح النيّة، التحري في الأخذ من الثقات، ولا شك أن الإخلاص في العلم هو المفتاح الأول للوصول إلى الهدف والبلوغ إلى الغاية، وبه يفتح كل مغلق، ويتيسّر كل عسير، ويسهل كل صعب و «اتقوا الله ويعلمكم الله».

والسّيوطيّ حينما يعقد في كتابه «المزهر» باباً عن معرفة آداب اللغوي

يقول فيه ما نصّه: «أول ما يلزمه الإخلاص»[1]، فقد كان متأثراً بما ذكره أهل الحديث في باب جعلوه مختصاً بهذا المعنى وهو: معرفة آداب المحدّث يقول ابن الصلاح المحدّث الكبير في مقدمته المشهورة في باب معرفة آداب المحدّث ما نصه: «علم الحديث علم شريف يناسب مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيَم، وينافر مساوىء الخلق، ومشاين الشيم.

وهو من علوم الآخرة لا من علوم الدنيا. فمن أراد التصدّي لإسماع الحديث أو لإفادة شيء من علوم فليقدّم تصحيح النيّة وإخلاصها»[2].

* وللإخلاص علاقة بالنيّة، فلا إخلاص بدون نية، وكما يقول السّيوطيّ: «وتصحيح النيّة لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[3].

ولا شك أن علم الحديث من أعظم العلوم التي تحتاج إلى تصحيح النيّة ولا عجب إذ يقول ابن الصلاح في مقدمة كتابه:

«إن علم الحديث من أفضل العلوم الفاضلة، وأنفع الفنون النافعة، يحبه ذكور الرجال وفحولهم، ويعني به محققو العلماء وكملتهم... إلى أن يقول: «وقد كان شأن الحديث فيما مضى عظيماً ـ عظيمة جموع طلبته، رفيعة مقادير حفّاظه وحملته، وكانت علومه بحياتهم حَيَّة، وأفنان فنونه ببقائهم غضة، ومغانيه بأهله آهلة»[4].

وأما التحرّي في الأخذ عن الثقات، فإن السّيوطيّ يقول فيه:

---

(١) المزهر: ٢/٣٠٢.
(٢) مقدمة ابن الصلاح: ١١٨.
(٣) المزهر: ٢/٣٠٢.
(٤) انظر مقدمة ابن الصلاح.

«ثم التحرّي عن الأخذ من الثقات، لقوله ﷺ: «إن العلم دين، فانظروا عمّن تأخذوا دينكم» ولا شك أن علم اللغة من الدين[1].

* وعلم اللغة عند السّيوطيّ من فروض الكفايات، ولهذا يقول:

«ولا شك أن علم اللغة من الدين لأنه من فروض الكفايات وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنّة» ثم يستشهد السّيوطيّ على ذلك بما أخرجه: «أبو بكر الأنباري في كتاب: «الوقف والابتداء» بسنده عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: لا يقرىء القرآن إلاّ عالم باللغة».

ويختم السّيوطيّ موضوع: معرفة آداب اللغوي بما ذكره الفارابي في «خطبة ديوان الأدب»: حيث يقول:

«القرآن كلام الله وتنزيله، فصّل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، مما يأتون ويذرون، ولا سبيل إلى علمه، وإدراك معانيه إلاّ بالتبحّر في علم هذه اللغة».

ثم يضيف السّيوطيّ إلى هذا قولاً آخر وهو:

«وقال بعض أهل العلم:

حفظ اللغات علينا ... فرض كفرض الصلاة

فليس يضبط دين ... إلاّ بحفظ اللغات

وآخر نصّ قاله السّيوطيّ في هذا الموضوع ما ذكره ثعلب في أماليه: «الفقيه يحتاج إلى اللغة حاجة شديدة»[2].

* * *

(١) المزهر: ٢/٣٠٢.
(٢) انظر المزهر: ٢/٣٠٢.

* والموضوع الثاني: وهو الدأب والملازمة في طلب اللغة، فإن السّيوطيّ عقد فصلاً لذلك في كتابه «المزهر»، فقال:

فصــل: وعليه الدُّءوب والملازمة، فبهما يدرك بغيته.

قال ثعلب في أماليه: حدّثني الحزامي، قال: حدّثني أبو ضمرة، قال: حدّثني من سمع يحيى بن أبي كثير اليماني يقول: كان يقال: لا يدرك العلم براحة الجسم.

وقال ثعلب في أماليه: وحدّثني الفضل بن سعيد بن سلمة، قال: كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه، فعزم على تركه، فمرّ بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثر فيها، فقال: الماء على لطافته قد أثّر في صخرة على كثافتها، والله لأطلبنّ، فطلب فأدرك».

وعلّق السّيوطي على ذلك بقوله: قلت: وإلى هذا أشار من قال:

أطلب ولا تضجر من مطلب ... فآفة الطالب أن يضجرا
أما ترى الماء بتكراره ... في الصّخرة الصّماء قد أثّرا[1]

* * *

والسّيوطيّ في هذا أفاد من كتاب: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرّ المتوفى سنة ٤٦٣هـ، فقد وردت فيه آثار وأخبار تحث على النظر في الكتب، وطلب العلم، وتحمّل الصبر في سبيله.

فمن الأخبار أو الآثار في طلب العلم وحبه، وملازمته ما يأتي:

(١) انظر المزهر: ٢/٣٠٣.

١ ــ «روى الحسن اللؤلؤي أنه صحّ عنه أنه قال:

«لقد غبرت لي أربعون عاماً ما قمت ولا نمت إلّا والكتاب على صدري».

* * *

٢ ــ سئل عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري عن دواء للحفظ، فقال: «إدمان النظر في الكتب».

* * *

٣ ــ وقيل لأبي العبّاس أحمد بن يحيى بن ثعلب: توحشت من الناس جدّاً فلو تركت لزوم البيت بعض الترك، وبرزت للناس كانوا ينتفعون بك، وينفعك الله بهم، فمكث ساعةً، ثم أنشأ يقول:

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا ... واستخفوا كبراً بحقّ الجليس

أو صحبنا التجار صرنا إلى البؤ ... س، وصرنا إلى عداد الفلوس

فلزمنا البيوت نستخرج العلـ ... ـم، ونملا به بطون الطروس

ولغيره:

لمحبرة تجالسني نهاري ... أحب إليّ من أنس الصديق

ورزمة كاغدَ في البيت عندي ... أحبّ إليّ من عِدْل الدقيق

ولطمة عالم في الخدّ منّي ... ألذ لدّي من شرب الرحيق

* * *

٤ ــ وأنشدت لعبد الملك بن إدريس الوزير من قصيدة له مطوّله:

واعلم بأن العلم أرفع رتبة ... ،وأجلّ مكتسب، وأسنى مفخر

فاسلك سبيل المقتنين له تسد ... إن السيادة تقتنى بالدفتر

والعالم المدعو جداً إنما سمّاه باسم الحبر حمل المحبر
وبضمر الأقلام يبلغ أهلها ما ليس يبلغ بالجياد الضمّر[1]

* * *

* وأما الموضوع الثالث، وهو: الكتابة والقيد، ينصح السّيوطي طلّاب اللغة أن يقيدوا ما يرونهويسمعونه كما يفعل طلاب الحديث فيقول:

« فصل »

«وليكتب كل ما يراه ويسمعه، فذاك أضبط له، وفي الحديث: «قيدوا العلم بالكتابة».

ويقدم لنا مثالاً على ذلك بما رواه القالي في أماليه: قال: «حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش، حدثنا محمد بن يزيد عن أبي المحلم، قال: أنشدت يونس أبياتاً من رجز فكتبها على ذراعه، ثم قال لي: إنك لجيّاءٌ بالخير»[2].

ويضيف السّيوطيّ مثالاً آخر، فيقول:

«قال القالي في «المقصور والممدود»: قال الأصمعيّ: قال عيسى بن عمر: كنت أنسخ بالليل حتى ينقطع سوائي [يعني وسطه]»[3].

* * *

والسّيوطيّ متأثر بدعوته إلى كتابة اللغة بمنهج المحدثين في ذلك

---

(١) انظر هذه الأخبار في «جامع بيان العلم وفضله» ٥١٠ ـ ٥١٣.
(٢) المزهر: ٢/٣٠٣، ٣٠٤.
(٣) المزهر: ٢/٣٠٤.

ولا أدلّ على ما أقول من هذه الأخبار والأحاديث التي أسوقها في هذا الموقف لتؤكد علاقة حفظ اللغة بالكتابة كما تحفظ الأحاديث الشريفة بالكتابة وها هي ذي:

١ ــ عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار قال: قلت يا رسول الله! إني أسمع منك أحاديث، وأخاف أن تفلت مني، قال: «استعن بيمينك»، يعني: اكتب[1].

٢ ــ عن عبد الله بن عمرو، قال: قلت: يا رسول الله أقيّد العلم؟ قال: نعم، وفي رواية أخرى قلت: يا رسول الله أقيّد العلم؟ قال: نعم، قلت: وما تقيده؟ قال: الكتاب»[2].

ويدافع الخطيب البغدادي عن الكتابة، وأنها ضرورة علميّة لا بد منها، فيقول:

«وفي وصف رسول الله ﷺ الكتاب أنه قيد للعلم دليل على إباحة رسمه في الكتب، لمن خشي على نفسه دخول الوهم في حفظه، وحصول العجز عن إتقانه وضبطه، وقد أدّب الله سبحانه وتعالى عباده بمثل ذلك في الدّين، فقال عز وجلّ: ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله، وأقوم للشهادة، وأدنى ألّا ترتابوا﴾[3].

فلما أمر الله تعالى بكتابة الدين حفظاً له، واحتياطاً عليه، وإشفاقاً من دخول الرّيب فيه، كان العلم الذي حفظه أصعب من حفظ الدين أحرى أن

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي: ١٥.
(٢) تقيد العلم للخطيب البغدادي: ١٦.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٢.

تتاح كتابته خوفاً من دخول الرّيب والشك فيه، بل كتاب العلم في هذا الزمان مع طول الإسناد، واختلاف أسباب الرّواية أحجّ من الحفظ»[1].

* * *

والموضوع الأخير وهو الرحلة في طلب العلم والغرائب كما رحل الأئمة فإن السّيوطيّ يعني بذلك أن طلّاب اللغة يرحلون إلى مصادرها، ويرتشفون من منابعها كما كان يفعل أهل الحديث حينما يضربون أكباد الإبل للرحلة إلى المحدّثين والحافظين لينقلوا عنهم ما رووه من الأحاديث الشريفة وما حفظوه منها.

الرحلة إلى طلب العلم

قد عقد السّيوطيّ في «المزهر» فصلاً عن الرحلة في طلب اللغة، فقال: «**فصل**»

«وليرحل في طلب الفوائد والغرائب كما رحل الأئمة، ويسوق لذلك رواية لمحمد بن المعلي الأزديّ في كتاب «الترقيص».

قال: حدثنا أبو ريّان عن الأصمعي، قال: كنت أغشى بيوت الأعراب، أكتب عنهم كثيراً حتى ألفوني، وعرفوا مرادي، فأنا يوماً مارٌّ بعذارى البصرة، قالت لي امرأة: يا أبا سعيد، ائت ذلك الشيخ فإن عنده حديثاً حسناً فاكتبه إن شئت، قلت: أحسن الله إرشادك، فأتيت شيخاً هِماً، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، وقال: من أنت؟ قلت: أنا عبد الملك بن قُريب الأصمعي، قال: ذو[2] يتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم؟ قلت: نعم، وقد بلغني أن عندك حديثاً

---

(١) تقيد العلم للخطيب الغدادي: ٧٠، ٧١.

(٢) ذو اسم موصول بمعنى الذي في لغة طيٍّ.

حسناً معجباً رائعاً، وأخبرني باسمك ونسبك، قال: نعم، أنا حذيفة بن سور العجلاني، ولد لأبي سبع بنات متواليات، وحملت أميّ، فقلق قلقاً، كاد قلقه يفلُق حبّة قلبه من خوف بنت ثامنة، فقال له شيخ من الحيّ: ألا استغثت بمن خلقهنَ أن يكفيك مؤنتهن! قال: لا جرم؟ لا أدعوه إلاّ في أحبّ البقاع إليه، فإنه كريم لا يضيع قصد قاصديه، ولا يخيِّب آمال آمليه، فأتى البيت الحرام، وقال:

يا ربّ حسبي من بنات حسْبي ... شيّبن رأسي وأكلنَ كسْبي

إنْ زدتني أخرى خلعْت قلبي ... وزدتني همّاً يدقّ صُلبي

فإذا بهاتف يقول:

لا تقنطن غشيت[1] يا بن سور ... بذَكَر من خيرة الذُكور

ليس بمثمودٍ ولا منزور[2] ... محمَّدٍ من فعله مشكور

موجّه في قومه مذكور

فرجع أبي واثقاً من الله جلّ جلاله، فوضعتني أميّ، فنشأت أحسن ما نشأ غلام عفّةً وكرَماً، وبلغت مبلغ الرجال، وقمت بأمر أخواتي وزوّجتهنّ، وكنَّ عوانس، ثم قضى الله تعالى أن سترتهنَّ ووالدتي ثم منَّ الله عليّ أن أعطاني فأوسع وأُكثر، وله الحمد، وولدت رجالاً كثيراً ونساء، وإن بين يديّ القوم من ظهري ثمانين رجلاً وامرأةً»[3].

□ □ □

(١) غش الرجل المرأة: جامعها.

(٢) في هامش المزهر: المثمود: من يعطي بعد إلحاح، وكذلك المنزور.

(٣) المزهر: ٢/٣٠٧، ٣٠٨.

مصطلحات الرّواية
بين المحدّثين واللغويين

سَيْر السّيوطيّ على نهج المحدّثين في طرق الأخذ والتحمّل، وفي أدب المحدّث والرحلة إلى طلب الحديث، وكتابة الحديث وقيده خوفاً من النسيان، كل ذلك كان نصب عيني السّيوطيّ في حديثه عن رواية اللغة، وطرق أخذها وكيفية تلقيها، وكتابتها اتباعاً لمنهج المحدّثين، وقد فصلنا القول في ذلك تفصيلاً واضحاً.

غير أن الأمر لم يقتصر على هذا التأثر المنهجي عند السّيوطيّ، وإنما أضاف إلى ذلك مقارنة رواية اللغة برواية الحديث، فكما أن الأحاديث منها الصحيح والضعيف فكذلك اللغة، وكما أن الحديث منه المتواتر والآحاد، فكذلك اللغة، وكما أن الحديث منه المرسل والمنقطع فكذلك اللغة، وكما أن بعض الأحاديث جاءت مفردة، فكذلك بعض الكلمات اللغوية جاءت مفردة.

وسأحاول في إيجاز عرض هذه المصطلحات في إيجاز:

أولاً ــ المتواتر في الحديث الشريف:

السنّة المتواترة: «هي ما اتصل بنا عن رسول الله ﷺ اتصالاً بلا شبهة وذلك أن ينقلها قوم لا يتوهم اجتماعهم وتواطؤهم على الكذب لكثرة عددهم وعدالتهم، وتباين أماكنهم.

ويدوم هذا الحدّ، فيكون أوّله كآخره، وأوسطه كطرفيه. أي يكون المخبرون في الطرفين والوسط مستوين في هذه الشروط.

وذلك كنقل أعداد الصلوات، وأعداد الركعات، ومقادير الزكاة وما أشبه ذلك.

والتواتر نوعان: تواتر لفظيّ، وهو أن يتفق رواة الحديث في اللفظ والمعنى.

وتواتر معنوي: وهو أن يتفق الرّواة في معنى الحديث، ولكنهم يختلفون في اللفظ المرويّ به»[1].

ويعقد السّيوطيّ فصلاً في كتابه «المزهر»، خصّصه لمعرفة المتواتر والآحاد.

وجاء الحديث عن التواتر في «مزهره» بالنّص التالي:

قال السّيوطيّ: ناقلاً عن أبي البركات بن الأنباري في كتابه: «لمع الأدلّة في أصول النحو»:

«فأمّا التواتر فلغة القرآن، وما تواتر من السنّة، وكلام العرب، وهذا القسم دليل قطعي من أدلّة النحو يفيد العلم.

واختلف العلماء في ذلك العلم، فذهب الأكثرون إلى أنه ضروري واستدلوا على ذلك بأن العلم الضروريّ هو الذي بينه وبين مدلوله ارتباط

---

(1) خبر الواحد في السنّة وأثره في الفقه الإسلامي، ص ١٤، نقلاً عن: «كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام للبزدويّ».

معقـول كالعلم الحـاصل من الحـواس الخمس: السمـع، والبصـر، والشمّ، والذوق واللمس، وهذا موجود في خبر التواتر فكان ضرورياً.

وذهب آخرون إلى أنه نظري، واستدلوا على ذلك بـأن بينه وبين النّـظر ارتبـاطاً، لأنـه يشترط في حصـوله نقـل جماعـة يستحيل عليهم الاتفـاق على الكذب دون غيرهم، فلما اتفقوا عُلِم أنه صدْق»[1].

شروط التواتر:

ويتحـدّث السّيوطيّ عن شـرط التواتـر نقـلاً عن ابن الأنبـاري، فيقـول: «واعلم أن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن شرط التواتر أن يبلغ عـدد النقلة إلى حد لا يجـوز على مثلهم الاتّفاق على الكـذب، كنقلة لغة القـرآن ومـا تـواتـر من السنّـة، وكلام العـرب، فـإنهم انتهـوا إلى حـدٍّ يستحيـل على مثلهم الاتفـاق على الكذب»[2].

أمثلة من المتواتر:

ويقدّم لنا السّيوطيّ في «المزهـر» أمثلة من المتواتـر في اللغة، فيقـول: «وهذه أمثلة من المتواتر، فما تواتر على ألسنة الناس من زمن العرب إلى اليوم، وليس هو في القرآن.

من ذلـك أسمـاء الأيـام والشهـور، والـربيـع، والخـريف، والقمـح والشعيـر، والأرز والحمص والسمسم... والضفـدع والضبـع، والفـهـد، والنمر، والثعلب، والأرنب، والسرطـان[3] والضفـدع، والضبُـع، والفهـدُ،

(١) المزهر: ١/١١٣، ١١٤.
(٢) المزهر: ١/١١٤.
(٣) حيوان بحري.

والنمرُ، والثعلب، والأرنب، والغزال، والظبي، والدّب، قال ابن دريد: عربي صريح.

والزرافة، والسِّدر، والحناء... والزعفران، قال ابن دريد: عربي صريح.. إلى أن يقول: «والصداع، والإسهال، والرّمد، واليرقان، والاستسقاء، والحمّى، والوباء، والطاعون، والجدريّ، والحصبة، والجرب، والجذام، والدرّة، والرصاص، قال ابن دريد: عربي صحيح، والأردب، قال الأخطل:

والخبز كالعنبر الهنديّ عندهم والقمح سبعون إردباً بدينار

ويختم السّيوطيّ القول في هذا فيقول: «فكل هذه الألفاظ عربيّة صحيحة متواترة على ألسنة الخلق من زمن العرب إلى وقتنا هذا»[1].

ثانياً ــ الأخبار الأحاديّة:

قال السيوطي ناقلاً عن ابن الأنباري:

«وأمّا الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة، ولم يوجد فيه شرط التواتر وهو دليل مأخوذ به، واختلفوا في إفادته:

. فذهب الأكثرون إلى أنه يفيد الظن، وذهب بعضهم إلى أنه يفيد العلم.

وليس بصحيح لتطرّق الاحتمال فيه.

وذهب بعضهم أنه إن اتصلت به القرائن أفاد العلم ضرورة، كخبر التواتر لوجود القرائن»[2].

---

(١) المزهر: ١/١٢٠ ــ ١٢٢، بتصرف.

(٢) المزهر: ١/١١٤.

وقد أورد السّيوطيّ نقلاً عن الإمام فخر الدين إشكالاً على رواية اللغة في مجال الآحاد.

قال: «وأمّا الآحاد فالإشكال عليه من جهة أن الرّواة له مجروحون ليسوا سالمين عن القدح.

بيانه: أن أصل الكتب المصنّفة في النحو واللغة كتاب «سيبويه»، وكتاب «العين»؛ أما كتاب «سيبويه» فقدْح الكوفيين فيه وفي صاحبه أظهر من الشمس،وأيضاً فالمبّرد كان من أجلّ البصريين، وهو أفرد كتاباً في القدْح فيه.

وأمّا كتاب العين فقد أطبق الجمهور من أهل اللغة على القدْح فيه.

وأيضاً، فإن ابن جني أورد باباً في كتاب «الخصائص» في قدْح أكابر الأدباء بعضهم في بعضه، وتكذيب بعضهم بعضاً.

وأورد باباً آخر في أن لغة أهل الوبر أصحّ من لغة أهل المدر، وغرضه من ذلك القَدْح في الكوفيين.

وأورد باباً آخر في كلمات من الغريب لا يُعلم أحد أتى بها إلّا ابن أحمر الباهلي، وروى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها، ولا سُبقا إليها... وأيضاً، فالأصمعي كان منسوباً إلى الخلاعة، ومشهوراً بأنه كان يزيد في اللغة، ما لم يكن منها.

والعجب من الأصوليين أنهم أقاموا الدلائل على خبر الواحد أنه حجّة في الشرع، ولم يقيموا الدّلالة على ذلك في اللغة، وكان هذا أوْلى، وكان من الواجب عليهم أن يبحثوا عن أحوال اللغات والنحو، وأن يفحصوا عن جرحهم وتعديلهم كما فعلوا ذلك في رواة الأخبار، لكنهم تركوا ذلك بالكليّة

مع شدّة الحاجة إليه، فإن اللغة والنحو يجريان مجرى الأصل للاستدلال بالنصوص»[1].

على أن السّيوطيّ بعد أن سجّل في كتابه «رأي الإمام فخر الدين في إشكالاته على رواية اللغة في مجال الآحاد رأى أن يتيح الفرصة للرأي الآخر ليعقب أو يعلّق على رأي الإمام فخر الدين.

والرأي الآخر هو رأي الأصبهاني في كتابه «شرح المحصول» فماذا قال؟

قال السّيوطيّ: «وتعقب الأصبهاني في «شرح المحصول» بعضه، فقال: أما قوله: وأورد ابن جني باباً في كلمات من الغريب لم يأت بها إلّا الباهلي، فاعلم أن هذا القدر، وهو انفراد شخص بنقل شيء من اللغة العربيّة لا يقدح في عدالته، ولا يلزم من نقْل الغريب أنه يكون كاذباً في نقله، ولا قصد ابن جني ذلك.

وأمّا قوله: إن الأصوليين لم يقيموا... إلى آخره فضعيف جدّاً، وذلك أن الدليل الدّال على أنّ خبر الواحد حجّة في الشرع يمكن أن يتمسك به في نقل اللغة آحاداً إذا وجدت الشرائط المعتبرة في خبر الواحد، فلعلهم أهملوا ذلك اكتفاءً منهم بالأدلّة الدالّة على أنه حجّة في الشرع»[2].

رأي القاضي عبد الوهاب المالكي في رواية الآحاد:

ويضيف السّيوطيّ في قضية إثبات اللغة برواية الآحاد رأي القاضي عبد الوهاب المالكي، فيقول:

---

(١) المزهر: ١/١١٧، ١١٨، بتصرف.

(٢) المزهر: ١/١١٨، ١١٩، بتصرف.

«وفي «الملخص في أصول الفقه» للقاضي عبد الوهاب المالكيّ في ثبوت اللغة باعتبار الآحاد طريقان لأصحابنا:

أحدهما: أن اللغة تثبت به، لأن الدليل إذا دلّ وجب العمل به في الشرع كان في ثبوت اللغة واجباً، لأن إثباتها إنما يراد للعمل في الشرع.

الثاني: لا تثبت لغة بأخبار الآحاد»[1].

ثالثاً ـ الأخبار المرسلة في اللغة:

المرسل عند أهل الحديث كما ذكره أبو عمرو بن الحاجب في مختصره في أصول الفقه: هو «قول غير الصحابي: قال رسول الله ﷺ»[2].

ويوضح ابن الصلاح في مقدّمته صورة المرسل، فيقول:

«وصورته التي لا خلاف فيها حديث التابعي الكبير الذي لقي جماعة من الصحابة وجالسهم كعبيد الله بن عدي بن الخيار، ثم سعيد بن المسيّب وأمثالهما إذا قالا: قال رسول الله ﷺ»[3].

هذا هو المرسل في الحديث الشريف.

أمّا المرسل في اللغة فإن السّيوطيّ ينقل نصّاً في تعريفه من «لمع الأدلّة» لابن الأنباري، فيقول:

«قال الكمال بن الأنباريّ في «لمع الأدلّة»: المرسل: هو الذي انقطع سنده نحو أن يروي ابن دريد عن أبي زيد، وهو غير مقبول، لأن العدالة

---

(١) المزهر: ١/١٢٠.

(٢) الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، للحافظ ابن كثير: ٤٨.

(٣) مقدّمة ابن الصلاح: ٢٥.

شرط في قبول النقل، وانقطاع سند النقل يوجب الجهل بالعدالة فإن من لم يذكر لا تعرف عدالته.

وذهب بعضهم إلى قبول المرسل، لأن الإرسال صدّر ممّن هو لو أسند لقبل ولم يتّهم في إسناده، فكذلك في إرساله، لأن التهمة لو تطرّقت إلى إرساله لتطرّقت إلى إسناده، وإذا لم يتهم في إسناده، فكذلك في إرساله.

قلنا: هذا اعتبار فاسد، لأن المسند قد صرّح فيه باسم الناقل، فأمكن الوقوف على حقيقة حاله، بخلاف المرسل، فبان بهذا أنه لا يلزم من قبول المسند قبولُ المرسل. انتهى ما ذكره ابن الأنباري»[1].

* * *

أمثلة من المرسل في اللغة:

بعد أن ذكر السّيوطيّ تعريف المرسل عند ابن الأنباري، وما اعترض به ابن الأنبارى على تعريف المرسل عند بعض العلماء لم يكتفِ السّيوطيّ عند هذا الحد لأن التعريف وحده لا يكفي ما لم يكن هناك تطبيق يتّضح فيه معنى هذا التعريف.

ويتجه السيوطي الباحث إلى كتب اللغة ليستخرج منها بعد طول عناء في البحث، أمثلة تطبيقية للمرسل في اللغة.

اتجه إلى جمهرة ابن دريد فحصل على بعض الأمثلة التطبيقية، قال: «ومن أمثلة ذلك ما في الجمهرة لابن دريد: يقال: فسأت الثوب أفسؤه فَسْأً: إذا مددته حتى يتفزر.

---

(١) المزهر: ١/١٢٥.

وأخبر الأصمعي عن يونس، قال: رآني أعرابيّ محتبياً بطيلسان، فقال: علام تفسؤه؟

وعلّق السّيوطي على هذا النص بقوله: ابن دريد لم يدرك الأصمعيّ»[1].

وينقل نصّاً من أمالي ابن دريد، فيقول:

«وقال ابن دريد في أماليه: أخبرنا الأشناندانى عن التوّزي، عن أبي عبيدة، قال: اجتمع عند يزيد بن معاوية أبوزبيد الطائي وجميل بن معمر العذريّ، والأخطل التغلبيّ، فقال لهم: أيكم يصف لي الأسد صفة في غير شعر؟

فقال أبو زبيد: أنا يا أمير المؤمنين: لونه ورد، وزئيره رعد، وقال مرة أخرى: زَغْد ــ ووثبه شدّ، وأخذه جدّ، وهوله شديد، وشرّه عتيد، ونابه حديد، وأنفه أخثم[2]، وخده أدرم[3]، ومشفره أدلم[4]، وكفّاه عراضتان[5]، ووجنتاه ناتئتان، وعيناه وقّادتان كأنهما لمْح بارق أو نجم طارق إذا استقبلته قلت: أقدع[6]،وإذا استعرضته قلت: أكوع[7]، وإذا استدبرته قلت: أصمع[8]، بصير إذا استغضى، هموس إذا مشى، إذا قفّي كمش، وإذا جرى

---

(١) المزهر: ١/١٢٥.

(٢) الخثم بتحريك الثاء: عرض الأنف أو غلظه.

(٣) كل ما غطّاه الشحم واللحم، وخفى حجمه فقد درم.

(٤) دلت شفاهه: تهدّلت.

(٥) العراض: العريض، والعراضة تأنيثها.

(٦) قدعه كمنعه: كفّه.

(٧) الأكوع: العظيم الكوع.

(٨) الأصمع: الصغير الأذن.

طمش، براثنه شثنة، ومفاصله مُتْرصة[1]، مصعقٌ لقلب الجبان، مروّع لماضي الجنان، إذا قاسم ظلم، وإن دَابر دَهَم، وإن نازل غَشم، ثم أنشأ يقول:

خُبَعْثِنٌ أشوس[2] ذو تهكم ... مشتبك الأنياب ذو تبرطُم

وذو أهاويل وذو تجهّم ... ساطٍ على الليث الهزبر الضّيغم

وعينه مثل الشهاب المضرَم ... وهامه كالحجر الململم[3]

فقال: حسبك يا أبا زبيد!

ثم قال: قل: يا جميل. فقال: يا أمير المؤمنين: وجهه فدغم[4]، وشَدقه شَدقم[5]، ولُغْده مُعْرَنْزِم[6]، مقدّمه كثيف، ومؤخره لطيف، ووثبه خفيف، وأخذه عنيف، عبل[7] الذراع، شديد النخاع[8]، مُرْدٍ للسباع، مصعق الزئير، شديد المرير[9]، أهرت الشدقين، مترص[10] الحصيرين[11]، يركب الأهوال، ويهتصر الأبطال، ويمنع الأشبال، ما إن يزال جاثماً في خيسٍ[12]، رابضاً على فريس[13]، أو ذا ولغ ونهيس[14]، ثم قال:

---

(1) مترصة: محكمة شديدة.

(2) الشوس: رفع الرأس تكبّراً، والخبعثن: العظيم الشديد من الأسد.

(3) صخرة ململمة: مستديرة صلبة. (4) الفدغم: الوجه الممتلىء الحسن.

(5) الشدقم: الواسع الشدق.

(6) اعرنزم: تجمّع وانقبض.

(7) العبل: الضخم من كل شيء.

(8) النخاع: مثلثة: الخيط الأبيض في جوف القفا ينحدر من الدماغ وتتشعب منه شعب في الجسم.

(9) المرير: العزيمة.

(10) مترص: محكم.

(11) الحصير: عرق يمتد معترضاً على جنب الداية إلى ناحية بطنها.

(12) الخيس: الشجر الملتف، وموضع الأسد.

(13) الفريس: القتيل.

(14) النهيس: نهس اللحم: أخذه بمقدم أسنانه.

ليث عرينٍ ضيغمٌ غضنفر	مُداخَلٌ في خَلْقه مُضَبّر[1]
يُخاف من أنيابه ويُذعر	ما إن يزال قائماً يزمجر
له على كل السباع مَفخر	قُضاقض[2] شثْن البَنان قسْوَر[3]

فقال: حسبك يا ابن معمر.

ثم قال: قل يا أخطل. فقال:

«ضيغم ضِرغام، غشمشم [4] همهام، على الأهوال مقدام، وللأقران هضّام، رئبال عنبْس[5]، جريء دَلَهْمس[6]، ذو صدر مُفَرْدس[7]، ظلوم أهوس، ليث كروّس، ثم قال:

شَرَنبثُ[8] الكفّين حامي أشْبُل	إذا لَقاه بطلٌ لم يَنكَل
قُضاقض جهمٌ شديد المَفْصِل	مضبر الساعد ذو تعثكُل
ململم الهامة كَمْشٌ[9] الأرجل	ذو لِبد يختال في تمهّل
أنيابه في فيه مثل الأنصُل	وعينه مثل الشهاب المُشعَل

فقال له: حسبك وأمر لهم بجوائز».

---

(١) التضبير: الجمع، وشدّة اكتناز اللحم.
(٢) القضاقض: الغليظ.
(٣) غشمشم: الغشمشم من يركب رأسه، فلا يثنيه عن مراده شيء.
(٤) عنبس: الأسد، والرئبال: الأسد كذلك.
(٥) الدلهمس: الجريء.
(٦) المفردس: الواسع.
(٧) كروس: الشديد والضخم من كل شيء (انظر هامش المزهر).
(٨) الشّرنبث: الغليظ الكفين والرجلين.
(٩) الأكمس: القصير القدمين.

وعلّق السيوطي على هذه الرواية التي ساقها ابن دريد في الأمالي بقوله: هذا منقطع، أبو عبيدة لم يدرك يزيد[1].

وذلك لأن أبا عبيدة توفي سنة ٢٠٩هـ، ويزيد بن معاوية توفي سنة ٦٤هـ.

* * *

رابعاً ــ الأخبار المفردة في اللغة:

الإفراد مصطلح من مصطلحات علم الحديث. ذكرته كتب مصطلحات الحديث، وحدّدت المراد منه.

قال الحافظ ابن كثير: «الإفراد أقسام: تارة ينفرد به الراوي عن شيخه، أو ينفرد به أهل قطر كما يقال: تفرّد به أهل الشام أو العراق أو الحجاز، أو نحو ذلك.

وقد يتفرّد به واحد منهم، فيجتمع فيه الوصفان، والله أعلم.

وللحافظ الدارقطني كتاب في الإفراد في مائة جزء، ولم يسبق إلى نظيره، وقد جمعه الحافظ محمد بن طاهر في أطراف رتّبه فيها»[2].

* * *

والإفراد في اللغة عرّفه السّيوطي في «المزهر» بقوله:

«وهو ما انفرد بروايته واحد من أهل اللغة، ولم ينقله أحد غيره.

---

(١) المزهر ١/١٢٥ ــ ١٢٩.

(٢) الباعث الحثيث: ٦١.

وحكمه: القبول إن كان المتفرِّد به من أهل الضبط والإتقان. كأبي زيد، والخليل، والأصمعيّ، وأبي حاتم، وأبي عبيدة وأضرابهم.

وشرطه: ألاّ يخالفه فيه من هو أكثر عدداً منه»[1].

وكعادة السّيوطي في البحث عن الأمثلة التطبيقية لكل مصطلح من المصطلحات التي سبق ذكرها، فإنه جرى على العادة نفسها هنا حينما قدّم لنا أمثلة تطبيقية للإفراد.

* * *

أمثلة تطبيقية للإفراد:

(أ) من إفراد أبي زيد الأوسيّ الأنصاري:

قال في الجمهرة: «المَنْشَبة: المال».

وعلّق السّيوطي على ذلك بقوله: «هكذا قال أبو زيد ولم يقله غيره»[2].

ومن الإفراد لأبي زيد: رجل ثط، ولا يقال: أثط.

قال أبو حاتم: قال أبو زيد مرّة: أثط، فقلت له: أتقول: أثط؟

فقال: سمعتها. والثطط: خِفّة اللّحية من العارِضَيْن.

ومن الإفراد لأبي زيد أيضاً: البداوة بالفتح.

قال السيوطي: «وفي الصحاح؛ البداوة: الإقامة في البادية بفتح ويكسر».

---

(١) المزهر: ١٢٩/١.

(٢) المزهر: ١٢٩/١.

قال ثعلب: لا أعرف البداوة بالفتح إلاّ عن أبـي زيد وحده.

* * *

(ب) من إفراد الخليل:

«قـال في الجمهرة: الـرتّ، والجمع: رُتـوت، وهي الخنازيـر الذكـور ولم يجىء به غير الخليل»[1].

وفي الجمهرة أيضاً: «يوم بُعاث سمعناه من علمائنا بالعين وضم البـاء، وذكر عن الخليل بغين معجمة، ولم يُسمـع من غيره»[2].

* * *

(ج) من إفراد يونس:

«قـال في الجمهـرة: الصِّنتيف بمعنى الصنـديـد. هكـذا قـال يـونس، ولم يقله غيره»[3].

* * *

(د) من إفراد أبي صاعد:

«قال ابن السكيت في: «إصلاح المنطق»، والخطيب التبـريزي في: «تهذيبه»: يقال: لم يعطهم بازلة، أي لم يعطهم شيئاً.

وعن ابن الأنباري وحده: «بارلة» بالراء، والصّواب بالزاي.

---

(1) المزهر: ١/١٣٠.
(2) المزهر: ١/١٣٠.
(3) المزهر: ١/١٣٠.

وقال الأصمعيّ: لم يجيء ببارلة غير أبي صاعد الكلابي، ولم يدر ما هي؟ حتى قلت له: أهي من برائل[1] الديك؟ فقال: أَخْلق بها»[2].

* * *

(هـ) من إفراد الأخفش الكبير أبي الخطّاب:

قال في «الجمهرة»: الجُثُّ: ما ارتفع من الأرض حتى يكون له شخص مثل الأُكَيمة الصغيرة ونحوها. قال الشاعر:

وأَوْفى على جُثٍّ ولِلَّيل طرّة ... على الأُفْق لم يهتك جوانَبها الفجرُ

قال: وأحسب أن جثة الإنسان من هذا اشتقاقها.

وقال قوم من أهل اللغة: لا تُسمّى جثة إلاّ أن يكون قاعداً أو نائماً، فأمّا القائم، فلا يقال: جثته، إنما يقال: قمته.

وزعموا أن أبا الخطّاب الأخفش كان يقول: لا أقول جثة الرجل إلاّ لشخصه على سَرْج أو رحْل، ويكون معتمًّا. ولم يسمع من غيره»[3].

* * *

(و) من إفراد جمال الدين أبي مالك:

«في الجمهرة: قال أبو مالك: الجمْش: الصوت، لم يجيء به غيره»[4].

---

(١) في هامش المزهر: ١/١٣٠: البرائل ما استدار من ريش حول عنقه.

(٢) المزهر: ١/١٣٠.

(٣) المزهر: ١/١٣٠.

(٤) المزهر: ١/١٣٠.

«وفي الجمهرة: قال أبو مالك: جارية لَعّة: خفيفة مليحة، لم يجيء بها غيره، والمعروف أن «لعّ» أميت، وألحق بالرّباعي».

«وفي الجمهرة: أحسب أن أبا مالك قال: واحد الجناجين[1]: جُنجون، وهذا شيء لا يعرف، والمعروف «جِنْجِن»، وهي عظام الصدر».

«وفي الجمهرة: ذكر أبو مالك أنه سمع: «طعام بريك» في معنى مبارك فيه»[2].

* * *

(ز) من إفراد أبي عبيدة:

قال ابن دريد: قال أبو عبيدة: الدأداء: ما استوى من الأرض ولم يجيء بها غيره.

وقال: يوم الأربعاء بكسر الباء. وزعم قوم أنهم سمعوا: الأربَعاء، بفتح الباء.

وأخبرنا أبو عثمان الأشنانداني عن التّوزي، عن أبي عبيدة: الأربُعاء بالضمّ، وزعم أنها فصيحة».

* * *

(ح) من إفراد الأصمعي:

«قال في الجمهرة: قال الأصمعيّ: سمعت العرب تقول: هم يحلبون ويحلبون [بضم اللام وكسرها]، ولم يقل هذا غير الأصمعي».

---

(١) الجناجين: عظام الصدر.

(٢) المزهر: ١/١٣٢.

«وقـال الأصمعي: أرض قِرواح، وقـريـاح، وقـرْحِيـاء ممـدودة: قفـراء ملساء. وقرحياء لم يجيء بها غيره».

«وقـال في الجمهرة: ويقـال: هسّ الشيء: إذا فتّه وكسـره، والهسيس مثل الفتوت. كذا قال الأصمعي وحده».

«وفي الصحاح: قال الأصمعيّ: ما سمعنا العام قابّة: أي صوت رعد».

«قـال ابن السكّيت: ولم يـرو هـذا الحـرف أحـد غيـره، والنـاس على خلافه، إنما يقال: ما أصابتنا العام قابّة، أي قطرة».

* * *

(ط) من إفراد أبـي حاتم:

«في الجمهـرة كان أبـو حاتم يقـول: سمعت بعض من أثق بـه يقـول: الكَيْكَـة :البيضة، ولم يسمع من غيره».

* * *

(ي) من إفراد أبـي عثمان الأشناندانـي:

«في الجمهرة يقال: مُدْعنكر: إذا تدرّأ بالسوء والفُحْش، قال الشاعر:

قد ادْعَنكَرت بالسوء والفحش والأذى أُسَيْمـاء كادْعِنْكـار سيل على عمـرو

قـال ابن دريد: هـذا البيت لم يعرفـه البصريـون، وزعم أبو عثمـان أنه سمعه ببغداد، ولا أدري ما صحّته؟» (١).

* * *

(١) انظر هذه النصوص في المزهر: ١/١٣٢ ــ ١٣٤.

الفصل الثاني

ألوان من الدراسات اللغوية في «المزهر»

أوّلاً :

المؤلفات اللغويّة قبل السّيوطـي

استـطاع السّيوطي في كتـاب«المـزهـر» أن يقـدّم لنـا دراسـة طيّـبة عن المصادر اللغويّة التي قام بتأليفها اللغـويون، وأول كتاب وضـع في الدراسـة اللغوية هو: كتاب «العين» للخليل.

ونسج على منوال هذا الكتاب في التـأليف اللغوي ابن دريـد في كتاب «الجمهرة».

ثم ألف أتباع الخليل، وأتباع أتباعه وهلم جرا كتباً شتى في اللغة منهـا المطول، ومنها المختصر، ومنها ما هو عام في اللغة، منها ما هو خاص بنوعٍ منها.

ويـذكر السّيـوطيّ أنّ هذه المؤلفـات اللغويـة التي كثرت لم يلتـزم فيهـا مؤلفوها الصحيح، بل جمعوا فيهاما صحّ وغيره، ونبّهـوا على ما لم يثبت غالباً حتى جاء الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، فالتزم الصحيـح، واقتصر عليه، وسمّى كتابه : « الصحاح».

ويـذكر السّيـوطي أن الإمام أبـا محمد عبـد الله بن برّي ألّف الحـواشي على الصحـاح، وصل فيهـا إلى أثناء حـرف الشين، فأكملها الشيخ عبد الله بن محمد البسطي.

كذلك أسهم في الدراسة اللغوية على الصحاح الـصغـاني في كتـابه: «التكملة على الصحاح».

والتـزم منهج الجـوهري في الالتـزام بالصحيح ابن فـارس في كتـاب: «المجمل».

وآخـر من ألف في المعـاجم اللغـويـة إلى عصـر السّيـوطي صـاحب القاموس الفيـروز آبادي. أجَـل، لقد عـرض السيوطي هـذه المصادر اللغـوية عرضاً جذاباً مبينـاً مناهجهـا، موضحـاً أخطاءهـا، ذاكراً قضـاياهـا، مستوعبـاً محاسنها عارفاً المآخذ التي عليها.

وسنتناول هذه المصـادر مصدراً مصـدراً في ضوء التـرتيب الذي وضعه السيوطـي لها.

والسّيوطي، في عرضه هذه المصادر، أفاد طلّاب اللغة ودارسيها فائـدة عظيمة حينما قدّم هـذه الدراسـات لهذه المؤلفـات، وليكون البـاحث اللغوي على بيّنـة من أمره وضـع السّيـوطي يـد البـاحث على مـا في هـذه الكتب من محاسن ومآخذ ليسير في درب البحث اللغوي على هدى وبصيرة.

وأوّل كتاب مؤلف في اللغة هو كتاب: «العين» للخليـل بن أحمد، وسنتناوله بالبحث في النقطة التالية:

«العــين»، للخليل بن أحمد

في المسألة السادسة عشرة من مسائل معرفـة الصحيـح من اللغة، ذكـر السيوطي أنّ أول من صنّف في جمع اللغـة الخليل بن أحمـد، ألّف في ذلك كتـاب «العين المشهـور، واستـدلّ على ذلـك بقـول الإمـام فخـر الـدين في «المحصول» : «أصل الكتب المصنّفة في اللغة كتاب العين»[1].

وينقلنـا السيوطي آلى دراسـة مستوعبـة حول نسبـة الكتاب للخليـل بن أحمـد، لأنّ كثيـراً من اللغـويين القـدمـاء شكـوا في هـذه النسبـة، وارتـابـوا في أمرها.

طـرح السّيوطي هـذه القضية على بســاط البحث، فـرأى أنّ فـريقـاً من العلمـاء أثبت هـذه النسبـة، وعلى رأس هـذا الفـريق السيـرافي في «طبقـات النحاة» في ترجمة الخليل.

قال السيوطي: «وقال السيرافي في طبقات النحاة، في ترجمة الخليل: عمل أوّل كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة»[2].

ولم تفت هـذه الإشارة السّيـوطي فعلّق عليها ليبيّن لنـا أنّ الخليـل ألّف أوائل الكتاب فقط، تاركاً بقيته لتلاميذه أو لمن جاء بعده.

يقـول السّيوطي: «وهـذه العبارة من السيـرافي صريحـة في أنّ الخليـل لـم يكمل كتاب «العــين»[3].

---

(١) المزهر: ٧٦/١.

(٢) المزهر: ٧٦/١.

(٣) المرجع نفسه: ٧٧.

وينضم إلى السيرافي في نسبة الكتاب إلى الخليل، وأنّ الخليل لم يتمّه، ما ذكره السّيوطي، حيث قال ناقلاً عن الإمام فخر الدين في «المحصول»: «وقال محمد بن عبد الواحد الزاهد: قال: حدّثني فتىً قدم علينا من خراسان وكان يقرأ عليّ كتاب «العين»، قال: أخبرني أبي عن إسحاق بن راهويه، قال: كان الليث صاحب الخليل بن أحمد رجلاً صالحاً، وكان الخليل عمل من كتاب «العين» باب العين وحده.

وأحبّ الليث أن ينفقّ سوق الخليل، فصنف باقي الكتاب، وسمّى نفسه الخليل.

وقال لي مرّة أخرى: فسمّى لسانه الخليل من حبّه للخليل بن أحمد، فهو إذا قال في الكتاب، قال الخليل بن أحمد فهو الخليل، وإذا قال: الخليل مطلقاً فهو يحكي عن نفسه، فكل ما في الكتاب من خلل، فإنّه منه لا من الخليل»[1].

ولم ينسَ السيوطي أن يبيّن لنا أنّ هناك مجموعة من اللغويين لا تنكر نسبة الكتاب إلى الخليل، وترى رأي السّيرافي ومحمد بن عبد الواحد الزاهد، فيقول:

«وقال بعضهم: عمل الخليل من كتاب «العين قطعة» من أوله إلى حرف العين، وكمّله الليث، ولهذا لا يشبه أوّله آخره»[2].

* * *

(1) المزهر: ١/٧٨.
(2) المرجع نفسه: ٧٧.

* رأي ابن المعتز:

على أنّ السّيوطي يذكر لنا رواية عن ابن المعتز ساقها ياقوت الحموي في معجم الأدباء.

وخلاصة هذه الرواية أنّ الخليل صنّف كتاب «العين» كلّه، وخصّ به صديقه الليث الذي أحبّ الكتاب، فحفظ منه النصف حتّى وقعت الحادثة، فأحرق الكتاب، ولطرافة هذه الحادثة نسوقها بنصّها لوضوحها:

«قال ابن المعتز: كان الخليل منقطعاً إلى الليث، فلمّا صنّف كتابه «العين» خصّه به، فحظي عنده جداً، ووقع منه موقعاً عظيماً، ووهب له مائة ألف درهم، وأقبل على حفظه وملازمته، فحفظ منه النصف وكانت تحته ابنة عمّه، واتفق أنه اشترى جارية نفيسة، فغارت ابنة عمه، وقالت: والله لأغيظنّه، وإن غظته في المال، فذاك ما لا يبالي، ولكنّي أراه منكبّاً ليله ونهاره على هذا الكتاب، والله لأفجعنّه به، فأحرقته.

فلمّا علم اشتدّ أسفه، ولم يكن عند غيره منه نسخة، وكان الخليل قد مات فأملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره، وأمرهم أن يكملوا على نمطه، وقال لهم: مثّلوا عليه واجتهدوا، فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس»[1].

ونختم هذه النقطة من البحث حول صحّة نسبة الكتاب إلى الخليل بشهادة رجلين كبيرين من رجال اللغة، أحدهما: أبو الطيب عبد الواحد اللغوي.. وثانيهما: الإمام المشهور أحمد بن يحيى ثعلب.

* * *

---

(١) المزهر: ١/٧٧.

* رأي أبي الطيب اللغوي:

«وقال أبو الطيب اللغوي في كتابه: «مراتب النحويين»: «أبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها، فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في كتابه المسمّى كتاب: «العين»، فإنه هو الذي رتّب أبوابه وتوفي من قبل أن يحشوه».

* * *

* رأي ثعلب:

«أخبرنا محمد بن يحيى، قال: سمعت أحمد بن يحيى ثعلب، يقول: إنما وقع الغلط في كتاب «العين»، لأن الخليل رسمه ولم يحشه، ولو كان هو حشاه ما بقي فيه شيء، لأن الخليل رجل لم يرَ مثله.

وقد حشا الكتاب أيضاً قوم علماء إلّا أنه لم يؤخذ منهم رواية، وإنما وجد بنقل الورّاقين، فاختلّ الكتاب لهذه الجهة»[١].

* * *

على أنّ النووي له رأي وسط في هذه القضية، وسجّل السّيوطي رأيه في «المزهر»، فقال: «وقال النوويّ في «تحرير التنبيه»: كتاب «العين» المنسوب إلى الخليل هو من جميع الليث عن الخليل»[٢].

ولم يعلّق السّيوطي على هذا الرأي. وفي الحقيقة، كان النووي ذكياً جداً في هذا الرأي، لأنه أرضى الطرفين.

أرضى الطرف الأول الذي ينسب «العين» للخليل، لأنه إذا جاز لنا أن

---

(١) انظر الرأيين في المزهر: ١/٧٨.

(٢) المزهر: ١/٧٨.

ننسب الكتاب لسيبويه، وليس لسيبويه فيه غير جمع الآراء، آراء الخليل وآراء غيره، فإنه يجوز لنا أن ننسب الكتاب للخليل باعتباره صاحب الآراء فيه . .

وأرضى الطرف الآخر المنكر نسبة الكتاب للخليل، لأنّ الخليل لم يؤلفه بنفسه حتى يؤاخذ على الأخطاء التي فيه، وإنما الآراء آراؤه والترتيب والتنظيم والحشو لغيره، ومن ثمّ وقَعَتْ بعض الأخطاء فيه.

* * *

* رأي المنكرين نسْبة الكتاب للخليل:

ذكر السيوطيّ أنّ بعض العلماء أنكروا أن تكون نسبة الكتاب للخليل صحيحة. قال السيوطيّ: قال بعضهم: «ليس كتاب «العين» للخليل، وإنما هو للّيث بن نصر بن سيّار الخراساني.

* * *

* رأي الأزهري:

قال السيوطي: «قال الأزهري: كان الليث رجلاً صالحاً عمل كتاب «العين»، ونسبه إلى الخليل لينفق كتابه باسمه ويرغب فيه من حوله»[1].

* * *

على أنّ اللغويين الذين أنكروا نسبة الكتاب إلى الخليل إنما أنكروا ذلك لأنّ الكتاب محشوّ بالأخطاء وليس يعقل أن يكون نادرة الدنيا في الذكاء، والإحاطة اللغوية والاستيعاب أن يقع في مثل هذه الأخطاء التي لا يقع فيه لغوي صغير.

---

(١) المزهر: ١/٧٧.

ولذلك وجّه اللغويون إلى هذا الكتاب نقداً مرّاً عنون له السّيوطيّ في كتابه «المزهر» بعنوان:

«ذكر قدح الناس في كتاب «العين» »

أخذ السيوطي يورد أصنافاً من القدح، ويعرض ألواناً من النقد.

وها نحن نسردها كما وردت في كتاب «المزهر»:

١ ـ نقد ابن فارس لكتاب «العين»:

قال معلّقاً على قول بعض الفقهاء: «كلام العرب لا يحيط به إلاّ نبيّ»: «هذا كلام حريّ أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أنّ أحداً ممن مضى ادّعى حفظ اللغة كلها.

فأمّا الكتاب المنسوب إلى الخليل وما في خاتمته من قوله: هذا آخر كلام العرب، فقد كان الخليل أورع وأتقى لله تعالى من أن يقول ذلك.

وقد سمعت علي بن محمد بن مِهْرُويه يقول: سمعت هارون بن هزاري يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: من أحبَّ أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد. قال: وسمعت النضر بن شميل يقول: ما رأيت أحداً أعلم بالسنّة بعد ابن عَوْن من الخليل بن أحمد، قال: وسمعت النضر يقول: أُكِلَتْ الدنيا بأدب الخليل وكتبه وهو في خُصٍّ لا يُشعَر به.

قال ابن فارس: فهذا مكان الخليل من الدين، أفتراه يقدم على أن يقول: هذا آخر كلام العرب؟».

ثم إن في الكتاب الموسوم به من الإخلال ما لا خفاء به على علماء اللغة.

ومن نظر في سائر الأصناف الصحيحة علم صحّة ما قلناه»[1].

* * *

والناظر إلى نص ابن فارس الذي قدّمناه حول كتاب: «العين»، يعلم تمام العلم أنّ الخليل بن أحمد بريء من معظم ما جاء في الكتاب، لأن به أغلاطاً، ومن أغلاطه أن يقول في آخر كتابه: «هذا آخر كلام العرب»، مع أن كلام العرب لا يحيط به إلّا نبيّ. ولهذا فإن «العين» تحوم حوله الشبهات، لأن الخليل بن أحمد أكبر من أن يقع في هذه الأخطاء، وأعظم من أن يتّسم بهذا التحريف.

* * *

٢ ــ نقد ابن جني لكتاب «العين»:

قال ابن جني في الخصائص: «أما كتاب «العين» ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه، ولا محالة أن هذا التخليط لحق هذا الكتاب من قبل غيره، فإن كان للخليل فيه فضل، فلعلّه أومأ إلى عمل هذا الكتاب إيماء، ولم يله بنفسه ولا قرّره ولا حرّره.

ويدلّ على أنه كان نحا نحوه أنني أجد فيه معاني غامضة، ونزوات للفكر لطيفة، وصيغة في بعض الأحوال مستحكمة، وذاكرْتُ به يوماً أبا عليّ، فرأيته منكراً له، فقلت له: إن تصنيفه منساق متوجّه، وليس فيه التعسّف الذي

---

(١) المزهر: ١/٦٤، ٦٥.

في كتاب الجمهرة، فقال: الآن إذا صَنَّف إنسان لغةً بالتركية تصنيفاً جيداً يؤخذ به في العربية، أو كلاماً هذا نحوه»[1].

* * *

٣ ـ نقد أبي بكر محمد بن حسن الزبيدي:

سجّل السيوطي في مزهره هذا النقد، وهو نقد بنّاء، أنصف فيه الزبيدي الخليل بن أحمد، وأشاد بفضله، ونبّه على قدره، ورفع من شأنه.

ووجّه نقده العنيف لهؤلاء الذين اتهموه بأنه نال من مكانة الخليل، وقلّل من علمه حينما تناول كتابه «العين» بالنقد والتحليل مبيّناً لهم أنّ الخليل بريء من نقده، مصان من تجريحه، لأن الخليل شخصية فذّة وعقلية نادرة، وأنه ليس بعد الأنبياء مَن هو أعلى منزلة، وأذكى فكراً، وأشرق ذهناً من الخليل بن أحمد، ولكن الخليل شيء وكتابه الذي بين أيدي الناس شيء آخر، فمعظم ما في الكتاب نُسب زوراً إلى الخليل، والخليل منه براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

وهذا النقد اللاذع للعين، والدفاع الحارّ عن الخليل، ذكره في مقدمة كتابه: «مختصر العين»، بعنوان: «استدراك الغلط الواقع في كتاب العين».

ولنترك الزبيدي يحدّثنا عن دفاعه الحارّ عن الخليل، ونقده الصارم للعين من جهة، ولطرافة ما كتبه، وبلاغة أسلوبه من جهة أخرى.

قال السّيوطي: «وقال أبو بكر محمد بن حسن الزُّبيدي اللغوي، مؤلف: «مختصر العين» في أول كتابه: استدراك الغلط الواقع في كتاب: «العين» وهو مجلّد لطيف، يخاطب بعض إخوانه:

---

(١) المزهر: ١/٧٩.

وصل إلينا، أيّدك الله، كتابك تذكر فيه ما أُولع به قوم من ضعفة أهل النظر من التحامل علينا، والتسرّع بالقول فينا بما نسبوه إلينا من الاعتراض على الخليل بن أحمد، في كتابه، والتخطئة له في كثير من فصوله، وقلت: إنهم قد استمالوا جماعة من الحشوية إلى مذهبهم، وعدلوا بهم إلى مقالتهم بما لبّسوا به، وشنّعوا القول فيه، وسألت أن أحسم ما نجم من إفكهم، وأردّ ما ندر من غرْب ألسنتهم ببيان من القول مفصح، واحتجاج من النظر موضح.

وقد كنت ـ أيّدك الله ـ في صحّة تمييزك، وعظيم النعمة عليك في نظرك جديراً ألاّ تعرج على قوم هم بالحال التي ذكرت وأن يقع لهم العذر لديك بوجوه جمّة، منها:

تخلّفهم في النظر، وقلّة مطالعتهم للكتب، وجهلهم بحدود الأدب مع أنّ العلة الموجبة لمقالتهم، والباعثة لتسرّعهم علّة الحسد الذي لا يداوى سقمه، ولا يؤسي جرحه، فقد قال الحكيم:

كلّ العداوات قد تُرْجى إفاقتها[1] إلاّ عداوةَ من عاداك من حسد.

أوَليس من العجب العجيب، والنادر القريب أن يتوهّم علينا مَنْ به مُسْكَةٌ من نظر أو رمق من فهْم تخطئة الخليل في شيء من نظره والاعتراض عليه فيما دقّ أو جلّ من مذهبه، والخليل بن أحمد أوحد العصر، وقريع الدهر، وجهبذ الأمّة، وأستاذ أهل الفطْنة الذي لم يُرَ نظيره، ولا عرف في الدنيا عديله، وهو الذي بسط النحو، ومدّ أطنابه، وسبّبَ علله، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً نزاهة بنفسه، وترفعاً

(١) في بعض الروايات: «إماتتها» مكان «إفاقتها»، من أفاق إذا رجع عن عدوانه.

بقدره، إذ كـان قد تقـدّم إلى القول عليـه والتأليف فيـه، فكره أن يكون لمن تقدّمه تالياً، وعلى نظر من سبقه محتذياً، واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، ولقّنه من دقائق نظره، ونتائج فكره، ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلـك عنه، وتقلّده، وألّف فيه الكتاب الـذي أعجز من تقدّم قبله، كما امتنع على من تأخّر بعده.

ثم ألّف على مـذهب الاختـراع، وسبيـل الإبـداع كتـابَـيْ «الفـرش» و«المثال» في العروض، فحصـر بذلـك جميـع أوزان الشعر، وضمّ كـل شيء منه إلى حيِّزه، وألحقه بشكله، وأقام ذلك من دوائر أعجزت الأذهان، وبهرت الفطن، وغمرت الألباب.

وكـذلك ألّف كتـاب «الموسيقى»، فـزمّ فيه أصنـاف النّغم، وحصر بـه أنواع اللحون، وحدّد ذلك كله ولخّصه، وذكر مبالغ أقسامه ونهايات أعـداده، فصـار الكتاب عبـرة للمعتبـرين، وآيـة للمتـوسّمين. ولمّـا صنـع إسحـاق بن إبراهيم كتابه في النغم واللحون عـرضه على إبـراهيم بن المهدي، فقـال له: لقد أحسنت يا أبا محمد، وكثيراً ما تحسن! فقال إسحاق: بل أحسن الخليل، لأنه جعل السبيل إلى الإحسان. فقال إبراهيم: ما أحسن هذا الكـلام! فَمِمّن أخذته؟ قال: من ابن مقبل إذ سمع حمامة فاهتاج، فقال:

ولـوقبـل مبكـاهـا بكيت صبـابـةً إذاً لشفيت الـنفس قبـل التنـدّمِ
ولكن بكت قبلي فهـاج لي البكـا بكـاهـا، فقلت: الفضـل للمتقـدّمِ

ثم ذهب بعـد ــ في حصر جمع الكلام ــ مـذهبـاً من الإحـاطـة التي لم يتعاطاها غيره، ولا تعرّضها أحد سواه، فثقّف الكلام، وزم[1] جميعه، وبيّن قيـام الأبنية من حـروف المعجم، وتعاقب الحـروف لها بنـظر لم يتقدّم فيـه، وإبداع لم يسبق إليه، ورسم في ذلك رسومـاً أكمل قيـاسها، وأعـطى الفائـدة

(١) الزمام: الخيط الذي يشدّ في البُرَة ثم يشدّ في طرفه المقود، والمراد: ضمّ جميعه.

بها، فكان هذا قدره في العلم، ومبلغه من النفاذ والفهم حتى قال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز على الصراط بعد الأنبياء عليهم السلام أحدٌ أدقّ ذهناً من الخليل.

ولو أنّ الطاعن علينا يتصفّح صدر كتابنا: «المختصر من كتاب العين»، لعلم أنّا نزّهنا الخليل عن نسبة المحال إليه، ونفينا عنه من القول ما لا يليق به، ولم نَعْدُ في ذلك ما كان عليه أهل العلم، وحذّاق أهل النظر.

وذلك أنّا قلنا في صدر الكتاب: ونحن نربأ بالخليل عن نسبة الخلل إليه أو التعرّض للمقاومة له، بل نقول: إن الكتاب لا يصحّ له، ولا يثبت عنه، وأكثر الظنّ فيه أن الخليل سبّب أصله، وثقف كلام العرب، ثم هلك قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه، والخطأ الموجود فيه.

هذا لفظنا نصّاً.

وقد وافقنا بذلك مقالة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قبل أن نطالعها أو نسمع بها حتى ألفيناها بخطّ الصولي في ذكر فضائل الخليل.

قال الصولي: سمعت أبا العباس ثعلباً يقول: إنما وقع الغلط في كتاب «العين»، لأنّ الخليل رسمه ولم يحشه، ولو أنّ الخليل هو حشاه ما بقّي فيه شيئاً، لأن الخليل رجل لم يرِ مثله.

قال: وقد حشا الكتاب قومٌ علماء، إلّا أنه لم يؤخذ عنهم رواية، إنما وجد بنقل الورّاقين، فلذلك اختلّ الكتاب.

ومن الدليل على ما ذكره أبو العبّاس من زيادات الناس فيه اختلاف نسخه، واضطراب رواياته، إلى ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين

والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدّثين، فهذا كتاب ابن منذر بن سعيد القاضي، الذي كتبه بالقيروان، وقابله بمصر بكتاب ابن ولّاد، وكتاب ابن ثابت المنتسخ بمكة قد طالعناهما، فألفينا في كثير من أبوابهما:

أخبرني المسعريّ عن أبي عبيد، وفي بعضها قال ابن الأعرابي: وقال الأصمعي.

هل يجوز أن يكون الخليل يروي عن الأصمعيّ، وابن الأعرابي، وأبي عبيد، فضلاً عن المسعريّ؟

وكيف يروي الخليل عن أبي عبيد، وقد توفي الخليل سنة سبعين ومائة؟ وفي بعض الروايات سنة خمس وسبعين ومائة؟ وأبو عبيد يومئذ ابن ست عشرة سنة، وعلى الرواية الأخرى ابن إحدى وعشرين سنة، لأن مولد أبي عبيد سنة أربع وخمسين ومائة ووفاته سنة أربع وعشرين ومائتين، ولا يجوز أن يسمع عن المسعريّ علم أبي عبيد إلّا بعد موته.

وكذلك كان سماع الخُشَني منه سنة سبع وأربعين ومائتين، فكيف يسمع الموتى في حال موتهم أو ينقلون عمّن وُلد من بعدهم؟»[1].

* * *

والناظر إلى هذا النص يرى أنّ الزبيدي أصاب المحز في هذا التحليل الرائع والنقد البارع لكتاب «العين» المنسوب إلى الخليل، وأدقّ كلمة في هذا النص هي الكلمة الساحرة التي سجّلها الزبيدي في هذا الموقف، وهي:

«كيف يسمع الموتى في حال موتهم أو ينقلون عمّن ولد بعدهم»؟

(١) انظر: المزهر: ٧٩/١ ــ ٨٣.

كان يكفي الزبيدي أن يقف عند هذا الحدّ من النقد، فقد أوفى الموضوع حقّه، وأنصف الخليل غاية الإنصاف، وعرّى أخطاء «العين» إلى هذا الحدّ من التعرية، ولكنّ الزبيدي يريد أن يجهز على خصمه فلا يبقى دليلاً في يده، أو شبهة في ذهنه أو شكاً في فكره فقدم أدلة دامغة إضافة إلى الأدلّة السابقة في إنكار هذا الكتاب، ونفيه عن الخليل.

وأوّل هذه الأدلّة التي أضافها:

«غبر أصحاب الخليل بعد مدّة طويلة، لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به، منهم النّضر بن شميل، ومؤرّج، ونصر بن علي، وأبو الحسن الأخفش وأمثالهم.

ولو أنّ الخليل ألّف الكتاب لحمله هؤلاء عنه، وكانوا أولى بذلك من رجل مجهول الحال غير مشهور في العلم انفرد به، وتوحّد بالنقل له ثم درج أصحاب الخليل فتوفي النضر بن شميل سنة ثلاث ومائتين، والأخفش سنة خمس عشرة وامائتين، ومؤرّج سنة خمس وتسعين ومائة.

ومضت بعدُ مدّة طويلة، ثم ظهر الكتاب بأخرة في زمن أبي حاتم وفي حال رياسته، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين، لأنّ أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومائتين، فلم يلتفت أحد من العلماء إليه يومئذ، ولا استجازوا رواية حرف منه».

* * *

* **الدليل الثاني الذي أضافه الزبيدي هو:**

«ولو صحّ الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعيّ واليزيدي وابن الأعرابي وأشباههم إلى تزيين كتبهم، وتحلية علمهم بالحكاية عن

الخليل والنقل لعلمه، وكذلك مَن بعدهم كأبي حاتم وأبي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنِّفين، فما علمنا أحداً منهم نقل من كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً»[1].

* * *

* الدليل الثالث:

«أنّ جميع ما وقع فيه من معاني النحو إنما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين، فمن ذلك ما بُدِىء الكتابُ به، وبُني عليه من ذكر مخارج الحروف في تقديمها وتأخيرها، وهو على خلاف ما ذكره سيبويه عن الخليل في كتابه، وسيبويه حاملُ علم الخليل، وأوثق الناس في الحكاية عنه، ولم يكن ليختلف قوله، ولا يتناقض مذهبه، ولسنا نريد تقديم حرف العين خاصة للوجه الذي اعتل به، ولكن تقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها، وكذلك ما مضى عليه الكتاب كله من إدخال الرباعي المضاعف في باب الثلاثيّ المضاعف، وهو مذهب الكوفيين خاصة.

وعلى ذلك استمرّ الكتاب من أوّله إلى آخره.

* * *

* الدليل الرابع:

«لو أنّ الكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتلّ، والثنائيّ المضاعف من المعتلّ، والثلاثيّ المعتلّ بعلّتين، ولما جعل ذلك كله في باب سمّاه: «اللفيف»، فأدخل بعضه في بعض، وخلط فيه خلطاً لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه، ولوضع

---

(1) انظر هذه النصوص في المزهر: ١/٨٤، ٨٥.

الثلاثيّ المعتلّ على أقسامه الثلاثة ليستبين معتلّ الياء من معتلّ الواو والهمزة، ولما خلط الرّباعيّ والخماسيّ من أوّلهما إلى آخرهما».

* * *

بعد هذه الأدلّة التي ساقها الزبيدي ليبرىء ساحة الخليل مما نُسب إليه من الخطأ، مقدّماً الدليل تلو الدليل على أنّ الكتاب ليس للخليل، عرض الزبيدي خطته في اختصاره لكتاب «العين»، وتهذيبه، فقال:

«ونحن على قدرنا قد هذّبنا جميع ذلك في كتابنا المختصر منه، وجعلنا لكل شيء منه باباً يحصُره، وعدداً يجمعه، وكان الخليل أولى بذلك وأجدر.

ولم نحكِ فيه عن الخليل حرفاً، ولا نسبنا ما وقع في الكتاب عنه، توخّياً للحق، وقصْداً إلى الصدق.

وأنا ذاكر الآن من الخطأ الواقع في كتاب «العين» ما لا يذهب على من شدا شيئاً من النحو، أو طالع باباً من الاشتقاق والتصريف ليقوم العذر فيما نزهنا الخليل عنه»[1].

* * *

---

(١) انظر: المزهر: ١/٨٥، ٨٦.

جلال الدين السّيوطي
ومـوقفـه مـن كتـاب «العـين»

يبدو أن السيوطي لم يكن مقتنعاً بما ذكره الزبيدي من الأدلّة على أنّ الكتاب ليس للخليل، ولا أدلّ على ذلك من تعليقه على الزبيدي هذا التعليق الذي تشعر من خلاله أنّ السّيوطي يميل أو يأنس إلى أنّ الكتاب للخليل، ومن صنعه وليس من صنع غيره كما ادّعى المنكرون.

أما تعليق السيوطي على الزبيدي، فقد سجّله في «المزهر» بنصّه وفصّه. قال في «المزهر»: «قلت: وقد طالعته إلى آخره، فرأيت وجه التخطئة فيما حظي فيه غالبه من جهة التصريف والاشتقاق، كذكر حرف مزيد في مادة أصلية أو مادّة ثلاثية في مادّة رباعيّة، ونحو ذلك.

وبعضه ادّعى فيه التصحيف وأما أنّه يُخطأ في لفظه من حيث اللغة بأن يقال: هذه اللفظة كذب أو لا تعرف فمعاذ الله لم يقع ذلك.

وحينئذ لا قَدْح في كتاب «العين»، لأن الأول الإنكار فيه راجع إلى الترتيب والوضع في التأليف، وهذا أمرٌ هيّن لأنّ حاصله أن يقال: الأولى نقل هذه اللفظة من هذا الباب، وإيرادها في هذا الباب. وهذا أمر سهل، وإن كان مقام الخليل يتنزّه عن ارتكاب مثل ذلك، إلاّ أنه لا يمنع الوثوق بالكتاب، والاعتماد عليه في نقل اللغة.

والثاني: أنه إن سلّم فيه ما ادّعى من التصحيف يقال فيه ما قالته الأئمة ومن ذا الذي سلم من التصحيف؟.. مع أنه قليل جداً».

والحقيقة أنّ موقف السّيوطي من «العين»، ووثوقه به هذه الثقة لأمر عجيب، فقد قدّم لنا السّيوطي جملة من آراء اللغويين وعلى رأسهم الإمام الزبيدي، وكلّهم يقدّمون الأدلّة الواضحة والبراهين القوية على أنّ الكتاب ليس للخليل منه إلاّ المنهج والرسم، أما الحشو فقد قام به غيره، وهنا كثر الخطأ وزاد الاضطراب.

ومع هذا فإن السّيوطي لم يقدّم لنا دليلاً واضحاً يهدم ما قدّمه أعلام اللغة من إنكار لهذه النسبة.

مختصر العين ، للزبيدي
وآراء العلماء فيه

وضّحت فيما سبق أن الزبيدي اختصر كتاب العين في كتاب سمّاه : « مختصر العين» ليردأ أخطاءه،ويصوب تحريفه،وبيّن الأبواب التي يقع فيها التحريف كثيراً، وهي أبواب المشتقات مع إيمانه بأن هذا الكتاب ليس للخليل منه إلّا المنهج والرسم والأخطاء التي صوبها، والتقسيمات التي هذّبها، والتحريفات التي حقّقها وردّها إلى الصواب ليست للخليل، وإنما هي لمن حشا الكتاب وملأه بالأغلاط. وحتى يعود للكتاب رونقه، جرّده من الأخطاء وحرّره من التحريفات.

ولذلك نقل لنا السّيوطي في مزهره جملة الآراء في مختصر العين للزبيدي، من هذه الآراء:

* «قال أبو الحسن الشاري في فهرسته: كان شيخنا أبو ذر يقول: المختصرات التي فضلت على الأمّهات أربعة:

مختصر العين للزبيدي، ومختصر الزاهر للزجاجيّ، ومختصر سيرة ابن إسحاق، لابن هشام، ومختصر الواضحة[1] للفضل بن سلمة».

---

(١) في هامش المزهر: ١/٨٧: «الواضحة في تجويد الفاتحة: قصيدة داليّة في اثنين وعشرين بيتاً، وهي للشيخ برهان الدين بن عمر المتوفى عام ٧٣٢هـ.

وبين الشاري الأسباب التي جعلت الناس يلهجون كثيراً بمختصر العين للزبيديّ.

قال السّيوطي ناقلاً عنه:

«قال الشاري: وقد لهج الناس كثيراً بمختصر العين للزبيدي، فاستعملوه وفضلوه على كتاب «العين»، لكونه حذف ما أورده مؤلف كتاب «العين» من الشواهد المختلفة، والحروف المصحّفة، والأبنية المختلفة.

وفضلوه أيضاً على سائر ما ألف على حروف المعجم من كتب اللغة مثل جمهرة ابن دريد، وكتب كراع لأجل صغر حجمه.

وألحق به بعضهم ما زاده أبو علي البغدادي في «البارع» على كتاب: العين» فكثرت الفائدة».[1]

والشاري على الرغم من إشادته بمختصر الزبيديّ غير أنه وجّه إليه نقداً خلاصته: أن حذف في تلخيصه كتاب العين شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب.

ولذلك ننقل عن السيوطي هذا النقد قال:

«قال[2]: ومَذهبي، ومذهب شيخي أبو ذرّ الخشني، وأبي الحسن بن خروف: أن الزبيديّ أخلّ بكتاب العين كثيراً لحذفه شواهد القرآن والحديث، وصحيح أشعار العرب منه[3]».

(١) انظر المزهر: ١/٨٦، ٨٧ في هذه النصوص.

(٢) القائل هو الشاري وليس السيوطيّ.

(٣) المزهر: ١/٨٨.

«فتـح العـين»

وإلى جـانب مختصـر العين للزبيـديّ، صنـع الإمـام أبـو غـالب تمـام بن غالب المعروف بابن التّيّاني كتابه الذي سمّاه: «فَتح العـين» والذي حمله على تأليف هذا الكتاب النقص الذي اشتمـل عليه مختصـر العين حيث حَذف الشواهد منه، وأخلّ بكثير من فوائـده فكتابـه تتميم لكتاب مختصـر العين لأنه ألحق به ما فات الزبيدي في مختصره:

يقول السّيوطـي محدثاً عن هذا الكتاب ما نصه:

«ولمّـا علم ذلك من مختصـر العين الإمـام أبـو غـالب المعـروف بـابن التيانيّ عمل كتابه العظيم الفائدة الذي سمّاه بـ«فتح العين» وأتى فيه بمـا في العين من صحيـح اللغة الذي لا اختلاف فيه على وجهه دون إخلال بشـيء من شواهد القرآن، والحديث وصحيـح أشعار العرب، وطرح ما فيه من الشواهـد المختلفة، والحروف المصحفة، والأبنية المختلفة ثم زاد فيه ما زاده ابن دريد في الجمهرة فصار هذا الديوان محتوياً الكتابين جميعاً.

وكـانت الفائـدة فيه فصـلَ العين عن الجمهرة، وسياقه بلفظ لينسب ما يحكـي منه إلى الخليل، إلاّ أن هـذا الديـوان قليل الـوجود لم يعـرُج الناس على نسخـه، بـل مـالـوا إلى جمهرة ابن دريـد ومحكم ابن سيـده، وجـامـع ابن القزّاز، وصحاح الجـوهري، ومجمـل ابن فارس، وأفعـال ابن القوطيـة، وابن طريف[1]».

---

(١) المزهر: ١/٨٨.

* منهـج كتاب العين :

يختلف كتـاب العين في منهجه عن منهـج المعاجم اللغـوية الأخـرى، ذلك لأنه بدأ بحرف العين الذي تسمّى بها ثم تلاها بحروف الحلق الأخـرى: الحاء ، والهاء، والخاء، والغين، ما عدا الهمـزة فإنهـا آخرهـا وجعلها من الحـروف التـي تناولها فـي آخر كتابه.

وابن كيسان يبين لنا السبب فـي تأخيره الهمـزة مـع أن معظم المعـاجم اللغوية تبدأ بها. قال ابن كيسان:

«سمعت من يذكر عن الخليـل أنه قـال: لم أبدأ بـالهمزة، لأنـه يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف، لأنها لاتكـون فـي ابتداء كلمة، ولا في اسم ولافعل إلاّ زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسـة خفية لا صـوت لها، فنزلت إلى الحيّـز الثـانـي وفيـه العين والحـاء، فـوجـدت العين أنصـع الحرفين، فابتدأت بها، ليكون أحسن فـي التأليف، وليس العِلْم بتقـدم شيء على شيء، لأنه كله مما يُحتاج إلى معرفته، فبأيّ بدأت كان حسناً، وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفاً»[1].

* * *

(١) المزهر: ١/٩٠.

* رأي ابن ولّاد أبي العباس أحمد في منهج كتاب العين:

في مقدمة كتابه المقصور والممدود،ابتدأت بالألف على سائر حروف المعجم وبين السبب في أنه لم ينهج نهج الخليل في كتابه العين بالبدء بالعين.

فقال: «لعل بعض من يقرأ كتابنا ينكر ابتداءنا فيه بالألف على سائر حروف المعجم، لأنها حرفٌ معتل، ولأن الخليل ترك الابتداء به في كتاب العين».

ورد ابن ولّاد على هؤلاء المعترضين الذين قد يوجهون هذا الاعتراض إليه فأسرع في الإجابة بقوله:

« لأن كتاب العين» لا يمكن طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلّا أن يكون قد نظر في التصريف وعرف الزائد والأصلي، والمعتل والصحيح، والثلاثي، والرباعي، والخماسي ومراتب الحروف من الحلق واللسان والشفة، وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في اللفظ على وجوه الحركات، وإلحاقها ما يحتمل من الزائد، ومواضع الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة. ويحتاج مع هذا أن يعلم الطريق التي وصل الخليل منها إلى حصر كلام العرب، فإذا عرف هذه الأشياء عرف موضع ما يطلب من كتاب: «العين».

قال[ابن ولّاد] : وكتابنا قصدنا فيه التقريب على طالب الحرف وأن يستوي في العلم منه بموضعه العالم والمتعلّم[1]».

---

(١) المزهر: ١/٩٠، ٩١.

وقبل أن نختتم الحديث عن منهج العين في دراسته اللغوية أحب أن أعطي القارىء فكرة عن الحروف التي بدأ بها العين كتابه والحروف التي انتهى إليها.

وقد ذكر السيوطي هذا الترتيب في كتابه المزهر منظوماً فقال:

فائدة: ترتيب كتاب: «العين» ليس على الترتيب المعهود الآن في الحروف، وقد أكثر الأدباء من نظم الأبيات في بيان ترتيبه.

من ذلك قول أبي الفرج سلمة بن عبد الله بن دلّان.
المعافري الجزيري:

يا سائلي عن حروف العين دونكها ... في رتبة ضمّها وزنٌ وإحصاءُ
العين والحاء ثم الهاء والخاء ... والغين والقاف ثم الكاف أكفاءُ
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها ... صاد وسين وزاي بعدها طاءُ
والدال والتاء ثم الطاء متصل ... بالظاء ذال وثاء بعدها راءُ
واللام والنون ثم الفاء والباء ... والميم والواو والمهموز والياءُ

* * *

(٢)
جمهرة ابن دريد

ابن دريد هو أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد. تحدّث عن نفسه فقال:

ولدت بالبصرة، في سكة صالح ٢٢٣هـ وذلك في خلافة المعتصم. وذكر الكمال بن الأنباري أنه مات سنة ٣٢١ في السنة التي خلع بها القاهر بالله تعالى أبو منصور محمد بن المعتضد، وقد حُدِد يوم وفاته فذكر أن ابن كامل

قال: أنه مات يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان من السنة المذكورة[١].

* * *

عرض السّيوطي كتاب الجمهرة في مزهره بعد فراغه من الحديث عن العين: فقال: «ومن مشاهير كتب اللغة التي نسجت على منوال العين: كتاب «الجمهرة» لأبي بكر بن دريد».

ويسجل السيوطي نصوصاً في مزهره من خطبة أبي بكر بن دريد في مقدمة كتاب فقال: قال في خطبته:

«قد ألّف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي ــ رضوان الله عليه ــ كتاب العين، فأتعب من تصدى لغايته، وعنّى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغَلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده له تبع، أقرّ بذلك أم جحد، ولكنه ــ رحمه الله ــ ألّف كتابه مشاكلاً لثقوب فهمه، وذكاء فطنه، وحدّة أذهان أهل دهره.

وأملينا هذا الكتاب، والنقص في الناس فاش، والعجز لهم شامل إلّا خصائص كدراريّ النجوم في أطراف الأفق، فسهلنا وعره، ووطأنا شأزة[٢]، وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعلق، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة؛ وألقينا المستنكر الوحشي واستعملنا المعروف، وسمّيناه كتاب «الجمهرة»، لأنا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر[٣]».

* * *

---

(١) انظر مقدمة جمهرة اللغة.

(٢) الشأز: الشديد الصعب.

(٣) المزهر: ١/٩٢.

(أ) آراء اللغويين في الجمهرة:

* رأي ابن جني:

تحدث السّيوطي في المزهر عن رأي ابن جني في الجمهرة فقال:

« وقال ابن جني في الخصائص: وأمّا كتاب الجمهرة، ففيه أيضاً من اضطراب التصنيف، وفساد التصريف مما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر. ولما كتبته وقعتُ في متونه وحواشيه جميعاً من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته، ثم إنّه لما طال عليّ أومأت إلى بعضه، وضربت البتة عن بعضه[1]».

* تعليق السيوطي على رأي ابن جني:

علق السّيوطي على نص ابن جني ليوضح المقصود منه، ويبيّن غموض بعض العبارات فيه فيقول السيوطي:

«وقلت: مقصوده الفساد من حيث أبنية التصريف، وذكر المواد في غير محلها كما تقدم في العين، ولهذا قال: أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر، يعني أن ابن دريد قصير الباع في التصريف وإن كان طويل الباع في اللغة، وكان ابن جني في التّصريف إماماً لا يشقّ غباره، فلذا قال ذلك[2] ».

* رأي الأزهريّ:

سجّل السّيوطي رأي الأزهري في جمهرة ابن دريد فقال:

«وقال الأزهري: ممّن ألّف الكتب في زماننا، فرمى بافتعال العربية،

---

(١) المزهر: ٩٣/١.
(٢) المزهر: ٩٣/١.
(٣) المزهر: ٩٣/١.

وتوليد الألفاظ أبو بكر بن دريد، وقد سألت عنه إبراهيم بن محمد بن عرفة ــ يعني نفطويه ــ فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته».

تعليق السّيوطي على رأي الأزهري:

قال السيوطي: قلت: معاذ الله هو بريء مما رميَ به، ومن طالع الجمهرة رأى تحريره في روايته، وسأذكر منها في هذا الكتاب ما يعرف منه ذلك، ولا يقبل فيه طعنُ نفطويه، لأن كان بينهما منافرة عظيمة بحيث إن ابن دريد هجاه بقوله:

لو أُنزِل الوحْيُ على نِفْطويه ... لكان ذاك الوحي سخطاً عليهْ
وشاعرٌ يدعى بنصف اسمهْ ... مستأهل للصفع في أخدَعَيْهْ
أحرقه الله بِنصف اسمه ... وصيرّ الباقي صراخاً عليهْ

وقال السيوطي:

وهجا هو ابن دريد بقوله:

ابن دريد بقره ... وفيه عيٌّ وشَرَهْ
ويدعي من حمقهِ ... وضْع كتاب الجمهرهْ
وهو كتاب العين ... إلاّ أنه قد غَيرهْ

وعقب السّيوطي على هذين النصّين بقوله:

«وقد تقرّر في علم الحديث أنَّ كلام الأقران في بعضهم لا يقدّح»[1].

* * *

(ب) اختلاف نسخ الجمهرة:

يبدو أن نسخ الجمهرة اختلفت في نسخها، ولعل السبب في ذلك أن

---

(١) المزهر: ١/٩٤.

ابن دريد كان يحفظ ما في الجمهرة، فأملاها في فارس مرة وفي البصرة على تلاميذ مرّة، وأملاها مرّة أخرى في بغداد من حفظه.

ومما لاشك فيه أن حفظ النصوص اللغوية يختلف تمام الاختلاف عن حفظ الشعر العربي عن طريقه الرواية، فالشّعر حفظه سهل لما يشتمل عليه من وحدات موسيقية من ناحية، وتكراره في المواقف المختلفة من ناحية أخرى.

يحدّثنا السّيوطي في ذلك فيقول:

« وقال بعضهم: أملى ابن دريد الجمهرة في فارس، ثم أملاها بالبصرة، وببغداد من حفظه، ولم يستعن عليها بالنظر في شيء من الكتب إلّا من الهمزة واللفيف، فلذلك تختلف النسخ، والنسخة المعّول عليها هي الأخيرة.

وآخر ما صح نسخة أبي الفتح عبيد الله بن أحمد بن محمد النحويّ، المعروف، بـ (جخجخ)، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه»[1].

* نسخة السّيوطي:

ويحدثنا السّيوطي بأنه ظفر بنسخة من الجمهرة موثقة، يتحدث عنها فيقول:

« قلت: ظفرت بنسخة منها بخط أبي النمر أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس الطرابلسي اللغوي. وقد قرأها على ابن خالويه بروايته لها عن إبن دريد، وكتب

(١) المزهر: ١/٩٥.

عليها حواشي من استدراك ابن خالويه على مواضع منها، ونبّه على بعض أوهام وتصحيفات»[1].

* * *

* نسخة القالي بِخط ابن دريد:

قال السّيوطي «وقال بعضهم: كان لأبي علي القالي نسخة من الجمهرة بخط مؤلفها، وكان قد أعطى بها ثلاثمائة مثقال فأبي، فاشتدت به الحاجة فباعها بأربعين مثقالاً، وكتب عليها هذه الأبيات:

أنست بها عشرين عاماً وبعتها ... وقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظنّي أنني سأبيعها ... ولو خلّدتني في السجون ديوني

ولكن لعجزٍ، وافتقارٍ وصبيةٍ ... صغار عليهم تستهلّ شؤوني

فقلت ولم أملك سوى عبرتي ... مقالة مكويّ الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات ــ يا أم مالكِ ــ ... كرائم من ربٍّ بهن ضنينِ

قال: فأرسلها الذي اشتراها، وأرسل معها أربعين ديناراً أخرى. رحمهم الله»[2].

والسّيوطي في هذه القصة يشير إلى أنه استقاها من مصدر موثق، لأنه رجل منهجي لا يورد نصّاً إلاّ يبيِّنُ من أين أخذه، ومن أي مصدر استخرجه؟ لهذا نراه يسجّل في مزهره هذه الحكاية اللطيفة التي تدلّ على حب القالي للجمهرة، وأنه لولا الحاجة الماسّة، والضرورة الملحّة لما أخرجها من بيته

---

(١) المزهر: ١/٩٥.
(٢) المزهر: ١/٩٥.

مهما أعطي ذهب الدنيا، وتدلّ في الوقت نفسه على كرم من اشتراها، وطيب نفسه، وسموّ إنسانيته.

يقول السّيوطي: «وجدت هذه الحكاية مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروزابادي، صاحب «القاموس»، على ظهر نسخة من «العباب للصّاغاني» ونقلها من خطه تلميذه أبو محمد بن الضياء الحنفي، ونقلته من خطه»[1].

* * *

(جـ) اختصار الجمهرة:

وكما اختصر الزبيدي كتاب «العين» للخليل، اختصر «الجمهرة» الصاحب إسماعيل بن عبّاد من كتاب سمّاه «الجوهرة»، وفي آخره يقول:

لمّا فرغنا من نظام الجوهره آعورّت العين ومات الجمهره

ووقف التصنيف عند القنطره

□ □ □

---

(١) المزهر: ١/٩٥.

(٣)
كـثرة كتب اللغــة

بعـد حديث السّيـوطي عن الجمهرة عـدّد كتب اللغة التي ظهـرت بعـد الخليل مبيناً أنها كتب شتّى، بعضها مطوّل، وبعضها مختصر، وبعضها عـام، وبعضها خاص.

ومعنى هذا أن الاهتمام باللغة احتلّ مكانة كبيرة في نفوس العلماء على مدى القرون، يقول السّيوطي:

«وألّف أتبـاع الخليل، وأتبـاع أتباعـه، وهلمّ جـرّا كتبـاً في شتى اللغـة ما بين مطوّل ومختصر، وعام في أنواع اللغة، وخاص بنوع منهـا، كالأجنـاس للأصمعي، والنوادر واللغات لأبـي زيد، والنوادر للكسائي، والنـوادر واللغات للفـرّاء، واللغـات لأبي عبيـدة معمـر بن المثنى، والجيم والنـوادر والغـريب لأبـي عمـرو بن إسحـاق بن مـرار الشيبـانيّ، والغــريب المصنّف لأبـي عبيـد القـاسم بن سلام، والنـوادر لأبـن الأعـرابـي، والبـارع للمفضـل بن سلمـة، واليـواقيت لأبـي عمـر الـزاهـد غــلام ثعلب، والمنضـد لكـراع، والتهـذيب لـلأزهـريّ، والمجمــل لابن فـارس، وديــوان الأدب للفـارابـي، والمحيط للصاحب ابن عبّاد، والجامع للقزاز، وغير ذلك مما لا يحصى حتى حكي عن الصاحب بن عبّاد أن بعض الملوك أرسل إليه يسأله القدوم عليه، فقـال له في الجواب: أحتاج إلى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي.

وقد ذهب جلّ الكتب في الفتن الكائنة من التتار وغيرهم، بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدّمين والمتأخرين، لا تجيء حمل جمل واحد.

وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح، بل جمعوا فيها ما صحّ وغيره، وينبّهون على ما لم يثبت غالباً»[1].



---

(١) المزهر: ٩٧/١.

(٤)

كتاب «الصحاح»، للجوهري

في النص السابق ذكر السّيوطي أنه أُلّفت كتب في اللغة لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح، لأنهم جمعوا ما صحّ وما لم يصحّ، وفي أغلب الأحوال ينبّهون على ما لم يثبت ولم يصحّ.

ولمّا بدأ أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ في تأليف كتابه اللغوي المشهور، التزم فيه بألاّ يأتي من اللغة بكلمة لم تثبت أو بلفظة لم ترو، لأنه التزم الصحيح، واقتصر عليه.. ولهذا سمّي كتابه: «الصحاح».

يقول السّيوطي:

«وأوّل من التزم الصحيح مقتصراً عليه، الإمام أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، ولهذا سمّى كتابه بالصحاح، وقال في خطبته:

قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرّف الله منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أُغلب عليه، بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آل في ذلك نصحاً، ولا ادّخرت وسعاً»[1].

* * *

(١) المزهر: ١/٩٧.

* آراء العلماء في «الصحاح»:

لم يفت السّيوطي أن يضع كتاب «الصحاح» في الميزان النقدي، فقد تتبّع نصوص اللغويين التي سجلتها كتب اللغة والأدب حول كتاب «الصحاح» وصاحبه، وقد أعطانا فكرة واضحة في مزهره عن آراء اللغويين والأدباء حول هذه الكتب..

من هذه الآراء:

* رأي الثعالبي:

قال السّيوطي: وقال أبو منصور عبد الملك بن أحمد بن إسماعيل الثعالبي اللغوي في كتابه «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»: كان الجوهري من أعاجيب الزّمان، وهو إمام في اللغة، وله كتاب «الصحاح»، وفيه يقول أبو محمد إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوريّ:

هذا كتاب الصحاح سيّد ما صنّف قبل الصّحاح في الأدبِ
تشمَل أبوابه وتجمع ما فرّق في غيره من الكتب»[1]

* * *

* رأي ابن برّي:

وفي رأي عبد الله بن برّي بن عبد الجبّار المقدسيّ أن الجوهريّ أنْحَى اللغويين[2].

* * *

(١) المزهر: ١/٩٨.

(٢) المزهر: ١/٩٨.

* رأي أبي زكريا الخطيب التبريزيّ:

قال السيوطيّ ناقلاً رأي أبي زكريا الخطيب التبريزي ما نصّه:

«قال أبو زكريا الخطيب التبريزي اللغوي: يقال: كتاب الصِّحاح ـ بالكسر ـ وهو المشهور، وهو جمع صحيح، كـ «ظريف وظراف»، ويقال الصَّحاح ـ بالفتح ـ وهو مفرد نعت كـ «صَحيح».

وقد جاء فَعال ـ بفتح الفاء ـ لغة في فعيل كـ «صحيح» وصَحاح، وشحيح وشَحاح، وبريء وبَراء.

قال: وكتاب الصحاح هذا كتاب حسن الترتيب، سهل المطالب لما يراد منه، وقد أتى بأشياء حسنة، وتفاسير مشكلات من اللغة إلاّ أنه مع ذلك فيه تصحيف لا يُشكّ في أنه من المصنّف لا من الناسخ، لأن الكتاب مبنيّ على الحروف.

قال: ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو يقع فيها أو غلط. وقد ردّت على أبي عبيد في الغريب المصنّف مواضع كثيرة منه، غير أنّ القليل من الغلط الذي يقع في الكتب إلى جنب الكثير الذي اجتهدوا فيه، وأتعبوا نفوسهم في تصحيحه وتنقيحه معفوٌّ عنه»[1].

* * *

* رأي ياقوت في «معجم الأدباء»:

نقل السّيوطي أيضاً رأي ياقوت الحمويّ في معجم الأدباء قائلاً:

«وقال ياقوت الحمويّ في «معجم الأدباء»: كتاب الصحاح هو الذي

---

(١) المزهر: ١/٩٧، ٩٨.

بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، أحسن الجوهريّ تصنيفه، وجوّد تأليفه، وقرّب متناوله، يدلّ وضعه على قريحة سالمة، ونفس عالمة، فهو أحسن من «الجمهرة» وأوقع من «تهذيب اللغة»، وأقرب متناولاً من «مجمل اللغة».

هذا مع تصحيف فيه في عدّة مواضع، وتتبعها عليه المحقّقون.

وقيل: إن سببه لمّا صنّفه سمِع عليه إلى باب الضاد المعجمة، وعرض له وسوسةٌ، فألقى نفسه من سطح فمات. وباقي سائر الكتاب مسوّدة غير منقح ولا مبيّض، فبيّضه تلميذه إبراهيم بن صالح الورّاق، فغلط منه في مواضع غلطاً فاحشاً، وكانت وفاة الجوهريّ في حدود الأربعمائة»(١).

* * *

ولأهمية «الصحاح»، ومكانته في اللغة، أسهم اللغويّ الكبير ابن برّي في التعليق عليه، وإقامة دراسة حوله.

يقول السّيوطي في المزهر:

«وقد ألّف الإمام أبو محمد عبد الله بن برّي الحواشي على الصّحاح، وصل فيها إلى أثناء حرف الشين، فأكملها الشيخ عبد الله بن محمد البسطي».

* * *

وكذلك قام الإمام رضيّ الدين حسن بن محمد الصّغاني بدراسة حول كتاب «الصّحاح».

---

(١) المزهر: ١/٩٧، ٩٨.

حدّثنا السّيوطي، فقال:

وألّف الإمام رضيّ الدين حسن بن محمد الصغاني التكملة على الصحاح، ذكر فيها ما فاته من اللغة، وهي أكبر حجماً منه»[1].

□ □ □

(١) المزهر: ١/٩٩.

(٥)

مُجْمَل ابن فارس

وجرى على منهج الجوهري في صحاحه ابن فارس في مجمله، وكان ابن فارس معاصراً للجوهري، فابن فارس توفي سنة ٣٩٥هـ[١]، والجوهري: إسماعيل بن حماد أبو نصر توفي سنة ٣٩٦هـ[٢].

يحدّثنا السّيوطي عن «المجمل» في مزهره، فيقول:

«وكان في عصر صاحب الصحاح ابن فارس فالتزم أن يذكر في مجمله الصحيح، قال في أوله: قد ذكرنا الواضح من كلام العرب، والصحيح منه دون الوحشيّ المستنكر ولم نأل في اجتباء المشهور الدالّ على غرر، وتفسير حديث أو شعر.

والمقصود في كتابنا هذا من أوله إلى آخره التقريب والإبانة عمّا ائتلف من حروف العربية، فكان كلاماً، وذكْر ما صحّ من ذلك سماعاً، أو من كتاب لا يشكّ في صحّة نسبه، لأن من عَلِمَ أن الله تعالى عند مقال كلّ قائل، فهو حَرِيٌّ بالتحرّج من تطويل المؤلفات، وتكثيرها بمستنكر الأقاويل، وشنيع

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسن. انظر البغية: ١/٣٥٨.

(٢) البغية: ١/٤٤٦.

الحكايات وبنيّات الطرق[1]، فقد كان يقال: من تتبَّع غرائب الأحاديث كذب، ونحن نعوذ بالله من ذلك».

ولم ينسَ السّيوطيّ أن يذكر لنا ما قاله ابن فارس في خاتمة كتابه كما ذكر لنا ما قاله في مفتتح هذا الكتاب، قال السّيوطي:

«وقال في آخر المجمل: قد توخيت فيه الاختصار، وآثرت فيه الإيجاز، واقتصرت على ما صحّ عندي سماعاً، ومن كتاب صحيح النسب مشهور، ولولا توخّي ما لم أشكّ فيه من كلام العرب لوجدتُ مقالاً»[2].

* * *

٦ ـ المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن سيده الأندلسي الضرير:

قال السيوطي عنه في المزهر:

«وأعظم كتاب أُلِّف في اللغة بعد عصر الصحاح كتاب: «المحكم والمحيط الأعظم»، لأبي الحسن عليّ بن سيده الأندلسي الضرير»[3].

ولشهرة هذا الكتاب، اكتفى السيوطي بهذه العبارة القصيرة عنه، ولأن هذا الكتاب سيتكرر ذكره عند الحديث عن القاموس المحيط.

* * *

---

(١) في هامش المزهر: ١/١٠٠: بنيات الطرق: الترهات.

(٢) انظر هذين النصين في المزهر: ١/٩٩، ١٠٠.

(٣) توفي سنة ٤٥٨هـ، وانظر المزهر: ١/١٠٠.

٧ ـ العباب، للرّضي الصّغاني:

تحدّث عنه السيوطي، فقال:

كتاب «العباب»، للرضي الصغاني، وصل فيه إلى فصل «بكم»، حتى قال القائل:

إن الصغاني الذي   حاز العلوم والحكم
كان قُصارى أمره   إن انتهى إلى بكم[1]

* * *

٨ ـ القاموس، للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي:

والفيروزآبادي هو شيخ شيوخ السيوطي، قال:

«ثم كتاب القاموس، للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي شيخ شيوخنا»[2].

□ □ □

(١) المزهر: ١/١٠٠.
(٢) المزهر: ١/١٠١.

رأي السيوطيّ
في الكتب اللغوية الثلاثة

* **مقارنة بين «العباب» و «المجمل» و «القاموس»:**

يعقد السيوطي مقارنة في مزهره بين هذه الكتب الثلاثة، ويشيد بكتاب الصحاح لدرجة أنه يجعله كصحيح البخاري في منزلته بين كتب الحديث يقول السيوطيّ:

«ولم يصل واحد من هذه الثلاثة في كثرة التداول إلى ما وصل إليه «الصحاح»، ولا نقصت رتبة «الصحاح» ولا شهرته بوجود هذه، وذلك لالتزامه ما صحّ، فهو في كتب اللغة نظير صحيح البخاريّ في كتب الحديث وليس المدار في الاعتماد على كثرة الجمع، بل على شرط الصّحة»[1].

* * *

* **منهج القاموس في الدراسة اللغوية:**

رسم الفيروزابادي طريقته في تناول المسائل اللغوية، ومنهجه فيها، وقد بيّن هدفه من طريقته، وغرضه من منهجه.

وقد نقل السيّوطي في المزهر هذا المنهج، موضّحاً هذه الطريقة، لأن القاموس بين أيدي الناس، ولا تخلو مكتبة عامّة أو خاصة منه، فقال:

«قال صاحب القاموس في خطبته:

(١) المزهر: ١/١٠١.

وكنت بُرْهة من الدّهر ألتمس كتاباً جامعاً صحيحاً بسيطاً، ومصنّفاً على الفُصُح[1] والشوارد محيطاً، ولمّا أعياني الطلب شرعت في كتابي الموسوم بـ «اللامع المعلم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب» فهما غُرّتا الكتب المصنفة في هذا الباب، ونيّرا براقع[2] الفضل والآداب، وضممت إليهما زيادات امتلأ بها الوطاب[3]، واعتلى منها الخطاب، ففاق كل مؤلّف في هذا الفن هذا الكتابُ، غيرَ أني خمّنته[4] في ستين سِفْراً يُعجز تحصيله الطلاب، وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام، وعمل مفرّغ في قالب الإيجاز والإحكام مع التزام إتمام المعاني، وإبرام المباني، فصرفت صوب هذا القصد عِناني، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزوائد، معرباً عن الفُصَح والشوارد.

وجعلت بتوفيق الله زُفراً في زِفْر[5]، ولخصّت كل ثلاثين سفراً في سِفر».

ثم بين السّيوطي بعد عرضه لمنهج الفيروزأبادي من خلال خطبته في قاموسه أن الفيروزأبادي وجّه نقده البناء لصحاح الجوهري مبيناً أنه فاته ثلثا اللغة أو أكثر، ونقده قائم على أسس علميّة بعيداً عن التجريح الشخصي، والنقد الذاتي، وهمّه من هذا النقد أن يوضح لطلاب اللغة أن كتابه أعم وأشمل، وأكثر فائدة من كتاب الصحاح المشهور، يقول السيوطي:

«ثم قال: ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك غيرَ أنه فاته ثلثا اللغة أو أكثر، إمّا بإهمال المادّة، أو بترك المعاني

---

(١) في هامش المزهر: الفُصُح: جمع فصيح.

(٢) في القاموس: البراقع: جمع بُرقع وهو: السماء.

(٣) الوطاب: الوعاء.

(٤) التخمين: القول بالحدْس والمراد ظننته أو قدّرته.

(٥) في هامش المزهر: الزّفَر كصُرد: البحر، والزِّفر بالكسر: القِربة.

الغريبة النادّة أردت أن يظهر للناظر بادىء بدء فضلُ كتابي هذا عليه، ونبهت فيه على أشياء ركب الجوهريّ ـ رحمه الله ـ فيها خلاف الصواب غير طاعن فيه، ولا قاصد بذلك تنديداً له، وإزراء عليه، وغضاً منه، بل استيضاحاً للصواب، واسترباحاً للثواب، وتحرّزاً وحذاراً من أن ينمي إليّ التصحيف، أو يعزى إليّ الغلط والتحريف.

واختصصت كتاب الجوهري من بين الكتب اللغوية مع ما في غالبها من الأوهام الواضحة، والأغلاط الفاضحة، لتداوله واشتهاره بخصوصه، واعتماد المدرسين على نقوله ونصوصه»[1].

ويتحفنا السيوطي في ختام بحثه عن القاموس ببيتين قالهما بعض الأدباء:

مذ مدّ مجد الدين في أيامه	من بعض بحر علومه القاموسا
ذهبت صحاح الجوهري كأنها	سحر المدائن حين ألقى موسى

* * *

* نقد السيّوطي للقاموس:

والسيّوطيّ الذي يتهمه معاصروه وبعض العلماء المحدثين في عصرنا بأن مهمته النقل فقط، وليس بصاحب رأي يردّ على هؤلاء بنقده لصاحب القاموس: قال: ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة حتى هممت أن أجمعها في جزء مذيّلاً عليه ثم قال: وهذا آخر الكلام في هذا النوع[2].

* * *

---

(١) المزهر: ١/١٠١، ١٠٢.
(٢) المزهر: ١/١٠٣.

ثانياً:

معرفـة الفصــيـح

اللون الثاني من الدراسـات اللغويـة التي عرضهـا السيّوطيّ في كتـابه: «المزهر»: معرفة الفصيـح.

يبتدىء السّيوطي في عرض هذا اللون اللغويّ تحت فصلين: الأول خاصّ باللفظ، والثاني خاصّ بالنسبة إلى المتكلّم به، «والأول أخصّ من الثـاني لأن العربـيّ الفصيـح قد يتكلّم بلفظة لا تعدّ فصيحة»(١).

* * *

(أ) معنى الفصيـح:

ينقل السيّوطيّ نصّاً للراغب الأصفهاني في معنى الفصيـح فيقول: «قال الراغب في مفرداته: الفصْـح: خلوص الشيء مما يشـوبه، وأصله في اللّبن، يقال: فصّـح اللبنُ وأفصـح فهو فِصِّيـح، ومُفْصِـح: إذا تعرّى من الرَّغْـوَة قال الشاعر:

*وتحت الرّغوة اللّبن الفصيـحُ(٢) *

---

(١) المزهر: ١٨٤/١.

(٢) نسبه في اللسان إلى نضلة السلميّ، وصدره كما في هامش المزهر:

* ولم يخشوا مصالته عليهم *

ومنه استعير فصُح الرَّجُل: جادت لغته، وأفصح: تكلم بالعربية، وقيل بالعكس، والأول أصح»[1].

(ب) الفصاحة في الألفاظ:

١ ـ مدار الفصاحة عند ثعلب:

الإمام ثعلب له كتاب مشهور يسمّى: «الفصيح» وقام منهجه فيه على اختيار الفصيح، لأنه مدار البلاغة.

ذكر السيّوطيّ في «المزهر» أنه قال في أوّل فصيحه: «هذا كتاب اختيار الفصيح مما يجري في كلام الناس وكتبهم، فمنه ما فيه لغة واحدة، والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان، وثلاث وأكثر من ذلك، فاخترنا أفصحهنّ، ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى، فأخبرنا بهما»[2].

ولا شك أن اختيار الأفصحْ هو مدار الفصاحة.

* * *

٢ ـ مدار الفصاحة عند المتأخّرين:

والمتأخرون لم يروا ما رآه ثعلب في اختيار الأفصح، لأن اختيار الأفصح هذا يحتاج إلى استيعاب لكلام العرب جميعه لنعرف أي الألفاظ أفصح وأي المفردات أبين وأوضح، وبنوا ذلك على قضية واقعيّة وهي: أن كل فرد أو كل أحد لا يمكنه الاطلاع على لغة العرب كاملة ليقف على الكلمة

---

(١) المزهر: ١/١٨٤.

(٢) المزهر: ١/١٨٥.

الفصيحة والأكثر فصاحة، ولذلك رأى المتأخرون أن يجعلوا ضابطاً للفصاحة، فإذا توافر هذا الضابط توافرت الفصاحة، وإذا اختلّ ركن من أركانه ضاعت هذه الفصاحة.

يعرض السيّوطي هذه القضية فيقول:

«ورأى المتأخرون من أرباب علوم البلاغة أن كل واحد لا يمكنه الاطلاع على ذلك، لتقادم العهد بزمان العرب، فحرّروا لذلك ضابطاً يعرف به ما أكثرت العرب من استعماله من غيره، فقالوا:

الفصاحة من المفرد: خلوصه من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس اللغويّ».

* **رأي القزويني:**

وهذا التعريف هو تعريف القزويني في كتابه: «الإيضاح» كما نصّ على ذلك السيّوطيّ في آخر النصّ.

والقزويني لم يضع هذا الضابط من غير شرح أو تعليق، فحتى يضع النقاط على الحروف، ويزيل اللبس، ويرفع الغموض أخذ يشرح أركان هذا التعريف ركناً ركناً، فقال:

«فالتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان، وعسر النطق بها، كما روى أن أعرابياً سئل عن ناقته؟ فقال: تركتها ترعى الهُعْخُع[1]، ومنه ما هو دون ذلك كلفظ: مستشزر في قول امرىء القيس:

* غدائره مستشزرات إلى العلا[2] *

---

(١) في هامش المزهر: «الهعخع كقُنْفُذ: شجرة يتداوى بورقها.

(٢) تمامه:

* تضل العقاص في مثنى ومرسل *

وذلك لتوسّط الشين وهي مهموسة رخوة بين التاء، وهي مهموسة شديدة، والزايّ، وهي مجهورة»[1].

* * *

وشرح القزويني الركن الثاني من أركان التعريف وهو الغرابة، فقال: والغرابة أن تكون الكلمة وحشيّة لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفتها إلى أن ينقّر عنها في كتب اللغة المبسوطة، كما روى عن عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حمار، فاجتمع عليه الناس، فقال: ما لكم تَكَأْكَأْتُم عليّ تكأْكُؤكم على ذي جِنّة افرنقعوا عنيّ» أي اجتمعتم، تنحّوا.

أو يخرج لها وجه بعيد كما في قول العجّاج:

وفاحِماً ومَرْسِناً مسرّجا[2]

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله: مسرّجاً حتى اختلف في تخريجه فقيل: هو من قولهم للسيوف: سُريجيّة منسوبة إلى قينْ يقال له: سُرَيج، يريد أنه من الاستواء والدقة كالسيف السّريجيّ وقيل: من السّراج، يريد أنه من البريق كالسّراج»[3].

* * *

ويلقى القزويني الضوء على مخالفة القياس، وهو الركن الثالث من التعريف فيقول:

---

(١) المزهر: ١/١٨٥، ١٨٦.

(٢) في هامش المزهر: المرسن الألق، وسرّجه: بهجته وحسنه.

(٣) المزهر: ١/١٨٦.

«ومخالفة القياس كما في قول الشاعر:

* الحمد لله العليّ الأجلل *

فإن القياس الأجلّ بالإدغام»[1].

والقزويني يزيد شرطاً آخر أو ركناً آخر من أركان فصاحة الكلمة فيقول:

«وزاد بعضهم في شروط الفصاحة خلوصه من الكراهة في السمع، بأن يمُجّ الكلمة، وينبو عن سماعها كما ينبو عن سماع الأصوات المنكرة، فإن اللفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما تستلذ النفس بسماعه، ومنها ما تكره سماعه كلفظ الجرشيّ في قول أبي الطيب:

* كريم الجرشيّ شريف النَسبُ *

أي كريم النفس، وهو مردود، لأن الكراهة لكون اللفظ حوشيّاً فهو داخل في الغرابة».

(ج) علامة الكلمة الفصيحة:

وينهى القزويني حديثه في فصاحة الكلمة بقوله:

«ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيراً، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها، وهذا ما قدمت تقريره في أوّل الكلام، فالمراد بالفصيح ما كثُر استعماله في ألسنة العرب»[2].

* * *

(١) المزهر: ١/١٨٦.

(٢) المزهر: ١/١٨٧.

* رأي الجاربردي:

ويميل إلى رأي القزويني المتوفى ٧٣٩هـ الجاربردي أحمد بن الحسن المتوفى ٧٤٦هـ في أن مدار الفصاحة في الكلمة هو كثرة الاستعمال نقل السيّوطيّ عنه ما نصه:

«وقال الجاربرديّ في شرح الشّافية: فإن قلت: ما يُقصد بالفصيح؟ وبأي شيء يُعلم أنه غير فصيح، وغيره فصيح؟ قلت: أن يكون اللفظ على ألسنة الفصحاء الموثوق بعربيّتهم أدْور، واستعمالهم لها أكثر»[1].

(د) تعليقات على تعريف القزويني للفصاحة:

لم يفت السيّوطيّ أن يسجل في مزهره تعليقات على تعريف القزويني للكلمة الفصيحة، فقد عرض تعليقاً للشيخ بهاء الدين السبكي على معنى الغرابة والمراد بها، وتعليقاً آخر لها على «مخالفة القياس» والمراد به، وتعليقاً ثالثاً فرعياً على أن مخالفة القياس إذا كانت لدليل فلا تخرج الكلمة عن الفصيحة، وها نحن نسوق هذه التعليقات التي وردت في المزهر بنصها:

* تعليقات الشيخ بهاء الدين السّبكي:

«قال الشيخ بهاء الدين السبكي في «عروس الأفراح»: ينبغي أن يحمل قوله: [أي قول القزويني]: والغرابة على الغرابة بالنسبة إلى العرب العَرْباء لا بالنسبة إلى استعمال الناس، وإلّا لكان جميع ما في كتب الغريب غير فصيح والقطع بخلافه.

---

(١) المزهر: ١/١٨٧.

قال: والذي يقتضيه كلام (المفتاح) وغيره أن الغرابة قلّة الاستعمال، والمراد قلّة استعمالها لذلك المعنى لا لغيره».

* * *

وعلّق الشيخ بهاء الدين على قوله: «ومخالفة القياس».

«قال الشيخ بهاء الدين: يَرِد على قوله: «ومخالفة القياس»، ما خالف القياس وكثر استعماله، فورد في القرآن، فإنه فصيح مثل: «استحوذ»[1].

وقال الخطيب في «شرح التلخيص» أمّا إذا كانت مخالفة القياس لدليل فلا يخرج عن كونه فصيحاً، كما في: «سُرر»، فإنّ قياس سرير أن يجمع على أفْعِلة وفُعْلان مثل: أرْغِفة ورُغْفان»[2].

ويعلّق الشيخ بهاء الدين أيضاً على قوله: «إذا كانت مخالفة القياس لدليل، فلا يخرج عن كونه فصيحاً» بقوله:

«إن عنيَ بالدليل ورود السماع فذلك شرط لجواز الاستعمال اللغوي، لا الفصاحة، وإن عنى دليلاً يصيره فصيحاً وإن كان مخالفاً للقياس، فلا دليل في سُرر على الفصاحة إلاّ وروده في القرآن، فينبغي حينئذ، أن يقال: إن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم يقع في القرآن الكريم» وقال الشيخ بهاء الدين: «ولقائل أن يقول حينئذ لا نسلّم أن مخالفة القياس تُخِلّ بالفصاحة، ويسند هذا المنع بكثرة ما ورد منه في القرآن، بل مخالفة القياس مع قلة الاستعمال مجموعُهما هو المخلّ.

---

(١) من قوله تعالى: «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله» (المجادلة/١٩).

(٢) المزهر: ١٨٨/١.

قال السيوطيّ معلّقاً:

قلت: والتحقيق أن المخلّ هو قلة الاستعمال وحدها، فرجعت الغرابة ومخالفة القياس إلى اعتبار قلّة الاستعمال والتنافر كذلك، وهذا كله تقرير لكون مدار الفصاحة على كثرة الاستعمال، وعدمها على قلّته»[1].

* * *

(هـ) إضافات أخرى لفصاحة الكلمة:

بعد مناقشة تعريف الخطيب القزويني لفصاحة الكلمة في كتابه: «الإيضاح» وما أورده عليه بهاء الدين السبكي من تعليقات وتعقيبات يضيف السيوطي في مزهره شروطاً أخرى للفصاحة، ومن هذه الشروط ألّا تكون الكلمة مبتذلة، ولنا أن نتساءل: ما حدود الابتذال؟ يبين الشيخ بهاء الدين حدود الابتذال بقوله:

«عدّ بعضهم من شروط الفصاحة ألّا تكون الكلمة مبتذلة: إمّا لتغيير العامّة لها إلى غير أصل الوضع: كـ«الصُرْم» للقطْع، جعلته العامّة للمحلّ المخصوص، وإما لسخافتها في أصل الوضع كـ«اللقالق»[2] ولهذا عدل في التنزيل إلى قوله: ﴿فأَوْقِدْ لي ياهامان على الطّين﴾[3] لسخافة لفظ «الطوب» وما رادفه كما قال الطيبيّ، ولاستثقال جمع الأرض لم تجمع في القرآن، وجمعت السماء حيث أريد جمعها، قال: ﴿ومن الأرض مثلهنّ﴾[4]،

(١) المزهر: ١/١٨٨.

(٢) في هامش المزهر: اللقلق: طائر جمعه لقالق.

(٣) سورة القصص: آية ٣٨.

(٤) سورة الطلاق: آية ١٢.

ولاستثقال «اللّب» لم يقع في القرآن، ووقع فيه جمعه وهو «الألباب» لخفّته»[1].

* * *

على أن السيّوطي ما دام قد عرض لفصاحة الكلمة في كتابه، فإنه يحاول أن يتناول هذا الموضوع وما يتعلق به من جميع جوانبه، ومن كل أطرافه بحيث لم يترك مجالاً لقائل، وعلى الرغم من أنه قدّم نصوصاً متألقة واضحة حول الفصاحة وتعريفها، وتحليل هذا التعريف، ومناقشته فإنه لم يقنع بهذا بل ينقلنا إلى ميدان أوسع في ما يتعلق بفصاحة الكلمة، وما يعتري هذه الكلمة من ابتذال وغرابة وذلك بتسجيل رأي حازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤هـ وحازم القرطاجني هو صاحب «منهاج البلغاء، وسراج الأدباء» وهذا الكتاب يعتبر أول كتاب «عرض نظريات أرسطو في الشعر والبلاغة عرضاً واضحاً، وطبق كثيراً من مقاييسه، لأن البلاغيين الأوائل لم يتأثروا بأرسطو كل التأثر، ولم يتعرّضوا لنظرياته وآرائه كل التعرّض إلا ما كان من محاولات الفارابي، وابن سينا وابن رشد، وابن الهيثم، وهي محاولات لا ترقى إلى ما قام به القرطاجني».

وكتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لون جديد لم نألفه من الكتب السابقة، وهو أقرب إلى أصول البلاغة أو فلسفتها، وقد جنح فيه مؤلّفه إلى طريق من النظر الحكميّ، وتطبيق نظريات أرسطو وآرائه على الأدب العربي، وكانت له مصطلحات لم تألفها. . .، فقد أقام كتابه على أقسام سماها: «المناهج» وقسم المنهج إلى فصول أو فقر طويلة سمّاها: «معلم»، «إضاءة»، «تنوير»، أو «معرف»، «إضاءة»، «تنوير»-

---

(١) المزهر: ١/١٩٠.

وليس بين المعلم والمعرف فرق أو بين الإضاءة والتنوير، وإنما هي كما قال الدكتور عبد الرحمن بدوي: تنويعات في تسمية الأقسام لا تخلو من حذلقة، لأنها غريبة»[1].

* * *

(و) تقسيم الابتذال والغرابة عند حازم القرطاجنيّ:

قال السيّوطيّ في مزهره:

«وقد قسم حازم في المنهاج الابتذال والغرابة، فقال: الكلمة على أقسام:

الأول: ما استعملته العرب دون المحدثين، وقد كان استعمال العرب له كثيراً في الأشعار وغيرها، فهذا حسن فصيح.

الثاني: ما استعملته العرب قليلاً، ولم يحسن تأليفه ولا صيغته، فهذا لا يحسن إيراده.

الثالث: ما استعملته العرب وخاصّتُه المحدثين دون عامّتهم، فهذا حسن جداً، لأنه خلص من حوشية العرب، وابتذال العامّة.

الرابع: ما كثر من كلام العرب، وخاصّته المحدثين وعامّتهم، ولم يكثر في ألسنة العامّة فلا بأس به.

الخامس: ما كان كذلك، ولكنه كثر في السنة العامّة، وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصّة ـ عن هذا، فهذا يقبح استعماله لابتذاله.

---

(1) انظر مناهج بلاغته للدكتور أحمد مطلوب ٢٦٠، ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة ص ٢، للدكتور عبد الرحمن بدوي نقلاً من كتاب مناهج بلاغيّة للدكتور أحمد مطلوب.

السادس: أن يكون ذلك الاسم كثيراً عند الخاصّة والعامّة، وليس له اسم آخر، وليست العامّة أحوج إلى ذكره من الخاصّة، ولم يكن من الأشياء التي هي أنسب بأهل المهن، فهذا لا يقبح ولا يُعد مبتذلاً مثل لفظ الرأس والعين.

السّابع: أن يكون كما ذكرناه، إلّا أنّ حاجة العامّة له أكثر، فهو كثير الدّوران بينهم، كالصنائع، فهذا مبتذل.

الثامن: أن يكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى، وقد استعملها بعض العرب نادراً لمعنى آخر، فيجب أن يجتنب هذا أيضاً.

التاسع: أن تكون العرب والعامّة استعملوها دون الخاصة، وكان استعمال العامّة لها من غير تغيير، فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلاً، وعلى التغيير قبيح مبتذل.

ثم اعلم أن الابتذال في الألفاظ وما تدلّ عليه ليس وصفاً ذاتياً ولا عرضاً لازماً، بل لاحقاً من اللواحق المتعلّقة بالاستعمال في زمان دون زمان، وصُقع دون صُقْع»[1].

□ □ □

(١) المزهر: ١/١٩٠، ١٩١.

الفصاحة وثقل الحروف

ولعلاقة الكلمة الفصيحة بحروفها فإن الحروف من حيث الثقل والخفة لها تأثير كبير في فصاحة الكلمة، وجمال لفظها، وسهولة نطقها، قدّم السّيوطيّ فائدة من فوائده في هذا المجال بعرض آراء بعض اللغويين:

(أ) رأي ابن دريد:

ففي الفائدة الخامسة من فوائده نقل لنا نصّاً لابن دريد في الميزان الذي به تثقل الكلمة أو تخف تبعاً لثقل حروفها أو خفّتها فقال: «قال ابن دريد في «الجمهرة»: اعلم أنّ الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم، ودون حروف الذلاقة[1]، كلّفته جرْساً واحداً، وحركات مختلفة، ألا ترى أنك لو ألّفت بين الهمزة والهاء، والحاء فأمكن لوجدت الهمزة تتحوّل هاء في بعض اللغات لقربها منها، نحو قولهم في [أم والله]: هم والله، وكما قالوا في أراق: هراق الماء، ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاء. وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف»[2]، ويضيف ابن دريد

---

(١) حروف الذلاقة هي: اللام، الراء، النون، الياء، الفاء، الميم.

(٢) المزهر: ١/١٩٢.

قانوناً صوتياً آخر له تعلق كبير بفصاحة الكلمة ،لأن الحروف ومخارجها مرتبطة ارتباطاً كبيراً بهذه الفصاحة، لأن الفصاحة ضد التنافر، ولأن الفصاحة تناسق بين حروف الكلمة بحيث لا يكون فيها نشاز، ولهذا قال ابن دريد:

«واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة، لصعوبة ذلك على ألسنتهم، وأصعبُها حروف الحلق، فأما حرفان فقد اجتمعا مثل «أح» بلا فاصلة، واجتمعا في مثل: أحد وأهل، وعهد، ونخْع[1]، غير أن من شأنهم إذا أرادوا هذا أن يبدءوا بالأقوى من الحرفين، ويؤخّروا الألين، كما قالوا: ورل[2] ووتد، فبدءوا بالتاء مع الدّال، وبالراء مع اللام، فذُق التاء والدال فإنك تجد التاء تنقطع بجرْس قويّ، وتجد الدّال تنقطع بجرْس ليّن، وكذلك الراء تنقطع بجرْس قوي.

وكذلك اللام تنقطع بغنّة، ويدلك على ذلك أيضاً أن اعتياص اللام على الألسن أقل من اعتياص الراء، وذلك للين اللّام، فافهم»[3].

(ب) رأي السّبكي:

وكعادة السيّوطيّ حينما يتناول مسألة أو موضوعاً يتناوله من جميع أطرافه فبعد أن عرض رأي ابن دريد في ثقل الكلمة وخفّتها أو تناسقها وتنافرها عرض لنا رأي الشيخ بهاء الدين السبكي في «عروس الأفراح» فقال: «وقال الشيخ بهاء الدين في «عروس الأفراح»: قالوا: التنافر يكون إمّا لتباعد

---

(١) في المزهر: نخع بحقّه: أقرّ.

(٢) الورل: دابّة كالضّب. .

(٣) المزهر: ١٩٢/١.

الحروف جدّاً أو لتقاربها، فإنّها كالطّفرة والمشي في القيد، نقله الخفاجي في «سر الفصاحة» عن الخليل بن أحمد».

ويعقب الخفاجي على رأى الخليل بن أحمد فيقول: «إن لنا ألفاظاً حروفها متقاربة، ولا تنافر فيها كلفظ الشجر، والجيش، والفم.

وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد. ثم رأى الخفاجي أنه لا تنافر في البعد وإن أفرط، بل زاد فجعل تباعد مخرج الحروف شرطاً للفصاحة»[1].

(ج) رأي ابن جني:

ويستأنس السيوطيّ في تنافر الحروف برأي ابن جنّي في «سرّ الصناعة»، قال: «وقال ابن جني في «سر الصناعة»: التأليف ثلاثة أضرب: أحدها: تأليف الحروف المتباعدة، وهو أحسنه، وهو أغلب في كلام العرب.

والثاني: الحروف المتقاربة لضعف الحرْف نفسه، وهو يلي الأول في الحسن.

والثالث: الحروف المتقاربة، فإمّا رُفض، وإمّا قلّ استعماله، وإنما كان أقلّ من المتماثلين، وإن كان فيهما ما في المتقاربين وزيادة، لأن المتماثلين يخفّان بالإدغام، ولذلك لما أرادت بنو تميم إسكان عين «معْهم» كرهوا ذلك، فأبدلوا الحرفين حاءين وقالوا: «محّحم» فرأوا ذلك أسهل من الحرفين المتقاربين»[2].

* * *

(1) المزهر: ١/١٩٣.

(2) المزهر: ١/١٩٤.

(د) رأي ابن النفيس:

ويختم السيّوطيّ هذه القضية قضية فصاحة الكلمة برأي ابن النفيس في كتاب «الطريق إلى الفصاحة».

فقال في الفائدة التاسعة، : «قال ابن النفيس: في «كتاب الطريق إلى الفصاحة»: قد تنقل الكلمة من صيغة لأخرى أو من وزن إلى آخر، أو من مضيّ إلى استقبال وبالعكس، فتحسُن بعد أن كانت قبيحة وبالعكس، فمن ذلك:

خوّد بمعنى: أسرع قبيحة، فإذا جعلت اسماً: «خَوْدًا» وهي المرأة الناعمة قلّ قبحها.

وكذلك «دعْ» تقبح بصيغة الماضي، لأنه لا يستعمل: «ودع» إلاّ قليلاً، ويحسن فعل أمر أو فعلاً مضارعاً.

ولفظ اللب بمعنى العقل يقبح مفرداً ولا يقبح مجموعاً كقوله تعالى: ﴿لأولي الألباب﴾[1].

قال: ولم يرد لفظ اللب مفرداً إلا مضافاً كقوله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن»، أو مضافاً إليه كقول جرير:

* يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به[2] *

---

(١) سورة يوسف: آية ١١١.

(٢) تمامه:

* وهن أضعف خلق الله إنساناً *

وكـذلـك «الأرجـاء» تحسن مجمـوعـة كقـولـه تعـالى: ﴿والملك على أرجائها﴾[1] ولا تحسن مفردة إلاّ مضافة نحو: رجا[2] البئر.

وكذلك «الأصواف» تحسن مجموعة كقوله تعالى: ﴿ومن أصـوافها﴾[3] ولا تحسن مفردة كقول أبـي تمام:

* فكـأنما لبس الـزّمان الصّـوفـا *

ومما يحسن مفرداً، ويقبـح مجمـوعاً المصـادر كلّهـا، وكـذلـك بقعـة وبقاع، وإنما يحسن جمعها مضافاً مثل: بقاع الأرض»[4].

□ □ □

---

(١) سورة الحاقة: آية ١٧.

(٢) في هامش المزهر: الرجا مقصورة: الناحية من البئر وغيرها، وجمعه: أرجاء.

(٣) سورة النحل: آية ٨٠.

(٤) المزهر: ١/١٩٨، ١٩٩.

الفعل الذي ماضيه مفتوح العين
في مجال الفصاحة

ويمتعنا السيّوطيّ في مزهره بالفعل الذي ماضيه مفتوح العين بدراسة لطيفة موضّحاً فيها السّبب الذي من أجله يجوّز العرب في مستقبله يفْعُل بضم العين، ويفعِل بكسرها، وذلك بنص نقله من «شرح الفصيح» لابن درستويه.

قال ابن درستويه في شرح الفصيح: كل ما كان ماضيه على فَعَلت بفتح العين، ولم يكن ثانيه ولا ثالثه من حروف اللين ولا الحلْق فإنه يجوز في مستقبله يفعُل بضم العين، ويَفْعِل بكسرها، كـ «ضرب» يضرِب، وشكر يشكر، وليس أحدهما أولى من الآخر، ولا فيه عند العرب إلاّ الاستحسان والاستخفاف.

فمما جاء واستعمل فيه الوجهان قولهم: نَفر ينفِر، وينفُر، وشتم يشتِم، ويشتُم، فهذا يدلّ على جواز الوجهين فيهما، وأنهما شيء واحد، لأن الضمّة أخت الكسرة في الثقل، كما أن الواو نظيرة الياء في الثقل والإعلال، ولأن هذا الحرف لا يتغيّر لفظه، ولا خطه بتغيير حركته.

فأمّا اختيار مؤلف كتاب «الفصيح» الكسر في نفر، ويشتم فلا علّة له ولا قياس، بل هو نقض لمذهب العرب والنحويين في هذا الباب فقد أخبرنا محمد بن يزيد عن المازني والزيادي والرّياشي عز أبي زيد الأنصاري، وأخبرنا به أيضاً أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري عنهم، وعن

أبـي حاتم، وأخبرنا به الكسروي عن أبـي مهدي عن أبـي حاتم عن أبـي زيد أنه قال: طفت في عليا قيس، وتميم مدّة طويلة أسأل عن هذا الباب صغيرهم وكبيرهم، لأعرف ما كان فيه بالضمّ أولى، وما كان منه بالكسر أولى، فلم أجد لـذلك قياساً، وإنمـا يتكلم به كـلّ امـرىء منهم على مـا يستحسِن ويستخف لا على غير ذلك، ونـظن المختار للكسـر هنا وجـد الكسر أكثـر استعمالاً عن بعضهم، فجعله أفصـح من الذي قلّ استعماله عندهم، وليست الفصاحـة في كثرة الاستعمال ولا قلّته، وإنما هاتان لغتان مستويتـان في القياس والعلّة، وإن كان ما كثر استعماله أعرف وآنس لطول العادلة له، وقد يلتزمون أحد الوجهين للفرق بين المعاني في بعض ما يجوز فيـه الوجهـان كقولهم: ينفُـر بالضمّ من النّفـار والاشمئزاز، وينفـر من نفْر الحجـاج من عـرفـات، فهـذا الضـرب من القياس يبطل اختيار مؤلف الفصيـح الكسر من ينفر على كل حال.

ومعرفة هذا أنفـع من حفظ الألفاظ المجـرّدة، وتقليد اللغـة من لم يكن فقيهاً فيها، وقد يلهـج العرب الفصحـاء بالكلمـة الشاذّة عن القيـاس، البعيدة من الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها، ويـدعو المُنقـاس المطرّد المختـار، ثم لا يجب لذلك أن يقال: هذا أفصـح من المتروك:

من ذلــك قـول عـامـة العــرب: إيش صنعت يـريـدون: أيّ شيء؟ ولا بشانيك يعنون لا أب لشانيك، وقولهم: لا تبل أي لا تبالي.

ومثـل تـركهم ستعمـال المـاضي واسم الفـاعـل من يــذر، ويــدع، واقتصـارهم على: ترك، وتـارك، وليس ذلـك لأن: «تـرك» أفصح من ودع، ووذر، وإنمـــا الفصيـح مـا أفصح عن المعنى واستقـام لفـظه على القيـــاس لا ما كثر استعماله انتهى.

ثم قال ابن درستويه: وليس كل ما ترك الفصحاء استعمالُه بخطّأ، فقد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم بفصيح آخر أو لعلّة غير ذلك»[1].

* * *

(١) المزهر: ١/٢٠٧، ٢٠٨.

ثالثاً:

التـأنيث والتّـذكير

من الألوان اللغويّة التي تناولها السيّوطيّ في كتابه: «المزهر» ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة العربية وقد قسّمها عدّة أقسام، فذكر ما جاء بالهاء من صفات المذكّر، ثم ذكر ما جاء من صفات المؤنث بغير هاء، وعقد في مزهره خاتمة للكلمات التي تأتي على فعيل نعتاً لمؤنث، وكذلك الكلمات التي تأتي على فَعول، وعقد فصلاً في ذكر ما يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، ثم فصلاً آخر للأسماء التي تقع على الذكر والأنثى، وفيها علامة التأنيث.

وهذه الظواهر اللغوية التي سطرّها السيّوطيّ في هذا الموضع من كتابه جمعها بعد عناء ومشقة ـ كما يبدو من عرضه ـ من كتب تراثية سبقته ووضعها في تبويب بديع، وتقسيم جميل، وتنسيق رائع، وهو بهذا يعطي القارىء نصوصاً متناسقة تحت فكرة معينة أو موضوع محدّد وهذا شأن السيّوطيّ دائماً يبحث عن النصوص في كتب التراث التي سبقته تحت إطار لون لغوي معين كظاهرة التذكير والتأنيث ويجمع أقوال العلماء، ويقارن بينها، وينسق بين النصوص كأنها ـ على الرغم من اختلاف مصادرها ـ أخذت من كتاب أو مصدر واحد.

وها نحن نسوق شيئاً من النصوص اللغوية التي عرضها السيّوطيّ حول

ظاهرة التذكير والتأنيث، وأقول: شيئاً، لأن هذه الظاهرة تشتمل على تفريعات متعدّدة لا يتسع هذا الكتاب لذكرها جميعاً:

قال السيّوطيّ:

(أ) ذكر ما جاء بالهاء من صفات المذكّر:

قال ثعلب في فصيحه: تقول: رجل راوية للشعر، وعلّامة، ونسابة ومحذامة[1]، ومطرابة[2]، ومغرابة[3]، وذلك إذا مدحوه، فكأنهم أرادوا به داهية

وكذلك إذا ذمّوه فقالوا: لحّانة، وهِلباجة[4]، وفقّاقة[5]، وصخّابة في حروف كثيرة كأنهم أرادوا به بهيمة»[6].

ثم ينقل عن الفارابي في «ديوان الأدب» كلمات أخرى غير التي وردت في فصيح ثعلب، فيقول: «وقال الفارابي: رجل عِزْنَة لا يطاق في الخبث، وهيّوبة: متهيّب، وطاغية». ولا يكتفي السيوطيّ بذلك بل ينقل عن أبي زيد في نوادره: «رجل عبّابة، ويدخلون الهاء للمبالغة، ووقّافة قال:

* ولا وقّافة والخيل تردى *»

---

(١) في هامش المزهر: هو الكثير القطع للمفاوز، أو الكثير الفصل للأمور.

(٢) مطرابة: كثير الطرب.

(٣) إذا كان يغرب بإبله في الرّعي أي يبعدها.

(٤) الهلباجة: الأحمق.

(٥) فقاقة بالتخفيف: الأحمق الكثير الصياح، انظر هامش المزهر.

(٦) انظر هذه النصوص وما بعدها في المزهر: ٢/٢٠٤ وما بعدها.

ويضيف إلى ما ذكر كلمات أخرى جديدة، فقد نقل عن ابن دريد في «الجمهرة»: دِرْهم قِفْلة، أي: وازن، هاء التأنيث له لازمة لا يقال: درهم قَفْل.

ويختم حديثه في هذا الموضع بما ذكره عن ابن السكيت في كتاب: «الأصوات».

قال السيّوطيّ: وقال ابن السّكيت في كتاب الأصوات: رجل طلابة وسيف مهذرمة»[1].

* * *

وإذا كانت هاء التأنيث تدخل صفات المذكر للمبالغة، فهل هناك صفات تدخلها هاء التأنيث سواء كانت هذه الصفات للمذكر أو للمؤنث؟.

لم يفت السيّوطي أن يتحفنا بالكلمات الصفات التي تقال للمذكر والمؤنث بالهاء على حدّ سواء في اللغة العربيّة.

قال السيّوطيّ ناقلاً عن أبي العباس ثعلب في فصيحه ما نصه: «تقول: رجل رَبْعة، وامرأة رَبْعة[2]، ورجل ملولة، وامرأة ملولة ورجل فروقة، وامرأة فروقة، ورجل صرورة، وامرأة صرورة للذي لم يحج، وكذا منونة للكثير الامتنان، ولجوجة، وهُذرة للكثير الكلام، ورجل هُمزة لُمزة، وامرأة هُمزة ولُمزة في حروف كثيرة». ويستدل السيّوطي بأن هذه الظاهرة كثيرة الحدوث في اللغة بقول المبردّ في الكامل: «وهذا كثير لا تنزع منه الهاء، فأمّا راوية، ونشابة وعلامة فحذف الهاء جائز فيه، ولا يبلغ في المبالغة ما تبلغه الهاء.

* * *

(١) في هامش المزهر: هذرم السيف: إذا قطع. انظر هامش ٢/٣٠٥.

(٢) الربعة: وسط الناقة لا طويل ولا قصير.

(ب) ما جاء من صفات المؤنث من غير هاء:

وكما جاءت بعض صفات المذكر بالهاء، فهل تجوّز اللغة العكس، فتأتي صفات المؤنث من غير هاء.

اهتم السيّوطي بهذه الظاهرة، وعقد لها في كتابه فصلاً وهو: ذكر ما جاء من صفات المؤنث من غير هاء.

اعتمد السيّوطي في الصفات المؤنثة التي وردت بدون هاء على كتاب الجمهرة لابن دريد، فذكر لنا طائفة من هذه الصفات الخاصة بالنساء وطائفة ثانية من الصفات الخاصة بغير العقلاء من الظباء والنوق والخيل والأتان.

والسيوطي المستوعب لم يقف عند الصفات التي وردت في الجمهرة بل أخذ يقلّب صفحات كتب اللغة، وظفر بصفات أخرى للنساء وردت بدون هاء، وقد استدرك بذلك على ابن دريد. وكذلك استدرك على ابن دريد صفات أخرى للنوق وصفات أخرى للشاء، وللأتان.

وإني لا أستطيع أن أسجل هنا كل الصفات التي ساقها السيّوطيّ وإنما أكتفي بنماذج منها وعلى القارىء الدارس أن يرجع إلى المزهر ليحصل على بغيته ومراده من هذه الصفات.

قال السيّوطيّ ناقلاً عن: «الجمهرَة»: قال ابن دريد: باب ما لا تدخله الهاء من صفات المؤنث:

* «فمن صفات النساء: جارية كاعب، وناهد، ومعصر، هي كاعب أوّلاً: إذا كعب ثديها كأنه مُفلّك[1]، ثم يخرج فتكون ناهداً، ثم تستوي نهودها فتكون مُعْصراً.

(١) يقال: فلكت الجارية تفليكاً وهي مفلك: إذا صار ثديها كالفلكة، وفلكة المغزل مستديرة. انظر هامش المزهر.

وجارية عارك، وطامث، ودارس، وحائض، كله سواء.

وجارية جالـع: إذا طرحت قناعها.

وامرأة قاعد: إذا قعدت عن الحيض والولادة.

وامرأةٌ مُغيل: ترضـع ولدها وهي حامل.

وامرأة مُسقط: ألقت ولدها بغير تمام.

وامرأة مُسلب: قد مات ولدها.

وامرأة مذكر: إذا ولدت الذكر.

ومؤنث: إذا ولدت الإناث.

ومذكار، ومئناث: إذا كان ذلك من عادتها.

وامرأة مُغْيب ومُغيب (بتسكين الغين وكسرها): إذا غاب زوجها.

وقالوا: مغيبة أيضاً.

وامرأة مُشهد: إذا كان زوجها شاهداً.

وامرأة مقلات: لا يعيش لها ولد.

وثاكل، وهابل، وعالة من العلة والجزع.

وقتين: قليلة الدّرء.

وجامـع: في بطنها ولد.

وسافر، وحاسر، وواضـع: وضعت خمارها.

وعِنْفص: بذيّة، ودِفْنس: رعْناء.

ومُحِش: يبس ولدها في بطنها، وكذلك الناقة والفرس.

ومتم: إذا أتمت أيام حملها، وكذلك الناقة.

* * *

* ومن صفات الظباء:

ـ ظبية مطفل، ومُشْدن، ومُغزل: معها شادن، وغزال.

ـ وخاذل وخذول: إذا تأخرّت عن القطيع.

* ومن صفات الشاة:

ـ شاة صارف: التي تريد الفحل.

ـ نائر: تنثر من أنفها إذا سعلت أو عطست.

ـ وداجن وراجن: قد ألفت البيوت.

ـ وحانٍ: تريد الفحل.

ـ ومُقرب: قرب ولدها.

ـ وصالغ وسالغ، وهو منتهى سنّها.

ـ ومُتْئِم: ولدت اثنين.

* ومن صفات النّوق:

ـ ناقة عَيْهل، وعيهم: سريعة.

ـ ودلاث: جريئة على السيّر.

ـ وهِرْجاب: خفيفة.

ـ وأمون: صُلبة.

ـ وذَقُون: تضرب بذقنها في سيرها.

ـ ومَمْر: تدرّ على المرْي، وهو مسح الضّرع باليد.

ـ ونجيب: كريمة.

ـ وراجع: وهي التي تظن بها حملاً ثم تخلف.

ـ ومُرِدّ: وهي التي تشرب الماء فيرمُ ضَرعها.

ـ وخَبْر: غزيرة اللبن.

وحرْف: ضامر.

ـ ورازم: وهي التي قد دفعت باللبن أي أنزلت اللبن.

ومُضْرِع: للتي أشرق ضرعها باللبن.

ـ ونُتِجت الناقة حائلاً: إذا ولدت أنثى.

ـ ولَهيد: قد حصرها الحمل فأوهى لحمها.

ـ ومُذائر: ترأم بأنفها، ولا يصدُق حبها.

ـ وخادج ومُخْدِج: طرحت ولدها لغير تمام الأيام، وإن كان تام الخلق.

ـ وطالق: تطلب الماء قبل القَرب بليلة.

قال الأصمعيّ: سألت أعرابياً: ما القَرب؟ فقال: سير الليل لِوْرْد الغد، فقلت: ما الطّلق؟ فقال: سير اليوم لورد الغِبّ[1].

ـ وحائل: وهي التي حالت ولم تحمل.

---

(١) الغِبّ بالكسر: في سقي الإبل.

وضابع: لا ترفعِ خُفها إلى ضبعها في السّير.

ــ ومرباع: تحمل في أول الربيع.

ــ ومِشْياط: تسرع في السِّمن.

* * *

* ومن صفات الخيل:

ــ فرس مُرْكض: في بطنها ولد.

ــ وضامر.

ــ وقيدود: طويلة.

ــ وكُمَيت[1]:

ــ وجَلْعد: صُلب شديد.

ــ ومُقِصّ: إذا استبان حملها.

* * *

* ومن صفات الأتان:

أتان مُلْمِع: إذا أشرف ضرعها للحَمْل».

ثم قال السيوطي معلّقاً على ما نقله من الجمهرة لابن دريد ما نصه: هذا ما ذكره ابن دريد، وبقيت ألفاظ كثيرة استخرجها السيوطيّ من الغريب المصنف: منها ما يخص النساء، ومنها ما يخص النوق، ومنها ما يخص الشاة.

---

(١) خالطتها حمرة.

* فمن صفات النساء التي استخرجها من الغريب المصنف ولم ترد في نص ابن دريد الذي سبق ذكره:

امرأة مُسْلف: بلغت خمساً وأربعين و نحوها.

وخَوْد: حسنة الخلْق.

ورَداح: ثقيلة العجز.

وأملود: ناعمة.

وعُطْبول، وعَيْطل: طويلة العنق الخ.

* ومن صفات النوق:

قال في الغريب المصنف:

ـ ناقة مِبلام: لا ترغو من شدّة الضَّبَعة.

ـ ومُربّ: لزمت الفحل.

ـ ولسُوف: حمل عليها سنتين متواليتين.

ـ ومُمارَن: ضربت مراراً فلم تَلقحْ.

ـ وعائط: حمل عليها ولم تحمل الخ.

* ومن صفات الشاة:

قال في الغريب المصنف:

شاة مُمْغِل: حمل عليها في السنة مرتين.

ومحدث: دنا نتاجها.

ورغوث: ولدت قريباً.

ومُوحد: ولدت ولداً واحداً.

وجَلَد: مات ولدها.

* **ومن صفات غير ذلك من الغريب المصنف: أتان جَدود: انقطع لبنها، وليلة عماس: شديدة، ولحية ناصل من الخصاب».**

ولم يكتف السيّوطيّ بما نقله من الجمهرة، ومن الغريب المصنف بل أمدنا بكلمات أخرى في هذه القضيّة نقلها من ديوان الأدب للفارابي فيقول:

«وفي ديوان الأدب للفارابي:

امرأة كُنُد أي كفور للمواصلة، وناقة سُرُح: أي منسرحة في السّير، وقوسٌ فرُج: أي منفرجة عن الوتَر، وقارورة فُتُح: أي ليس لها غلاف، وعين حُشُدُ: لا ينقطع ماؤها، وناقة عُلُط: لا خطام عليها، وفرسٌ فُرُط: تتقدّم الخيل، وطُلق: إذا كانت إحدى قوائمها لا تحجيل فيها، وغارةٌ دُلُق: أي مندلقة شديدة الدفعة، وامرأة فُنُق: أي ناعمة أو متفنّقة في الكلام، وامرأة عُطُل: أي عاطل، وامرأة فُضُل: أي من ثوب واحد، وامرأة منجاب: تلد النجباء الخ.

ويختم السيّوطي عرضه لهذه الصّفات بما نقله من الصحاح حيث يقول:

وفي الصّحاح: ناقة جِرار. أي أكول، وامرأة جروز، وامرأة جارز: عاقر، وسنة حسوس: شديدة المحْل.

□ □ □

(١) انظر المزهر: ٢/٢٠٦ ــ ٢١٤، بتصرف.

ما جاء على فعيل وفعول نعتاً للمؤنث

يختم السيّوطي هذا الموضع الذي جاءت فيه الصفات المؤنثة بغير هاء، فيضع قانوناً للصفات المؤنثة التي تأتي على وزن فعيل أو على وزن فعول، فينقل من «إصلاح المنطق» لابن السكيت، ومن تهذيب التبريزي، ومن أدب الكاتب لابن قتيبة ما يوضح هذا القانون، ويقرّر حكم هذه الصفات فيقول: «ما كان على فعيل نعتاً للمؤنّث وهو في تأويل مفعول كان بغيرها نحو: كفّ خضيب، ومِلْحَفة غسيل. . . وإذا لم يجز فيه مفعول فهو بالهاء نحو: مريضة، وظريفة، وكبيرة، وصغيرة.

وإن كان فعيل في تأويل فاعل كان مؤنثه بالهاء نحو: شريفة ورحيمة، وكريمة.

* وإن كان فَعُول في تأويل فاعل كان مؤنثه بغير هاء نحو: امرأة صبور، وشكور، وغدور، وغفور، وكنود وكفور إلا حرفاً نادراً، قالوا: هي عدوّة لله، قال سيبويه: شبهوا عدوة بصديقة.

وإن كانت في تأويل مفعولة بهاء جاءت بالهاء نحو: الحمولة، والركوبة، وما كان على مِفْعيل فهو بغير هاء نحو: امرأة معطير، وناقة مئشير من الأَشَر، وفرس مِحْضير[1].

---

(١) أي يرتفع في عَدْوِه.

وشذ حرف فقالوا: امرأة مسكينة شبّهوها بفقيرة.

* * *

* وما كان على مِفْعال فهو بغير هاء نحو: امرأة مِعْطار، ومِعْطاء ومِجْبال: للعظيمة الخَلْق.

* ومِفْعل كذلك نحو: امرأة مِرْجَم.

* وما كان على مُفْعل مما لا يوصف به المذكّر فهو بغير هاء: نحو: مُرْضع، وظبية مُشْدن، فإذا أرادوا الفعل قالوا: مُرْضعة.

* * *

* وما كان على فاعل ممّا لا يكون وصفاً للمذكّر فهو بغير هاء نحو: حائض، وطالق، وطامث.

فإذا أرادوا الفعل قالوا: طالقة، وحاملة».

□ □ □

صفات جاءت على فاعل،
واستوى فيها المذكر والمؤنث

هناك صفات على وزن فاعل، ووصف بها المذكر والمؤنث بدون علامة التأنيث،

ويختم بهذه الصفات السيّوطي الحديث عن الصفات التي تأتي على وزن، فاعل فيقول:

«وقد جاءت أشياء على فاعل تكون للمذكر والمؤنث فلم يفرقوا بينهما، قالوا: جمل ضامر، وناقة ضامر، ورجل عاشق وامرأة عاشق.

* وقد يأتي فاعل وصفاً للمؤنث بمعنيين، فتثبت الهاء في أحدهما دون الآخر، يقال: امرأة طاهر من الحيض، وطاهرة من العيوب، وحامل من الحَمْل، وحاملة على ظهرها، وقاعد عن الحيض، وقاعدة من القعود.

* * *

وينهي السيوطي الحديث عن هذه الصفات التي جاءت على أوزان مختلفة بنص للتبريزي في النّعوت التي تأتي على وزن فَعْلان، وفُعلان فيقول:

«وقال التبريزي: وما كان من النعوت على مثال فَعلان فأنثاه فَعْلى في الأكثر نحو غضبان، وغَضْبى، ولغة بني أسد سكرانة، وملآنة وأشباههما

وقالوا: رجل سيفان، وامرأة سيفانة، وهو الطويل الممشوق الضامر البطن، ورجل موتان الفؤاد، وامرأة موتانة.

وما كان على فُعلان أتت مؤنثة بالهاء نحو: خُمصان وخُمصانة، وعُرْيان وعُرْيانة»[1].

□ □ □

(١) انظر المزهر: ٢/٢١٦ ــ ٢١٧، بتصرّف.

ذكر ما يستوي في الوصف به المذكّر والمؤنّث

ويسوق السيّوطي في هذا القسم كلمات مختلفة، متعدّدة الصيغ وهي متمثلة في صفات تطلق على المذكر والمؤنث بصيغة واحدة، فإن كان الموصوف مؤنثاً أو مذكراً فالصفة واحدة تأتي مجرّدة من علامة التأنيث.

وقدم لنا السيّوطي نصوصاً من مصادر لغوية متعدّدة:

فمن ديوان الأدب قال السيّوطيّ: «يقال ثوبٌ خلقٌ أي بالٍ، المذكر والمؤنث فيه سواء.

* وشاب أملود، وجارية أملود أي ناعمة.

* وبعير سَدس وسَديس: ألقى السّنّ التي بعد الرَّباعيّة، وذلك في الثامنة، الذكر والأنثى فيه سواء.

* وبعير بازل وبَزول: إذا فطر نابه في تاسع سنة، الذكر والأنثى فيه سواء.

* والمُخْلِف: الذي جاوز البازل من الإبل، الذكر والأنثى فيه سواء.

* والعانس: الجارية التي بقيت في بيت أبويها لم تتزوج، ويقال للرجل عانس أيضاً.

* ويقال: جمل نازع، وناقة نازع، إذا نزعت إلى وطنها.

* وبعير ظهير أي قويّ، وناقة ظهير بغير هاء أيضاً».

وينقل من الصحاح:

«العروس: نعت يستوي فيه المذكر والمؤنث ما داما في إعراسهما يقال: رجل عروس في رجال عُرُس، وامرأة عروس في نساء عرائس».

وينقل من الغريب المصنف فيقول:

«وفي الغريب المصنف: هذا بِكْر أبويه، وهو أول ولد يولد لهما، وكذلك الجارية بغير هاء، والجمع: أبكار.

* ويقال: هو ابن عم لحٌّ في النكرة، وابن عميّ لحًا في المعرفة وكذلك المؤنث والمثنى والجمع.

* وهو مُصاص قومه: إذا كان خالصهم، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث.

* وعبد قِنٌّ، وكذلك أمة قِنّ، والمثنى والجمع كذلك.

* ورجل رقوب: لا يعيش له ولد، وكذلك امرأة رقوب.

* وبعير قَرْحان: لم يَجْرَبْ قط، وكذلك الصّبي: إذا لم يُجَدّر، والمؤنث والاثنان، والجمع في ذلك كله سواء.

* ورجل غِرّ: لم يجرّب الأمور، وامرأة غِرّ.

* وبعير جَلْس: أي وثيق الجسم، وناقة جلْس كذلك.

* وكذلك رجل فرّ، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث.

* ويقال: امرأة وَقّاح الوجـه، وجوادٌ وَكَـل[1]، وِقْرْن وقِـرْن، ومُحب، وكهام، وعاشق، كل هذا مثل المذكر بغير هاء»[2].

* * *

ومن أدب الكاتب ينقل صفات أخرى فيقول:

«من ذلك جمل ضامر، وناقة ضامر، ورجل عاقر وامرأة عـاقر، ورجـل بكـر وامرأة بكـر، ورجل أَيِّم لا امـرأة لـه، وامـرأة أيِّمٌ: لا زوج لهـا، وفـرس كُميت للذكر والأنثى، وفرس جواد وبهيم كذلك.

والزوج يطلق على الرجل والمرأة، لا تكاد العرب تقول: زوجة.

* * *

ومن النوادر لأبـي زيد، يقول:

يقال: هذابَسْلٌ عليك، أي حـرام، وكذلـك الاثنان والجمـع والمؤنث، كما يقال: رجل عدْل، وقوْم عدْل، وامرأة عدل.

* * *

وفي الجمهـرة يذكـر طائفـة أخرى من الصفـات المشتركـة بين المذكـر والمؤنث، وتقال بصيغة واحدة فيقول:

ومن الجمهرة: باب ما يكون فيـه الواحـد والجماعـة والمؤنث سواء في النعوت:

رجل زَوْر، وقوم زوز، وكذلك سفْـر، ونـوْم، وصـوْم، وفِطر، وحـرام،

---

(١) وكَل: عاجز.

(٢) انظر المزهر: ٢/٢١٨، ٢١٩، بتصرّف.

وحلال، ومقنع، وخَصْم، وجُنُب، وصريخ، وصرورة للذي لم يحج، ونَصَف: وهو الذي طعن في السن ولم يشخ، وكفيل، ووصيّ، وضمين، وضَيْف، ودنِف، وحَرَض كلاهما بمعنى: مريض، وقِمن، وعدْل، وخيار، وعربي مَحضْ، وقُلْب وبَحْت، وقُح، أي خالص، وشاهد زُور، وشهداء زُور، وأرضْ جَدْبٌ وأرضون جَدْب، وكذا خِصب ومَحْلٌ، وماء فرات، ومِلح أجاج وقُعاع، وجراق، الثلاثة بمعنى ملح، وشروب أي بين الملح والعذب، ومسوس، ومياه كذلك في السبعة».

* * *

ويحرص السيّوطي على ألّا يفوت القارىء بعض الصفات الأخرى التي لم ترد في المصادر السابقة التي نقل عنها فينقل لنا من نوادر ابن الأعرابي ما يأتي:

قال السيّوطيّ: «وزاد ابن الأعرابيّ في نوادره: رجل وقوم رضاً، ونصر، ورسول وعدّو، وصديق، وكرم، ونَبَه، ومَشْنأ، ودوًى، وطنىٌ، وضنىٌ، ودوٍ: الأربعة بمعنى مريض.

وحريّ وقَرِف بمعنى قَمِن، وغلام رُوقة[1]، وغلمان رُوقة.

* * *

ويتحفنا السيّوطي بكلمة معناها واضح، وصيغتها غريبة فيقول:

وفي أمالي ثعلب: رجل قُنْعان أي يقنع به، ويرضى برأيه وامرأةُ قُنعان، ونسوة قُنعان، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث.

* * *

ويختم السيّوطي بحثه في هذا القسم عما نقله عن الصحاح فيقول:

---

(١) روقة: أي حسن.

«وفي الصحاح: الناشىء: الحدث الذي قد جاوز حدّ الصّغر والجارية ناشىء أيضاً.

وناقة تربَوت: أي ذلول، الذكر والأنثى فيه سواء.

ورجل ثَيِّب، وامرأة ثيِّب، الذكر والأنثى فيه سواء.

وخُلصان: خالصة يستوي فيه الواحد والجمع.

ودِرْع دِلاص أي بـرّاقـة، وأدرع دِلاص، الـواحـد والجمـع على لفظ واحد.

وشاة شحْص: ذهب لبنها كله، الـواحـدة والجمـع في ذلـك سـواء وكذلك الناقة.

وشاة شُصُص: للتي ذهب لبنها يستوي فيه الـواحد والجمـع، والمـذكر والمؤنث»[1].



(١) المزهر: ٢/٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، بتصرّف.

الأسماء المؤنّثة
التي لا علامة فيها للتأنيث

ويبين لنا السيّوطي في مزهره أن هناك أسماء مؤنثة ولا علامة فيها للتأنيث، وقد يخطىء فيها كثير من الدارسين ولذلك فقد سجلها السيّوطيّ في مزهره ليزيل اللبس فيها قال: «عقد لها ابن قتيبة باباً ذكر فيه:

السماء ـ والأرض ـ والقوس ـ والحرب، والذّود من الإبل ـ ودرع الحديد، فأما درع المرأة: وهو قميصها فهو مذكّر، وعروض الشعر، وأخذ في عَروض ما تعجبني» أي في ناحية، والرّحِم، والرمح، والغُول، والجحيم، والنار، والشمس، والنعل، والعصا، والرّحى، والدار، والضّحى».

* ونقل السيّوطيّ أيضاً عن تهذيب التبريزي:

القتب، واحد الأقتاب، وهي الأمعاء، والفأس والقدوم.

* ومن المقصور للقالي نقل السيّوطيّ النصّ التّالي:

«قال أبو حاتم: السُّري مؤنثة، يقال: طالت سراهم وهي سير الليل خاصّة دون النهار».

ويذكر السّيوطي تعليلاً طريفاً لتذكير دِرْع المرأة، وتأنيث دِرع الرجل فيقول:

قال البَطْلَيوْسي في: «شرح الفصيح»: كان بعض أشياخنا يقول: إنما

ذكـرٌ درع المرأة، وأنت درْع الـرجل، لأن المـرأة لبـاس الـرجـل وهي أنثى، فوجب أن يكون درعه مؤنثة، والرجل لباس المرأة وهو مذكر، فوجب أن يكون درعهـا مذكّـراً، وكـان يحتـج بقـولـه تعـالى: ﴿هُـنّ لبـاسٌ لكـم وأنتم لبـاسٌ لهن﴾[1].

□ □ □

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧.

ذكر الأسماء التي تقع على الذكر والأنثى وفيها علامة التأنيث

وهذا الفصل من غرائب اللغة، وبدائعها، فالذي يرد إلى الذهن من أول وهلة أن علامة التأنيث وهي الهاء خاصة بالمؤنثات فإذا دخلت علامة التأنيث في المذكر فهذا الذي يعتبر من الغريب الذي يجهله كثير من الدارسين اللغويين.

ولذلك يحرص السيّوطيّ على أن يقدم لنا مجموعة من الكلمات التي تقع على الذكر والأنثى، وفيها علامة التأنيث، فيقول: «قال ابن قتيبة:

من ذلك السّخلة: وهي ولد الغنم ساعة يوضع. والبَهْمة، والجداية[1]، وهو الرشأ، والمسبارة: ولد الضبع من الذئب، والحيّة تقول العرب: حيّة ذكر، والشاة أيضاً: الثور من الوحش، والبطة وحمامة ونعامة تقول: هذه نعامة ذكر قال: وكل هذا يجمع بطرح الهاء إلا حيّة فإنه لا يقال في جمعها: حيّ».

ويضيف السيّوطي إلى ما ذكره ابن قتيبة أسماء أخرى نقلها من الصحّاح مثل: دجاجة للذكر والأنثى، لأن الهاء إنما دخلته على أنه واحد من جنس مثل: حمامة وبطة.

---

(١) في القاموس: الجداية بالكسر والفتح: الغزال.

وكذلك القَبَجة للذكر والأنثى من الحجل، والنحلة، والجرادة والبومة، والحبارى، والبقرة، كلها تقع على الذكر والأنثى»[1].

* * *

ومن كتاب «ليس» لابن خالويه يضيف أسماء أخرى قال: «قال ابن خالويه في كتاب: «ليس»: الإنسان يقع على الرَّجُل والمرأة، والفرس يقع على الذكر وعلى الحِجْر[2]، والبعير يقع على الجمل والناقة، وسمع إنسانة وبعيرة ولا نظير لهما، وقيل: إن من العرب من يقول: فرسة».

* * *

ومن كتاب «الصحاح» يذكر أن الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى.

* * *

ومن مختصر العين: الذباب: اسم للذكر والأنثى.

* * *

والسيّوطيّ يذكر لنا أبياتاً منظومة فيما يذكّر ولا يؤنث من جوارح الإنسان وأجزائه فيقول:

يا سائلاً عما يذكر في الفتى	لا غير، عِهْ من حاذق لك يخبرُ
رأس الفتى وجبينه ومَعاؤه	والثغر ثم الشعر ثم المَنْخَرُ
والبطن والفم ثم ظُفر بعده	ناب وخدٌّ بالحياء يعصفر

(١) انظر المزهر: ٢/٢٢٢، بتصرّف.

(٢) الحجر: الفرس الأنثى (هامش المزهر).

والشدي والشّبر المـزيـد ونـاجـذ   والـيـاع والـذّقن الـذي لا ينكـر
هـذي الجوارح لا تؤنثها فـما   فـيـه لـهـا حظ إذا مـا تـذكـر

* * *

وقال فيما يؤنث ولا يذكر:

الساق والأذْن والأفخاذ والكبِد   والقلب والضلَع العوجاء والعضُد
والزّند والكف والعجُز التي عرفت   والعين والعُرقُب المجزولة الأحد
والسّنّ والكَرِش الغَرْثَى إلى قدم   من بعدها وَرِك معروفة ويد
ثم الشِّمال ويمناها وإصبَعُها   ثم الكُراع، وفيها يكمل العددُ
إحدى وعشرين لا تذكير يدخلها   وتاء تأنيثها في النحو يعتمد
ألفتها من قريض ليس له مقتدراً   يوماً على مثله لورامها أحدُ

* * *

ويذكر السيّوطيّ أبياتاً أخرى لجمال الدين بن مالك فيما يذكر ويؤنث من الحيوان وهي:

يمين شمال كف قلب وخنصر   يـهْ بنصر سنّ رحم ضِلَع كَبِدُ
كرش عين الأذن القتب فخذ قدم   ورِك كتف عقَب ساق الرجل ثم يد
لسان ذراع عاتق عنق قفا   كراع وضرس ثم إبهام العضد
ونفس وروح فِرْسِن وقرا اصبع   معًا بطن إبط عجز الدبر لا تزد
ففي يد التأنيث حتماً وما تلت   فوجهان فيما قد تلاها فلا تَجِد

* * *

وقال غيره في ذلك:

وهذي ثمان جارحات عددتها   تؤنث أحياناً وحيناً تُذَكَّرُ

لسان الفتى والإبْط والعُنْق والقفا وعاتقه والمتْن والضّرس يُذكرُ

وعند ذراع المرء ثم حسابُها فذكّر وأنّث أنت فيها مخيّرُ

كذا كل نحوي حكى في كتابه سوى سيبويه فهو عنهم مؤخّرُ

يرى أن تأنيث الذراع هو الذي أتى وهو للتذكير في ذاك منكر

□ □ □

ذكر ما يذكر ويؤنث

وفي ختام ظاهرة التأنيث والتذكير التي سجلها السيّوطي في مزهره يتناول القسم الأخير من هذه الظاهرة وهو: «ذكر ما يذكر ويؤنث».

قال السيوطي: في الغريب المصنف من ذلك: القليب ـ السلّاح ـ والصّاع ـ والسّكين ـ والنّعم ـ والإزار ـ والسراويل ـ والأضحى ـ والعُرْس ـ والعُنُق ـ والسبيل ـ والطريق ـ والدلو ـ والسوق ـ والعسل ـ والعاتق ـ والعضد ـ والعجُز ـ والسّلْم ـ والفُلك ـ والموسى.

* * *

ومن أدب الكاتب:

السلطان ـ والخمر ـ والنّهر ـ والحال ـ والمتْن ـ والكُراع ـ والذراع ـ واللسان ـ فمن أنثه قال في جمعه: ألسن ومن ذكّره قال: ألسنة.

* * *

ومن الصحاح: الزقاق: السّكة، يذكر ويؤنث.

قال الأخفش: أهل الحجاز يؤنثون الطريق، والصراط، والسبيل، والسوق، والزقاق، والكلّا، وهو سوق البصرة.

* * *

ومن تهذيب التبريزي: الذنوب: تذكّر وتؤنث.

* * *

ومن شرح المعلقات للنحاس:

من الأشياء ما يسمى بالمذكر والمؤنث نحو: خِوان، ومائدة، ومثله السِّنْان، والعالية، والصّواع، والسِّقاية»[1].

* * *

وبعد فهذه ألوان لغوية تناولها السيّوطي في مزهره، عرضناها لِنُبَيِّن للقارىء صفحات لغوية، لولا تنقيب السيوطي، وبحثه الدائب للوصول إليها لما وقفنا على هذه الدراسة اللغوية التي أنارت السبيل، وعبدت السبيل أمام الدارسين والباحثين في حقل اللغويات.

ولله در السيّوطي، فقد أبدع في مزهره أيما إبداع بما عرض في مزهره من دراسات وأبحاث، وما قدمه من فوائد جمة، وما عرض من نصوص رائعة، ونوادر بارعة، وغرائب لطيفة.

وبذلك نختم هذا الفصل لننتقل بعد ذلك إلى الفصل الثالث وهو أثر السيّوطي في الدراسات اللغوية من خلال القرآن الكريم.

□ □ □

(١) انظر المزهر: ٢/٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، بتصرّف.

الفصل الثالث

أثر السيوطي في الدراسات اللغوية من خلال القرآن الكريم

(١)

الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم

قضية أثارها السيّوطيّ في كتابه: «الإتقان» سجّل فيها آراء العلماء ورجال الفكر موازناً بين رأي ورأي، مقارناً بين فكر وفكر حتى انتهى إلى الدّفاع عن عربيّة القرآن الكريم، ومعلناً أن هذه الكلمات التي احتواها القرآن من الكلمات الأعجمية هي كلمات قليلة لا تخرجه عن العربيّة في رأي من يدّعي أعجميّتها.

ولسيطرة هذه القضية على فكر السيّوطيّ ألّف فيها كتاباً سماه: «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب».

ثم لخص فوائده في الإتقان مرة أخرى ليؤكد على خطورة هذه القضية التي قد توهم أن القرآن الكريم لم يكن عربيّاً خالصاً، وفي هذا ما فيه لأنه يتناقض مع القرآن نفسه حينما يعلن أنه: ﴿قرآناً عربيّاً غير ذي عوج﴾[١].

يقول السيّوطيّ في الإتقان عند حديثه عن النوع «الثامن والثلاثين فيما وقع فيه بغير لغة العرب» ما نصّه:

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٨.

«قد أفردت في هذا النوع كتاباً سمّيته: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب». . وأنا ألخص هنا فوائده»[٢].

وخلاصة الفوائد التي لخصها السيوطي من المهذب نسوقها بتصرف حرصاً على الإيجاز في ضوء تنظيم الآراء، وتنسيق الأفكار على النحو التالي:

(أ) المنكرون:

رأيُ الأكثرين من العلماء وعلى رأسهم الإمام الشافعيّ:

يرى هذا الفريق أن الكلمات الأعجمية لم تقع في القرآن الكريم ودليلهم في هذا النص القرآني نفسه، فالقرآن يقول: ﴿قرآناً عربيّاً﴾[١]، والقرآن يقول: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجميّاً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربيّ﴾[٢].

ويشير السيّوطيّ إلى أن الإمام الشافعيّ شدّد النكير على من قال بهذا القول وهو وجود كلمات أعجمية في القرآن.

ويسجل رأي أبي عبيدة الذي يصف من قال بهذا القول بأنه قد افترى على القرآن كذباً فيقول: «وقال أبو عبيدة: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربيّة، فقد أعظم القول».

ويضيف إلى رأي الشافعي وأبي عبيدة رأي ابن أوس الذي يقول: «لو كان فيه من لغة غير العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها».

* * *

---

(١) الإتقان: ١/١٣٥.

(٢) سورة فصلت: آية ٤٤.

* رأي ابن جرير:

على أن ابن جرير لـه رأي وجيه في هـذه القضية ذكره السيّوطيّ في إتقانه فقال:

«وقال ابن جرير ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن أنها بالفارسيّة والحبشيّة والنبطيّة، أو نحو ذلـك إنما اتفق فيها توارد اللغـات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد».

* * *

* رأي جماعة آخرين:

من هؤلاء من يقول: «كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعد مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظاً غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن.

ومن هؤلاء من يقول: كل هذه الألفاظ عربيّة صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جداً، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجلّة، وقد خفي على ابن عباس معنى «فاطر».

ويميل السيوطيّ إلى هذا الرأي مستدلاً بقول الشافعيّ في «الرسالة»: «لا يحيط باللغة إلاّ نبي».

* * *

(ب) المجوّزون:

فريق آخر من العلماء يجوزون وقوع الكلمات الأعجميّة في القرآن الكريم ووقوع هذه الكلمات الأعجميّة في القرآن الكريم لا يتناقض مع عربيّة

القرآن ومع النصوص القرآنية التي تشير إلى هذا، فالكلمات اليسيرة بغير العربيّة لا تخرجه عن كونه عربياً، والقصيدة الفارسيّة لا تخرج عنها بلفظة فيها عربيّة!! ولهذا الفريق أدلّة، من هذه الأدلة:

* قوله تعالى: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجميّ وعربيّ﴾[1] ليس في هذه الآية ما يدل على وقوع بعض الكلمات الأعجميّة في القرآن الكريم لأن «المعنى من السّياق أكلام أعجميّ، ومخاطب عربيّ» فالآية تشير إلى نكران أن يكون القرآن الكريم أعجمياً، والمخاطب عربيّاً، لأن هذا لا يتفق مع المنطق السليم، فالعربي لا يفهم الكلام الأعجميّ، ومن ثمّ فالحكمة واضحة والدليل بين في أن يكون القرآن الكريم عربيّاً، لأن المخاطب به عربي».

* ومن الأدلة أيضاً: «اتفاق النحاة على أن منع صرف نحو إبراهيم للعلميّة والعجميّة».

* * *

(ج) رأي السّيوطيّ:

وبعد أن عرض السّيوطيّ رأي المنكرين والمجوزين أدلى بدلوه في هذه القضية برأي وصفه بالقوّة، وقد جمع أدلّة ليزداد بها هذا الرأي قوّة فقال معقباً على الرأيين السّابقين.

«وأقوى ما رأيته للوقوع وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعيّ الجليل، قال: في القرآن من كل لسان» وروى مثله

---

(١) سورة فصلت: آية ٤٤.

عن سعيد بن جبير، ووهب بن منبه، فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأوّلين والآخرين ونبأ كل شيء، فلا بدّ أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتمّ إحاطته كل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها، وأكثرها استعمالاً للعرب».

* ويؤيد السيّوطي رأيه بأن هذا الرأي الذي وفّق إليه واختاره قد صرح به ابن النقيب فقال: «من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير.

* ويضيف السيّوطيّ دليلاً آخر فيقول: «وأيضاً فالنبيّ صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه﴾ فلا بدّ وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغة قومه هو».

على أن السيّوطيّ عزز رأيه بفائدة ذكرها الجويني في مجال المعرّب في القرآن الكريم مبيناً أن الكلمة المعرّبة قد تفوق الكلمة العربيّة في موقف من المواقف البلاغية، ولو أتى البليغ بكلمة عربيّة مكانها لما استطاعت أن تصل في دلالتها، وقوة معناها، واتساق حروفها إلى ما وصلت إليه الكلمة المعرّبة.

ونترك السيّوطيّ يعرض علينا هذه الفائدة التي نقلها عن الجويني قال:

«وقد رأيت الجويني ذكر لوقوع المعرّب في القرآن فائدة أخرى، فقال: إن قيل: إن «استبرق» ليس بعربي، وغير العربيّ من الألفاظ دون العربيّ في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم، وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك، وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغّبهم بالوعد الجميل،

ويخوّفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة، فالوعد والوعيد نظراً إلى الفصاحة واجب، ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمور الأماكن الطيبة، ثم المآكل الشهية، ثم المشارب الهنيّة، ثم الملابس الرفيعة، ثم المناكح اللذيذة، ثم ما بعده مما تختلف فيه الطباع، فإنّ ذكر الأماكن الطيّبة والوعد بها لازم عند الفصيح، ولو تركه لقال من أمر بالعبادة، ووعد عليها بالأكل والشرب: إن الأكل والشرب لا ألتذّ به إذا كنت في حبس، أو موضع كربة فلذا ذكر الله الجنة: ﴿ومساكن طيّبة﴾[1] فيها، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، وأما الذهب فليس مما ينسج منه ثوب، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل، وربما يكون الصفيق الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن، ولا يتركه في الوعد، لئلا يقصر في الحث والدعاء، ثم إن هذا الواجب الذكر إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الواجب الصريح أولى لأنه أوجز، وأظهر من الفائدة، وذلك «استبرق» فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ، ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد، أو ألفاظ متعدّدة، ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغة العربيّة للديباج الثمين اسم، وإنما عرّبوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا به عن الوضع لقلّة وجوده عندهم، وندرة تلفظهم به، وأمّا إن ذكره بلفظين فأكثر، فإنه يكون قد أخلّ بالبلاغة، لأن ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ومساكن طيّبة في جنات عدن﴾ (التوبة/٧٢).

فعلم بهـذا أن: «استبرق» يجب على كـل فصيح أن يتكلم بـه في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه، وأي فصاحة أبلـغ من أن لا يوجـد غيره مثله» وقبل أن ينهي السيّوطي هـذه القضية سجّـل في مجالهـا رأياً وسطاً وهو رأي أبـي عبيد القاسم بن سلام فقال:

«وقـال أبو عبيـد القاسم بن سـلام بعـد أن حكى القـول بـالـوقـوع عن الفقهـاء، والمنـع عن أهل العـربيّـة: والصـواب عنـدي مـذهب فيـه تصـديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجميّة كما قال الفقهـاء لكنها وقعت للعرب فعرّبتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربيّة ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحـروف بكلام العـرب، فمن قال: إنهـا عربيـة فهو صـادق، ومن قال: عجميّـة فصـادق، ومـال إلى هـذا القـول الجواليقي، وابن الجوزي وآخرون»[1].

* * *

(د) رأي ومناقشة:

عـرض السيّوطيّ هـذه القضية من جـوانبها المختلفـة، ولم يستـطـع أن يخرج منها برأي حاسم، وكل ما خرج به أنـه يميل إلى رأي من يقـول بوقـوع المعرّب في القرآن الكريم، واستدلّ لرأيه ببعض الآثار التي سجلناها، وبرأي الجويني في كلمة «استبرق» المعرّبة، والتي لا يمكن أن تحل محلهـا في باب البلاغة والفصاحة كلمة أخرى عـربيّة، وفي رأيـي أن الحكم في هـذه القضية من دون الرجوع فيه إلى فتوى التاريـخ واستفتاء التطورات اللغوية التي وردت في نسيـج الكلمات العربيّة حكم جائر يعوزه الدليل، وتنقصه الحجة، ويفتقر إلى البرهان.

---

(١) انظر هذه النصوص في الإتقان: ١/ ١٣٥ ــ ١٣٧.

وأساس القضية يقوم أولاً على تحديد معنى العربيّة حينما نقول قرآن عربي، أو لغة عربية.

إذا رجعنا إلى المعاجم لتدلنا على كلمة: «عرب» فماذا نجد؟ نجد اختلافاً كبيراً بين رجال اللغة من العرب في مدلول هذه الكلمة، فقد قال ابن منظور في كتابه الكبير لسان العرب ما نصه: «واختلف الناس في العرب لِمَ سموا عرباً؟ فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة.

وقيل: إن أولاد إسماعيل نشئوا بعربة، وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلادهم، ثم قال صاحب اللسان: وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها فهم عرب يمنّيهم ومعدّهم».

وإذا رجعنا إلى المستشرقين فماذا نجد؟ نجد أن المستشرقين وعلى رأسهم المستشرق: «ولفنسون» في كتابه: «تاريخ اللغات الساميّة» يرى أن كلمة «عرب» كانت مستعملة في اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء) أي لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية»[1].

ويرى هذا المستشرق أيضاً: أن ما يقال في المعاجم اللغوية العربيّة من أن هناك فرقاً بين كلمتي عربي وأعرابي، وتخصيص الأولى بسكان المدن، والثانية بسكان البادية، فلم يحدث إلاّ في عصور قريبة من ظهور الإسلام، أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقاً، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب أما سكان المدن والأمصار، فكانوا ينسبون إلى قبائلهم، ويعرفون بمناطقهم»[2].

---

(١) تاريخ اللغات السامية: ١٦٤.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

ويرى مرّة أخرى أن كلمة: «عبري» تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة عربي نفسها، أي أن العبريين هم قبائل رحل كالعرب سواء بسواء وقد استدل على هذه النظرية بأنّ كلمة عبري مشتقة من الثلاثيّ عبر الذي معناه بالعبرية والعربية: «ذهب» و«رحل» و«قطع» مرحلة من الطريق، أي أن كلمتي عبريّ وعربيّ مشتقان من ثلاثي واحد هو: «عبر» فحدث قلب مكانيّ في هذه الكلمة الثلاثية فصارت عربا»[1].

وإذا رجعنا إلى المؤرخين العرب فماذا نجد؟.

نجد أن المؤرخين العرب يقسّمون العرب إلى قسمين: بائدة، وباقية ومن العرب البائدة عاذ ومسكنهم الأحقاف في اليمن، وثمود ومسكنهم الحجر في جهة معان، ومدائن صالح، وطسم، ومسكنهم اليمامة، وعمليق، ومساكنهم عمان، والحجاز، وتهامة وبعض نجد وتيماء ويترا وفلسطين، وهم القوم الجبّارون الذين تهيبهم قوم موسى... ومن بقاياهم قوم هاجروا إلى مكة وهم أصهار إسماعيل عليه السلام ثم بادوا. ووبار، ومسكنهم اليمن... وقد هلكوا.

والعرب الباقية: أولاد قحطان وأولاد عدنان»[2].

* * *

وليس ثمة شك في أن هذه القبائل العربية التي قسمها المؤرخون إلى بائدة وباقية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم، بينة السّمات هذه اللغة هي العربيّة، والعربيّة من أقدم اللغات السامية كما نصت على ذلك كتب العبريين

---

(١) تاريخ اللغات السامية: ١٦٥.

(٢) انظر تاريخ الأدب لحفني ناصف: ٨.

أنفسهم، بل إن العرب أقدم من العبريين في تاريخ وجودهم على هذه الأرض، وما زالت كتبهم تقص علينا الشيء الكثير من أخبار العمالقة، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب.

على أن هذه القبائل العربيّة لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها، بل اختلطت اختلاطاً شديداً بغيرها من أجناس الأمم، اختلطوا بالمصريين حينما اتحدت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا، واستولوا على مصر في حملة معروفة في التاريخ المصري القديم بحملة «الهكسوس» سنة ۲۰۰۰ قبل الميلاد، وعرفوا بالرّعاة، ودام سلطانهم قروناً كثيرة»[١].

وتنصّ الكتابة المسمارية على أن قبائل ثمود التي كانت تقيم في بلاد الحجاز اشتبكت في معارك طاحنة مع «سرجون» ملك «آشور» الذي مزقهم كل ممزق، وأجلى البطون الثمودية الثائرة في بلاد العرب إلى مدينة «غزة» بفلسطين[٢].

وقدماء اللحيانيين الذين كانوا يقيمون في الحجاز عرفوا بالقوّة والعظمة حين كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر[٣].

* * *

فهذه النصوص تشير إشارات واضحة إلى أن هناك اختلاطاً حدث بين العرب وغيرهم في تاريخهم القديم، أدّى إلى التّفاعل اللغوي مما جعل اللغة تتطوّر حتى اكتمل بناؤها، واتسعت مفرداتها بفضل هذا الاحتكاك.

---

(١) حضارة العرب: ٩٠، لغوستاف لوبون.

(٢) المرجع السابق: ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

وقد استطاعت العربية بما تحمل من عناصر الحياة أن تسير في طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت إلى ما قبل الإسلام إلى الذروة من التقدّم والرّقي على حين تجمدّت اللغات السابقة الأخرى لتصبح أثراً بعد عين.

ومن المنطق أن أقول: إن لغة احتكّت بغيرها من اللغات الأخرى فيها ووصلت إلى هذه الدرجة من التطوّر لا بد أن تكون مورداً لغيرها من اللغات الأخرى، تمدّها بما تحتاج إليه من مفرداتها الواسعة وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات لبنات في بناء لغات هذه الأمم ولا يصح في مجال التفكير السليم أن تقول: إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات، إذ أمكنا ذلك فهذا حُكْم لا تسنده إلا هذه الأخبار التي ذكرها الروّاة، وهي أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾[1].

ومن العجب حقّاً أن ندّعي أن مفردات اللغة العربيّة التي عاشت هذا العمر الطويل، وتطوّرت هذا التطوّر الكبير عبر التاريخ، وعبر الأجيال تمثلها هذه المعاجم اللغوية.

أجل لقد أحسّ بهذه الحقيقة راوية كبير من رواة اللغة ألا و.و أبو عمرو بن العلاء حيث يقول: «وما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقلّه ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير»[2].

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجميّة هذه الكلمات من ناحية أخرى فهذه الكلمات كما يقول السيّوطي أكثر من مائة لفظة[3]، وهو عدد قليل جداً

---

(١) سورة يوسف: آية ٢.

(٢) الاقتراح، للسيوطي: ٢٧.

(٣) الإتقان: ١/١٤٠.

بالنسبة إلى كلمات القرآن الكريم التي تبلغ في رواية الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبعاً وسبعين ألف كلمة وأربعمائة وسبعة وثلاثين كلمة»[1].

فما السرّ إذاً في أن يمدّ القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم، هل اللغة العربيّة فقيرة إلى هذا الحد، فتطلب المعونة من هذه اللغات كيف ذلك وهي اللغة التي تحفظ للمعنى الواحد المئين من الألفاظ؟.

استمع إلى السيّوطيّ يقول في المزهر: إن العجم لا تعرف للأسد أسماء غير اسم واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم»[2].

وبعد هذا العرض لقضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم التي عرضها السيّوطي في كتابه الإتقان نذكر بعض النماذج من هذه الكلمات لتكمل القضية وتتضح الصورة.

* * *

نماذج من الكلمات الأعجمية كما أوردها السيّوطيّ في الإتقان:

قال السيّوطيّ: وهذا سرد لألفاظ الواردة في القرآن الكريم من ذلك مرتبة على حروف المعجم:

* أباريق: حكى الثعالبي في فقه اللغة أنها فارسيّة.

* الأرائك: حكى ابن الجوزي في فنون الأفنان أنها السّرر بالحبشيّة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٢٤٩.

(٢) المزهر: ١/٣٢٥؛ وانظر من الدراسات للقرآنية، للدكتور عبد العال سالم مكرم: ٤٩ ــ ٦٣.

* استبرق: أخرج بن أبي حاتم عن الضحاك أنه الديباج الغليظ بلغة العجم.

* أسفار: قال الواسطي في الإرشاد هي الكتب بالسريانية... الخ.

وننهي القول في هذه النقطة لننتقل إلى نقطة أخرى وهي المشترك اللفظي في القرآن الكريم.

□ □ □

(٢)

المشترك اللفظي في القرآن الكريم

من أعظم المؤلفات التي ألّفها السيّوطي في حقل الدراسات اللغوية القرآنية كتابه: «معترك الأقران في إعجاز القرآن»[١].

وقد شعر السيّوطيّ من أعماق قلبه، وصميم وجدانه أنه حينما ألّف هذا الكتاب أنه أنجز عملاً كبيراً في الدراسات اللغوية في ميدان القرآن الكريم ولا أدلّ على ذلك من قوله عن كتابه ما نصّه:

«فاشدُد بكلتا يديك على هذا الكتاب المسمّى بإعجاز القرآن، ومعترك الأقران مع أني ــ علم الله ــ لست من فرسان هذا الميدان، ولا ممّن يجول في هذا الشأن، لكني تطفلت على المتقدمين، رجاء أن يضمني جميل الاحتمال معهم ويسعني من حسن التجاوز ما وسعهم.

وأنا أرغب ممّن وقع بيده هذا الكتاب أن يدعو للسّاعي له فيه، لأنه يجد فيه ما لا يجده في كثير من المطوّلات الصّعاب.

وكيف لا يذكره عند ربّه، وقد استخرجته له منهم سهل المرام، فخفف عليه حمله وثمنه، وقرّبت عليه الفهم باختصار الكلام، وأيم الله لو أراد

(١) حققه الأستاذ محمد علي البجاوي نشر دار الفكر العربيّ.

الاستغناء به عن النظر في غيره لكفاه، مع أني زدت مع اللفظ المشترك تفسير مفردات لا بد له منها، ليتمّ له معناه، وأعقبت كل حرف بحروف تشاكلها منها من الأسماء والظروف، لأن معرفة ذلك من المهمّات المطلوبة لاختلاف مواقعها»[1].

ومن شأن السّيوطي الناقل الأمين أن يردّ الفضل إلى ذويه، والحق إلى نصابه، والعلم إلى أهله وأصحابه، فلا يدّعي، وبخاصة في مجال الدراسات القرآنية أنه ابن بجدتها، وصاحب الكلمة الطولى فيها، والقول الفصل في قضاياها وأحكامها، بل يقدم ذلك حينما يقدّم، وهو يرتدي لباس التواضع دون كبر أو رياء، ودون عظمة أو استعلاء، نعم، لله در السيّوطي حينما يقول عن هذا الكتاب الذي ألفه ما نصّه:

«على أن ليس لي فيه مزيّة، وإنما الفضل لمتقدّمي علماء الأمة المحمدّيّة، ملأ الله قلوبهم نوراً، وزاد قلوبهم حبوراً، وأفاض من بركاتهم يوم نلقيّ كتابنا منشوراً، فنظرنا إليه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلاّ أحصاها، ولا خفية محرّفة عندنا إلا عدّها واستقصاها، وأسمعنا تعالى عظيم كلامه، وخاطبنا بعتابه وملامه، وقال: عبدي ادن منيّ، فدنوت منه بقلب خافق وجل، فيقول: عبدي طالما أمرتك فعصيتني، وأمهلتك فما راعيتني، وخوّفتك عقابي فما خفتني، وتسترت بالقبيح عن عبادي، وبه بارزتني، ألم أكن على قلبك وجوارحك رقيباً، أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

فهناك يخرس اللسان، وتطيش العقول والأذهان، ولا تطيق من الهيبة البيان، بل نشهد جوارح الإنسان.

---

(١) معترك الأقران: ١/٥١٥، ٥١٦.

اللهم إنك تعلم أنه ليس لي من ينقذني من والد علم ولا ولد علم في ذلك الموقف العظيم غير الاشتغال بخدمة كتابك، واستخراج زبده ودرره واقتطاف ثمره وأزهاره، فاجعله لنا شافعاً مشفّعاً، وخصوصاً هذا الكتاب، فإني أودعت فيه فنون العلم على تنوعها، ومررت على رياض التفاسير على كثرة عددها»[1].

ونحن حينما نقرأ هذا النص للسيّوطيّ حول كتابه: «معترك الأقران» نشعر أن الرجل كان مخلصاً غاية الإخلاص في اشتغاله بتأليف هذا الكتاب وإنه ما ألّفه إلا خدمة لكتاب الله بعيداً عن الهوى، مبّرأ من الغرض مستعلياً على دخائل النفس، وشهوات القلب.

وبعد هذه المقدمة نتناول بالتعريف المشترك اللفظي فما هو؟.

* * *

* المشترك اللفظي:

المشترك اللفظيّ كما عرفه السيّوطيّ هو أن «الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشريف وجهاً، وأكثر وأقلّ ولا يوجد ذلك في كلام البشر»[2] وقد أخذ السيّوطيّ يسرد في كتابه ألفاظاً مشتركة ومعانيها متعدّدة ورتبها على حروف المعجم، من ذلك على سبيل المثال ما يأتي:

* ربّ:

لها أربعة معان: الإله، والسيّد، والمالك للشيء، والمصلح للأمر، وكلها تصلح في: ربّ العالمين[3].

---

(١) معترك الأقران: ٥١٧/١.

(٢) المرجع نفسه: ٥١٤.

(٣) المرجع نفسه: ١١٢/٢.

* ظُلْمْ:

يقـع في القرآن على ثلاثة معان: الكفر، والمعاصي، وظلم النـاس أي التعدي عليهم[1].

* الهدى:

يأتي على سبعة عشر وجهاً:

* بمعنى الثبات: ﴿إهدنا الصّراط المستقيم﴾[2].
* بمعنى البيان: ﴿أولئك على هدىً من ربهم﴾[3].
* بمعنى الدين: ﴿إن الهدى هدى الله﴾[4].
* بمعنى الإيمان: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[5].
* بمعنى الـدعاء: ﴿ولكـل قوم هـاد﴾[6]، ﴿وجعلنـاهم أئمـة يهـدون بأمرنا﴾[7].
* بمعنى الرسل والكتب: ﴿فإما يأتينّكُم مني هدى﴾[8].
* بمعنى المعرفة: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾[9].

---

(١) المرجع نفسه: ١٥٧/٢.
(٢) سورة الفاتحة.
(٣) سورة البقرة: آية ٥.
(٤) سورة آل عمران: آية ٧٣.
(٥) سورة مريم: آية ٧٦.
(٦) سورة الرعد: آية ٧.
(٧) سورة الأنبياء: آية ٧٣.
(٨) سورة البقرة: آية ٣٨.
(٩) سورة النحل: آية ١٦.

* بمعنى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾[1].

* وبمعنى القرآن: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[2].

* بمعنى التوراة: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾[3].

* بمعنى الحجة: ﴿لا يهدي القوم الظالمين﴾[4].

* بعد قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه﴾[5]. أي لا يهديهم حجة.

* وبمعنى التوحيد: ﴿إن نتّبع الهدى معك﴾[6].

* بمعنى السنة: ﴿فبهداهم اقتده﴾[7].

* بمعنى الإصلاح: ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾[8].

* بمعنى الإلهام: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[9].

* **الصلاة:**

تأتي على أوجه:

---

(1) سورة البقرة: آية ١٥٩.
(2) سورة النّجم: آية٢٣.
(3) سورة غافر: آية ٥٣.
(4) سورة البقرة: آية ٢٥٨.
(5) سورة البقرة: آية ٢٥٨.
(6) سورة القصص: آية ٥٧.
(7) سورة الأنعام: آية ٩٠.
(8) سورة يوسف: آية ٥٢.
(9) سورة طه: آية ٥٠؛ وانظر الإتقان: ١٤٢/١؛ وانظر أيضاً: التصاريف ليحيى بن
(10) سلام: ٩٦ ــ ٩٩.

* بمعنى الصلوات الخمس: ﴿ويقيمون الصلاة﴾[1].
* بمعنى صلاة العصر: ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾[2].
* بمعنى صلاة الجمعة: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾[3].
* بمعنى صلاة الجنازة: ﴿ولا تصل على أحد منهم﴾[4].
* بمعنى الدعاء: ﴿وصلِّ عليهم﴾[5].
* بمعنى الدين: ﴿أصلاتك تأمرك﴾[6].
* بمعنى الرحمة والاستغفار: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبيّ﴾[7].

* الرحمة:
* بمعنى الإسلام: ﴿يختصُّ برحمته من يشاء﴾[8].
* بمعنى الإيمان: ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾[9].
* بمعنى الجنة: ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾[10].
* بمعنى المطر: ﴿بشراً بين يدي رحمته﴾[11].

---

(١) سورة البقرة: آية ٣.
(٢) سورة المائدة: آية ١٠٦.
(٣) سورة الجمعة: آية ٩.
(٤) سورة التوبة: آية ٨٤.
(٥) سورة التوبة: آية ١٠٣.
(٦) سورة هود: آية ٨٧.
(٧) سورة الأحزاب: آية ٥٦؛ وانظر الإتقان: ١/١٤٢.
(٨) سورة البقرة: آية ١٠٥.
(٩) سورة هود: آية ٢٨.
(١٠) سورة آل عمران: آية ١٠٧.
(١١) سورة الأعراف: آية ٥٧.

* بمعنى النعمة: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾[1] .
* بمعنى النّبوة: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾[2] .
* بمعنى القرآن: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾[3] .
* بمعنى الرزق: ﴿خزائن رحمة ربي﴾[4] .
* بمعنى العافية: ﴿أو أرادني برحمة﴾[5] .
* بمعنى المودة: ﴿رأفة ورحمة﴾[6] .
* بمعنى المغفرة: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾[7] .

* * *

* القضاء:

* بمعنى الفراغ: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾[8].
* بمعنى الأمر: ﴿إذْ قُضِي الأمر﴾[9].
* بمعنى الأجل: ﴿فمنهم من قضى نَحْبه﴾[10].
* بمعنى الفصل: ﴿لَقُضِي الأَمْرُ بيني وبينكم﴾[11] .

---

(١) سورة النور: آية ٨٣.
(٢) سورة صّ: آية ٩.
(٣) سورة يونس: آية ٥٨.
(٤) سورة الإسراء: آية ١٠٠.
(٥) سورة الزمر: آية ٣٨.
(٦) سورة الحديد: آية ٢٧.
(٧) سورة الأنعام: آية ١٢؛ وانظر الإتقان: ١/١٤٢.
(٨) سورة البقرة: آية ٢٠٠.
(٩) سورة مريم: آية ٣٩.
(١٠) سورة الأحزاب: آية ٢٣.
(١١) سورة الأنعام: آية ٥٨.

* بمعنى المضي: ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾[1].
* بمعنى الوجوب: ﴿وقضي الأمر﴾[2].
* بمعنى الإبرام: ﴿في نفْس يعقوب قضاها﴾[3].
* بمعنى الإعلام: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾[4].
* بمعنى الوصيّة: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[5].
* بمعنى الموت: ﴿فقضى عليه﴾[6].
* بمعنى الخلق: ﴿فقضاهن سبع سموات﴾[7].
* بمعنى الفعل: ﴿كلاّ لما يقض ما أمره﴾[8] يعني حقّاً لم يفعل.
* بمعنى العهد: ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾[9][10].

* * *

* الفتنة:

* بمعنى الشرك: ﴿والفتنة أشدّ من القتل﴾[11].

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤٢.
(٢) سورة هود: آية ٤٤.
(٣) سورة يوسف: آية ٦٨.
(٤) سورة الإسراء: آية ٤.
(٥) سورة الإسراء: آية ٢٣.
(٦) سورة القصص: آية ١٥.
(٧) سورة فصلت: آية ١٢.
(٨) سورة عبس: آية ٢٣.
(٩) سورة القصص: آية ٤٤.
(١٠) وانظر الإتقان: ١٤٣/١، والتصاريف: ١١٠ وما بعدها.
(١١) سورة البقرة: آية ١٩٣.

* بمعنى الإضلال: ﴿ابتغاء الفتنة﴾[1].

* بمعنى القتل: ﴿أن يفتنكم الذين كفروا﴾[2].

* بمعنى الصد: ﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾[3].

* بمعنى الضلالة: ﴿ومن يرد الله فتنته﴾[4].

* بمعنى المعذرة: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾[5].

* بمعنى الإثم: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾[6].

* بمعنى المرض: ﴿يفتنون في كل عام﴾[7].

* بمعنى العبرة: ﴿لا تجعلنا فتنة﴾[8].

* بمعنى الاختبار: ﴿ولقد فتنا قبلهم﴾[9].

* ظـن:

أصلها الاعتقاد الراجح كقوله تعالى: ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾[10] وقد تستعمل في اليقين كقوله تعالى: ﴿الـذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم﴾[11] أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن مجاهد، قال: «كل ظن في القرآن يقين» قال

---

(1) سورة آل عمران: آية ٧.

(2) سورة النساء: آية ١٠١.

(3) سورة المائدة: آية ٤٩.

(4) سورة المائدة: آية ٤١.

(5) سورة الأنعام: آية٢٣.

(6) سورة التوبة: آية ٤٩.

(7) سورة التوبة: آية ١٢٦.

(8) سورة الممتحنة: آية ٥.

(9) سورة الدخان: آية ١٧ وانظر الإتقان: ١٤٢/١.

(10) سورة البقرة: آية ٢٣٠.

(11) سورة البقرة: آية ٤٦.

السيّوطيّ: وهذا مشكل بكثير من الآيات لم يستعمل فيها معنى اليقين كالآية الأولى.

وقال الزركشي في البرهان: الفرق بينهما في القرآن ضابطان:

أحدهما: أنه حيث وجد الظن محموداً مثاباً عليه فهو اليقين، وحيث وجد مذموماً متوعّداً عليه بالعقاب فهو الشك.

والثاني: أن كل ظن يتصل بعده أن الحقيقة فهو شك، نحو: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون﴾(١).

وكل ظن يتصل به أنّ المشدّدة فهو يقين كقوله: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾(٢)، ﴿وظن أنه الفراق﴾(٣)، وقرىء: «وأيقن أنه الفراق».

والمعنى من ذلك أن المشدّدة للتأكيد، فدخلت على اليقين، والخفيفة بخلافها فدخلت في الشك، ولهذا دخلت الأولى في العلم نحو: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾(٤).

والثانية في الحسبان نحو: ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾(٥).

وذكر السيّوطيّ أن هذا الضابط أوردوا عليه ما يبطله وهو قوله تعالى: ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله﴾(٦)، والظن هنا يقين، ومع ذلك فـ«أن» مخففة وليست مشدّدة.

---

(١) سورة الفتح: آية ١٢.
(٢) سورة الحاقة: آية ٢٠.
(٣) سورة القيامة: آية ٢٨؛ وانظر معجم القراءات قراءة رقم (٩٦٧٧).
(٤) سورة محمد: آية ١٩.
(٥) سورة المائدة: آية ٧١.
(٦) سورة التوبة: آية ١١٨.

ثم ذكر السيّوطي الإجابة على هذا الاعتراض بقوله:

«وأجيب بأنها اتصلت بالاسم، وفي الأمثلة السابقة اتصلت بالفعل ذكره في البرهان، قال: فتمسك بهذا الضابط، فهو من أسرار القرآن»، وقال ثعلب: العرب تجعل الظن علماً، وشكّاً، وكذباً فإن قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك، فالظن يقين وإن اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك، فالظن شك، وإن زادت الشك على براهين اليقين، فالظن كذب قال الله: ﴿إن هم إلاّ يظنون﴾[1].

* كوثر:

بناء مبالغة من الكثرة، وفي تفسيره سبعة أقوال:

الأول: أنه حوض النبيّ ﷺ.

الثاني: إنه الخير الكثير الذي أعطاه الله في الدنيا والآخرة، قاله ابن عباس، وعمّمَه سعيد بن جبير بأن قال: إن النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه، فالمعنى أنه من العموم.

الثالث: أن الكوثر: القرآن.

الرابع: أنه كثرة الأصحاب والأتباع.

الخامس: أنه التوحيد.

السادس: أنه الشفاعة.

السابع: أنه نور وضعه الله في قلبه[2].

---

(١) سورة الجاثية: آية ٢٤؛ وانظر معترك الأقران: ٢/١٦١، ١٦٢.

(٢) معترك الأقران: ٢/١٧٥، ١٧٦.

* الأيّم:

الأيّم الذي لا زوج له، ويقال للرجل والمرأة[1].

* عفا:

له أربعة معان: عفا عن الذنب أي صفح عنه، وعفا: أسقط حقه، ومنه: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾[2].

وعفا القوم: كثروا، ومنه: ﴿حتى عفوا﴾[3].

وعفا المنزل: درس[4].

* وعهدنا إلى إبراهيم:[5]

العهد له معان:

* بمعنى اليقين: ﴿وأوفوا بعهد الله﴾[6].
* وبمعنى الأمان: قال تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾[7].
* وبمعنى الوحي: ﴿إن الله عهد إلينا﴾[8].
* وبمعنى الوعد: ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾[9].

---

(1) معترك الأقران: ١/٥٣٧.
(2) معترك الأقران: ٢/٦٢٧. سورة البقرة: آية ٢٣٧.
(3) سورة الأعراف: آية ٩٥.
(4) معترك الأقران: ٢/٦٢٧.
(5) سورة البقرة: آية ١٢٥.
(6) سورة النحل: آية ٩١.
(7) سورة التوبة: آية ٤.
(8) سورة آل عمران: آية ١٨٣.
(9) سورة البقرة: آية ٨٠.

* ويمعنى الميثاق: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾[1] .
* ويمعنى الوصيّة: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل﴾[2] .

* عَدَل:

عدل يعدل عدلاً ضد: جار.

وعدل عن الحق عُدولاً، وعدلت فلاناً بفلان: سوّيت بينهما، ومنه: ﴿ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون﴾[3].

* عنت الوجوه[4]:

عنت الوجوه أي ذلت وخضعت، وكيف لا تخضع وتذل، والأنبياء يومئذ يقولون: نفسي نفسي، لا أسألك غيرها!، قال السيّوطي: واعلم أن الله ذكر الوجوه في القرآن على سبعة أوصاف، ورتب وجوه الكفار في الآخرة على سبع:

* بمعنى وجه التسليم: ﴿أسلمت وجهي﴾[5].
* وجه العبرة: ﴿على وجه أبي﴾[6].
* بمعنى وجه الرضا والتفويض: ﴿قد نرى تقلّب وجهك﴾[7].

---

(1) سورة البقرة: آية ١٢٤ .
(2) سورة طه: آية ١١٥ ؛ وانظر معترك الأقران: ٦٢٨ .
(3) سورة الأنعام: آية ١ ؛ وانظر معترك الأقران: ٢/٦٣٥ .
(4) سورة طه: آية ١١١ .
(5) سورة آل عمران: آية ٢٠ .
(6) سورة يوسف: آية ٩٣ .
(7) سورة البقرة: آية ١٤٤ .

* بمعنى وجه العبادة: ﴿سيماهم في وجوههم﴾[1].
* بمعنى وجه الإقبال والطاعة: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾[2].
* بمعنى وجه الإخلاص: ﴿وجهت وجهي﴾[3].
* بمعنى وجه الطّهارة: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾[4].

* **عسى:**

فعل جامد لا ينصرّف، ومن ثمّ ادعّى قوم أنه حرف.

ومعناه: الترجي في المحبوب، والإشفاق في المكروه، وقد اجتمعا في قوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾[5].

قال ابن فارس: وتأتي للقرب والدنو نحو: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾[6].

قال الكسائي: كل ما في القرآن من عسى على وجه الخبر فهو مُوحّد نحو الآية السابقة، وواحد على معنى: عسى الأمر أن يكون كذا.

وما كان على الاستفهام فإنه يجمع نحو: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض﴾[7].

---

(1) سورة الفتح: آية ٢٩.
(2) سورة البقرة: آيتي ١٤٤، ١٥٠.
(3) سورة الأنعام: آية ٧٩.
(4) سورة المائدة: آية ٦.
(5) سورة البقرة: آية ٢١٦.
(6) سورة النّمل: آية ٧٢.
(7) سورة محمد: آية ٢٢.

قال أبو عبيدة: معناه: هل عددتم ذلك.

وقال ابن الأنباري: عسى في القرآن واجبة إلاّ في موضعين:

أحدهما: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾[1] يعني يا بني النضير فما رحمهم الله بل قاتلهم رسول الله ﷺ، وأوقع عليهم العقوبة.

والثاني: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾[2] فلم يقع التبديل.

وفي الكشاف في سورة التحريم: عسى إطماع من الله لعباده، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون على ما جرت به العادة من الإجابة لعلّ وعسى ووقوع ذلك من الجبابرة موقع القطع والبث.

والثاني: أن يكون جيء به تعليماً للعباد أن يكونوا بين الخوف والرجاء وقال ابن الدهان: عسى فعل ماضيّ اللفظ والمعنى، لأنه طمع قد حصل من شيء مستقبل.

وقال قوم: ماضي اللفظ مستقبل المعنى، لأنه إخبار على طمع يريد أن يقع»[3].

* * *

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨.

(٢) سورة التحريم: آية ٥.

(٣) انظر معترك الأقران: ٢/٦٧٢ ــ ٦٧٤، بتصرّف.

ومع أن هذا المشترك اللفظيّ عدّد له السيّوطي هذه الصيغ التي احتواها كتابه: معترك الأقران والمزهر فإن أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ليس على وفاق مع السيّوطيّ في هذه القضية.

نعم، فتعريف الدكتور إبراهيم أنيس للمشترك اللفظي الذي حدّده بأنه: «هو اللفظ الواحد للدلالة على أمرين مختلفين اختلافاً بيّناً»[1] لا يختلف هذا التعريف عن التعريف الذي ذكره آنفاً السيّوطيّ للمشترك اللفظي، ولكن موضع الخلاف بين الرجلين هو الكثرة والقلة، فما عدّده السيّوطيّ يدل على أن المشترك اللفظي كثير الوقوع، فإذا كان كذلك في القرآن، ففي اللغة أكثر وقوعاً؛ ولا أدلّ على ذلك من أن أبا عبيد المتوفى ٢٤٤هـ له كتاب في المشترك اللفظي وهو: «الأجناس من كلام العرب، وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى».

والأصمعي له كتاب: «ما اتفق لفظه، واختلف معناه»[2]، ويرى الأستاذ الدكتور إنيس أن المشترك اللفظيّ نادر الوقوع أو قليل الوجود، وقد أيد رأيه بما نقله عن ابن درستويه حيث يقول: «وقد كان ابن درستويه محقاً حين أنكر معظم تلك الألفاظ التي عدت من المشترك اللفظيّ، واعتبرها من المجاز، فكلمة الهلال حين تعبّر عن هلال السماء، وعن حديدة الصيد التي تشبه في شكلها الهلال، وعن هلال النّعل الذي يشبه في شكله الهلال لا يصح إذاً أن تعدّ من المشترك اللفظيّ، لأن المعنى واحد في كل هذا. . .

ذلك أن المشترك اللفظيّ الحقيقي إنما يكون حين لا تلمح أي صلة بين المعنيين كأن يقال مثلاً: إن الأرض هي الكرة الأرضية، وهي أيضاً

---

(١) دلالة الألفاظ: ٢١٢.

(٢) انظر دلالة الألفاظ: ٢١٤، ٢١٥.

الزكام[1]، وكأن يقال لنا: إن الخال هو أخو الأم، وهو الشامة في الوجه، وهو الأكمة الصغيرة».

ويؤكد أستاذنا الفاضل ندرة المشترك اللفظي، بقوله:

«ومثل هذه الألفاظ التي اختلف فيها المعنى اختلافاً بيّناً قليلة جدّاً بل نادرة، ولا تكاد تجاوز أصابع اليد عدّاً»[2].

والمشترك اللفظيّ، في نظر أستاذنا بالنسبة للقرآن الكريم نادر وقليل يقول:

«وأما ما وقع في القرآن الكريم من ذلك المشترك اللفظيّ فقليل جدّاً، وجله إن لم يكن كله مما نلحظ فيه الصلة المجازية كالعين للباصرة ولعيون الأرض.

ويندر أن تصادفنا كلمة مثل: «أمة» التي استعملت في القرآن بمعنى جماعة من الناس، وبمعنى الحين في قوله تعالى: ﴿وادّكر بعد أمّة﴾[3] وبمعنى الدين في قوله تعالى: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة﴾[4].

في حين أن كلمة مثل: «الخال» التي اشتهر أمرها في كتب المشترك اللفظيّ لم يرد لها إلا معنى واحد، وكلمة الإنسان رغم استعمالها في القرآن ٦٥ مرة ليس لها إلا معنى قرآني واحد، وكلمة الأرض التي تذكر دائماً في المشترك اللفظي وردت في القرآن أكثر من ٥٠٠ مرة بالمعنى المألوف وحده»[5].

* * *

---

(١) في القاموس: الأرض: الزّكام.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٥.

(٤) سورة الزخرف: آيات ٢٢، ٢٣.

(٥) دلالة الألفاظ: ٢١٥.

(أ) رأي ومناقشة:

الواقع أن قضية المشترك اللفظي في اللغة العربية من حيث القلة والكثرة تناولها قدماء اللغويين، ولم يفت السيّوطيّ أن يسجلها في كتابه: «المزهر» مبيناً أن المشترك اللفظي من الطبعي أن يقع في اللغة، ويزيدها نماء وثروة وقد يساعد المشترك اللفظي على تحقيق أغراض بلاغية يحدّدها الموقف أو المقام.

ومن شأن السيّوطي أنه إذا تناول قضية من القضايا أحاط بجوانبها واستوعب دقائقها بحيث لا يترك للقارىء مجالاً يوقعه في حيرة أو غموضٍ يسبب له اللبس والخفاء.

يقول السيّوطيّ مبيّناً تحديد المشترك اللفظيّ:

«وقد حدّه أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السّواء عند أهل تلك اللغة».

والعلماء في نظرتهم إلى المشترك اللفظيّ مختلفون فمنهم من يقول: إنه ممكن الوقوع، ومنهم من ينكر وقوعه بتاتاً.

والسيوطيّ يميل إلى أنه كثير الوقوع فيقول:

«والأكثرون على أنه ممكن الوقوع لجواز أن يقع إما من واضعين، بأن يضع أحدهما لفظاً لمعنى، ثم يضعه الآخر لمعنىً آخر، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين، وهذا على أن اللغات غير توقيفية.

وإمّا من واضع واحد لغرض الإبهام على السّامع حيث يكون التصريح سبباً للمفسدة، كما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ

وقد سأله رجل عن النبي ﷺ، وقت ذهابهما إلى الغار: مَنْ هذا؟ قال: هذا رجل يهديني سواء السبيل».

ويؤكد السيّوطي في المزهر أن الأكثرين أيضاً «على أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ».

بل إن السيّوطي يتجاوز مسألة الخلاف في المشترك اللفظي من حيث وقوعه أو عدم وقوعه فيقرر أن المشترك اللفظي واجب الوقوع من حيث المنطق والعقل فيقول:

«ومن الناس من أوجب وقوعه، لأن المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية، فإذا وزّع لزم الاشتراك»[1].

ودلل السيّوطيّ على المشترك اللفظي بكثرة الأمثلة التي أوردها له نكتفي منها بذكر بعضها كدليل على كثرة وقوع المشترك اللفظيّ.

* * *

(ب) أمثلة من المشترك اللفظي في ضوء اللغة:

*** في الجمهرة:**

العمّ: أخو الأب، والعمّ: الجمع الكثير، قال الراجز:

يا عامر بن مالك يا عمّا أفنيت عمّاً وجبرت عمّا

فالعمّ الأول أراد به: يا عمّاه، والعمّ الثاني: أراد به أفنيت قوماً وجبرت آخرين.

* * *

(١) انظر هذه النصوص في المزهر: ١/٣٩٦.

* **وفي الجمهرة أيضاً:**

للنّوى مواضـع: النوى: الدار، والنوى: النيّة، والنوى البعد.

* * *

* **وفي الصحاح:**

الأرض المعروفة ــ وكلّ ما سفل فهو أرض.

والأرض: أسفل قوائم الدابة.

والأرض: النفضـة والـرعـدة. قال ابن عبـاس: في يوم زلـزلة: أزلـزلت الأرض أم بـي أرْض.

والأرض: الزكام.

والأرض: مصدر أُرِضتْ الخشبة تؤرض أرضـاً فهي مأروضـة إذا أكلتها الأرض.

* * *

* **قال السيّوطيّ:**

ومن الألفـاظ المشتركـة في معان كثيـرة لفظ العين، قـال الأصمعيّ في كتاب: «الأجناس»: العين: النقد من الدراهم والدنانيـر ليس بعرض، والعين: مـطر أيام لا يقلـع، والعين: عين الإنسـان التي ينظر بهـا، والعين: عين البئر وهو مخرج مائها، والعين: القناة التي تعمل حتى يـظهر مـاؤها، والعين: عين الميزان، وهو ألا يستوي[1] الخ.، وهناك مئات من الكلمات التي تحمل معنى المشترك اللفظي سجلها السيوطي في مزهره، ونكتفي منهـا بما ذكـرنا لتكـون دليلاً على ما نقول.

---

(١) انظر المزهر: ١/ ٣٧٠، ٣٧١.

(ج) رأي ابن درستويه:

ينكر ابن درستويه وقوع المشترك اللفظي، لأن «اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد الآخر، لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتغطية»[1].

وينقض ابن درستويه حجة مَن يرى وجود المشترك اللفظي في اللغة مبيناً أن هذا لا يسمى مشتركاً لفظياً عند التحليل الدقيق، والتفصيل البين فيقول، وقد ذكر لفظة: «وجد» واختلاف معانيها:

«هذه اللفظة من أقوى حجج من يزعم أن من كلام العرب ما يتفق لفظه ويختلف معناه، لأن سيبويه ذكره في أول كتابه وجعله من الأصول المتقدمة، فظن من لم يتأمل المعاني، ولم يتحقق الحقائق أن هذا لفظ واحد قد جاء لمعان مختلفة، وإنما هذه المعاني كلها شيء واحد، وهو إصابة الشيء خيراً كان أو شراً، ولكن فرّقوا بين المصادر، لأن المفعولات كانت مختلفة، فجعلوا الفرق في المصادر بأنها أيضاً مفعولة، والمصادر كثيرة التصاريف جداً، وأمثلتها كثيرة مختلفة، وقياسها غامض، وعللها خفية، والمفتشون عنها قليلون، والصبر عليها معدوم، فلذلك توهم أهل اللغة، أنها تأتي على غير قياس، لأنهم لم يضبطوا قياسها ولم يقفوا على غورها»[2].

* * *

وفي رأيي أن اللغة كائن حيّ يتطور كما تتطور الأحياء، وفي كل طور تتخذ زيّاً جديداً، وثوباً فريداً، وذلك بإعطاء اللفظ الواحد معاني جديدة

---

(1) المزهر: ١/٣٨٥.

(2) المرجع نفسه: ٣٨٤.

لم تكن تعرف هذه المعاني في الطور الأول للغة، لأنه لا يعقل في طور النشأة أن تضع اللغة للفظة الواحدة معاني مختلفة، وإنما لكل لفظة معنى معين، فعند تطوّر اللغة، وتنوّع البيئات التي تتعامل معها أخذت هذه اللفظة دلالات أخرى، ومعاني متعدّدة تبعاً لتطوّرها كما بينا في الأمثلة القرآنية والأمثلة اللغوية الأخرى.

حقاً إن ابن درستويه يرجع هذه المعاني المتعدّدة للصيغ الصرفية، أو بسبب المصادر التي تدل على المفعولات، والمفعولات بطبيعتها متغيرة، فكلمة «وجد» لم يفد معاني مختلفة إلا بسبب العوارض التصريفية، فيقال: «وجد الشيء وُجْداناً: إذا عثر عليه، ووجد عليه موْجدة: إذا غضب ووجد به وَجْداً إذا تفانى في حبه»[1].

ولست مع ابن درستويه في هذا الرأي فكثير من المعاني المختلفة لا علاقة لها إطلاقاً بالصيغ التصريفية أو بالمصادر اللغوية.

• ومعظم ما سجلته من صور المشترك اللفظي لا يرتبط بصيغ تصريفية أو مصادر لغوية: ولا أدل على ذلك من هذه النصوص الآتية: كلمة: غروب تشعبت معانيها، وليس فيها عوارض تصريفية مثل كلمة: «وجد» كما يدعي ابن درستويه.

قال الشاعر:

يا ويح قلبي من دواعي الهوى	إذ رحل الجيران عند الغُروب
أتبعتهم طِرْفي وقد أزمعوا	ودمع عينيّ كفيض الغُروبْ
كانوا وفيهم طَفَلَة حرّة	تفترّ عن مثل أقاحي الغروبْ

(1) انظر: دراسات في فقه اللغة، للدكتور صبحي الصالح: ٣٠٣.

فالغروب الأول: غروب الشمس، والثاني: جمع غَرْب، وهو الدّلو العظيمة المملوءة، والثالث: جمع غَرْب: وهي الوهاد المنخفضة[1].

ومثل ذلك ما أنشده سلامة الأنباري في شرح المقامات:

لقد رأيت هذريا جلْسا يقود من بطن قديد جَلْسا
ثم رقى من بعد ذاك جَلْسا يشرب فيه لبناً وجَلسا
مع رفقة لا يشربون جلسا ولا يؤمّون لهم جَلْسا[2]

جلس الأول: رجل طويل، والثاني: جبل عال، والثالث: جبل، والرابع: عسل، والخامس: خمر، والسادس: نجد.

وما لي أذهب بعيداً وقد وردت بعض الأحاديث الشريفة التي وقع فيها المشترك اللفظيّ:

من ذلك: «كذب عليكم الحجّ، وكذب عليكم العمرة، وكذب عليكم الجهاد ثلاثة أسفار كذبْن عليكم».

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «يا أيها الناس كذب عليكم الحج»، والمعنى في كل ذلك: عليكم الحج، فهو أسلوب إغراء ومن الشعر:

وردت كلمة كذب في قول خداش بن زهير العامري، وهو جاهلي:

كذبْتُ عليكم أوعدوني وعلِّلوا بيَ الأرضَ والأقوامَ قِردانَ مَوْظِبا[3]

---

(١) علق في هامش المزهر بأن المعنى الثالث لم نجده في كتب اللغة التي بين أيدينا.

(٢) انظر المزهر: ١/٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) معناه كما في اللسان: كذب: «أي عليكم بي وبهجائي إذا كنتم في سفر واقطعوا بذكرى الأرض وأنشدوا القوم هجائي يا قردان موظب»، وانظر المزهر ١/٣٨٣.

فسّره أبو زيد في النوادر بقوله: معنى كذبت عليكم: أي عليكم بي[1]، ومعنى ذلك أن كلمة: كذب أخذت معنىً آخر غير المعنى المتبادر إلى الذهن منها، وليس في هذه الكلمة مصدرية أو علل تصريفية، على أن الرأي الفيْصل في هذه القضية من وجهة نظري هو رأي أبي علي الفارسيّ الذي لم يغال في إنكار المشترك اللفظي كما غالى ابن درستويه لأنه نظر إلى هذه القضية في ضوء الواقع اللغوي، فاللغات يحتك بعضها ببعض فتتداخل، ومن ثمّ فإن هذا المشترك اللفظي من وجهة نظره ضرورة لغوية يقول:

«اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي ألّا يكون قصداً في الوضع ولا أهلاً ولكن من لغات تداخلت، أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنى، ثم تستعار لشيء فتكثر وتصير بمنزلة الأصل»[2].

فلله درّ الفارسيّ فقد وضع النقاط على الحروف في هذه القضية، فقد تنطق قبيلة بكلمة لمعنى، وتأتي قبيلة أخرى، وتنطق بهذه الكلمة ذاتها لمعنى آخر وحينما جمعت اللغة، وسجلت في المعاجم لم يضع اللغويون في اعتبارهم أن ينسبوا لكل قبيلة المعنى الذي تعنيه هذه الكلمة، وإنما كان همهم جمع الكلمات مع جمع المعاني التي تحتملها بغض النظر عن مصادر هذه المعاني، وبذلك أصبحت الكلمة الواحدة ذات معان متعدّدة.

وقد تكون الكلمة الواحدة ذات معنى واحد، ثم تستعار هذه الكلمة

---

(١) انظر هذه النصوص في المزهر: ١/١٨٢، ١٨٣.

(٢) المخصّص: ٢/٣٥٩، نقلاً عن «دراسات في فقه اللغة»، للدكتور صبحي الصالح، ص٣٠٣، ٣٠٤.

لمعنى آخر بسبب موقف من المواقف الكلامية، فتكثر المعاني الجديدة الناشئة عن طريق الاستعارة، وتكون بمعنى الزمن بمنزلة الأصل. وتداخل اللغات علاقته بالمشترك اللفظي علاقة وطيدة، وقد تحدّث عنه السيّوطي في المزهر فقال: قال أبو زيد: الألْفَتِ في كلام قيس: الأحمق، والألْفت في كلام تميم: الأعسر.

وقال الأصمعي: السليط عند عامة العرب: الزيت، وعند أهل اليمن: دهن السمسم»[1].

ويستدل الدكتور صبحي الصالح على وقوع المشترك اللفظي في اللغة العربية بسبب تطور المعاني، وتباين المواقف بقول بالي (bally).

«الكلمات لا تستعمل في واقع اللغة تبعاً لقيمتها التاريخية فالعقل ينسْى خطوات التطور المعنوي التي مرّت بها، إذ أسلمنا بأنه عرفها في يوم من الأيام، وللكلمات دائماً معنى حضوري محدود باللحظة التي تستعمل فيها، ومفرد خاص بالاستعمال الوقتي الذي تستعمل فيه»[2].

* * *

ونكتفي بما ذكرت من المشترك اللفظي، لننتقل إلى عكسه وهو الترادف في القرآن الكريم لتكمل صورة الترادف بأبعادها كما كملت لنا صورة المشترك اللفظي بجوانبها المختلفة.

□ □ □

---

(١) المزهر: ١/٣٨١.

(٢) دراسات في فقه اللغة: ٣٠٥.

(٣)
الترادف في القرآن الكريم

يحدّد السيّوطي المترادف في كتابه: «المزهر» تحديداً علميّاً دقيقاً حتى لا يختلط بغيره عند تعدّد الدلالات، وينقل في مجال تعريفه نصّاً للإمام فخر الدين حيث وضع النقاط على الحروف في تحديد معنى المترادف، والفرق بينه وبين الصفة والفرق بينه وبين التوكيد، والفرق بينه وبين التابع فيقول:

«قال الإمام فخر الدين: هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد» قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحدّ، فليسا مترادفين، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم، فإنهما دلّا على شيء واحد، لكن باعتبارين: أحدُهما على الذّات، والآخر على الصّفة.

والفرق بينه وبين التوكيد: أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر، كالإنسان والبشر، وفي التوكيد يفيد الثاني تقوية الأول.

والفرق بينه وبين التابع: أنّ التابع وحده لا يفيد شيئاً كقولنا: عطشان نطشان».

* * *

(أ) آراء اللغويين في ظاهرة الترادف:

* رأي ابن فارس:

يتفق رأي ابن فارس مع بعض اللغويين الذين ينكرون وقوع الترادف في اللغة، وكل ما ورد من المترادفات ليس مترادفاً بل هو من المتباينات التي تتباين بالصفات، فليس هناك ترادف بين الإنسان والبشر، لأن الإنسان وضع له هذا اللفظ باعتبار النسيان، والبشر وضع له هذا اللفظ باعتبار أنه بادي البشرة.

وكذلك الخندريس، والعُقار، فإن الأول باعتبار العتق، والثاني باعتبار عقر الدّنّ لشدّتها[1].

ويرى تاج الدين السبكي أن هذا المذهب قد اختاره أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه الذي ألّفه في فقه اللغة والعربيّة، وسنن العرب وكلامها، ونقله عن شيخه أبي العباس ثعلب.

ويبدو أن تاج الدين السبكي لم يطلع على ما كتبه ابن فارس في كتابه، وإنما نقل هذا الرأي عن ابن فارس من كتاب ابن الصلاح الذي نقل من كتاب ابن فارس ما يتعلق بالمترادفات.

قال تاج الدين السبكي: «وهذا الكتاب [أعني كتاب ابن فارس السابق الذكر][2] كتب منه ابن الصلاح نكتاً منها هذه، وعلقت أنا ذلك من خط ابن الصلاح والسيّوطي أكثر حظاً من «التاج» فقد وقع على كتاب ابن فارس،

---

(١) انظر المزهر: ١/٤٠٣.

(٢) المزهر: ١/٤٠٣.

ونقل منه ما نقل: يقول السيّوطي: «قلت قد رأيت نسخة من هذا الكتاب مقروءة على المصنف، وعليها خطه، وقد نقلت غالب ما فيه في هذا الكتاب»[1] [يعني المزهر].

* أما عبارة ابن فارس في قضية الترادف، وأنه يرى أن اللغة لا تنطوي على هذا اللون من الظواهر اللغوية فهي:

«يسمّى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السيف ـ المهند ـ الحسام، والذي نقوله في هذا أنّ الاسم واحد وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى»[2] وليس الأمر مقصوراً على الأسماء، فإن الأفعال كذلك، وإن بدت من أول وهلة أنها مترادفة، ولكن مع تدقيق النظر، وتعميق الفكر، وتحليل المعنى نجد أنه ليس هناك ترادف، وأن لكل فعل من الأفعال التي يظن أنها مترادفة له معنى آخر، يقول ابن فارس:

«وكذلك الأفعال نحو: مضى وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام وهجع، قالوا: ففي قعد معنىً ليس في جلس، وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب» ويوضح ابن فارس مذهبه في تفصيل أدق حينما يقول:

«إن في «قعد» معنًى ليس في «جلس»، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد وأخذه المقيم والمقعد، وقعدت المرأة عن الحيض، ثم نقول: كان مضطجعاً

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه: ٤٠٤.

فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس، لأن الجلْس المرتفع، والجلوس ارتفاع عما هو دونه، وعلى هذا يجري الباب كله»[1].

* رأي من يجيز وقوع الترادف في اللغة:

يرى هؤلاء أنه لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى كما يرى المنكرون «لما أمكن أن يُعبَّر عن شيء بغير عبارة، وذلك أنا نقول في: «لا ريب فيه»: لا شك فيه، فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلما عبّر عن هذا علم أن المعنى واحد».

ويستدل هؤلاء أيضاً بأن الشاعر يأتي: «بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيداً ومبالغة كقوله:

* وهند أتى من دونها النّأى والبعد *

قالوا: فالنأى هو البعد»[2].

ويبدو أن هذين المذهبين تركا أثراً واضحاً في بعض القضايا التي احتدم فيها النقاش بين أبي علي الفارسيّ ومعاصره ابن خالويه يحدثنا العلامة عز الدين بن جماعة في شرح «جمع الجوامع»: حكى الشيخ القاضي أبو بكر بن العربيّ بسنده عن أبي عليّ الفارسيّ قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: احفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ له

(١) المرجع نفسه والصفحة.
(٢) المزهر: ١/٤٠٤.

إلا اسماً واحداً، وهو السيف، قال ابن خالويه: فأين المهند، والصارم، وكذا، وكذا؟ فقال أبو عليّ: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصّفة»[1].

ينهي الشيخ عز الدين بن جماعة هذه القضية برأي وسط يوفق فيه بين الرأيين، ويجمع بين المذهبين فيقول:

«والحاصل أنّ من جعلها مترادفة ينظر إلى اتحاد دلالتها على الذّات ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى، فهي تشبه المترادفة في الذات، والمتباينة في الصّفات»[2].

ومن حقنا أن نتساءل: أين رأي السيّوطيّ في هذه القضية؟ نعم، إنه بسط الآراء، ونقل نصوص المنكرين والمؤيدين والموفقين بين الرأيين.

وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إن السيّوطيّ كان يرى رأي المؤيدين لوقوع الترادف في اللغة، نلمس ذلك من فوائده التي سجلها في مزهره مبيّناً الأسباب التي تدعو إلى وقوع الترادف في اللغة، وهي فوائد ذات قيمة علميّة تتفق مع ما تقتضيه طبيعة اللغة من اتساع وتطوّر، فكما أن اللغة تجيز المشترك اللفظي، فإنها لا تنكر الترادف في أساليبها وألفاظها ومعانيها.

استمع إلى السيّوطي يقول ما نصه:

«لوقوع الألفاظ المترادفة سببان:

أحدهما: أن يكون من واضعين، وهو الأكثر بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين، والأخرى الاسم الآخر للمسمّى الواحد من غير أن تشعر

---

(١) المزهر: ١/٥٠٥.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

إحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان، ويخفى الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر، وهذا مبنيّ على كون اللغات اصطلاحيّة.

الثاني: أن يكون من واضع واحد وهو الأقل، وله فوائد:

منها: أن تكثر الوسائل أي الطرق إلى الإخبار عمّا في النفس فإنه ربما نسى أحد اللفظين أو عسر عليه النطق به، وقد كان بعض الأذكياء في الزمن السالف ألثغ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بحرف الراء، ولولا المترادفات تعينه على قصده لما قدر على ذلك.

ومنها: التوسّع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة في النظم والنثر، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع والقافية، والتجنيس والترصيع وغير ذلك من أصناف البديع، ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ»[١].

ولم ينس السيّوطيّ أن يبيّن لنا أشهر من ألّف في المترادفات فقال: «ممن ألف في المترادفات العلامة مجد الدين الفيروزأبادي صاحب القاموس ألف فيه كتاباً سماه: الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف، وألف ابن خالويه كتاباً في أسماء الأسد، وكتاباً في أسماء الحيّة»[٢].

* * *

(ب) آراء اللغويين المحدثين في الترادف:

لقد شن أستادنا الدكتور إبراهيم أنيس حملة ضارية على هؤلاء الذين ينكرون الترادف، ويرون أن المترادفات عند التحليل اللغوي متباينة، وإذا

---

(١) المزهر: ١/٤٠٦.

(٢) المزهر: ١/٤٠٧.

تباينت اختفى التّرادف، إنهم وضعُوا فروقاً لغوية بين الألفاظ المترادفة فكل مترادف يحمل معنى يختلف عن معنى المترادف الآخر والفروق بين المترادفات تعني عدم وقوع هذه المترادفات.

وقد وجه أستاذنا الدكتور أنيس نقده اللاذع لهذه الفروق حينما قال: «نتشكك في كثير من تلك الفروق التي ساقها هؤلاء المؤلفون، ولا نكاد نرى في كتب هؤلاء العلماء شواهد أو نصوصاً قديمة نستدل منها على ما يمكن أن يكون بين الدلالات من فروق، وأغلب الظن أن ما التمسُوه من تلك الفروق لم يكن إلا من وحي خيالهم أو لعلهم قد عزّ عليهم أن يروا تلك الكثرة من الألفاظ المترادفة في اللغة العربية، وحسبوها مما يشوّه اللغة أو يوقع فيها اللبس والإبهام، فعمدوا إلى بعضها وفرّقوا بين دلالاتها دون أن يكون لهم فيما صنعوه أي سند من نصوص اللغة واستعمالاتها».

ويصب جام نقده على أبي هلال العسكري في كتابه المشهور: «الفروق اللغوية» فيقول: «يحاول بهذه أن يلتمس فروقاً دقيقة بين مدلولات بعض الألفاظ المترادفة دون سند من نصوص أو شواهد.

وليس عمله في هذا الكتاب إلا عمل الأديب صاحب الخيال الخصيب الذي يرى في الأمور ما لا يراه غيره، ويلتمس من ظلال المعاني ما لم يخطر على ذهن أصحاب اللغة من القدماء»[1].

والرأي الذي يميل إليه أستاذنا الدكتور أنيس هو نقد مبالغة القائلين بالترادف وحشدهم هذه المترادفات في مؤلفاتهم أمثال أبي الحسن الرّماني في كتابه المسمّى: «الألفاظ المترادفة» فقد عقد نحو ١٤٢ فصْلاً، وخصص

---

(١) انظر دلالة الألفاظ: ٣١٦.

كل فصل لإحدى الدّلالات، ثم سرد في كل فصل الألفاظ التي تعبر عن دلالته فتراوحت تلك الألفاظ بين ثلاث كلمات مترادفة في فصل، ونحو إحدى وعشرين كلمة، مترادفة في فصل آخر.

ومع اعتدال أبي الحسن في حصر تلك المترادفات لا يكاد الدارس يستعرض ألفاظ الكتاب حتى يتبيّن أن كثيراً منها لا يمت إلى الترادف بصلة وحتى يتضح له أن معظم كلمات الكتاب من ذوات المعاني المجرّدة كالأفعال والأحداث والصفات، ويندر أن تشتمل على الدلالات المحسوسة أو أسماء الأشياء»[1] وكما وجه نقده إلى هؤلاء المكثرين من الترادف وجه نقده أيضاً إلى هؤلاء المنكرين للترادف بوضعهم الفروق بين المترادفات بدون سند من نصوص أدبية شعراً أو نثراً تؤيد هذه الفروق.

ويخلص أستاذنا إلى أن الألفاظ إذا كانت مختلفة الصورة، وبينها فروق «في الدلالة مهما كانت تلك الفروق طفيفة لا يصح أن تعد من المترادفات لأن شرط الترادف الحقيقي هو الاتحاد التام في المعنى، والحكم في هذا مرجعه أولاً وأخيراً إلى الاستعمال لا إلى ما يتكهن به بعض أصحاب المعاجم»[2].

* * *

* **رأي الدكتور صبحي الصالح:**

في كتابه: «دراسات في فقه اللغة» تناول هذه الظاهرة بالدراسة والبحث، وقد أنهى الحديث في هذه الظاهرة بقوله:

---

(١) دلالة الألفاظ: ٢١٩.

(٢) دلالة الألفاظ: ٢١٣.

«ولسنا نريد أن ننكر مع أحمد بن فارس وقوع الترادف، بل نؤثر أن نعتدل في رأينا، فلا ضير علينا إذاً أن نأخذ بمذهب من يقول: في شأن الترادف: «وينبغي أن يحمل كلام من منعه على منعه في لغة واحدة، فأما لغتين فلا ينكره عاقل»(١).

* * *

(ج) الترادف في القرآن الكريم:

يرى الدكتور أنيس أن: «الترادف وقع بكثرة في ألفاظ القرآن الكريم رغم محاولة بعض المفسرين أن يلتمسوا فروقاً خيالية لا وجود لها إلا في أذهانهم للتفرقة بين تلك الألفاظ القرآنية المترادفة»(٢).

والرأي نفسه يراه الدكتور صبحي الصالح حينما نقول: «نقرّ بوجود الترادف في القرآن الكريم، لأنه وقد نزل بلغة قريش المثالية يجري على أساليبها وطرق تعبيرها، وقد أتاح لهذه اللغة طول احتكاكها باللهجات العربية الأخرى اقتباس مفردات تملك أحياناً نظائرها، ولا تملك منها شيئاً أحياناً أخرى، حتى إذا أصبحت جزءاً من محصولها اللغوي فلا غضاضة أن يستعمل القرآن الألفاظ الجديدة المقتبسة إلى جانب الألفاظ القرشية الخالصة القديمة، وبهذا نفسّر ترادف أقسم، وحلف في قوله: ﴿أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾(٣)، وترادف بعث وأرسل في قوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾(٤)، وقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(٥)، وترادف فضّل

---

(١) دراسات في فقه اللغة: ٢٩٩.

(٢) دلالة الألفاظ: ٢١٥.

(٣) سورة المائدة: آية ٥٣.

(٤) سورة الإسراء: آية ١٥.

(٥) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

وآثر في قوله: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾[1]، وقوله: ﴿تالله لقد آثرك الله علينا﴾[2] فقريش كانت تستعمل في بيئتها اللغوية الخاصة أحد اللفظين في هذه الأمثلة الثلاثة وإنما اكتسبت اللفظ الآخر من احتكاكها بلهجة أخرى لها بيئتها اللغوية المستقلة»[3].

* * *

ولأن الترادف في رأي السيّوطي وغيره هو الاتحاد التّامّ في المعنى، وهو الرأي الذي نادى به أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس حيث وجه نقده لكثير من المفسرين الذين يحاولون أن يلتمسوا فروقاً خيالية بين المترادفات القرآنية لا وجود لها إلاّ في أذهانهم فقط، ولعله في ذلك كان مقتفياً أثر السيّوطيّ حيثما عقد في كتابه: «معترك الأقران» فصلاً عنْون له بقوله:

«ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه» وتتبع السيّوطيّ هذه الألفاظ لفظة لفظة مبيّناً الفروق بين هذه الألفاظ من حيث المعاني، وإذا كان الأمر كذلك فالنظر إليها على أنها مترادفة تحكم علميّ لا يقوم على دليل لأن من شأن الألفاظ المترادفة كما قررنا أن تكون تامة الاتحاد في المعنى بحيث تذوب الفوارق بينها، وستتناول هذه الألفاظ بالسّرد كما وردت في «معترك الأقران» لتنير الطريق أمام الدارسين لقضية المترادفات في اللغة.

* * *

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٣.

(٢) سورة يوسف: آية ٩١.

(٣) دراسات في فقه اللغة: ٢٩٩، ٣٠٠.

(أ) الخوف والخشية:

قال السيوطي:

«من ذلك الخوف والخشية، لا يكاد اللّغوي يفرّق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى منه، وهي أشدّ الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية أي يابسة، وهو فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء، أي بها داء وهو نقص، وليست بفوات، ولذلك خصت الخشية بالله في قوله: ﴿وَيَخْشون ربّهم ويخافون سوء الحساب﴾[1].

وفرق بينهما أيضاً بأنّ الخشية تكون من عظم المختشى، وإن كان الخاشي قويّاً والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمراً يسيراً.

ويدلّ لذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدلّ على العظمة، نحو: شيخ للسيِّد الكبير، وخيش: لما غلظ من اللباس، ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله: ﴿من خشية الله﴾[2]، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[3]، وأمّا: ﴿يخافون ربّهم من فوقهم﴾[4] ففيه نكتة لطيفة، لأنه وصف الملائكة، ولما ذكر قوتهم وشدّة خلقهم عبّر عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة، فجمع بين الأمرين، ولما كان ضعف البشر معلوماً لم يحتج إلى التنبيه عليه.

* * *

---

(١) سورة الرعد: آية ٢١.

(٢) سورة البقرة: آية ٧٤.

(٣) سورة فاطر: آية ٢٨.

(٤) سورة النحل: آية ٥٠.

(ب) الشحّ والبخل:

«ومن ذلك الشح والبخل:

والشح: هو أشد البخل، قال الراغب: الشح: بخل مع حِرْص. وفرّق العسكريّ بين البخل والضّنّ: بأن الضّن أصله أن يكون بالعواري والبخل بالهبات، ولهذا يقال: هو ضنين بعلمه، ولا يقال: بخيل، لأن العلم بالعارية أشبه بالهبة، لأن الواهب إذا وهب شيئاً خرج عن ملكه بخلاف العارية ولهذا قال تعالى: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾[1]، ولم يقل ببخيل».

* * *

* السبيل والطريق:

«ومن ذلك السبيل والطريق، والأول أغلب وقوعاً في الخير ولا يكاد اسم الطريق يراد به الخير إلّا مقترناً بوصْف أو إضافة تخلصّه لذلك كقوله تعالى: ﴿يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[2] وقال الراغب: السبيل الطريق التي فيها سهولة، فهو أخصّ».

* * *

(ج) جاء وأتى:

«ومن ذلك جاء وأتى:

فالأول يقال في الجواهر والأعيان، والثاني في المعاني والأزمان ولهذا

---

(١) سورة التكوير: آية ٢٤.

(٢) سورة الأحقاف: آية ٣٠.

ورد في قوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾[1]، ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾[2]، ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾[3].

وأتى في: ﴿أتى أمر الله﴾[4]، ﴿أتاها أمرنا﴾[5].

وأمّا: ﴿وجاء ربّك﴾[6]، أي أمره، فإن المراد به أهوال القيامة المشاهدة، وكذا ﴿فإذا جاء أجلهم﴾[7]، لأن الأجل كالمشاهد ولهذا عبّر عنه بالحضور في قوله: ﴿جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق﴾[8]، لأن الأول العذاب وهو مشاهد مرئيّ بخلاف الحق، وقال الراغب: الإتيان: مجيء بسهولة، فهو أخص من مطلق المجيء ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أتاويّ وأتيّ.

* * *

(د) مدّ وأمدّ:

قال الراغب: أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب نحو: ﴿وأمددناهم بفاكهة﴾[9]، والمدّ في المكروه نحو: ﴿ونمُدُّ له من العذاب مدّاً﴾[10].

* * *

---

(1) سورة يوسف: آية ٧٢.
(2) سورة يوسف: آية ١٨.
(3) سورة الفجر: آية ٢٣.
(4) سورة النحل: آية ١.
(5) سورة يونس: آية ٢٤.
(6) سورة الفجر: آية ٢٢.
(7) سورة الأعراف: آية ٣٤.
(8) سورة الحجر: آيتي ٦٣، ٦٤.
(9) سورة الطور: آية ٢٢.
(10) سورة مريم: آية ٧٩.

(هـ) عمل وفعل:

فالأول لما كان مع امتداد زمان نحو: ﴿يعملون له ما يشاء﴾[1]، ﴿مما عملت أيدينا﴾[2] لأن خلق الأنعام والثمار والزروع بامتداد، والثاني بخلافه نحو: ﴿كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾[3]، ﴿كيف فعل ربك بعاد﴾[4]، ﴿فعلنا بهم﴾[5] لأنها إهلاكات وقعت من غير بطء. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾[6] أي في طرفة عين، ولهذا عبّر بالأول في قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾[7] حيث كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة، وبالثاني في قوله: ﴿وافعلوا الخير﴾[8] حيث كان بمعنى: سارعوا كما قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾[9]، وقوله: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾[10] حيث كان القصد يأتون بها على سرعة من غير توان».

(و) القعود والجلوس:

فالأوّل لما فيه لبث بخلاف الثاني، ولهذا يقال: قواعد البيت، ولا يقال: جوالسه للزومها ولبثها، ويقال: جليس الملك، ولا يقال قعيده،

---

(١) سورة سبأ: آية ١٣.
(٢) سورة يٓس: آية ٧١.
(٣) سورة الفيل: آية ١.
(٤) سورة الفجر: آية ٦.
(٥) سورة إبراهيم: آية ٤٥.
(٦) سورة النحل: آية ٥٠.
(٧) سورة البقرة: آية ٢٥.
(٨) سورة الحج: آية ٧٧.
(٩) سورة البقرة: آية ١٤٨.
(١٠) سورة المؤمنون: آية ٤.

لأن مجالس الملوك يستحب فيها التخفيف، ولهذا استعمل الأول في قوله: ﴿مقعد صدق﴾[1] للإشارة إلى أنه لا زوال له، بخلاف: ﴿تفسَّحوا في المجالس﴾[2]، لأنه يجلس فيه زماناً يسيراً.

* * *

(ز) التمام والكمال:

قد اجتمعا في قوله: ﴿أكملت لكم دينكم * وأتممت عليكم نعمتي﴾[3]، فقيل: الإتمام لإزالة نقصان الأصل، والإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾[4] أحسن من تامّة، لأن التمام من العدد قد علم، وإنما نفى احتمال نقص في صفاتها.

وقيل: تمّ يشعر بحصول نقص قبله، وكمل لا يشعر بذلك.

وقال العسكري: الكمال: اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به، والتمام اسم للجزء الذي يتمّ به الموصوف، ولهذا يقال للقافية: تمام البيت، ولا يقال: كماله، ويقولون: البيت بكماله أي باجتماعه.

* * *

(ح) الإعطاء والإتيان:

قال الخويي: لا يكاد اللغويون يفرّقون بينهما، وظهر لي بينهما فرق ينبىء عن بلاغة كتاب الله، وهو أنّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله

---

(١) سورة القمر: آية ٥٥.
(٢) سورة المجادلة: آية ١١.
(٣) سورة المائدة: آية ٣.
(٤) سورة البقرة: آية ١٩٦.

لأن الإعطاء له مطاوع، تقول: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإتيان: من أتاني فأتيت وإنما يقال: آتاني فأخذت.

والفعل الذي له مطاوع، أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له، لأنك تقول: قطعته فانقطع، فيدلّ على أن فعل الفاعل كان موقوفاً على قبول في المحلّ، لولاه ما ثبت المفعول، ولهذا يصح قطعته فما انقطع، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز: ضربته فانضرب، أو فما انضرب، ولا قتلته فانقتل، ولا فما انتقل، لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحلّ، والفاعل مستقلّ بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإتيان أقوى من الإعطاء.

قال: [والقائل الخوييّ] وقد تفكرت في مواضع من القرآن فوجدت ذلك مراعىً، قال تعالى: ﴿تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾[1] لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلّا من له قوّة، وكذلك قوله: ﴿يؤتى الحكم من يشاء﴾[2]. ﴿آتيناك سبعاً من المثاني﴾[3] لعظم القرآن وشأنه، وقال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[4] لأنه مورود في الموقف مرتحل عنه قريباً إلى منازل العزّ في الجنة، فعبّر فيه بالإعطاء لأنه يترك عن قرب، وينتقل إلى ما هو أعظم منه وكذا: ﴿يعطيك ربك فترضى﴾[5]، لما فيه من

---

(١) سورة آل عمران: آية ٢٦.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٦٩.
(٣) سورة الحجر: آية ٨٧.
(٤) سورة الكوثر: آية ١.
(٥) سورة الضحى: آية ٥.

تكرر الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كل الرّضا، وهو مفسّر أيضاً بالشفاعة، وهي نظير الكوثر في الانتقال بعد قضاء الحاجة منه.

وكذا. ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾[1] لتكرّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات حتى يعطو الجزية لأنها موقوفة على قبول منّا، وإنما يعطونها عن كرْه»[2].

* * *

وهكذا يضع السيّوطيّ النقاط على الحروف في قضية الترادف في اللغة على أن الذي يجب أن يقال هنا: إن السيّوطي أشبع القول في الترادف حينما تناوله في كتابه: «المزهر» على حين ترك الحديث عنه في كتابه: «معترك الأقران» مكتفياً منه بما ذكره من الكلمات القرآنية السابقة التي يظن أنها من المترادف، وليست منه.

□ □ □

---

(١) سورة طه: آية ٥٠.

(٢) انظر هذه النصوص في: «معترك الأقران»: ٣/٦٠٢ ـ ٦٠٦.

(٤)
غـــريب القـــرآن

يعرف الزركشي غريب القرآن بقوله: «هو معرفة المـدلول»[١] والرافعي في كتابه: «إعجاز القرآن» يوضـح الغريب القرآني بقوله: «في القرآن الكـريم ألفـاظ اصطلـح على تسميتها بالغـرائب، وليس المـراد بغـرابتهـا أنهـا منكـرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن الكريم منزه عن هذا جميعه وإنما اللفـظة القريبـة ها هنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التـأويل بحيث لا يتسـاوى في العلم بهما أهلها وسائر الناس»[٢].

ويبـدو أن تعريفـ الـرافعيّ للغـريب القـرآني على طـولـه لا يخـرج عن الجملة القصيرة التي وضعها الـزركشي لتعريفـ غـريب القرآن: «وهـو معرفـة المدلول» ومعرفة المدلول لا يتساوى في العلم به سـائر النـاس، ولا أدلّ على ذلك من أن الصحابة رضي الله عنهم على عهد رسول الله ﷺ كانـوا يرجعـون إليـه في معرفـة مدلـول الكلمـات القـرآنيـة التي صعب عليهم أن يقفـوا على دلالتها «ففي عهده نـرى أعرابيـاً يسألـه في معنى بعض ألفاظ القـرآن في مثل قـوله تعـالى: ﴿ولم يلبسوا إيمـانهم بظلم﴾[٣] قـائلاً: وأينـا لم يـظلم نفسـه،

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢٩١/١.

(٢) إعجاز القرآن، لمصطفى صادق الرافعي: ٧٤.

(٣) سورة الأنعام: آية ٨٢.

وفسّره النبـي ﷺ بالشرك، واستشهد عليه بقوله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[١] ولسنا مع ابن خلدون الذي يقـرّر في مقدمتـه: «إن القرآن الكـريم نزل بلغـة العـرب، وعلى أساليب بـلاغتهم فكلهم كانـوا يفهمون ويعلمـون معـانيـه في مفرداته وتراكيبه»[٢]، لأنه فات ابن خلدون أن العرب جميعاً ليسـوا على درجة واحـدة من الفصاحـة، وإلاّ فما الـذي يحمل ذلـك الصّحابـي على أن يسـأل الرسول عليه السلام في معنى: «الظلم».

وفي رأيـي أن ابن قتيبة أصاب المحزّ في كتابه: «المسائل» حيثما تناول هذه القضية فقـال: «العرب لا تستـوي في المعرفـة بجميـع ما في القـرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض، والدليل عليه قـول الله عـز وجل: ﴿ومـا يعلم تأويله إلاّ الله والـراسخون في العلم﴾[٣]، ثم قـال ابن قتيبة: «ويدل عليـه قول بعضهم: يـا رسول الله، إنـك لتأتينا بالكـلام من كـلام العـرب، مـا نعـرفـه ونحن العـرب حقّـاً، فقـال: إنّ ربـيّ علّمني فتعلّمت»[٤].

وقـريب من قول ابن قتيبـة ما ذكـره ابن تيميـة في مقـدمتـه في «أصـول التفسير» حيث قال: «يجب أن يعلم أن النبـي ﷺ بيّن لأصحابه معـاني القرآن كما بين لهم ألفاظـه، فقولـه تعالى: ﴿لتبيِّن للناس ما نـزل إليهم﴾[٥] يتناول هذا، وهذا»[٦].

---

(١) سـورة لقمان: آيـة ١٣؛ وانظر أثـر القـرآن في تـطور النقـد العـربـي، لمحمـد زغلول سلام: ٢٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٣٦٧، المطبعة الأزهرية.

(٣) سورة آل عمران: آية ٧.

(٤) المسائل لوحة ٤، نسخة مصورة.

(٥) سورة النحل: آية ٤٤.

(٦) مقدمة أصول التفسير: آية ٥.

وقدّم لنا السيّوطيّ دراسة طيبة عن غريب القرآن في كتبه: «الإتقان» و«معترك الأقران»، و«المزهر»، ففي الإتقان: يدخل إلى غريب القرآن بعد مقدمة موجزة يبين فيها لماذا نحن في حاجة إلى معرفة هذا الغريب، والسيّوطيّ في هذه المقدّمة معلّم يعطي القاعدة التي تنير الطريق وتوضح السبيل نحو هذا الغريب فيقول في التمهيد لقضيّة الغريب: «وإنما احْتِيجَ إلى الشروح لأمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنِّف، فإنه لقرته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز فربما عَسُر فهم راده، فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدلّ على المراد من شرح غيره له.

ثانيها: إغفاله بعض تتمات المسألة أو شروط لها اعتماداً على وضوحها أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه.

ثالثها: احتمال اللفظ لمعان كما في المجاز والاشتراك، ودلالة الالتزام، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه.

وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السهو والغلط، أو تكرار الشيء أو حذف المبهم، وغير ذلك، فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك.

وبعد هذه المقدمة التي جعلها مدخلاً لقضية الغريب في القرآن الكريم، يتناول السيّوطيّ هذه القضية بالشرح والتحليل فيقول:

«إذا تقرر هذا فنقول: إن القرآن إنما نزل بلسان عربيّ في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أمّا دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم

بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾[1] فقالوا: وآينا لم يظلم نفسه؟ ففسّره النبيّ ﷺ بالشرك واستدلّ عليه بقوله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[2]، وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير فقال: ذلك العرض، وكقصة عديّ بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود، وغير ذلك مما سألوا عن آحادٍ منه، ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير.

ومعلوم أن تفسيره، بعضه يكون من قبل الألفاظ الوجيزة، وكشف معانيها، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض»[3].

(أ) مصادر الغريب القرآني:

على أن السيوطي يضع أيدينا على مصادر الغريب القرآني في التراث الإسلاميّ فيقول في «الإتقان»:

أفرده بالتصنيف خلائق لايحصون، منهم أبو عبيدة، وأبو عمر الزاهد وابن دريد، ومن أشهرها كتاب العزيزي فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة يحرّره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري، ومن أحسنها المفردات للراغب، قال ابن الصلاح: وحيث رأيت في كتب التفسير: قال أهل المعاني فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج والفراء، والأخفش

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٢) سورة لقمان: آية ١٣.

(٣) الإتقان: ١١٣/١.

وابن الأنبـاري»[1]. ويؤكـد السيّـوطي أن الغـريب يجب ألا يخـوض فيـه الخـائضون إلا بعـد «التثبّت والرجـوع إلى كتب أهـل الفن، وعـدم الخـوض بالظن، فهذه الصحابة وهم العرب العـرباء، وأصحـاب اللغة الفصحى، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناهـا، فلم يقولـوا فيها شيئاً»[2].

ويضرب السيّوطي الأمثلة على ذلك بقوله: إن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وفـاكهة وأبًّا﴾[3] فقـال: «أي سماء تـظلني، وأي أرض تقلني، إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتـاني أعرابيـان يختصمـان في بئر، فقـال أحدهمـا: أنا فـطرتها، يقـول: أنا ابتـدأتهـا، وعن ابن عبـاس أيضاً قـال: كل القـرآن أعلمه إلّا أربعـاً: غسلين، وحنـانـاً، وأوّاه، والرّقيم.

وعنه أيضاً قـال: ما كنت أدري مـا قولـه: ﴿ربنا افتـح بيننـا وبين قومنـا بـالحق﴾[4] حتى سمعت قـول بنت ذي يـزن: تعال أفـاتحـك، تـريـد أخاصمك»[5].

* * *

---

(١) الإتقان: ١/١١٣.

(٢) الإتقان: ١/١١٣.

(٣) سورة عبس: آية ٣١.

(٤) سورة الأعراف: آية ٨٩.

(٥) الإتقان: ١/١١٤.

(ب) ما جاء بغير لغات أهل الحجاز فهو من الغريب:

والسيّوطي في كتابه: «معترك الأقران» يرجع في الغريب إلى الكلمات والألفاظ التي وردت بغير لغة الحجاز، كأن الغريب عند السيوطي هو الكلمات القرآنية التي ليست حجازية، فقد عقد فصلاً في هذا الكتاب بعنوان: «ما في القرآن بغير لغة الحجاز».

ذكر السيّوطي في هذا الفصل لغات قبائل غير قرشية متعددة، فقد سجل لكل قبيلة الكثير من الكلمات، واكتفي في هذا الفصل بذكر نماذج محدودة بحيث اقتصر على كلمة واحدة لكل قبيلة من القبائل التي ذكرها السيّوطي.

* * *

(ج) نماذج من لغات القبائل غير الحجازية:

* ﴿وأنتم سامدون﴾[1]: عن ابن عباس: الغناء، وهي لغة يمانيّة.
* ﴿ونادى نوح ابنه﴾[2]: عن محمد بن عليّ: هي بلغة طيء: ابن امرأته.
* ﴿أعصر خمراً﴾[3] قال: عنباً بلغة أهل عمان، يسمون العنب خمراً.
* ﴿أتدعون بعلاً﴾[4]: ربّاً بلغة أزد شنوءة.
* ﴿الوزر﴾[5]: ولد الولد بلغة هذيل.

---

(١) سورة النجم: آية ٦١.
(٢) سورة هود: آية ٤٢.
(٣) سورة يوسف: آية ٣٦.
(٤) سورة الصافات: آية ١٢٥.
(٥) سورة القيامة: آية ١١.

* ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾[1]: أفلم يعلم بلغة هوازن.
* ﴿فباءوا﴾[2]: بلغة جرهم: استوجبوا.
* ﴿رفث﴾[3]: جماع: بلغة مدلج.
* ﴿تسيمون﴾[4]: ترعون: بلغة خثعم.
* ﴿نحلة﴾[5]: فريضة: بلغة قيس بن عيلان.
* ﴿حفدة﴾[6]: أَخْتان: بلغة سعد العشيرة.
* ﴿فجاجاً﴾[7]: طرقات: بلغة كندة.
* ﴿ربيون﴾[8]: رجال: بلغة حضرموت.
* ﴿وطفقا﴾[9]: عمدا: بلغة غسّان.
* ﴿إملاق﴾[10]: جوع: بلغة لخم.
* ﴿حصرت﴾[11]: ضاقت.
* ﴿أمة﴾[12]: نسيان: بلغة تميم.

---

(١) سورة الرعد: آية ٣١.
(٢) سورة البقرة: آية ٩٠.
(٣) سورة البقرة: آية ١٩٧.
(٤) سورة النحل: آية ١٠.
(٥) سورة النساء: آية ٤.
(٦) سورة النحل: آية ٧٢.
(٧) سورة نوح: آية ٢٠ وغيرها.
(٨) سورة آل عمران: آية ١٤٦.
(٩) سورة الأعراف: آية ٢٢.
(١٠) سورة الأنعام: آية ١٥١.
(١١) سورة النساء: آية ٩٠.
(١٢) سورة يوسف: آية ٤٥.

* ﴿طائره﴾[1] : عمله، بلغة أنمار.

* ﴿لينة﴾[2]: النخلة، بلغة أوس»[3] .

* * *

(د) التثبّت في تفسير غريب القرآن:

وفي المزهر: عقد السيّوطي فصلاً عن التثبّت في غريب القرآن، فقال: «وليتثبت كل التثبت في تفسير غريبٍ وقـع في القرآن». . .

قـال ابن دريـد في «الجمهـرة» قـال أبـو حـاتم: سـألت الأصمعيّ عن الصـرف والعدل[4] فلم يتكلم فيـه. قال ابن دريـد: سألت عنـه عبد الـرحمن فقال: الصرف: الاحتيال والمتكلّف، والعَـدْل: الفِدى والمثل، فلم أدر ممّن سمعه؟.

* * *

قـال في الجمهرة في بـاب ما اتفق عليـه أبـو زيـد وأبـو عبيـدة: وكـان الأصمعيّ يشدّد فيه ولا يجيز أكثره مما تكلمت به العرب من فعلت، وأفعلت، وطعن في الأبيات التي قالتها العرب، واستشهد على ذلك.

فمن ذلـك: بان لي الأمـر وأبان، ونـار لي الأمـر وأنـار، إلى أن قـال: وسرى وأسرى، ولم يتكلم فيه الأصمعيّ لأنه في القـرآن، وقد قـرىء ﴿فأسْـر بأهلك﴾[5] و ﴿فاسر بأهلك﴾.

---

(١) سورة الإسراء: آية ١٣.

(٢) سورة الحشر: آية ٥.

(٣) انظر معترك الأقران: ١/١٩٩ ــ ٢٠٤.

(٤) «صرفا»، سورة الفرقان: آية ١٩؛ و «عدل» سورة البقرة: آية ١٢٣.

(٥) سورة هود: آية ٨١ وغيرها.

قال:

وكـذلـك لم يتكلم في عصفت وأعصفت لأن في الـقـرآن: ﴿ريح عاصف﴾[1] وقال:

﴿تلّه﴾[2]: إذا صرعه، وكـذلك فسّـر في التنزيـل والله أعلم بكتابـه، وقـال: زعم قوم من أهـل اللغة أن «الـلاّت» التي كـانت تعبـد في الجـاهليـة صخرة كان عنـدها رجـل يلُتّ السّويق للحـاج، فلما مـات عبدت، ولا أدري ما صحة ذلك، ولو كان ذلك كذلك لقالوا: اللاّتّ يا هذا؟ وقد قـرىء: اللاّت والعـزّى بـالتخـفيف والتشـديـد، والله أعلم، ولم يجيء فـي الشـعـر إلا بالتخفيف، قال زيد بن عمرو بن نفيل:

تـركت الـلات والعـزى جميعـاً كـذلـك يـفـعل الجلْد الـصبـورُ

وقد سمّوا في الجاهلية: زيـد اللات [بـالتخفيف] لا غير، فـإن حملت هذه الكلمة على الاشتقاق لم أحب أن أتكلم فيها».

* * *

وقد جاء في التنزيل: ﴿حسباناً من السماء﴾[3]، قال أبو عبيدة: عذاباً، ولا أدري ما أقول في هذا[4]؟.

* * *

---

(١) سورة يونس: آية ٢٢.

(٢) سورة الصافات: آية ١٠٣.

(٣) سورة الكهف: آية ٤٠.

(٤) المزهر: ٢/٣٢٥ ـ ٣٢٨.

(هـ) رأي ومناقشة:

الحقيقة أن منهج الأصمعيّ في تفسير غريب القرآن منهج متزمّت مع أنه كما يقول ابن الأنباري: «كانت له يد غراء في اللغة لا يعرف فيها مثله، وفي كثرة الرّواية»[1].

ومن مواقف الأصمعيّ الطريفة والغريبة معاً ما رواه ابن الأنباري أيضاً في قصة حدثت بين الأصمعيّ وبين أبي عبيدة معمر بن المثنّى. «قال التّوزيّ: بلغ أبا عبيدة معمر بن المثنى: أن الأصمعيّ يعيب تأليفه كتاب: «المجاز في القرآن الكريم»[2]، وأنه يفسّر ذلك برأيه، فسأل أبو عبيدة عن مجلس الأصمعيّ: في أيّ يوم هو؟ فركب حماره، ومرّ بحلقة الأصمعيّ، فنزل عن حماره، وسلّم عليه، وجلس عنده وحادثه، ثم قال له: يا أبا سعيد: ما تقول في الخبز؟ قال الأصمعيّ: هو الذي نخبزه ونأكله، فقال له أبو عبيدة: فسّرت كتاب الله برأيك! قال الله تعالى: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً﴾[3].

فقال له الأصمعيّ: هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسّره برأيي، فقال له أبو عبيدة: وهذا الذي تعيبه علينا: كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسّره برأينا، ثم قام فركب حماره وانصرف»[4].

ونحن لا نميل إلى رأي الأصمعيّ في هذا، لأنه رأي متزمّت يقوم على

---

(١) نزهة الألباب: ٧٦.

(٢) المجاز لأبي عبيدة طبع بتحقيق محمد فؤاد سزكين.

(٣) سورة يوسف: آية ٣٦.

(٤) نزهة الألباب: ٧٣.

المبالغة في الحرص، ؛ واتقاء الشبهات، والعلم لا يزكو ولا يتطوّر إذا كان شعاره هذا المنهج الأصمعيّ.

وفي رأيي أن كل من كملت له أدوات التفسير التي تساعده على أداء مهمته الخطيرة، وتأخذ بيده في هذا الطريق الشائك الوعر، ليصل إلى مرفأ السلام ــ من حقه أن يفسّر، ومن حقه أن يجتهد، ومن حقه أن يدلي بدلوه بين الدّلاء ومن أهمّ هذه الأدوات: اتقان اللغة العربيّة والتبحّر فيها:

وهذا الإتقان بطبيعة الحال يقتضي الإلمام بالشعر العربيّ فهو الديوان الذي يرجع إليه ليزيل اللبس، ويوضح الغامض، والقرآن الكريم نزل بهذه اللغة ليتحدى أرباب القول، ومن ثم عجزوا عن الإتيان بمثله مع أن لغته ليست غريبة عنهم.

وقد عرف ابن عباس لهذا الشعر منزلته، لأن منهجه في التفسير يقوم على أنه إذا خفى عليه الحرف مٌن القرآن رجع إلى ديوانها فالتمس معرفة ذلك منه، يحدّثنا طلحة بن عمرو عن عطاء قال: سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر، فقيل له: ما زنيم؟ من قوله تعالى: ﴿عتلّ بعد ذلك زنيم﴾[1].

قال ابن عباس:

زنيم تداعاه الرجال زيادة ... كما زيد في عرض الأديم الأكارع[2]

وعن ابن أبي مليكة قال: سئل عن ابن عباس عن ﴿والليل وما وسق﴾[3] فقال: وما جمع، ألم تسمع قول الشاعر:

---

(١) سورة القلم: آية ١٣.

(٢) مقدّمتان في علوم القرآن: ١٩٨.

(٣) سورة الإنشقاق: آية ١٧.

إن لـنـاقـلاً نـصـاً حـقـائـقـا مستـوسقـات لـو يجـدن سـائقـا[1]

وعن أبـي صالـح قال:

سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت في قوله: ﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض﴾[2].

ومـا الناس بـالناس الـذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت أعرفُ[3]

وما ذكرناه نزر يسير مما استشهـد به ابن عبـاس من الشعر على غـريب القرآن الكريم ويعلق الإمام السيّوطيّ في الإتقـان على هذه المسـائل المتعدّدة التي ساقها ابن عباس على الاستشهاد بالشعر في مجال غريب القـرآن فيقول: «هذا آخر مسائل نافـع بن الأزرق[4]، وقد حذفت منها يسيراً نحو بضعـة عشر سؤالاً، وهي أسئلة مشهـورة أخرج الأئمـة أفراداً منهـا بـأسـانيـد مختلفـة إلى ابن عباس.

وأخـرج أبو بكـر الأنباري في كتـاب «الـوقف والابتـداء» منهـا قـطعـة، وأخرج الطبراني في معجمه الكبير منها قطعة»[5].

وغريب القرآن الكـريم كان مـوضـع دراسة علمـاء الإسلام عبـر القرون ولم يلتـزموا فيـه هذا المنهـج الصـارم الذي فـرضه الأصمعيّ على نفسـه في مجاله ومن أشهر من ألف فيه أبو عبيدة معمـر بن المثنى في كتابـه: «المجاز»

(١) مقدّمتان في علوم القرآن: ١٩٨.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٤٨.

(٣) المرجع السابق: ١٩٩.

(٤) وهي المسـائل التي سـأل فيهـا ابن عبـاس حـول بعض الكلمـات الغـريبـة في القـرآن الكريم.

(٥) الإتقان: ١/١٣٣.

وابن قتيبة في كتابه: «تفسير غـريب القرآن»، ولأبـي حيـان الأندلسيّ كتـاب: «لغات القرآن».

وقد عقد ابن النديم في كتابه الفهرست باباً خاصّاً للمؤلفـات الإسلامية التي دارت حول غريب القرآن الكريم.

وخيـر الكتب التي ألفت في غريب القـرآن الكريم، وغـريب الحـديث الشريف كتاب: «الغريبين» للهرويّ المتوفى سنة ٤٠١هـ.

وقد بيّن الهروي في مقـدمة كتـابه السبب الحـامل لـه على التأليف في هذا الحقل فيقول:

«فإن اللغة العربيّة إنمـا يحتاج إليهـا لمعرفـة غريبـي القـرآن، وأحاديث الرسول عليه السلام، و الصحابة والتابعين، والكتب المؤلفة فيهـا جمّة وافـرة وفي كل منها فائدة، وجمعها متعب، وحفظها عن آخرها معجز، هذا والأعمار قصيـرة، والعلوم كثيـرة، والهمم سـاقـطة، والـرغبـات نـائمـة، والمستفيـد مستعجل، والحفظ كليل، والحرص قليل، فمتى اشتغل المرء بتحصيلها كلها بعدت عليه الشّقـة، وعظمت الكلفـة، وفات الوقت، واستولى الضّجر، فقبض عن النـظر فيما هـو أولى بـالنـظر، وكنت أرجـو أن يكـون سبقني إلى جمعهما، وضمّ كل شيء إلى لغته منهما على ترتيب حسن، واختصار كاف، سابق، فكفاني مؤونة الدأب، وصعوبة الطلب، فلم أجد أحداً عمل ذلـك إلى غايتنا هذه، فاستخرت الله ــ عز وجل، وتقدّس ــ فيه، وسألته التوفيق له ليكون تـذكرة لنفسي مـدى حياتي، وأثـراً حسناً لي بعـد وفاتي ــ إن شـاء الله، وبه الثقة». وبين منهجـه فيه بقوله:

وكتابـي هذا لمن حمل القرآن، وعـرف الحديث، ونـظر في اللغة، ثم

احتاج إلى معرفة غرائبهما، وهو موضوع على نسق الحروف المعجمة، نبدأ بالهمزة فنفيض بها على سائر الحروف حرفاً حرفاً، ونعمل لكل حرف باباً، ونفتتح كل باب بالحرف الذي يكون آخره الهمزة ثم الباء ثم التاء إلى آخر الحروف»[1].

* * *

وهكذا استطاع السيّوطيّ أن يقدم لنا هذه الألوان من الدراسات اللغوية في حقل الكلمات القرآنية، وهي دراسة جمّة أنارت الطريق أمام الدارسين لكتاب الله تعالى من خلال الكلمات اللغوية في ظلال القرآن الكريم، وهو بهذه الدراسة كشف الغموض عن كثير من القضايا اللغوية التي عرض لها العلماء، وتناولها اللغويون بالبحث والاستيعاب والدراسة الجادة، والحوار البناء.

□ □ □

(١) انظر المقدمة: ٥، ٦.

الفصل الرابع

كلمات لغوية في إطار قضايا فكرية

يتحفنا السيّوطيّ في كتابه العظيم: «الأشباه والنظائر» بمجموعة من الكلمات اللغوية التي كانت محور نقاش، ومجال حوار بين اللغويين، ولولا استيعاب السيّوطيّ لهذه القضايا وتسجيلها في كتبه لفاتنا الشيء الكثير من هذه القضايا اللغوية التي أينعت ثمارها في كتبه، وبخاصة كتابه «الأشباه والنظائر».

وبحثي هذا لا يستوعب كل ما ورد في الأشباه والنظائر من هذه القضايا لأنها كثيرة تطل بوجهها في معظم صفحات الكتاب، وإنما أكتفي فقط بذكر نماذج لنتبين من خلالها كيف استطاع السيّوطي أن يستخرج هذه القضايا من كتب تراثية معظمها مفقود من المكتبة العربية، إنه الرجل الذي فتن بالتراث الإسلاميّ والعربي، واستوعبه الاستيعاب الدقيق ليختار منه ما يقدمه في كتبه، وما يعرضه في مؤلفاته من فوائد وقضايا تمتع النفس، وتغذي العقل، وتوسع الفكر ومن هذه الكلمات اللغوية التي عرضها السيّوطي من خلال قضايا احتدم فيها الجدل بين العلماء الكلمات الآتية:

* * *

(أ) يأَمَل:

قضية «يأمل» من القضايا التي استفتى فيها ابن الشجريّ في أماليه بعد أن استفتى في هذه القضية ملك النحاة المكنّى بأبي نزار. والسؤال هو: «ما تقول السادة النحويون في يأمل» «هل يأمل ومأمول، وما يتصرّف منهما جائز»؟.

* * *

*** إجابة أبي نزار المتوفى ٥٦٨هـ:**

قال ما نصه: «وأما أمل يأمُل فلا يجوز، لأن الفعل المضارع إذا كان على: «يفعُل» بضمّ العين كان بابه أن ماضيه على فعَل بفتح العين، و: «أمَل» لم أسمعه فعلاً ماضياً. فإن قيل: يقدّر أنّ: «يأمل» فعل مضارع، ولم يأت ماضيه، كما أن: «يذر» و«يدع» كذلك.

قلت: قد علم أن: «يذر» و«يدع» على هذه القضيّة جاءا شاذّين فلو كان معهما كلمة أخرى شاذّة لنقلت نقلهما، ولم يجز إلاّ أن تنقل وما سمعنا أن ذلك ملحق بما ذكرنا، فلا يجوز «يأمُل» ولا «مأمول» إلاّ أن يسمعني الثقة «أمَل» خفيف الميم.

*** إجابة أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي المتوفى ٤٦٥هـ:**

ويبدو أن هذا السؤال وجّه إلى الشيخ أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي قبل عصر ابن الشجري وأبي نزار، فأجاب بقوله: «وأمّا أمَل يأمُلُ فهو آمل والمفعول: مأمول، فلا ريب في جوازه عند العلماء، وقد حكاه الثقاة منهم الخليل وغيره، والشاهد عليه كثير، قال بعض المعمّرين:

المرء يأمُل أن يعيش وطول عيش قد يضرّه[1]

وقال الآخر:

ها أنا ذا آملُ الخلود وقد أدرك عقلي ومولدي حُجُرا[2]

وقال كعب بن زهير:

* والعفو عند رسول الله مأمولُ *

وقال المتنبي وهو من العلماء بالعربيّة:

* حرموا الذي أمَلوا *

* * *

* إجابة ابن الشجريّ المتوفى ٥٤٢هـ:

وهذا السؤال وجّه إلى ابن الشجري مع إجابة أبي نزار عنه، فقال ابن الشجري: نسخة جوابي: «وأما قوله في «أمل ويأمل» أنهما لا يجوزان عنده، لأنه لم يسمع في الماضي منهما: «أمَل» خفيف الميم، فليت شعري، ما الذي سمع من اللغة ووعاه حتى أنكر أن يفوته هذا الحرف، وإنما ينكر مثل هذا من أنعم النظر في كتب اللغة كلها، ووقف على تركيب: «أمل» في كتاب: «العين للخليل بن أحمد»، وكتاب: «الجمهرة» لأبي بكر بن دريد، و«المجمل» لأبي الحسين أحمد بن فارس، و«ديوان الأدب» لأبي إبراهيم الفارابي، وكتاب: «الصحاح» لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري النيسابوريّ، وغير ذلك من كتب اللغة، فإذا وقف على

---

(١) نسب في أمالي المرتضى: ١/٢٦٦ إلى النابغة الجعديّ.

(٢) نسب في أمالي المرتضى: ١/٢٥٣ إلى الربيع بن ضبع الفزاريّ.

أمّهات كتب هذا العلم التي استوعب كل كتاب منها اللغة أو معظمها، فرأى أن هذا الحرف قد فات أولئك الأعيان، ثم سمع قول كعب بن زهير:

* والعفو عند رسـول الله مأمـول *

سلّم لكعب، وأذعن لـه صاغـراً قميئـاً، فكيف يقـول: من لم يتـولّـج سمعه عشرة أسطر من هذه الكتب التي ذكرتها لم أسمع: «أمَل» ولا أسلّم أن يقال: مأمول؟.

* * *

وأما قوله: «إنه لا يجوز: يأمُل ولا مأمول إلاّ أن يسمعني الثقة آمل فقول من لم يعلم، فإنهم قالوا: فقير»، ولم يقولوا في ماضيه: «فقر» ولم يأت فعاله إلاّ بالزيادة، أفتراه أن ينكر أن يقال: فقير لأن الثقة لم يسمعه: «فقر»؟ فلعله يجحد أن يكونوا قد نطقوا بفقير، وقد ورد به القرآن في قوله تعالى: ﴿إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾[1] وهل إنكار فقير إلاّ كإنكار مأمول، بل إنكار فقير عنده أوجب لأنهم لم يقولوا في ماضيه إلا «افتقر»، و«مأمول» قد نطقوا بماضيه بغير زيادة».

ويختم ابن الشجري تعليقه على إجابة أبي نزار بقوله:

«ومن العجب أن هذا الجاهل يقدم على تخطئة، سلف النحويين وخلفهم وتخطئة الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، فيعترض على أقوال هؤلاء وأشعارها بكلام ليس له محصول، ولا يؤثر عنه أنه قرأ مصنّفاً في النحو إلا مقدّمة من تأليف عبد القاهر الجرجاني، قيل: إنها لا تبلغ أن تكون في عشرة أوراق.

---

(١) سورة القصص: آية ٢٤.

وقيل: إنه لا يملك من كتب النحو واللغة ما مقداره عشرة أوراق وهو مع هذا يردّ بقحته على الخليل وسيبويه، إنها لوصمة اتّسم بها زماننا هذا، لا يبيد عارها، ولا ينقضي شنارها.

وإنما طلب بتلفيق هذه الأهواس أن تسطّر فتوى، فيثبت خطه فيها مع خط غيره فيقال: أجاب أبو نزار بكذا، وأجاب غيره بكذا فقد أدرك ـ لعمر الله ـ مطلوبه، وبلغ مقصوده، ولولا إيجاب حق من أوجبت حقه، والتزمت وفاقه، واحترمت خطابه لصنت خطيّ ولفظي عن مجاورة خطه ولفظه»[1].

* * *

(ب) الاستطاعة ـ القدرة ـ القوّة:

ويتحفنا السيّوطيّ بكتاب أبي الحسن الصيمريّ إلى أبي بكر بن دريد في معنى الاشتقاق فيجيبه ابن دريد بكتاب فيه فوائد جمة تدور حول الاشتقاق وحول بعض الأسماء التي يتهم فيها بعض النقاد اللغويين العرب بأنها توقع أحياناً أسماء على ما لا معنى تحته.

يقول السيّوطيّ: وذكرت في هذا الفصل رقعة أبي الحسن الصيمريّ المتكلم إلى أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد في هذا المعنى وجوابها منه، فأحببت أن أتحفك بهما لما فيهما من الفوائد من حسن سؤال السائل، وإصابة المجيب في الجواب»[2].

---

(١) انظر هذه القضية بنصوصها في الأشباه والنظائر: ١٥٩/٥ ـ ١٧٤ وقد سقتها بتصرّف.

(٢) الأشباه: ١٤٦/١.

وكما أتحفنا السيّوطي في الأشباه بهذا السؤال، وبالإجابة عليه أتحف القراء بدوري بنقل ما سطره السيّوطي في الأشباه في هذا الكتاب الذي قمت بإعداده، مبيناً أثر السيّوطي في الدراسات اللغوية.

* * *

* كتاب أبي الحسن الصيمري إلى ابن دريد:

كتب أبو الحسن الصيمريّ إلى أبي بكر بن دريد:

«أنت أدام الله عزّك، كنف الأدب، وإليك مفزع أهله فيما أشكل من اللغة واستعجم من معاني العربيّة.

وقد زعم قوم من أهل الجدل: أن العرب تسّمت بأسماء تأدّت إليها صورها، ولم يعرفوا هم معانيها وحقائقها، فقيل لهم: أتعرفون ما تحت تلك الأسماء التي لم يعرفوا حقائقها ومجازها، والاتساع فيها، فقالوا: لا.

هل يجوز عندك أن توقع العرب اسماً على ما لا معنى تحته يعرفونه هم؟ وقالوا: إن العرب لم تدر: ما الاستطاعة؟ وما القدرة؟ وما القوة؟ فما عندك في ذلك؟ وتفضل بتعريفنا، هل في كلامهم إذا قيل لأحدهم: بماذا استطعت قطع هذا الحبل، وهذا الطب أو هذا اللحم؟ أن يقول: بسكين أو بشفرة أو سيف.

وهل يقولون: فلان قوي على فلان بماله أو بسيفه أو برمحه؟.

وهل عندك أن قول الله عز وجلّ: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[1] إنه أراد به الراحلة والزادّ دون صحة بدنه أو أراد به صحة بدنه والزاد والراحلة؟.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

وأفتنا في معنى قول الله عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾[1] هل القوّة ورباط الخيل مما استطاعوه أو غير ذلك؟ وإن حضرك ــ أيدّك الله ــ شواهد من الشعر أو من مطلق كلام العرب بينت ذلك لنا، وإن أتبعته سؤالاً يذكر ما قيل: إن العرب لم تعرف شيئاً من حقائق الأعراض، وهل جائز عليهم أن يسمّوا شيئاً لا يعرفون حقيقته أم لا؟ ومَنَنْتَ به علينا ــ إن شاء الله تعالى ــ وأطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك، وأيد أهل الأدب بك، وحرس نعمته عليك ومواهبه لديك».

* * *

* إجابة أبي بكر بن دريد:

«وقفت ــ أدام الله عزك ــ على متضمّن كتابك، فأما المسألة الأولى فقد بينتها في أول كتاب: «الاشتقاق» وهي قول من زعم من أهل الجدل أن العرب تسمت أسماء تأدّت إليها صورها، ولم تعرف العرب حقائقها، وإنما تعلق هؤلاء الزاعمون بما ذكره الليث بن المظفر في كتاب: «العين» عن الخليل أنه سأل أبا الدقيش: ما الدقيش؟ فقال: لا أدري إنما أسماء نسمّيها لا نعرف معناها، وهذا جهل من الليث، وادّعاء على الخليل، وذلك أن العرب قد سمت دقشاً ثم حقروه فقالوا: دُقَيش ثم صرفوه من فَعَل إلى فَنْعل فسمّوا: دَنْقَشاً.

وكل هذه أسماء فلو لم يكن للدقش أصل في كلامهم، ولم يقفوا على حقيقته لم يجيئوا به مكبّراً، ومحقّراً، ومصرّفاً من فعل إلى فنْعل، والدقيش: طائر أغيبر أريقط معروف عندهم، قال غلام من العرب أنشده يونس ومكوزة:

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦٠.

يـا أَمَتَـاهُ أخصبي العـشيّـه قد صدتُ دقشاً ثم سند ريّـه[1]

وليس قول الليث مقبولاً على أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ــ نضر الله وجهه ــ والدليل على ذلك تخليط اللث في كتاب: «العين»، واحتجاجه بالأشعار الضعيفة ثم بأشعار المولدين نحو أبي الشمقمق ومن أشبهه.

* * *

وأما قولك ــ أيدك الله: أيجوز عندك أن توقع العرب اسماً على ما لا معنى له فهذا خُلْف من الكلام، ليس في كلامهم كلمة جدّ ولا هزل إلاّ وتحتها معنىً من فنّها، ولو تكلف ذلك متكلّف حتى يستقصيه لأوضح منه ما خفي.

* * *

فأمّا قولهم: إن العرب لم تدر ما الاستطاعة؟ وما القدرة؟ وما القوّة؟ فكيف يكون ذلك؟ وقد جاء في الشعر الفصيح عن المطبوعين دون المتكلفين:

إذا لـم تستطع شيئاً فـدعـه وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقال القطاميّ وهو حجة:

أمور لو تدبّرها حليم لهيّب أو لحذّر ما استطاعا

وهذا يكثر ــ أدام الله تأييدك.

* * *

(١) انظر تخريج البيت، وما قيل فيه في هامش الأشباه: ١٤٨/٥ بتحقيق المؤلف.

فأما القول في أنهم إذا قيل لأحدهم: بم استطعت قطع الحبل أو هذا الطّنب أن يقول: بسكين أو شفرة أو سيف فللاستطاعة عندهم موضعان: موضع بفضل قوّة وشدّة بطش، وموضع بآلة نحو: السيف، والشفرة وما أشبههما.

وفي الجملة أنهم لا يؤمنون بالاستطاعة إلاّ إلى الإنسان دون سائر الحيوان ولهم ترتيب في لغتهم يقولون: فلان يستطيع أن يرقى هذا الجبل، وهذا الجمل مطيق للسفر، وهذا الفرس صبور على مماطلة الحُضْر[1]، وكذلك قول الله عز وجلّ: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[2] إنما قال: «استطاع» لما وقع الخطاب على: «من» وهي تقع عن من يعقل خاصة فلزم هذا الخطاب المستطيعين الحج بأي ضرب من الضروب كان مطلقاً بزاد وراحلة، وصحّة بدن، وكيفما وجد السبيل إليه.

هكذا ظاهر الخطاب ومخرجه على مذاهب كلام العرب.

وأما قوله عز وجلّ: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾[3] فليس يراد بالقوّة ها هنا قوّة الأجسام التي بها يكون بطشها وتصرّفها واقتدارها على ما تحاول، لأن ذلك ليس إلى الناس الزيادة فيه ولا النقصان منه، وإنما الله يزيد في قوّة الأجسام، وينقص منها كما يريد تبارك وتعالى، وإنما أريد به: والله أعلم ــ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة من الأشياء التي تتقوّون بها على العدوّ: سلاح وآلة، وأصحاب وأنصار وغير

---

(١) الحُضْر بالضم: ارتفاع الفرس في عدوه.

(٢) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٣) سورة الأنفال: آية ٦٠.

ذلك، ومما تفلّون به حرب عدوكم، وتعلون به عليهم، وكـذلك قـوله: «ومن رباط الخيل، أي وأعدوا لهم من الخيل ما تقوّون به عليهم».

وهذه القوة ورباط الخيل ممّا كانوا يستطيعون إعداده، ويمكنهم فـأمروا بإعداده للعدوّ ليرهبوهم وليخيفوهم.

وهذا باب يطول جداً، وفيما أومأت إليه دليل على ما سواه مما يتصل به.

* * *

وأما سؤالك ـــ أيدك الله ـــ عن مذهب العرب في العَرَض، وهـل كانـوا عارفين به أم كيف سمّوا شيئاً لا يعرفون حقيقته؟ فقد ذكرت لك ـــ أيدك الله ـــ أنه ليس في كلامهم مـن اسم هزل ولا جدّ إلا وتحتـه معنىً من جنسه ولكنهم لم يكونوا يذهبون بالعرض مـذهب المتفلسفة، ولا طـريق أهل الجـدل، وإن كـان مذهبـه فيه لمن تـدبّر مـطابقاً لعـرض الفلاسفـة والمتكلّمين في حقيقته، وذلك أنهم يذهبون بالعرض إلى أسماء، منهـا أن يضعوه مـوضـع ما اعتـرض لأحدهم من حيث لم يحتسبه كما يقال: علقت فـلانة عَـرضاً أي اعتـراضاً من حيث لم أقدّره.

قال الأعشى:

عُلِّقْتُـهـا عَـرَضـاً وعُلِّقَـتْ رجـلاً	غيـري وعلّق أخـرى ذلـك الرّجـل

وقد يضعونه موضـع لا يثبت فلا يدوم كقولهم: كان ذلك الأمر عن عرض ثم زال.

وقـد يضعونـه موضـع لا يثبت فـلا يدوم كقـولهم: كان ذلـك الأمـر عن عرض ثم زال.

وقد يضعونه موضـع ما يتصل بغيره ويقوم به.

وقد يضعونه مكان ما يضعـف ويقل، فكأن المتكلمين استنبطوا العـرض من أحد هذه المعـاني، فوضعـوه لما قصـدوا له، وهـو إذا تأملتـه وجدتـه غير خارج عن مذاهب العرب.

وكذلك الجوهر عند العرب إنما يشيرون به إلى الشيء النفيس الجليل، فاستعمله المتكلّمون فيما خالف الأعراض، لأنها أشرف منها وقد ولدت أسماء في الإسلام لم تكن العرب قبله عارفة بها إلاّ أنها غير خارجة عن معاني كلامها، واستفادة معرفتها، إذ كانت على أوضاعها والمعاني التي تفعلها نحو: الكافر، والفاسق، والمنافق.

وإنما اشتقاق الكافر من كفرت الشيء: إذا سترته وغطّيته. والفاسق: من فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها واشتقاق المنافق من النافقاء، وهو أحد جحر اليربوع إلى كثير من ذلك يطول تعداده.

وكذلك في كل زمان وأوان لا يخلو الناس فيه من توليد أسماء يحدث لها أسباب فيقارنونها بينهم بكل لغة ولسان، فليس هذا منكراً، إذا كان ذلك غير خارج عن الأصول المتفق عليها، والمعاني المعقولة بينهم، وفيما ضمنت من كتاب: «الاشتقاق» ما يدلك على ما التمست الوقوف عليه من هذا النحو.

وهذا القول كاف في جواب ما سألت عنه.

وأطال الله بقاءك، وأدام عزك وتأييدك، وأتمّ نعمته عليك وعلى أهل العلم بك، وفيك وعندك»[1]

* * *

هذا الكتاب الذي بعث به أبو الحسن الصيمري إلى أبي بكر بن دريد جزء من المسألة العاشرة من المسائل النحوية وهي إحدى عشرة مسألة في النحو سأل عنها أبو بكر الشيبانيّ أبا القاسم الزجاجيّ في كتاب أنفذه إليه من طبرية إلى دمشق، فكتب إليه أجوبتها.

---

(١) انظر هذه النصوص في الأشباه: ١٤٦/٥ ــ ١٥٢.

والسيّوطي على الرغم من أنه أمتعنا بحسن السؤال من الصيمري وحسن الجواب من أبي بكر بن دريد، فإنه لم يبين لنا المصدر الذي استقى منه هذه المسائل وبخاصة هذا الكتاب الذي أومأت إليه، وهو الخاص بالاشتقاق، وما يتعلق به، وما ردّ عليه ابن دريد في كتاب آخر يزيل الغموض، ويكشف الغمّة، وليس من عادة السيوطي في كثير مما كتب أن يأتي بنص غفلاً من مصدره ولست أدري، ما السبب الحامل للسيوطي على أن يغفل مصادر ما يقول في هذه المسائل؟ أكبر الظن أن السيّوطي عثر على هذه المسائل في أوراق مبعثرة من كتب لا يعرف اسمها أو أنه قرأها من كتاب، واستوعب ما فيها، وساقها بأسلوبه مسجّلاً ما عثر عليه من نصوص مسجلة في رسائل خاصة على هيئة أسئلة تطلب الفتوى لحل مشكلاتها، والإجابة عن مبهماتها.

ومن الحق أن نقول: لولا ما جمعه السيّوطيّ من هذه الرسائل، والفتاوي أو النصوص اللغوية لما استطعنا أن نضع يدنا على هذه الكنوز اللغوية التي يرجع الفضل في ذكرها إلى السيّوطي أوّلاً وآخراً.

* * *

(ج) نهاوش ونهابر:

هاتان الكلمتان تناولهما بالبحث والدراسة أبو نزار الملقب بملك النحاة، وهما من المسائل العشر المتعبات إلى الحشر التي عرضها أبو نزار، ونقلها السخاويّ في: «سفر السعادة»[1].

وهي مسائل تحدّى بها أبو نزار النحاة مبيّناً وجه الصواب فيه، وأن القول ما قاله والرأي ما رآه.

---

(١) الأشباه: ٦/٦٠.

ولطرافة هذه المسائل، وطرافة أجوبتها ساقها السيّوطي في مسائل كتابه: الأشباه، تلك المسائل التي تعدّدت، وشملت من كتابه ما يقرب من ثلاثة أجْزاء بعد التحقيق.

* * *

قال أبو نزار في المسألة الثانية من مسائله العشر: «روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من جمع مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابر»[1].

يسأل عن مادّة هاتين الكلمتين، وزيادتهما، ومكان استعمالهما. فأوّل ذلك أن تعلم أن: «نهوشَا» واحد، فقدر أنه جمع على «نهاوش» وهو من الهَوش بمعنى الاختلاط.

قال: وكذلك: «نهابر»، وهو جمع واحده: نَهْبر، وهو من الهبْر بمعنى القطع المتدارك.

والمعنى: من جمع مالاً من جهات مختلطة لا يعلم جهات حلّها وحرمتها قطعه الله عليه. قال: فإن قيل: ما سمعنا في الواحد: نهبراً ونهوشاً.

قلنا: قد نصّ سيبويه على أن العرب تأتي بجموع لم تنطق بواحدها، ثم قال: إنّ قياس واحد ملامح ومحاسن: ملمحة ومحسّنة، وما سمعنا: بملمحة، وكذلك قدّروا أن واحد أباطيل: إبطيل أو أُبطول وأباطيل جمع لم ينطق بواحده».

* * *

---

(١) انظر حاشية الأشباه: ٦/ ٧٠، حيث تعرضت لمصادر هذا الحديث الشريف.

هذا هو ما حرّره أبو نزار في مادّتي: نهاوش ونهابر، وما نقله السيّوطي من: سفر السعادة للسخاوي في هذه القضية لم يتبيّن لنا فيه: مَنْ الذين تحدّاهم أبو نزار؟ ومن الذي تولّى الرّد عليه.

سكت السيّوطيّ على غير عادته في هذه القضية، فلم يذكر لنا مَن هؤلاء الذين ردّوا عليْه، وكشفوا عواره، ووضّحوا خطأه، وردّوا أغلاطه إلى الصواب، كل ما يذكره السيّوطيّ في هذه القضية أن يبين لنا نقد العلماء لآراء أبي نزار، وإجاباتهم على إشكالاته، وقد اختار صيغة للبناء للمجهول، لأن الناقدين غير معروفين، فيقول: «فأجيب بأن قيل له: أبديت عوارك لمناظرك، وأبرزت مقاتلك لسهام مناضلك.

إن هذه اللفظة تروى على أوجه مختلفة، وجميعها يرجع إلى أصل واحد وعدّة أوجهها أربعة:

يروى: من جمع مالاً من مهاوش بالميم، وهذه هي المشهورة عند العلماء باللغة.

ويروى: من تهاوِش بالتاء وكسر الواو، وقد صححوه أيضاً.

ويروى: من تهاوُش بالتاء، وضمّ الواو، وهو صحيح أيضاً.

ويروى: من نهاوِش بالنون وكسر الواو، وهذه هي التي أنكرها أهل اللغة ولم يثبتوا صحّتها، والظاهر من كلامهم أنها من غلط الرّواة.

وجميع ذلك على اختلاف الرّواية فيه يرجع إلى أصل واحد وهو الهَوش الذي هو الاختلاط، فليس الإشكال في نهاوش من جهة تفسيرها كما ظننته، ولا من جهة كونها جمعاً لواحد لم ينطق به، ألا ترى أن مهاوش ونهاوش هما بمعنى الهوش والاختلاط، وكلاهما جمع لم يستعمل واحده

وإنما الشكل في هذه اللفظة هل هي صحيحة في الاستعمال، معروفة عند أهل اللغة العربيّة أو هي على خلاف ذلك؟.

فهذا الذي كان حقك أن تتبينه وتثبت صحّته.

وإذا صحّ فسّرت حقيقة معناها واشتقاقها، وبيّنت هل هي جمع أو مفرد، وما الزائد منها وما الأصل؟

* * *

فأمّا قولك في: «نهابر» إنه مشتق من الهبر، وهو القطع المتدارك فليس ذلك بالمعروف عند أهل اللغة، وإنما هو مستعار من النّهابر والنهابير، وهي تلال الرمل المشرفة، فسمّيت المهالك بهابر من ذلك ولذلك قال عمرو بن العاص لعثمان بن عفّان رضي الله عنه: إنك ركبت بهذه الأمة نهابر من الأمور فتب عنها»، أراد أنك ركبت بهذه الأمة أموراً شاقة مهلكة، بمنزلة من كلفّتهم ركوب التلال من الرمل، لأن المشي في الرمل يشق على من ركبه.

* * *

وقولك: إن واحد النهابر: نهبر وإن لم ينطق به ليس بصحيح، بل الصحيح أن واحدها: نُهبور على ما ذكره أهل اللغة، لأنهم جعلوا النهابر التي هي المهالك مستعارة من النّهابر التي هي الرمال المشرفة، وواحدها: نهبور.

* * *

وأسأت العبارة بقولك: لا يعرف جهات حلّها وحرمتها، وكان الصواب أن تقول: وحُرْمها، لأنه يقال: حِلّ وحلال، وحُرْم، وحرام.

* * *

وأخطأت أيضاً في تنظيرك: «نهاوش» في كونها جمعاً لواحد لم ينطق به بقولهم: ملامح وأباطيل، وكان حقك أن تنظرها بعباديد[1]، ونحوها مما لم ينطق له بواحد من لفظه، ولا من غير لفظه، ألا ترى أن ملامح لها واحد مستعمل من لفظها وهو: لمْحة.

وكذلك أباطيل واحده المستعمل: باطل.

وكذلك مشابه واحده المستعمل: مَشْبه، وإن كنّا نقدّر أن واحد الجموع من جهة القياس ليس هو هذا المستعمل، إلّا أنه وإن كان الأمر على ذلك فلا بد أن هذه الآحاد لهذه بجموع، وأن هذه الجموع لهذه الآحاد من جهة الاستعمال، ألا ترى أن أبا علي الفارسيّ قال في كتابه: «العضدي»: «هذا باب ما بناء جمعه على غير بناء واحده المستعمل، وذلك: باطل وأباطيل، وحديث وأحاديث وعروض وأعاريض.

ولم يختلف أحد من العلماء في أن أعاريض وأحاديث واحدهما: عروض وحديث من جهة الاستعمال كما أن قولهم: ليال جمع: ليلة من جهة الاستعمال وإن كان في التقدير كأنه جمع: ليلاة.

ولو قلت: إن العرب قد تأتي بجموع لم تنطق بواحدها الذي يجب من جهة القياس لكنت قد سلمت من قولك من الوهم والإلباس.

* * *

ثم أسألك أولاً: ما معنى قولك في صدر مسألتك:

---

(١) العبابيد: الفرق من الناس والخيل الذاهبون في كل وجْه.

وأول ذلك أن تعلم أن نهوشاً واحد قد جمع على نهاوش؟ فإنه كلام لم يستعمله من أهل الجهل والغباوة، إلاّ من ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة»[1].

* * *

وهكذا أمتعنا السيّوطي بهذا البحث القيم في هاتين الكلمتين، وهما من الكلمات النادرة التي يصعب أن تجدها على هذا المستوى من الاستيعاب، وعلى هذا القدْر في البحث، وبهذا التحليل الرائع، والإجابات البارعة في غير كتب السيّوطيّ.

* * *

(د) غيل:

كلمة «غيل» من المسائل العشر المتعبات إلى الحشر، وقد أثارها كمشكلة لغوية أبو نزار، ونقلها السيّوطي في الأشباه، عارضاً رأي أبي نزار فيها، ثم مناقشتها، مع تفنيد رأي أبي نزار فيها، وأنه فهم منها شيئاً وغابت عنه أشياء.

ففي المسألة الثانية من هذه المسائل:

قال أبو نزار: أنشدني شيخي الفصيحي للأعشى:

آنس طِمْلاً من جديلة مشغوفاً بنوه بالسُّمار غُيُل[2]

(١) انظر هذه النصوص في المسألة الثانية: ٦/ ٧٠ ـ ٧٥ من الأشباه.

(٢) لم أجده في ديوان الأعشى على هذه الصورة، والذي في الديوان هو:

إني لعمر الذي خطت منا سمها ... له وسيق إليه الباقر الغُيل

والطمل: الفاص البذي، والجديلة: القبيلة أو الناحية.

فسأل عن: «غيل» فقلت قد جاء مادّتها: ساعد غيل للمتلىء ألا ترى إلى قوله:

* بيضاء ذات ساعدين غيلين[1] *

والسّمار: اللبن كأن يقول: إن بنى هذا الصائد امتلئوا من شرب اللبن إلاّ أن الراجز بناه على فِعال، فقدّر غيلٌ على زنة: حمار وكتاب، ثم جمعه على: غُيُل كما قالوا: حُمُرٌ وكُتُبٌ.

فإن قيل: فما سمعنا: غيالاً! قيل: قد أسلفنا أن العرب قد تنطق بجمع لم يأت واحده، فهي تقدّره، وإن لم يسمع»[2].

* * *

هذه هي إجابة أبي نزار عن سؤال شيخه الفصيحي في مادة «غيل» وردّ على أبي نزار، ولم نعرف من الراد عليه، والناقض لقوله، والهادم لرأيه وكما كانت صيغة الإجابة بالبناء للمجهول في المسألة السابقة كانت صيغة الإجابة أيضاً في هذه المسألة بالبناء للمجهول، وتركنا السيّوطي في حيرة من أمرنا لجهلنا بشخصية هذا الذي ردّ عليه ناقداً قوله ربما كان السيّوطي أيضاً في حيرة من أمر هذا الردّ، ولذلك قال: «وأجيب» وفي رأيي أن السيّوطي وقع على هذه المسائل في: «سفر السعادة» للسخاوي ونقلها برمّتها بدون أن يتصرّف فيها، ولعل السخاوي أيضاً نقلها من مصدر آخر لم تتبين فيه معالم شخصية هذا الذي ردّ على أبي نزار وأسكته.

* * *

---

(١) رجز ورد في اللسان: «غيل».

(٢) الأشباه: ٦/١٠٩ ـ ١١٢.

قال السيوطي:

* «وأجيب بأن يقال له: قد أتعبت الأسماع بلفظك وغلطك، وأزعجت الطباع بخطابك وسقطك.

يا هذا، إن تفسيرك للغُيل بأنهم الذين امتلئوا من شرب اللبن قياساً على الغَيْل وهو الساعدالممتلىءشيء لم يذهب إليه أحد من أهل اللغة، وإنما ذهبوا إلى أن الغيل هو: أن ترضع المرأة ولدها وهي حاملٌ، واسم ذلك اللبن أيضاً: الغيْل، ولم يقل أحد منهم: إن الغيل: هو الامتلاء من شرب اللبن، وإنما فسّرت لفظة «الغيل» في بيت الأعشى على غير هذا، وهو:

إني لعمر الذي خطت مناسمُها تخْدِي، وسيق إليه الباقر الغيُلُ

على وجهين:

أحدهما: أنها الكثيرة من قولهم: غيل: أي كثير، وقيل: الغيل ها هنا: السّمان من قولهم: ساعد غيل: أي سمين.

والغيْل: بمعنى الكثير، وهو المراد في البيت الأول، لأنه يصف هذا الصائد بالفقر، وكثرة الأولاد، وأنهم ليس لهم غذاء إلاّ السّمار، وهو اللبن الرقيق.

وإما قولك: إن «غُيلاً» جمع غيال واحد لم ينطق به فمن أفحش غلطاتك، وأفضح سقطاتك، بل هو جمع: غِيل، والغيل: الماء الكثير، وجمعه: غيُل، ونظيره: سقْف وسقُف.

وكذلك الغِيل: السّمار، واحدها: غيلٌ «أيضاً، وإنما غلطتك في ذلك أن الغالب على فُعُل أن يكون جمعاً لِفِعال أو فعال مثل: حِمار وحُمُر، وقذال وقُذل، فقضيت أن غُيُلاً جمع: غيال.

وأما تفسيرك «السّمار» بأنـه اللبن على الإطلاق فغلط يجـوز على مثلك من أهل التحريف.

وإنما صوابه أن تقول: السّمار: اللبن الرقيق أو اللبن المخلوط بـالماء، لأن تسميـر اللبن هو خلطه بـالماء، فـإن أكثر فيـه الماء سمـوه: «المُضيـح»، وتفسيـر البيت على وجه الصـواب: أنه يصف حمـار وحش أو ثور وحش آنس طملاً أي صائداً، والطمّل: الذئب شبهه به.

يقول: هذا الثور الوحشيّ آنس صائداً له عائلة، وأطفال ليس لهم غذاء إلا اللبن المخلوط بـالماء، فهـو لذلـك أشدّ النـاس اجتهاداً في أن ينـال صيد الثور الوحشيّ ليشبـع به عياله وأولاده.

* * *

(هـ) الإله:

ونختم هذا الفصل، وبه نختم الباب وهو «أثر السيـوطي في الدراسـات اللغوية بتصريف كلمة: «الإله».

وهـذا التصـريف نقله السيّـوطيّ من كتـاب: «المسـائـل» لابن السيــد البطليوسي.

وفي هذه الكلمة دار حوار بين المازني والرياشي، وللمازني رأي جميل في هذه القضية، ولولا هذا الرأي الجميل لما كلف السيّوطي نفسـه نقل هـذه القضية في كتابة الأشباه، لأن السيّـوطي في كل مـا يكتب لا يعنيه إلا الفـوائد والطرائف، والعجائب والغرائب التي يسجلها في كتبه لتكون متعة للناظـرين، وزاداً للدارسين، وفكراً للباحثين.

* * *

قال السيوطي:

حكى أبو القاسم الزجاجيّ: قال أخبرنا أبو إسحاق بن السّري الزجاج قال: أخبرني محمد بن يزيد المبرد، قال: سمعت المازنيّ يقول: سألني الرياشي، فقال لي: لِم نهيت أن يكون الله تعالى: أصله: الإله، ثم خفف بحذف الهمزة كما يقول أصحابك؟.

فقلت: لو كان مخففاً منه لكان معناه في حال تخفيف الهمزة كمعناه في حال تحقيقها لا يتغيّر المعنى، ألا ترى أن الناس والإناس بمعنى واحد، ولما كنت أعقل لقوْلي: «الله» فضل مزيّة على قولي: «الإله».

ورأيته قد استعمل لغير الله في قوله: ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾[1]، وقوله: ﴿آلهتنا خير أم هو﴾[2] ولما لم يستعمل الله إلا للباري تعالى علمت أنه عَلَمٌ وليس بمأخوذ من الإله»[3].

* * *

وبعد، فهذا هو السيّوطيّ اللغوي عرفناه من خلاف ما قدّمناه ذا حس لغوي مرهف بما اختار من نصوص، وما قدمه من قضايا، وما عرضه من أمثلة ومع ذلك فإن بعض الدارسين والباحثين في عصرنا الحاضر يعيبون عليه بأنه ناقل غير مبدع، وهذا في الحقيقة ظلم للرجل، ونقص لفضله، وجحد لمكانته.

الإبداع من وجهة نظري ليس ابتكاراً فحسب على الرغم من أن كلمة

---

(١) سورة طه: آية ٩٧.

(٢) سورة الزخرف: آية ٥٨.

(٣) انظر الأشباه: ٦/٢٢٨.

وأصولاً وحديثاً ولغة إلى طريق العلم والمعرفة ليتزوّد منه الأجيال جيلاً بعد جيل، وزمناً بعد زمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والأمل كبير ـ إن شاء الله ـ أن نتبع هذا الكتاب بكتاب آخر عن: «أثر السيّوطي في الدراسات النحوية» وهو أثر كبير أرجو الله أن يوفقنا لبحثه وأن يمدّنا بعون منه، إنه نعم المولى، ونعم القدير.

عبد العال سالم مكرم
تمّ في تمام الساعة الواحدة
من صباح يوم الأحد ١٧ من رمضان سنة ١٤٠٦هـ
الموافق ٢٥ من مايو سنة ١٩٨٦م بمدينة الكويت



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

(أ)

١ ــ الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السّيوطي، مطبعة البابي الحلبي، طبعة ثالثة، ١٩٥١م.

٢ ــ أدب مصر الإسلامية، للدكتور محمد كامل حسين، مطبعة الوفد.

٣ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، المعروف بابن الأثير، طبع سنة ١٢٨٦هـ.

٤ ــ الإسلام والحضارة العربية، لمحمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثالثة ــ القاهرة، سنة ١٩٦٨م

٥ ــ الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعي، لجلال الدين السيوطي، طبع إحياء دار الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

٦ ــ الأشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين السّيوطي، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، في ستة أجزاء، مطبعة مؤسسة الرسالة ببيروت، طبعة أولى سنة ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٥م.

٧ ــ الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الكتّاني (ابن حجر)، المطبعة الشرفية.

٨ ــ أصول التفسير، لابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام)، تحقيق جميل الشطي، مطبعة الترقي بدمشق.

٩ ــ إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي.

١٠ ــ الاقتراح، لجلال الدين السيوطي، مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، الطبعة الأولى.

١١ ــ أمالي المرتضى (الشريف المرتضى عليّ بن الحسين العلويّ)، تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل، مطبعة دار الكتب.

(ب)

١٣ ــ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، للحافظ ابن كثير، تأليف أحمد محمد شاكر، طبعة ثالثة، مطبعة محمد علي صبيح.

١٤ ــ البداية والنهاية، أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي.

١٥ ــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لبدر الدين محمد بن علي الشوكاني، مطبعة السعادة، طبعة أولى، سنة ١٣٤٨هـ.

١٦ ــ البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشيّ، تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل، مطبعة الحلبي (طبعة أولى).

١٧ ــ بغية الوعاة، لجلال الدين السّيوطي. ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي.

(ت)

١٨ ــ تاريخ آداب العرب، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة.

١٩ ــ تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، مطبعة الهلال.

٢٠ ــ تاريخ الأدب العربي، لحفني ناصف، مطبعة جامعة القاهرة، طبعة ثانية.

٢١ ــ تاريخ اللغات الساميّة، للدكتور إسرائيل ولفنسون، طبع القاهرة، سنة ١٩٢٩م.

٢٢ ــ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السّيوطي، حققه وراجع أصوله: الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف، طبعة ثانية، من منشورات المكتبة العلميّة بالمدينة المنوّرة.

٢٣ ــ التسهيل، لابن مالك، تحقيق الدكتور محمد كامل بركات، نشر دار الكاتب العربي بالقاهرة.

٢٤ ــ التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه، وتصرفت معانيه ليحيى بن سلام، تحقيق: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع.

٢٥ ــ التصريح على التوضيح، للشيخ خالد بن عبد الله الأزهري، مطبعة الحلبي.

٢٦ ــ التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، للأستاذ خطّاب عطية، دار الفكر العربي.

٢٧ ــ التّفسير والمفسّرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، نشر دار الكتب الحديثة.

٢٨ ــ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، تحقيق الأستاذ يوسف العش، طبع دمشق، سنة ١٩٤٩م.

٢٩ ــ ابن تيميّة، للمرحوم الشيخ عبد العزيز المراغي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

(ج)

٣٠ ــ جامع بيان العلم وفضله، للإمام العلاّمة أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، المتوفى سنة ٤٦٣هـ، تصحيح عبد الرحمن حسين محمود ــ دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

٣١ ــ جلال الدين السيوطي: منهجه وآراؤه الكلاميّة، للدكتور محمد جلال أبي الفتوح شرف ــ دار النهضة العربية، بيروت.

٣٢ ــ جمهرة اللغة، لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، المتوفى سنة ٣٢١هـ ــ دار صادر، بيروت.

(ح)

٣٣ ـ الحاوي للفتاوي، لجلال الدين السّيوطيّ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرّمة.

٣٤ ـ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيّوبي والمملوكي، للدكتور عبد اللطيف حمزة ـ دار الفكر العربي، طبعة أولى.

٣٥ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، لجلال الدين السّيوطيّ، بتحقيق محمد أبي الفضل، طبع عيسى البابي الحلبي.

٣٦ ـ حضارة العرب، للدكتور غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة.

٣٧ ـ حضارة العرب في الجاهلية والإسلام، لأديب لحّود، مطبعة بيروت.

٣٨ ـ الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبيّة، للدكتور أحمد أحمد بدوي، مطبعة نهضة مصر.

(خ)

٣٩ ـ خبر الواحد في السّنّة وأثره في الفقه الإسلامي، للدكتورة سهير رشاد مهنا ـ دار الشروق ـ بيروت.

٤٠ ـ خطط الشام، لمحمد كرد علي، المطبعة الحديثة بدمشق، سنة ١٩٢٥م.

٤١ ـ الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلّق بها من الآثار، لتقيّ الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، دار الطباعة المصرية ببولاق، سنة ١٢٧٠هـ.

(د)

٤٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية.

٤٣ ـ دراسات في فقه اللغة، للدكتور صبحي الصالح، الطبعة السادسة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

٤٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني، مطبعة حيدرآباد بالهند، الطبعة الأولى.

٤٥ ـ دلالة الألفاظ، للدكتور إبراهيم أنيس، طبع ١٩٧٦م، مكتبة الأنجلو المصريّة.

٤٦ ـ دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، للأستاذين أحمد الخازندار، ومحمد إبراهيم الشيباني، طبعة أولى سنة ١٩٨٣م ـ مكتبة ابن تيمية.

٤٧ ـ دولة بني قلاوون، للدكتور محمد جمال الدين سرور، مطبعة الاعتماد بمصر.

٤٨ ـ ديوان عديّ بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، دار الجمهور للنشر ببغداد.

(ذ)

٤٩ ـ ذيل الروضتين [في تراجم رجال القرنين السادس والسابع]، لأبي شامة المقدسي: الحافظ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة أولى، سنة ١٩٤٧م.

٥٠ ـ الذيل على رفع الإصر، للإمام عبد الرحمن السخاوي، المتوفى سنة ٩٠٢هـ، تحقيق الأستاذين: د/جودة هلال، والأستاذ محمد محمود صبيح ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(ر)

٥١ ـ الروضتين في أخبار الدولتين، لشهاب الدين المقدسي، مطبعة وادي النيل بالقاهرة.

(س)

٥٢ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، تحقيق الدكتور زيادة ـ مطبعة دار الكتب.

(ش)

٥٣ ـ شذرات الذهب، لأبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبليّ، المتوفى سنة ١٠٨٩هـ، المكتب التجاري للنشر، بيروت.

٥٤ ـ شرح الأشموني، لنور الدين أبي الحسن علي بن محمد الأشمواني الشافعي، مطبعة الحلبي.

٥٥ ـ شرح مختصر تصريف العزي في فن الصرف، لمسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق د/عبد العال سالم مكرم، نشر ذات السلاسل، سنة ١٩٨٣م بالكويت.

٥٦ ـ الشماريخ في علم التاريخ، لجلال الدين السّيوطي، تحقيق د/إبراهيم السامرائي ـ بغداد ـ مطبعة أسعد.

(ص)

٥٧ ـ صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام، لجلال الدين السّيوطي، نشره وعلّق عليه د/علي سامي النشّار، مكتبة الخانجي بمصر.

(ض)

٥٨ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للمؤرخ الناقد شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٥٩ ـ ضحى الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، الطبعة الثانية.

(ط)

٦٠ ـ الطالع السعيد، للإدفوي كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر، المتوفى سنة ٧٤٨هـ. مطبعة الجمالية بمصر.

٦١ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد محمد بن سعد (كاتب الواقدي)، عني بتصحيحه وطبعه إدوارد شيخو، مطبعة ليدن، سنة ١٣٣٢هـ.

٦٢ ــ طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي أبي بكر محمد بن الحسن، المتوفى سنة ٣١٩هـ، طبعة أولى سنة ١٩٥٤، نشر محمد سامي أمين الخانجي.

(ظ)

٦٣ ــ ظهر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، طبعة ثالثة.

(ع)

٦٤ ــ عصر سلاطين المماليك، للأستاذ محمود رزق سليم، المطبعة النموذجية.

(غ)

٦٥ ــ الغريبين: غريبي القرآن والحديث، لأبي عبيد الهروي أحمد بن محمد، المتوفى سنة ٤١٢هـ، تحقيق محمود محمد الطناحي، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(ف)

٦٦ ــ فجر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، طبعة سادسة.

٦٧ ــ فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، للدكتور محمد حاجي ــ منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت.

(ق)

٦٨ ــ القاموس المحيط، للفيروزآبادي.

(ك)

٦٩ ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله، طبع وكالة المعارف باستانبول.

٧٠ ــ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي ــ المطبعة الأميركانية ــ بيروت، سنة ١٩٤٥م.

(ل)

٧١ ـ لسان العرب، لابن منظور.

٧٢ ـ لب الألباب في تحرير الأنساب، لجلال الدين السيوطي، طبع بالأوفست بمكتبة المثنّى ببغداد.

(م)

٧٣ ـ مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنّى، تحقيق محمد فؤاد سزكين، طبعة أولى، سنة ١٩٥٤م، نشر الخانجي.

٧٤ ـ مجلة المجمع اللغوي ـ القاهرة.

٧٥ ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة، والكويت.

٧٦ ـ مختصر تاريخ العرب والتمدّن الإسلامي، لسيد أمير علي ـ تعريب رياض رأفت، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٧٧ ـ المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، للدكتور عبد العال سالم مكرم، نشر دار الشروق، بيروت، طبعة أولى.

٧٨ ـ المزهر، لجلال الدين السّيوطي، تحقيق الأساتذة: محمد أحمد جاد المولى ـ علي محمد البجاوي ـ محمد أبي الفضل إبراهيم، طبع عيسى البابي الحلبي.

٧٩ ـ المسائل، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مصور رقم (٢٠٩٦٧) من مخطوط ـ مكتبة جامعة القاهرة.

٨٠ ـ مصر في فجر الإسلام، لسيّدة إسماعيل الكاشف، دار الفكر العربي.

٨١ ـ مصر في العصور الوسطى، للدكتور علي إبراهيم حسن، طبعة ثانية.

٨٢ ـ مصر في عهد الإخشيديين، للدكتورة سيّدة إسماعيل الكاشف، مطبعة جامعة القاهرة.

٨٣ ــ معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السّيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي ــ طبع دار الفكر العربي ــ القاهرة.

٨٤ ــ معجم الأدباء، لياقوت بن عبد الله الحموي الروميّ البغداديّ، المتوفى سنة ٦٣٦هـ، مطبعة الحلبي.

٨٥ ــ مفتاح السعادة لطاش كبري زادة، طبع دائرة المعارف النظامية ــ الهند.

٨٦ ــ مغني اللبيب، لابن هشام، مطبعة الحلبي.

٨٧ ــ مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد.

٨٨ ــ مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: الحافظ أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، المشهور بابن الصلاح، المتوفى سنة ٦٤٢هـ، من منشورات دار الحكمة ــ دمشق ــ الحلبوني.

٨٩ ــ مكتبة الجلال السُيوطيّ: سجلّ يجمع ويصف مؤلفات السّيوطي، للأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال، طبع الرباط ــ المغرب، سنة ١٩٧٧م.

٩٠ ــ من الدراسات القرآنية، للدكتور عبد العال سالم مكرم، طبع ونشر مؤسسة علي جراح الصبّاح للنشر بالكويت.

٩١ ــ مناهج بلاغيّة، للدكتور أحمد مطلوب، نشر وكالة المطبوعات بالكويت.

٩٢ ــ المنصف على مغني ابن هشام، للشيخ تقي الدين الشمني، نسخة مخطوطة بحوزتي.

(ن)

٩٣ ــ النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي، مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة أولى.

٩٤ ــ نزهة الألبا في طبقات الأدبا، لعبد الرحمن بن محمد الأنباري، طبع سنة ١٢٩٤هـ.

٩٥ ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان، لجلال الدين السّيوطيّ، حرّره الدكتور فيليب حتّي، سنة ١٩٢٧م، المطبعة السورية ـ الأمريكية في نيويورك.

٩٦ ـ نفح الطيب، للمقري، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر.

(هـ)

٩٧ ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السّيوطيّ، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، في سبعة أجزاء، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

(و)

٩٨ ـ وفيات الأعيان، لابن خلّكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، المتوفى سنة ٦٨١هـ، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين، مطبعة السعادة.



فهرس الآيات القرآنية الكريمة

● ● ●

فهرس الحديث الشريف



أقوال منسوبة إلى العرب وبعض الصحابة



شعر الشواهد

	الصفحة
آنس لحملاً من جديلة مشـــغـوفاً بنوه بالسُّمار غيل	٥٧١
يصرعْن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا	٤٥٣
يا أمتاه أخصبي العشيّة قد صدت دقشاً ثم سندريّه	



فهرس الأعلام

* * *

البـاء

* * *

التـاء

* * *

الخاء

* * *

الدال

* * *

الراء

* * *

الزّاي

* * *

اسين

* * *

* * *

الغين

* * *

الفاء



فهرس القبائل



فهرس الأماكن والبلدان

* * *

النون

* * *

الهاء

* * *

الياء

• • •

فهرس المصادر
التي ورد ذكرها في نصوص الكتاب

الهمزة

* * *

الباء

* * *

الـتـاء

* * *

الجيم

* * *

الحاء

* * *

الخاء

* * *

الدّال

* * *

الـذّال

* * *

الـرّاء

* * *

الـزاي

* * *

السـين

* * *

الشـين

* * *

القاف

* * *

الكاف

* * *

اللام

* * *

الميم

* * *

النـون

* * *

الـهـاء

* * *

الـواو

* * *

اليـاء

• • •

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة